الأعمال الكاملة

المجلد الأول

# النظرات - العبرات

مصطفى لطفي المنفلوطي

تحقيق وتقديم

سمير إبراهيم بسيوني

مكتبة جزيرة الورد

# بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الأعمال الكاملة الجزء الأول

المــــــؤلف : مصطفى لطفي المنفلوطي

المحـــــــقق : سمير إبراهيم بسيوني

رقم الإيداع :



الطبعة الأولى ٢٠١٠م

القاهرة - شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

ت: ٠١٢٢١٠٨٤٩٣ - ٠٢٥١١٤٣٧١

القاهرة - ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٠٠١٠٤١١٥ – ٠٢٢٧٨٧٧٥٧٤

٠١٢٩٩٦١٦٣٥ – ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

# مصطفى لطفي المنفلوطي
# ١٨٧٦ - ١٩٢٤م

**ولد في منفلوط من أعمال محافظة أسـيوط ، ولد سـنة [١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م] أبوه « لطفي » كان قاضي شرعيًا [١] ينتهي نسبه إلى الحسين بن على م وأمه تركية مشابكة القرابة إلى أسرة الجوربجي .**

**تعلّم أول في كتّاب القرية وحفظ القرآن الكريم وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة ثم التحق بالأزهر فأخذ بنصيب من علوم الدين واللغة [٢] وكان له شغف شديد للدب فأكب على كتب التراث العربي من نثر و شعر في عهود الحضارة العربية حتى ا ستوعب الكثير منها ، وأجادها حفظًا وفهمًا فكان لذلك الأثر الكبير في ترقيق عاطفته ، وتهذيب وجدانه ، كما لازم رجال الأدب من معاصريه من خلال الصحف التي كانت تولي الدب عناية خاصة . وكانت له ملكة ، وفيه طبيعة ، فنظم الشعر جزلاً سهلاً رصين القافية ، وأرسـل النثر حلوًا مسـلسـلاً محبوكًا . وقد شـغله هذا - بقدر ما - عن الكدح في مطاولة كتب الزهر ومعاناة دروسه ، على أنّه واظب على حضور دروس الشيخ محمد عبده إلى نهايتها .**

**وأخذت مقالات المنفلوطي طريقها إلى جريدة « المؤيد » وكان قد نظر إلى من حوله من الناس ، فرأى ما يخبون فيه من آلام ، وما يفيضون فيه من جهل ، فهاله أمرهم ، و شفه ما شفهم . فراض قلمه على أن يعبّر عمّا بهم ، ويترجم عن مصابهم ، وأن يسوق لهم من العبرة والعظة ما فيه إصلاحهم ، ومن الحكمة والنصح ما فيه إسعادهم . فاستقام له من وراء ذلك أسلوب كتابي خاص ، وطائفة من الشعر .**

**في ذلك الوقت كانت الومضات الروحية الأخير للبارودي واليازجي وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، والشـنقيطي قد التمعت التماعة الموت لتنطفئ كلها متعاقبة في العقد الأول من عقود هذا القرن ، فهيأت الأنفس ، والأذواق إلى أدب جديد . حينئذ أشرق أسـلوب المنفلوطي على صـفحات « المؤيد » إشراق البشـاشـة ، وسـطع في أندية الأدب سـطوع العبير ، ورنّ في أسـماع الأدباء رنين النغم ، ورأي المتقفون في هذا الفن الجيد ما لم يروا في فقرات الجاحظ ، وسجعات البديع في العصرين المملوكي**

---

(١) توارثت هذه الأسرة قضاء الشريعة ، ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة ولكنه كان خلفةً لنبعتين مختلفتين : فأبوه عربي صريح النسب إلى الحسين بن على علي .

(٢) إن الأدباء من أبناء الفقهاء نبْوة في بعض الحالات على إرادة الوارثة والنشأة فهم يصدفون في منتصف الطريق عن دروس الفقه والأصول والعقائد ، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لا تسيغ أساليب كتبها المعقدة ، وإما لأن طباعهم المدنية الحرّة لا تطيق الحياة الدينية المقيدة .

يصفه « أحمد حسن الزيات » فيقول : رأيت المنفلوطي لأول مرّة ، فرأيت رجلاً مجتمع الأشُدُ ، مربوع الخلق ، ممتلئ البدن ، غليظ الشارب ، حسن السمت ، لا تلحظ على وجهه المطهم المصقول مخايل الفنان ، ولا سهوم المفكر ، ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سريًّا من عامة السراة في الصعيد ، لا حظ له من بلاغة اللسان ، ولا رياضة القلم ، ثم داخله فتكشف لي عن المعية أصيلة تستتر عادة بين الحياء والحشمة .

والعثماني . هذا فضـــلاً عن حركة الترجمة من الأدب الغربي التي قام بها الشـــوام وكانت في الكثير الأغلب سقيمة التراكيب ، معشوشة القوالب .

كان المثقفون يترقبون « مؤ يد » الخميس ليقرأ مـقال المنفلوطي يقول الز يات أنهم كانوا يقرأون مقال المنفلوطي « خماس وسـداس وسـباع » ، « وطه » مرهف أذنيه ، و« زناتي » مسـبلُ عينيه ، و « الزيات » مأخوذ بروعة الأســلوب ، فلا ينبس ، ولا يطرف ، وكلهم يودون لو يعقدوا أســبابهم بهذا « المنفلوطي » الذي اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر [٣] .

كان محمد عبده يحتضـــن المنفلوطي ، فهو تلميذه النجيب ، ويواصـــل الكتابة ، وبعد عام يجمع مقالاته في كتاب ، أصـدر الجزء الأول منه عنونه ب- « النظرات » . وكانت به مقالة «طبقات الكتاب » هاجم فيها الشيخ عبد العزيز جاويش [٤] وكان الشيخ محررًا بجريدة «اللواء» بعد مصطفى كامل فأوعز إلى « طه حسين » أن يهاجم المنفلوطي . فكتب طه حسين ثلاثين مقالا ونيفًا مهاجمًا « النظرات » .

لقد كان الثلاثي [ محمد عبده - سـعد زغلول - على الغاياتي ] من أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد اســتعداد فطرته ، وإرشـــاد أبيه ، وأولئك الثلاثة كانوا على ما بينهم من تفاوت في نواحي النبوغ أفهم رجال العصر الحديث لحقيقة الأدب ، وأشدهم حدبًا على بؤس أهله .

لم يهتم المنفلوطي بنيل شهادة الأزهر .. فقد كان أعظم مشايخه أستاذًا له ، وهو الشيخ الإمام ، فلما قبضه الله إلى رحمته كانت ضربة قاسية لكل آمال المنفلوطي .. فارتد مقطوع الرجاء إلى « منفلوط » .

بعد فترة عاود الكتابة في « المؤيد » إلى سعد زغلول الذي رأى أن يـستعين بقلم المنفلوطي في وظيفة يعينه بها ، فاسـتخدمه محررًا عربيًا في وزارته ، ثم انتقل معه إلى وزارة الحقانية ، ثم فصـل من منصـبه عندما ترك « سـعد زغلول الوزارة » ، فظلّ يتردد بين منفلوط ، والقاهرة قليل التودد إلى الناس حتى لا يتهم بملق أو حب زلفى ، وأغراه بذلك رزانته ووقاره ، وجلال طلعته ، وعفته ، وعزة نفســه ، صـابرًا مع ذلك على عنت الليالي ، وجور الأيام ، وفجائع الدهر ؛ لإيمانه بالله ، ورضـــاه بما ينزل به القدر ؛ مات له طفلان في أسبوع فصبر على البلوى صبر الكريم ، ثم توفيت زوجته ، وكانت أحب ما في الدنيا إليه فلقى المصاب لقاء الحليم .

ويذكر له أثناء وجوده في الزهر أن نسب إليه أنّه هجا الخديوي السابق بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه فيها بالحبس ، فقضى في السجن مدة العقوبة ، ثم عفا الخديوي عنه [٥] .

***

---

(٣) أحمد حسن الزيات في مقالة عن المنفلوطي . الرسالة ١٢ يوليو ١٩٣٧ .
(٤) يقول الزيات أن الذي ورطه في ذلك صلته بالمؤيد ، وبالمغفور له سعد زغلول .
(٥) محمود رزق سليم ـ الأدب العربي من عهد الفاطميين إلى اليوم ـ ط أولى ـ مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية ١٩٣٧ .

## أسلوب المنفلوطي (٦)

كان المنفلوطي أديبًا موهوبًا ، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصـنعة ؛ لأن الصـنعة لا تخلق أدبًا مبتكرًا ، ولا أديبًا ممتازًا ، ولا طريقة مسـتقلة . والنثر الغني كان على عهده لونًا حائلاً من أدب القاضي الفاضـل ، أو أثرًا مائلاً لفن ابن خلدون ، يتمثل الأول ثوبًا في طبقة المويلحي وحفني ناصـف ، ويظهر الثاني ضـعيفًا في طبقة قاسـم أمين ولطفي السـد . لقد كان أسـلوب المنفلوطي في عصره كأسـلوب ابن خلدون في عصره ، بديعًا أنشأه الطبع القوي على غير مثال .

لقد تأثر المنفلوطي في القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفي الحديث بجبران ونعيمة ؛ ولكن هذا التأثر دخل في فنه دخول الإلهام والإيحاء لا دخول التقليد والاحتذاء . فله من الأولين : إشراقة الديباجة ، وقوة النسـج ، وله من الآخرين : جدة الموضـوع وطرافة الفكرة ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحدًا من أولئك جميعًا .

أنّه منذ راض على الكتابة براعته ، أصـبحت هذه البراعة أطوع له من الحسـام في يد المقدام ، فأينما يوجهها تقطع وتفصل ، وأصبح بيانه ترجمان نفسه ، ومرآة حسه ، ولذلك تشعر وأنت تقرؤه أنّه يكتب حقًا ، ويسـطر صـدقًا ، وكأنما اتصـلت روحه بروحك ، واختلط خاطره بخاطرك ، ومازج بين إحسـاسـه وإحساسك ، واطلع بفراسته على مكنون ضميرك ، فقرأ فيه ما استتر ، واطلع على ما سكن ، ثم أوحى بذلك كله إلى تلك البراعة الطيعة فرتلت ما يوحى به إليها سـطورًا فترى في « عبراته » عبراتك ، وفي « نظراته » نظراتك . وتقرأ فيما كتبه من روايات وقصص آلامك وآمالك وأحاسيس نفسك .

عالج المنفلوطي الأقصوصـة أول الناس ، وبلغ في إجادتها شـأوا لا ينتظر من نشـأة كنشـأته ، في بيئة كبيئته ، فمثلاً قصة « غرفة الأحزان » و« اليتيم » فنحن نطرب للقصة على سذاجتها ، أكثر مما نطرب للأسـلوب على روعته . وسر ذيوع أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ، ويمثل العيوب ، في أسلوب طلى ، وسياق مطرد ، ولفظ مختار .

أما صـفة الخلود فيمنع تحققها أمران : ضـعف الأداة ، وضـيق الثقافة ، فأما ضـعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالمًا بلغته ولا بصيرًا بآدابها . لذلك نجده في تعبيره الخطأ والفضول ، ووضع اللفظ في غير موضعه ، وأمّا ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشرًا بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة [٧] .

---

(٦) المفصل ج٢ .
(٧) الرسالة ـ عدد ١٢ يوليو ١٩٣٧ ـ مصطفى لطفي المنفلوطي بقلم أحمد حسن الزيات .

ورغم كل ذلك فإن المنفلوطي يحتل مكانًا كبيرًا في النهوض بالنثر العربي تمامًا مثل مكانة البارودي في إحياء الشعر العربي . فقد كانت له نفس أدبية ، وذوق سليم مطبوع ، قدير على صقل أسلوبه وتهذيبه كما يهذب الموسيقى الفنان أدوار غنائه ، ولذلك قلّ أن تجد في عبارته لفظًا مقهورًا ، أو تعبيرًا مغلوبًا على أمره ، أو جملة نابية أو سجعة متكلفة ، أو قوله مأثورة في غير مكانهما كل ذلك مع حسن ابتداء وروعة مطلع ، تتتابع بعده المعاني في عبارتها تتابعًا طبيعيًا يشوّق القارئ إلى قراءتها كلها ، وينتهي منها غير شاعر بملل أو نصب ، ويود لو أطال الكاتب وأسهب ، حتى يشبع نفسه وروحه من هذا الغذاء الأدبي الدسم الرقيق .

لهذا كله صبح أسلوب المنفلوطي ينم عنه ، ويشير إليه ، وأصبحت له فيه « شخصية » لم يرزقها كثير من الكتاب فيما كتبوه .

ومع هذا لم تكن طريقة « المنفلوطي » هي المثل الأعلى لكتابة المقالة فقد عيب عليها : الاهتمام البالغ بالأسلوب ، وإثارة العاطفة ، ثم عدم الدقة في الاستعمال اللغوي أحيانًا ، والميل إلى حشد الألفاظ المترادفة ، والعبارات المكملة ، والكلمات المؤكدة دون حاجة إلى ذلك يقتضيها الموقف ، أو تحتاجها الفكرة [٨] .

ورغم ذلك وغيره مما أخذ على المنفلوطي وأسلوبه ، قد كانت المقالات التي خلفها ذلك الكاتب أول نماذج فنية لكتابة المقال ، يمكن أن تقرأ وتستعاد ، فتمتع وتعجب ويمكن لهذا أن تعتبر - بحق - قطعًا من الأدب لا مجرد كتابات في السياسة والاجتماع ككتابات كثيرين غيره [٩] .

إنتاجه :

١- النظرات :

وهي ثلاثة أجزاء بها فصول في النقد ، والأخلاق والاجتماع ، والوصف ، والأدب ، والتاريخ .

٢- العبرات :

---

(٨) العقاد والمازجي الديدان ـ ج٢ص٧ وما بعدها و « شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر في مصر ص٢٣٣ .
(٩) أحمد هيكل ـ تطور الأدب الحديث في مصر ـ ص١٧٧ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

وهي مجموعة فصول وقصص قصيرة .

٣- تعريب روايات وقصص غربية :

أ- مجدولين ، أو تحت ظلال الزيزفون .

ب- الفضيلة ، أو بول وفرجيني .

ج- في سبيل التاج ، أو سيرانودي برجراك .

د- الانتقام .

٤- مختارات شعرية « مختارات المنفلوطي » .

٥- ديوان شعر متوسط الجودة طرق به أغراضًا نفسية ووصفية كذم الدهر ، والشكوى ، وقصص شعرية . وقد ضاع أكثره ولم يجمع .


سمير إبراهيم بسيوني

المنصورة ١/١/ ٢٠١٠

ت: ٢٢٥٤٦١٥

٠١٠٩٠٤٥١٤٩

# النظرات
## الجزء الأول

# مقدّمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتاب : كيف أكتب رسائلي ، كأنما يريدون أن يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ، فإني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيّدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتاب غيري ، وليعلموا - إن كانوا يعتقدون لي شيئًا من الفضل في هذا الأمر - أني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأني استطعت أن أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها علي وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمر بي ، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي أو أستعين به على تهذيب بياني ، أو تقويم لساني ، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأً أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته في صورة الإنسان ، أو مطلع البدر أو مغرب الشمس ، أو هجعة الليل ، أو يقظة الفجر ، أو قمم الجبال ، أو سفوح التلال ، أو شواطئ الأنهار ، أو أمواج البحار ، أو نغمة الغناء ، أو رنة الحداء ، أو مجتمع الأطيار ، أو منتثر الأزهار ، أو رقة الحس ، أو عذوبة النفس ، أو بيت الشعر ، أو قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مرًا ، فإذا لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره ، تتألق في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجب بها ، الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها أو إزعاجها من مكانها ، ثم أتركها حيث هي ، وقد علقت بنفسي صورتها إلى أخرى غيرها ، وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سرورًا به ، وتسيل وجدًا عليه ، وما هو إلا أن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت ببعض أزهارها بضع وقفات ، حتى شعرت أني قد بدلت من نفسي نفسًا غيرها ، وأن بين جنبي حالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل ، فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسنًا ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهره ، وأرى الخير فرأيت حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيت مدامعها ، وأرى العين فرأيت السحر الكامن في محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن يسيل على جوانبه سيلاً ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها

الذهبية على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته الســـوداء إلى الأرض هوى الكرى إلى الأجفان ، وكنت أســمع خرير المياه فســمعت مناجاتها ، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الأطيار فعرفت لغاتها ؛ فأحببت الأدب حبًا جمًا ملأ ما بين جانحتي ؛ فلم تكن ســاعة من الســاعات أحب إلي ولا آثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وأمسك عليَّ بابي ثم أسلم نفسي إلى كتابي فيخيل إلى أني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فأشـــهد بعيني تلك العصـــور الجميلة ، عصور العربية الأولى ، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها ، وأعوادها ، وإبلها وشــائها ، وشــيحها وقيصــومها ، وأرى مســاجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصــبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأســواق شــعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشــحوب وجوهها ، و سمرة ألوانها ، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ وصبارة البرد ، وتنقلها من صحراء إلى الريف ، ومن شتى إلى مصيف ، ومن نجد إلى وهد ، ومن شرف إلى غور ، وانتجاعها مواقع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام بأجفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير ، فإذا جد الجد أكلت القد واشتوت الجلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الأبقار ، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس

وأردية الأشعار ، وقمص الأوبار ، فإذا أعوزها ذلك لبست الظل ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطة ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغد عيشها ، ولين طعامها واعشوشاب جانبها ، وعذوبة مواردها ومصــادرها ، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم ، وامتلاء قصـــورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ المنثور من الولدان ، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنســـها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيادها ، ومذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها ، وحواجز أمرائها في أيدي شعرائها ، وانطلاق ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف ، وألوان الطعام حلوه وحامضه ، وأصناف الشراب حلاله وحرامه ، والطيور المحلقة في الأجواء ، والســفن الذاهبة في الدأماء ، والرياض الخضـرـاء والغابات الشــجراء ، والقصور وتماثيلها ، والبحيرات وأسماكها ، والأنهار وشواطئها ، والأزهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب في القلب ، والغناء في السمع ، والصهباء في الأعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى .

ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقًا عذبًا ، أو أدبًا غضبًا ، أو حبًا وفيًا ، أو مجونًا مستظرفًا ، أو حورًا مستملحًا ، إلا وجدته ؛ ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما يحدو به الحادي في أعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذي به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به الماتح إلا سمعته . ولا أن أعلم ما يهجس في نفس المحب إذا اشتمل عليه ليله ، والحائر إذا ضل به سبيله ، والثاكل إذا فجعت بواحدها ، والموتور إذا حل بينه وبين واتره ، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف إذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس إذا أعوزه القوت ، واليائس إذا أعوزه الموت ، والعزيز إذا ذل ، والمشرف إذا هوى ، والشريف إذا عيث بشرفه عابث ؛ والغيور إذا لمس عرضه لامس ، إلا علمته ، ولا أن أعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا أثر يده السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغاني ، وتصويح الرياض ، إلا عرفته ؛ فكنت أجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك مالا يقوم به عندي كل ما ينعم به الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر ، وأنه لما علم أنه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال أو جاه أعيش في ظله ، وأنعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم ، وزوره لي تزويرًا بديعًا ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري . رحمة بي وإرعاء على أن أهلك ، أو يهلك لبي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا أزال محلقًا في هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة وأكتئب أخرى ، وأتغنى حينًا وأبكي أحيانًا حتى يرميني الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إلى نفسي مستعيد .

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب أحد لأنني كنت أعيش في مفتتح عهدي به - ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة - بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ، ولا يتعلقون منه بما أتعلق فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الإلمام به عمل من أعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضنًا بي - يزعمون - أن أنفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها ! فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلموا بأمري - وقليلاً ما كنت أجدها - وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون فإذا عثروا في خزانتي أو تحت وسادتي أو بين لفائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل إليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، أو الزجاجة في جيب الغلام ، أو العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي ؛

وهم لا يعلمون - أحسن الله إليهم - أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويد من أياديه البيضـاء على هذا المجتمع البشـري ؛ فلولا الأدب ما اسـتطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا اسـتنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسـون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعًا ، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يسـتعين به متعلم على علم ، وأن الذوق الأدبي الذي يسـتفيده المتأدب من دراسـة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها ، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع إقدامه في فهم أصول الدين ليكون مجتهدًا إن استطاع أو واقفًا على منازع المجتهدين ، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكانًا من قلبه ليكون إنسانًا ناطقًا ، ومعلمًا نافعًا ، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه - وهم اليوم والحمد لله قليل ، بل هم في طريق الفناء والانقراض - قد تعلقوا منه بما كان يتعلق أسـلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به في دينهم خيراً ، ولاستدفعوا به عن أنفسهم في أمره شرًا عظيمًا ، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة ، وما زالت آيات الكتاب ومتون الأحاديث سـائغة هنيئة ، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشـك ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون ، حتى جهل علماء الدين والأدب ، ففسـدت أذواقهم ، وضـلت أفهامهم ، فكثر بينهم التأويل والتخريج ، ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعاني ، واسـترخت عراها من أيديهم ، فأصبح كل لفظ في نظرهم محتملاً لكل معنى ، حتى ما يأبى أحدهم على الآخر شيئًا ، وتهافت ذلك الحاجز الحصـين الذي كان قائمًا بين الحقيقة والمجاز ، والحقيقة والخيال ، فبغى بعض الكلم على بعض ، وعاث كل منها في تربة صـاحبه إقبالاً وإدبارًا ، وجيئة وذهوبًا وصـعودًا ونزولاً ، فاسـتطاع الواغلون في الدين والناصـبون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغريبة في أسـاليبها ومناهجها عن مناهج العرب وأسـاليبهم ما لا يضـبطه الحسـاب كثرة ، فهلكت الأمة بين هذا وذاك هلكًا لا تزال تتجرع كأسـه المريرة حتى اليوم .

فالحمد لله أولاً ، وللأدب ثانيًا ، على نجاتي منهم فيما كانوا يرومون بي ، ويحاولون مني ، بل أحمد الله إليهم كذلك فقد كفيت بسوء رأيهم في الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بيني وبين نفسي في المفاضلة بين شاعر و شاعر ، وكاتب وكاتب ، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب ، وديباجة وأخرى ، فلم يكن لي عون على ذلك كله غير شعور نفسي وخفوق قلبي خفقة السرور أو الألم إن مر بي ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته ، من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه ، فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه

نغمة وتزعجه أخرى ، فيطير بالأولى فرحًا وبالثانية جزعًا ، وقد يكون ضـــعيف الإلمام بضرـــوب الإيقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ، ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس ، فإذا هو في كبد الرمية ولبها ، فإن رأيت أن المعنى قد قام دونه ســـتار من التراكيب المتعاظلة ، والأ ساليب الملتوية ، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضيـ به ، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يســـتقر في قراره منها ، فهو يتوهمه توهمًا ويجمجمه جمجمة ويهذي به هذيانًا فلا ســبيل له إلى الإفصاح عنه ، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لابد له أن ينفقه على الناس ويزخرفه ويزوروه في أعينهم ، فهو يكسوه أسلوبًا غامضًا ليكدهم ويجهدهم في ســبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب ، أو خاطر بديع ، ووجدوا فيه عند الو صول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامئ في ضحضاح الماء الكدر إذا أبعد النجعة في طلبه وو صل إليه بعد الجهد والإشقاء ، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس ، وهم سواد الأمة ودهماؤها ، لا يرضون عن معنى من المعاني ولا يستسنون قيمته ولا يقيمون له وزنًا إلا إذا جاءهم في جلدة من الألفاظ المتكرســـة المتقبضـــة ، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعاني وأغلاها ، وأكرمها جواهرًا وأطيبها عناصرًا في ثوب من الأ ساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل ، أو سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته ، أن لابد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضـــاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة والعي! وتملقهم بالغموض والإبهام . وإما أعجمي يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها بغيرهما فينطق بشيـــء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية ، فإن نعيت عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن المعاني العصريـة والخيالات الحديثة لا يســتطاع إلباســها الأكيســة البدوية ، والأردية العربية ، كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خطط وأقســام ، وأنصبة و سهام ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي أن الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية التي يعرفها لاصــقة بأثوابها الأصـلية ، فلما أراد أن يفضيـ بها إلى العرب ، وكان غير مضـطلع بلغاتهم ولا متمكن من أسـاليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصــقة بها فنقلها إليهم كما هي إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشيـــء قام في نفســـه أو يفضيـــ بخاطر من خواطر قلبه ، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها

عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة . والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارسًـا يقظًا على كل حاسـة من حواسـه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصـطنعًا ولا يظفر منه متعصرـ ببلة . فيضـن بعلمه كما يضـن بماله ، ويقبض لسـانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرـد عطاءه تصرـيدًا ليسـتديم حاجة الناس إليه كما يجيع كلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والأشحاء والباخلين .

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب - سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل - أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرًا صحيحًا كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضًا ، أو يضعه في أيديهم وضعًا ، فإن ظننت أن القائل كاذب فيما يقول أو أنه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه ، أو أنه لغوي يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمه إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المسـتوعرة يكمن وراءها ، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشـوها بالمسـائل العلمية والوقائع التاريخية حشـوًا ، أو مترجم ينقل عن اللغة الأعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو صـاحبها ، أو شـعرت أنه قد قدر في نفسـه ، وهو يكتب كلمته أن يكون بليغًا فيها أو مبدعًا ليعجب الناس منها ، وكان كل حظه عندي أن أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم إن أحسـن فيما يقول ، ولكنني لا أعده كاتبًا ولا شـاعرًا ، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشـقين ، وفضـل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشـاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصـين ،وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، وأحسـن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شـعر الهموم والأحزان ، ومواقف البؤس والشـقاء ، وقصـص المحزونين والمنكوبين خاصـة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشـجاه شـقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه ، و شقاء امرئ القيس في الطلب بثأر أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسـم تنشـد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشرـيف على المناذرة في خرائب الحيرة . وبكاء أبي عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على بني هاشـم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحتري على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتيمي على يزيد بن مزيد ، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة ، وجنون المجنون بليلاه ، وجلوسه في

جنبات الحي منفردًا عاريًا مذهوب اللب مشــترك العقل يهذب ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها ، وراحته إلى الطريق يصــعد مع مصــعديه ، وينحدر مع منحدريه ، حتى هلك في أرض مقشــعرة مغبرة بين الصــخور والأحجار ، وشــقاء قيس بلبناه بعد أن طلقها برًا بوالده ، ونزولاً على حكمه ، وذهاب الحب به ذلك كل مذهب ، حتى هلك بين الوفاء للفضــيلة والوفاء للحب ، وموقف جميل بن معمر بين يدي أبيه ، وهو يعتب عليه أشــد العتب وأمره في اســتهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفســه في الإلمام بحبها فيقول : يا أبت! هل رأيت قبلي أحدًا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يســلي نفســه أو اســتطاع أن يتقي ما قضى به عليه ، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا ســبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي ، وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمدًا ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاء النبي ﷺ عندما ســمع قيس بن عاصــم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته في الجاهلية ، وأن واحدة منهن ولدتها أمها وهو في سفر ، فدفعتها إلى أخوالها ضنًا بها على الموت وإشفاقًا عليها ، فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولودًا ميتًا . ثم مضت على ذلك ســنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فعجب بجمالها وعقلها وذكائها وســألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ، ولم تكتمه شــيئًا طمعًا في أن يضــمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أيامًا ، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول : يا أبت ما تريد أن تصــنع بي ، وما هذا الذي تفعل؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت إليها ، وهي تئن وتقول : أتاركي أنت يا أبت وحدي في هذا المكان ومنصرــف عني؟ حتى واراها وانقطع أنينها ، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته ، ثم وقفت على قبره تودعه . وتقول : والله يا بني لقد غذوتك رضيعًا ، وفقدتك سريعًا ، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها ، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسدًا هامدًا ورفاتًا ســحيقًا وصــعيدًا جرزًا ، اللهم إنك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيرًا بل ســلبتنيه وشــيكًا ثم أمرتني بالصبر ، ووعدتني عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فارحم اللهم غربته ، وآنس وحشته ، واستر عورته يوم تنكشــف الهنات والســوءات ؛ واثكل الوالدات ! ما أمض حرارة قلوبهن ، وأقلق مضــاجعن ، وأطول ليلهن ، وأقل أنسهن ، وأشد وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان ، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حرام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجًا

لغيره وأصبح هائمًا مختبلاً يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الأرض ومخارمها ، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها ، وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم أنه يعرف حقيقته ، وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له ، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها : يا عفراء ، أنت حظي من الدنيا ، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل من هذا المكان ، وإني عالم أني راحل إلى منيتي ، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشى وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خمارًا لعفراء كانت زودته إياه فيفيق ، حتى بلغ حيه وأمسك عامًا كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضًا ، فمر بعض الناس فرآه مطروحًا بجانب خبائه ، فسأله عما به ، فوضع يده على صدره ، وقال :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها ، فلما بلغ عفراء خبره قامت إلى زوجها وقالت : لقد كان من خبر ابن عمي ما كان ، وقد مات في وبسببي ولا بد أن أندبه وأقيم مأتمًا عليه ، فقال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثًا حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم أن أهله قد بنوا له ديرًا بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله وإخوانه ولزم صحراء الدير علة يجد السبيل إلى الوصول إليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئًا ، فصار إلى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائمًا لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسائله إلى عيسى ، حتى رآه بعض الناس في بعض الأيام ميتًا إلى جانب الدير . وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ، كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين ؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ؛ أو كأنما كنت أرى أن الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان ، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثًا عنها ، وتصورًا لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله ؛ أو كأنما كنت أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهًا قريبًا وسببًا متصلاً ؛ فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم ، أو كأنما كنت في حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي ؛ أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله في الشعر وأن الشعر هو تفجر من صدع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم .

تلك أيامي التي سـعدت بها برهة من الدهر ومر لي فيها أحسـن ما مر لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعي لذكراها ، ثم انثنيت فوجدت يدي صفرًا منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشـعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت إليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له بن ولا سـكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سـمائه ، وقتال الناس بعضـهم بعضًـا على الذرة والحبة والنسمة والهبوة ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، و سلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم . وإقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فتات موائد الأغنياء ، وتمضغ الأغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت الترائي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلبًا لرضـا الناس عنه برضـاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضـيلة حتى فر بها صـاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيته . ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلاً له من الرجال التوقح والتشطر ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس إلى سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصـيب بها كبد أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضـلال الأسـماء عن مسـمياتها وحيرة مسـمياتها بينها ، واضطراب الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلاً ، وخرج منها ما لم يكن خارجًا ، فسمي الشح اقتصادًا ، والكرم إسرافًا ، والحلم جبنًا ، والسماجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية ، واشـتبهت طرق الفضـيلة ومسـالكها على من يريد ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيمًا من زعماء الخديعة والكذب يصرـفه عنها إلى غيرها ، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صـاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسـه به أو يكون عونًا لفاعليه عليه ، فإن سـاقته إليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد في نفسه عن غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشـه ، ويقلق مضـجعه ، ويطيل سـهده وألمه ، فإذا هو صـورة من صـور الجوارح وعرض من أعراض الجسـم لا دخل له في جوهر النفس ، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدبًا ، وأقومهم خلقًا ، وأطهرهم نفسًـا : من لا يفي على شرط أن يعد ، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغًا مهذبًا ، ومن يملأ صدره موجدة وحقدًا على أن يكون بسامًا ضحوك السن ، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضـاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعًا بقلبه على أن يحبهم جميعًا بلسـانه ، ومن يحفظ تلك المصـطلحات اللفظية وتلك الصـور الجافة من الحركات الجسـمية ، التي تواضـع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبًا إلى

صـغر النفس وإسـفافها ، أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها ، فداخلني من ذلك خطر عظيم لم أسـتطع أن أملك نفسيـ معه ، كأنما خيل إليّ - لقرب عهدي بما أرى - أنني أرى شـيئًا عجيبًا ، أو منظرًا غريبًا ، أو كأنما كنت أحسـب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صـورة صـحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت إليه ، فأزعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما ، فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس ، فسموا ما رأوه كلامًا ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله ، وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب م في نفوسهم ، حتى سموني كاتبًا .

وكان لذلك الأدب الذي توليت به نفسيـ فيما مضىـ أثر باق عندي حتى اليوم فإني لا أحسـن أن أكتب كلمة يفضيـ بها غيري أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسيـ أو أبكي على من لا يحزنني فراقه . أو أندب من لا يفجعني موته أو أ ستنكر ما أ ستحسن . أو أ ستحسن ما أ ستنكر ، كما لا أ ستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزنًا شديدًا ، أو طربًا كثيرًا ، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من خير أو شر ، وما أعلم أني كتبت كلمة في شأن من الشؤون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي . فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب ، ولا آخذ نفسيـ به ما وجدت منه بدًا ، فأبغضـت الكاذبين بغض الأرض للدم . فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستعرًا ، حتى أ صل بهم إلى إحدى الحسنيين : إما أن يكونوا صادقين وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون ، وكنت إنسنًا بائسًا لم يترك الدهر سهمًا من سهامه المريشة لم يرمني به ، ولا جرعة من كأس مصـائبه ورزاياه لم يجرعني إياها ، فقد ذقت الذل أحيانًا ، والجوع أيامًا ، والفقر أعوامًا ، ولقيت من بأ ساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين . ورأيت مواقع سـهام الدهر في أكباد البائسـين والمنكوبين ، فكان من همي أن أبكي كل بائس ، وأندب كل منكوب ، وأطلب رحمة القوي للضعيف ، والغني للفقير ، والعزيز للذليل .

وقد قدر لي فيما مر بي من أيام حياتي أن رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع إليه أن يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها ، فأبى ذلك عليها وقال لها - وهو يحسب أنه يعقل ما يقول - : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي . فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه ، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقدًا قديمًا ، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخًا : أيها الناس إن الفتاة مريبة . وكان كاذبًا فيما يقول ، ولكن صـدقه الناس ، فانتقم لنفسـه بذلك شر انتقام وأفظعه ، ورأيت من دخلت إليه امرأة من أولئك النسـاء المريبات تسـأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهابًا بنفسـه أن تسـوء سـمعته بدخولها بيته ، وكان هو الذي أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها إلى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد

حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلاً . فكان بي منذ ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس إليها ، وأن ألتمس لها من العذر - وإن زلت بها قدم - ما لا يلتمسه لها أحد ، وأن أنتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلاً إلى ذلك حتى يديل لها الله منه ، وكنت من شؤون عيشي في حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا أن أختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهدًا ولا صان لي صاحب سرًا ، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت فوفى لي مدين ، ولا رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كربتي مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي إلى القطرة الأخيرة منه ، ليأخذ أكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشاربي . ومن كان يبسط إلي يد الآمل الراجي فأكره أن أرده خائبًا ، فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل إلا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه ، أو يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب لي وغرى بمحاداتي ومماظتي ، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ، ومن أخذ نفسه بالنيل مني والغض من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لابد له أن يكون نابهًا مذكورًا ، فاتفق له أن رأى عاتقي بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهبًا في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به بقيًا عليه وضنًا به أن يسقط سقطة لا يئل منها ، ومن كان لا يكبر شأني إلا إذا اتقاني ، فإذا أضاء ما بيني وبينه كنت في عينه أصغر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر علي وإدباره عني ، لا يستحي أن يكرر ذلك حتى استحيي له منه . فعركت بجنبي كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي أن أنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل إليها الغر الكريم ، فلم أثأر لنفسي ، ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم ، ورأي بعضهم في بعض ، وخفت أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين أمثالي مثل ما أصابني ، فكان من همي أن أدل على شرور الأشرار الكامنة في نفوسهم وأن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقعوا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضًا حمرًا يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم ، وكان منشئ في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينًا ، ولا بوطنهم وطنًا ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك ، وتصرفت بي في الحياة شؤون جمة ، فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته ، إلا أن أكون ملحدًا في ديني أو زاريًا على وطني ، فا ستطعت - وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية - أن أجلس ناحية منها . وأن أنظر إليها من مرقب عال ، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى

الأمر نظرة طائرة حمقاء ، فإما أخذه كله أو تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي ، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها ، وا ستهتارهم بها ، و سقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها ، وإلحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى أصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه الأمر في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، أو ترك ما ترك كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار واضطراب الأفهام ، أو القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ؛ وحتى أصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادمة غرفته الأوربية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر ؛ وحتى أصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمحها في نظر كثير من الشرقيين : يفخرون بجهله إن جهلوه ، ويراءون بعلمه إن علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي - خادم الحان - منفردًا على ما لا تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول إليه لتحدثه بلغته ، قبل أن تحمله على الصعود إليها ليحدثها بلغتها ، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تترضاه وتزدلف إليه .

فلذلك ما تراه في ر سائل النظرات منتثرًا ههنا وههنا ، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي ، ولا أكذب نفسي عنها .

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس إليه صانع غير كاتب ، ومترجم غير قائل ، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ : كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح أحلامه ، فإن كان من شأنه في حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، أو وفيعة تتمسح بها أعواد الأقلام كان خسرانه عظيمًا لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه ، والتاريخ أضن أن يحفظ بين دفّتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها ، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن

نفسه وعن نفوسهم وأنه رواغ متخلج يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدًا ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وأنه يستبكي ولا يبكي ، ويسترحم ولا يرحم ، ويحزن النفوس وهو ساكن ، ويثير الثائر وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره شر حاليه ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ومن حانوت إلى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفوًا بلا تكلف ولا تعمل ، صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والأريج عن الزهر ، و شعاع لامع يشرق في نفس الأديب إشراق المصباح في زجاجته ، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على أسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو أن أمرًا من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم ، أو أعلمهم بقواعد اللغة ، أو أجمعهم لمتونها ، أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه ؛ أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التي نقرأها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان ؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحدًا أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ، ولا أقل منهم إلمامًا بالأدب ولا أبعد عنه مكانًا ؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا أنفسهم به ؛ وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال : يأباني جيده وآبى رديئه ؛ وكان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو يزيد الأنصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الأعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والأزهري والصاغاني وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية ، والجوهري والفيروز ابادي وأمثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم في إحدى الصناعتين شيئًا مذكورًا ، وقال أبو العباس المبرد في بعض أحاديثه لا أحتاج إلى وصف نفسي : لعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة ألا لقيني بها وأعدني لها ، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفى علي مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني ، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض بعض أموري فأتعبت نفسي يومًا في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما في نفسي فينصرف لساني إلى غيره . بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصورته ، إلا غلبة اللغة عليهم

وا ستهتارهم بها و شغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون ، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون ، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربي كان يستطيع أن يكون خيراً مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضـــة اللغة وأسر الالتزام وإنك لا تكاد ترى اليوم من شـعراء هذا العصر ـ وكتابه - الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شؤونه السيا سية والاجتماعية والأدبية كافة - من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، أو من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي أو مغمز لغوي ، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصـــق به وأمس رحمًا من أولئك الذين يسـتظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشـاذها وغريبها ويحملون في صـــدورهم ما دق وما جل من مســائل نحوها وتصر ـيفها ، فإذا عرض لهم غرض من الأغراض في أي شـأن من شـؤون حياتهم وأرادوا أنفســهم على الإفضـاء به - ارتج عليهم فأغلقوا أو تقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون ، والآخرون مصححون ؛ فمثلهما كمثل النساج وعامله : هذا ينسج الثوب ، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره ، أو كمثل الشاعر والعروضي : هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق وا ستقامة الغرض وتطبيق المفصل ، والأخذ بمجامع الألباب ، امتلاك أزمة الهواء ؛ فإذا صـح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير أو الشـاعر الجليل ، فإن زلت به يده أ صيل ، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الا ستعمال فيها ، كان ذلك عيبًا لاحقًا بعلمه أو بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ، أصبح شأنه شبيهًا بشأن العرب الأولين ، وكان من شأنهم أن يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان الســبب في ذلك كما يقول أبو علي الفارسي : إنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ؛ فربما اسـتهواهم الشيـء ، فزاغوا به عن القصـد من حيث لا يشـعرون ، وكما أن الجسـم لا يغير من صـورته ، ولا يبدل من ســحنته أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها ، كذلك لا يغير من صـورة الكلام ولا يذهب بنســـقه خروج أصـــيل ، أو دخول دخيل ، وقد قيل لأحد الكتاب الإنكليز : نراك كثير الإعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة ، فأجاب : إن سـطرًا واحدًا مما يكتبه «كبلنغ» أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأي أن أحرم نفسيـــ التمتع بأدبه وإكرامًا لســـواد عيون الغراماطيق الإنكليزي ، فضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أفضل من فضل اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبِّدون طرقها ويستدنون نافرها ، ويجمعون شاردها ، وينظمون

لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك فيأخذ الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها ، وأشهاها إلى النفس ، وأعلقها بالقلب ، وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الإعراب من كتب النحو والتصريف ؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ، ولا كان عدوًا لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصدًا من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسمية ، فكما أن الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط ، ولا تتبسط أعضاؤه ، ولا تنتشر القوة في أعصابه ، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه ؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته ، واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل ، فإن مشى خيل إليه أنه يمشي على رملة ميثاء ، وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها . على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي أن تكون خدمًا لها وخولاً ، وأوعية وظروفًا ، فإذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ، فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله إليها ، فالجهل لا يكتب شيئًا لأنه لا يعرف شيئًا ، ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه ، أو غلبته العامية على أمره ؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ، ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها ، أو شوه الألفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فأكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سويًا متناسب الأعضاء مستوي الخلق ، إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة

السليمة ، وأنى لهم ذلك ، وما دخلت الفلسفة أيًا كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته ، وما خلط التكلف عملاً من أعمال الذوق إلا شوه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه .

ولقد قرأت ما شـئت من منثور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضـيها قراءة المتثبت المسـتبصر ، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة : حديث اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب .

فأما حديث اللســـان : فهو في تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة ، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغويًا تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ، وإن كان بديعيًا جنس ورصـــع وقابل ووســـع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الإهمال والإعجام ، فيخيل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعًا ، أو يصففه تصفيفًا ، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الأثر في نفس السامع ، وهذا الحديث هو أســـقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن ينظمه الناظم في ســـلك الصـــناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وأن ينظم صـاحبها في سـلك جماعة المحللين الذين لا شـأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها ، وجمعها وتفريغها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين أثقالها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل : فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتًا ، ويقتطعونها منها اقتطاعًا ، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والإغراب ، ويســـمونها تارة تخييلاً وأخرى غلوًا وأخرى حســـن تعليل ، إلى كثير من أمثال هذه الأسـماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة ؛ وآية ما بينك وبينها : لأنك إذا رأيتها شعرت بأنك ترى أمامك شيئًا غريبًا عن نفسك . وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعًا ، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرفك أو يضحكك أو يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصـوير ما لا يتصـور وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشـعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظًا وقبحًا كأن يقول :

لو لم تكن نيـة الجوزاء خـدمتـه　　　لما رأيـت عليهـا عقـد منتطق

فإن الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يســـتدير بها نطاقًا فهو شيء متصـــل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء ، والكواكب ليســـت أشـــخاصًـــا أحياء يتخذ منها الناس خدمًا وخولاً لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها - وهي من سكان السماء - أن تهبط إلى الأرض لتخدم

ســـكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس الســـامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شأنه ، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالإبداع وقوة التخيل ، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام . أو يقول :

مـا بـه قـتـل أعـاديـه ولـكـن　　　يتقي أخلاف مـا ترجو الـذئـاب

فإن الذي يحمل في صدره قلبًا رحيمًا مشفقًا على الذئاب من الجوع ، مستعظمًا أن يخلفها ما عودها إياها من طعام وشراب ، لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئبًا ضاريًا يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم ، ويقطع أوصالهم ، ليملأ بها بطون الوحش ؛ ولا يوجد بين الأسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره ، على أن المحسن لا يكون محسنًا إلا إذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيته ، فإما أن يقتل الناس تقتيلاً ويمثل بهم ، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الأرض وذئابها ، فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالإحسان . أو يقول :

لا يــذوق الإغــفــاء إلا رجــاء　　　أن يرى طيف مســـتميح رواحـا

فإن النوم قوام الإنسان وعماد حياته ، ولازم من لوازمه اللاصقة به، أراد ذلك أم لم يرد ، فإن كان لابد من دخوله في باب الاختيار فإن من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الإنســان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرؤى ، فإن فعل فعلاً يدخل في باب أغراضـه وأمانيه أن ينام ليرى خيال جماعة المتســولين والمتأكلين ، وهم ملء الأرض وهباء الجو ، وأرصــاد الأعتاب ، وأعقاب الأبواب ، لا تفتح الأعين إلا عليهم ولا تمتلئ الأنظار إلا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضـن بأنفســهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به إلا إذا ألقى في طريقه حبائل الأحلام ليصطاد بها . أو يقول :

لم يـتـخـذ ولـدًا إلا مـبـالـغـة　　　في صــدق توحيد من لم يتخذ ولدًا

فإن الأولاد لا يتخذون اتخاذًا ، وإنما ينعم الله بهم على من يشـاء من خلقه إنعامًا ، وأكثر ما تقذف به الأرحام من النســمات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفوًا ، لا نبتة من نبات الأرض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني بربوبيته وو ضوح آثارها عن الا ستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فإن كان لابد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصـفات والأفعال ؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولدًا ، وأنهم يتخذون على أن المتخذين كثيرون قد ضـاق بهم بطن الأرض وظهرها ، فالمسـألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد . أو يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيبًا

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح ، على أن الأزهار مريحة قبل أن يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خلق إلا إكرامًا لبعض النبيين . أو يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي ال- -ساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفًا فوق ما يصف الناس ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره ، فأنزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم ، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة أو يوم واحد . أو يقول :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

فإن شيئًا من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق بأحد ، والجو لا يكون قبرًا ، والريح ليست كفنًا ، والرجل لا يزال مصلوبًا غير مقبور ، ولا يزال عاريًا غير مدرج في كفن .

وأما حديث القلب : فهو ذلك المنثور أو المنظور الذي تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه ، أو ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون ، أو سرائر القلوب ، أو ليفضي إليك بغرض من أغراض نفسه ، أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، أو ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك ، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا أو ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفني الكأس الصافية دون ما تشتمل عليه من الخمر ، فإذا الخمر قائمة بغير إناء ، أو كما تفنى صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى إلا صورته ، ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو أرقى الأحاديث الثلاثة وأشرفها ، وهو الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت أساليبهم من كلمة البيان .

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمري في كتابة تلك الكلمات أشـياء أربعة أنا ذاكرها ، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه .

أولها : أني ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللســان ولا حديث العقل ، أي أنني ما كدت أتكلف لفظًا غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي ، بل كنت أحدث الناس بقلمي كما أحدثهم بلساني ، فإذا جلست إلى منضدتي خيل إليّ أن بين يدي رجلاً من عامة الناس مقبلاً علي بوجهه ، وأن من ألذ الأ شياء وأ شهاها إلى نفـسي أن لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به إليه ، فلا أزال أتلمس الحيلة إلى ذلك ولا أزال أتأتى إليه بجميع الوسـائل وألح في ذلك إلحاح المشفق المجد ، حتى أظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزامًا مطردًا إبقاء على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقًا عليه أن يمل ويسأم ، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به .

وثانيها : أني ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملاً ، ولا أجلس إلى منضدتي مطرقًا مفكرًا : ماذا أكتب اليوم؟ وأي الموضـوعات أعجب وأغرب وألذ وأشـوق؟ ، وأيها أعلق بالنفوس وألصـق بالقلوب؟ بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضي الناس مرة وأ سخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم .

وثالثها : أني ما كنت أكتب حقيقة غير مشـوبة بخيال ، ولا خيالًا غير مرتكز على حقيقة ، لأني كنت أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السـامع مأخذًا ، ولا تترك في قلبه أثرًا ؛ وأحسـب أن السـبب في ذلك أن أكثر ما تشـتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والأخلاق ، والخواطر والتصـورات ، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سـماء الفكر ثم لا تزال بها الأيام تكسـوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصـبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان ، وكما أن الحديد لا يفل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره . وكذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه إلا الخيال ، وللخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الإنسـاني وتكييفه على الصـورة التي يريدها ، فلولا خيال الشـعر ما هاج الوجد في قلب العاشـق ، ولولا خيال الشرـف ما هلك الجندي في ساحة الحرب ، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة

ما عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضًا ولا تصعد إلى سماء .

ورابعها : أني ما كنت أكتب للناس لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسـمع منهم : أنت أحسـنت ، بل لأجد في نفوسهم أثرًا مما كتبت ، وللناس كما قلت في بعض رسائلي ، خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا أجزع لسخطهم ، لأني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئًا مما يتعلق بي من خير أو شر ، لأني راضٍ عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها ، فلا أحب أن يكدرها علي مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا أحب أن يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم . فأصغي إلى الأول لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لابد له أن يفرغ منها في ساعة معينة . ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق أغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غابًا تزأر أسوده وتعوي ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله ، فمضى قدمًا لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه . وأما عامتهم ، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب ، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه ، فأنا أحمد الله في أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ، ولا يسمع إلا ما يطربه ، فأكل أمره إلى الله تعالى ، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسرًا؟

مصطفى لطفي المنفلوطي

## الغد

عرفت أني فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم ، وعرفت أني آخذ الســـاعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ؛ ولكنني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو دون غايته؟ وهل أستطيع أن أتمم رسالتي هذه ، أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها؟ لأني لا أعرف من شؤون الغد شيئًا ، ولأن المستقبل بيد الله .

عرفت أني لبست أثوابي في الصباح ، وأني لا أزال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكًا رحيمًا ، وربما كان شيطانًا رجيمًا ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثرت ذراتها ، فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خضـــم زاخر يعب عبابه وتصـــطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، أو الموت الأحمر .

لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شـخصـه عن الأنظار ، حتى لو أن إنســانًا رفع قدمه ليضـعها في خروجه من باب قصره ؛ لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر .

الغد صار مملوءً بالأسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه العقول ، وتستدرجه الأنظار ، فلا يبوح بسر من أسراره ؛ إلا إذا جاءت الصخرة بالماء الزلال .

كأني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه . متلفع بفضـــل إزاره ، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني أنه يبني للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت : ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقًا في الأرض ، وصعد في سلم إلى السماء ، وعقد ما بين المشرـــق والمغرب بأســـباب من حديد ، وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله إلى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ، وعرف أغوارها وأنجادها . وســـهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ، ورطبها ويابســـها . ووضـــع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة . والموازين لوزن كرة الأرض إجمالاً وتفصيلاً . وغاص في

البحار فعرف أعماقها ، وفحص تربتها وأزعج ســـكانها ، ونبش دفائنها وســـلبها كنوزها ، وغلبها على لآلئها وجواهرها ، ونفذ من بين الأحجار والآكام إلى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون وأين يســـكنون ، وماذا يأكلون ويشرـــبون ، وتسرـــب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى كاد يســـمع حديث النفس ودبيب المنى ، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سـقط أمام باب الغد عاجزًا مقهورًا لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لأنه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحدًا .

أيها الـشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة واحدة من صفحات وجهك المقنع ، أو لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقًا إليك ، وذابت أكبادنا وجدًا عليك .

أيها الغد ، إن لنا آمالاً كبارًا وصغارًا ، وأماني حسانًا وغير حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؛ أأذللتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين؟

لا ، لا صـــن سرك في صـــدرك ، وأبق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثًا واحدًا عن آمالنا وأمانينا ، حتى لا تفجعنا في أرواحنا ونفوســـنا فإنما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وســـعداء بالأماني وإن كانت كاذبة .

وليســـت حيـاة المرء إلا أمـانيـا إذا هي ضـــاعت فالحياة على الأثر

■ ■ ■

# الكأس الأولى

كان لي صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه ، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فأنا اليوم أبكيه حيًا أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتًا ، بل أنا لا أبكي إلا حياته ، ولا أتمنى إلا مماته فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس !

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني ، ثم سلك سبيلاً غير سبيله فأنكرته وأنكرني ، حتى ما أمر بباله ، لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغًا يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعًا إذ تراءيت فيها لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة ، وما كان له وهو يهتم في فضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال .

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئًا ، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة ، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها ؛ ذهاب إلى الحانات فشراب ، فخمار فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة ، لا يدري أين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن ، حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها ، وكان أحرى أن يوقظه دورانها .

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلاً من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته ، وهدأت حركته ، فلم أعد أراه معربدًا في الحانات ، ولا مطرحًا في مدارج الطرق ، ولا معتقلاً في أيدي الشرط . هناك سألت عنه فقيل : مريض ، فلم أعجب لشيء كنت أعد له الأيام والأعوام ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب .

دخلت عليه أعوده ، فلم أجد عنده طبيبًا ولا عائدًا ، لأنه فقير ؛ والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ؛ والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير .

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه ، لأني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته ، ولم أر دخان المطبخ ؛ ولم أسمع ضوضاء الخدم ، ولا بكاء أطفال ؛ ولا رنين لأجراس ؛ فكأنني دخلت القبر أزور الميت ، لا المنزل أعود الحي .

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشــفت كلته البالية عن خياله لم يبق منه إلا إهاب لاصــق بعظم ناحل ، فقلت : أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلني عليه ؟ فبعد لأي ما حرك شفتيه وقال : هل أسمع صوت فلان ؟ قلت : نعم : مم تشكو ؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب : أشكو الكأس الأولى ، قلت : أي كأس تريد ؟ قال : أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصــحتي وشرفي ، وها أنا ذا اليوم أودعها حياتي ؛ قلت : قد كنت نصــحتك ووعظتك وأنذرتك بهذا المصــير الذي صرت إليه فما أجديت عليك شــيئًا ، قال : ما كنت تعلم حين نصــحتني من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم ، ولكنني كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي .

كل كأس شربتها جنتها على الكأس الأولى ، أما هي فلم يجنها على غير ضــعفي وقصــور عقلي عن إدراك الأصدقاء والخلطاء .

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد إليها كما يعذر في الانقياد إلى غيرها من الشـهوات الغريزية ؛ فلا سـلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى . فلم يتناولها ؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التي لا تتم إلا بقراع الكؤوس و ضو ضاء الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه وأي ذريعة تذرعوا بها إلى ذلك ؛ لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة ، وضــعيف على الغاية التي ليس وراءها غاية .

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء ، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان .

قالوا : إن حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب ، وقالوا : إن الشراب يزيد في رونق الجسم ، ويبعث نشاطه ، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان ، وإنه يشجع الجبان ، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به .

صدقت أن في الشراب أربع مزايا : السعادة ، والصحة ، والفصاحة ، والإقدام ؛ فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر ، والمرض ، والسقوط ، والجنون .

غرهم من الصحة ذلك اللون الحمر ، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء . وهو يتغلغل في الأحشاء ، ومن الفصاحة الهذر والهذيان ، وهجر القول وبذاءة اللسان ، التي تعيش فيها على عقل الشارب فيعمي عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي ، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة والصفع تحية ، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين .

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغرًا من ثغور ساكنيه ؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات ؟ أي سعادة لمن يمشي دائمًا في طريقه متلويًا متخلجًا يتسرب في المنعطفات والأزقة ، ويعوذ بألواذ الجدر والأسوار فرارًا من نظرات الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار .

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدر لنفسي- القصد فيه أن لي قدرًا لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزل منزلتهم ، فلما شربت أخطأ العد ، وضاع الحساب ، وفسد التدبير ، واختلف التقدير ، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به ؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت ، ولا شكوت الذي شكوت ، ولولاها ما عافني الأصدقاء ، ولا زهد فيّ الأقرباء ، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء .

فعاهدته على ذلك ، ثم تركته في حالةٍ :

تصم السميع وتعمي البصير ويسأل من مثلها العافية

■ ■ ■

## الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني ، وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها ، زفرة لا أستطيع تصعيدها .

ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل أن أسأله إياك ، ثم استلبنيك قبل أن أستعفيه منك ، قد أراد أن يتمم قضاءه في ، وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها ، فحرمني حتى دمعة أرسلها أو زفرة أصعدها ، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه ؛ فله الحمد راضيًا وغاضبًا ، وله الثناء منعمًا وسالبًا ، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه .

رأيتك يا بني في فراشك عليلاً فجزعت . ثم خفت عليك ففزعت وكأنما كان يخيل إليّ أن الموت والحياة شأن من شؤون الناس وعمل من الأعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب لي الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك أصب في فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من جنبيك الحياة قطعة قطعة ، حتى نظرت فإذا أنت بين يدي جثة باردة لا حراك بها وإذا قارورة الدواء لا تزال في يدي . فعلمت أني قد ثكلتك وأن الأمر أمر القضاء ، لا أمر الدواء .

سأنام يا بني بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك وأحسب أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ، وخطوبها وأحداثها : هو الندم العظيم الذي لا أزال أكابد ألمه على تلك الجرع المريرة التي كنت أجرعك إياها بيدي وأنت تجود بنفسك ، فيبرد وجهك ، وتختلج أعضاؤك وتدمع عيناك ، وما لك يد فتستطيع أن تمدها إلى لتدفعني عنك ، ولا لسان فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق .

لقد كان خيراً لي ولك يا بني أن أكل إلى الله أمرك في شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي أجشمك إياها ، فلقد أصبحت أعتقد أنني كنت عونًا للقضاء عليك وأن كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده لم تكن أمرّ مذاقًا في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي .

ما أسمج وجه الحياة من بعدك يا بني ! وما أقبح صورة هذه الكائنات في نظري ! وما أشد ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إياه ! فلقد كنت تطلع في أرجائه شمسًا مشرقة تضيء لي كل شيء فيه ، أما اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك .

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى إذا استنفدوا ماء شؤونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا ، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها ، ولم يبق ساهرًا في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين : عين أبيك الثاكل المسكين ، وعين أخرى أنت تعلمها .

لقد طال على الليل حتى مللته ، ولكنني لا أسأل الله أن ينفرج لي سواده عن بياض النهار ، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باق حتى لا أرى وجه النهار ، بل ليت النهار يأتي ، فقد مللت هذا الظلام .

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك ، ودفنت من قبلكما أخويكما فأنا في كل يوم أستقبل زائرًا جديدًا ، وأودع ضيفًا راحلاً .. فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب .

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فأصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقًا مبعثرة في زوايا القبور ، ولم يبق لي منها إلا دماء قليل لا أحسبه باقيًا على الدهر ، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بإخوته من قبل .

لماذا ذهبتم يا بني بعدما جئتم ؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما أسفت خلو يدي منكم ، لأنني ما تعودت أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي ؛ ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي عن طريقي التي أسير فيها ، وأن يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني ، ولا يحسن إليّ ولا يسيء ولا يتقدم إليّ بخير ولا شر ، ولا يتراءى لي مبتسمًا ، ولا مقطبًا، ولا ضاحكًا ، ولا باكيًا ، لو أنه رضي مني بذلك ، ولكنه كان أذكى قلبًا ، وأنفذ بصرًا ، من أن يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يدي ، وما كنت أجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها ، وكان لابد أن يجري في سنة الشقاء التي أخذ على نفسه أن يجريها في الناس جميعًا ، فلما عجز عن أن يدخل إلى من باب الطمع ، دخل إلى من باب الأمل ، فهو يمنحني المنحة فأغتبط بها حقيقة من

الدهر ، حتى إذا علم أن بذرة الأمل التي غرســـها قد نمت وازدهرت وأنني قد اســـتعذبت طمعها واستطبت مذاقها ، كر على فانتزعها من يدي أنعم ما أكون بها ، كما تنزع الكأس الباردة من يد الظامئ الهيمان ، ليعظم وقع السهم في كبدي ، ويفدح سلب النعمى من يدي ، لولا ذلك ما نال مني منالاً ، ولا وجد إليّ سبيلاً .

يا بني ، إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، أو على شاطئ غدير من غدرانها ، أو تحت ظلال قصر من قصورها فاذكروني مثل ما أذكركم ، وقفوا بين يدي ربكم صفًا واحدًا كما يقف بين يديه المصلون ومدوا إليه أكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولا له : اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المســكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شـقاء الحياة وبأســـاءها مالا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به ، والحنين إليه ، ما ينغض علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك ، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذابًا كثيراً ، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتي به إلينا .. لا بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتي بي إليكم . فإن الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي كما كنا .

■ ■ ■

## مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه . أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها ، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان ؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشـــه ، وهذه النيرات حور وولدان ؟ أم فص من ماس ما يتلألأ ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار ؟ أم مرآة صافية ، وهذه الهالة الدائرة بك إطار ؛ أم عين ثرة ثجاجة ؟ وهذه الأشعة جداول تتدفق ؟ أو تنور مسجور ، وهذه الكواكب شرر يتألق ؟!

أيها القمر المنير :

إنك أنرت الأرض : وهادها ونجادها ، وســـهلها ووعرها ، وعامرها وغامرها ؛ فهل لك أن تشرـق في نفسي فتنير ظلمتها ، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان ؟

أيها القمر المنير :

إن بيني وبينك شبهًا واتصالاً ؛ أنت وحيد في سمائك ، وأنا وحيد في أرضي كلانا يقطع شوطه صامتًا هادئًا منكسرًـا حزينًا ، لا يلوي على أحد ولا يلوي أحد عليه ، وكلانا يبرز للآخر في ظلمة الليل فيســايره ويناجيه ، يراني الرائي فيحسبني سعيدًا ، لأنه يغتر بابتسامة في ثغري ، وطلاقة في وجهي ، ولو كشف له عن نفسيـــ ورأى ما تنطوي عليه من الهموم والأحزان لبكى لي بكاء الحزين إثر الحزين ، ويراك الرائي فيحســبك مغتبطًا مسرـورًا ، لأنه يغتر بجمال وجهك ولمعان جبينك ، وصــفاء أديمك ، ولو كشــف له عن عالمك لرآه عالمًا خرابًا ، وكونًا يبابًا لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر ، ولا ينطق إنسان ، ولا ينغم حيوان .

أيها القمر المنير :

كان لي حبيب يملأ نفسي نورًا ، وقلبي لذةً وسرورًا ، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد فرق الدهر بيني وبينه ، فهل لك أن تحدثني عنه ، وتكشـــف لي عن مكان وجوده ؟ فربما كان ينظر إليك نظري ، ويناجيك مناجاتي ويرجوك رجائي .

وهأنذا يخيل إلى أني أرى صورته في مرآتك ، وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ، فأزداد شوقًا إليه ، وحزنًا عليه .. فابق في مكانك طويلاً تطل وقفتنا ، ويدوم اجتماعنا .

أيها القمر المنير :

**مالي أراك تنحدر قليلاً قليلاً إلى مغربك كأنك تريد أن تفارقني ، ومالي أرى نورك الســاطع قد أخذ في الانقباض شيئًا فشيئًا ، وما هذا السيف المسلول إلي يلمع من جانب الأفق على رأسك ؟**

**قف قليلاً ، لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني وحيدًا ، فإني لا أعرف غيرك ، ولا آنس بمخلوق سواك .**

**آه لقد طلع الفجر ، ففارقني مؤنسي ، وارتحل عني صديقي ، فمتى تنقضي وحشة النهار ، ويقبل إلى أنس الظلام !!**

■ ■ ■

## أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعًا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته ، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر ، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حبًا ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب : فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعوامًا طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه ، لا فرق بيني وبينه إلا لأنه يسمى ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة ، وأنه فتش عنها فوجدها ، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت إليها سبيلاً .

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصًا في أثواب بائع وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد ، فعلمت أنه سارق للدينار الثاني ، ولو وكل إلى أمر القضاء ما هان على أن أعاقب لصوص الدراهم ، وأغفل لصوص الدنانير ، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه .

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ، ولكني أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذي يستحقه على ما بذل من جهد في جلب السلعة وما أنفق من راحته في سبيل صونها وإحرازها ، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه : أن الأول بدل الجد والعمل والثاني بدل الغش والكذب .

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه ، أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب : فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه لها ، ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفةً واتفاقًا ، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم ، ودان البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته إليه حكم القانون عليه . كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعه من صنائعه .

فتشــت عن الفضــيلة في قصــور الأغنياء فرأيت الغني إما شــحيحًا أو متلافًا ، أما الأول فلو كان جارًا لبيت فاطمة رضي الله عنها و سمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد إصبعه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة ، ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان ، وأما الثاني : فماله بين الثغرين : ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء .. فعلى يد أي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء ؟

فتشــت عنها في مجالس الســياســة ، فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرــط : ألفاظ مترادفة معناها الكذب ، فرأيت أن الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته ، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض (تعريفته) ، وذاك ينقض معاهدته ، رأيت أن أعدى عدو للإنســـان الإنســـان ، وأن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومســتودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور ســفنها وفوق متون طياراتها ما شــاء الله أن تعده لأختها من الموت وأفانين العذاب حتى إذا وقع الحتف بينهما على حد من الحدود أو جدار من الجدران ، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية أظفارًا كأظفاره وأنيابًا كأنيابه ، فشــحذ الأولى وكشرــ عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها إلا بنفســه التي بين جنبيه ، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما ؟ وعلام تقتتلان ؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ؟ ومتى ابتدأت الخصـــومة بينكما ، وعهدي بكما أنكما ما تعارفتما إلا في الســاعة التي اقتتلتما فيها ؟ لعرفت أنهما مخدوعان عن نفســيهما ، وأنهما ما خرجا من ديارهما ليضــعا درة في تاج الملك ، أو نيشانًا على صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم - إلا من رحم الله - يتجرون بالعقول في أسواق الجهل ، ورأيت كلاً منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى الأخلاق فيفسدها ، والمشاعر فيقتلها ، ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها .

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها ، فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير ، أو في مغارات اللصوص ، أو بين جدران السجون .

ســيقول كثير من الناس : قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره ، فالفضــيلة لا تزال تجد في صــدور الكثير من الناس صــدرًا رحبًا ، وموردًا عذبًا ؛ وإني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم : إني لا أنكر وجود الفضيلة ، ولكني أجهل مكانها ، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري ، حتى ما أجد في صفحة السماء نجمًا لامعًا ، ولا كوكبًا طالعًا .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها ، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغنياء ، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنًا ، فمن لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل ؟

إن كان صحيحًا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ، فسعادتي فيها أن أعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدقني الود وأصدقه ، فيقنعه منى ودي وإخلاصي دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض ، وأن يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطمع ، شريف القلب ، فلا يحمل حقدًا ولا يحفظ وترًا . ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره ؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ، ولا يبغض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها .

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها ، وترن أطيارها ، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها ، انسياب الأفاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى أنامل النسائم تعبث بمنثورها الأوراق ، عبث الهوى بألباب العشاق ، وأسمع ما بين صفير البلابل ، فلا يسرني منها منظر ، ولا يطربني مسمع ؛ لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدها .

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني ، وثقل حديثها في مسمعي ، حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها .

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت ، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى      وصوت إنسان فكدت أطير

■ ■ ■

## الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعًا يده على بطنه كأنما يشكو ألمًا ، فرثيت لحاله وسألته : ما باله ؟ فشكا إلى الجوع ، ففثأته عنه ببعض ما قدرت عليه ، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة ، فأدهشني أني رأيته واضعًا يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسألته عما به فشكا إلى البطنة ، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقمًا ولا ألمًا .

لقد كان جديرًا به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ، ويطفئ غلته ؛ ولكنه كان محبًا لنفسه ، مغاليًا بها ، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ، ولا يطيب عيشه . وهكذا يصدق المثل القائل : بطنة الغني انتقام لجوع الفقير .

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحت الأرض بنباتها ، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما واحتجنهما دونه ، فأصبح فقيراً معدمًا ، شاكيًا متظلمًا ، غرماؤه المياسير الأغنياء ، لا الأرض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس . فأستطيع أن أتصور كما يتصورون ، حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال ، وأولى بامتلاكه من الضعفاء ؛ إن كانت القوة حجتهم عليه ، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم ؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع . وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم : إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم ؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقًا عليهم أن يردوا ما اغتصبوا منهم ، فإن كنتم لابد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال إلى أربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان ، وما أقسى قلوبهم ، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد بردًا وقرًا ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغض عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقًا إلى فتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفًا على فضلاتها ، بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش ، ليكسر قلبه وينغص عليه

عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته : أنا سعيد لأني غني ، وأنت شقي لأنك فقير .

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، لولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليتمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم ، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان حتى أراه محسنًا ؛ لأني لا أعتمد فصلاً صحيحًا بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان ، وإني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان ، ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعًا ؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه ؛ وأما الرابع : وهو الذي يحسن إلى نفسه ، فلا أعلم له مكانًا ، ولا أجد إليه سبيلاً ، واحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني « ديوجين الكلبي » حينما سئل : ما يصنع بمصباحه ؟ وكان يدور به في بياض النهار ، فقال : « أفتش عن إنسان » .

■ ■ ■

## مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني أمشي ــ في قفرة جرداء قد انبســطت رمالها على ســطحها متجعدة تجعد الأمواج المتكسرة على سطح القاموس المحيط وكانت الشمس قد طفلت للإياب فلم أر في بطحائها ظلاً غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر فأوسعتني طولاً ورسمتني ميلاً .

أنشأت أمشي ـ لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا ، وأنى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها ، وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها : وطار طائر الليل من مكمنه . ونشر الظلام أجنحته السوداء في الأفق حتى وجدتني أحير من دمعة وجد في مقلة عاشق ؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء ، ولا أعلم هل أنا سر كامن في باطن الظلماء ، أو حوت مضطرب في أعماق الماء . وأحيانًا كان يخيل إلى أني في منجم من مناجم الفحم فأمد يدي أتلمس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحد منها ؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدأ ينفض صبغته .وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا ، فإذا أنا بين يدي جبل عال كأنما هو جدار قائم يمســك الســماء أن تقع على الأرض ، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر ، ومن شعاعها الرداء الأصفر .

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبي من الهم وعقلي من الخبال ، حينما رأيت أن صعود السماء اقرب إلى الأمل ، من صعود هذا الجبل ، وحرت بين الأقدام والإحجام ، فلم أرَ بدًا من الاستسلام لمقدور الحمام ، ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس ، فاضطجعت عليها وأتمثل بقول أبي العلاء :

ضــجعة الموت رقدة يســتريح ال- -جســم فيها والعيش مثل الســهاد

وما هي إلا غمضة الطرف إن أشعرت بأنها تتحرك قليلاً قليلاً ، ثم استقلت ثم طارت ، فكدت أحسب أنه الموت قد نزل ، وأنها الروح تصعد إلى الملأ الأعلى .. لولا أن فتحت عيني فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائرًا أشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها ، واستمر ذاهبًا بي في أفق السماء ، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط إلى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك أحسست بسلسبيل بارد من الأمل يتسرب إلى قلبي فينقع غلته ، ويطفئ لوعته، لأنني رأيت السفح الثاني ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران .

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الأكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كأنها العصافير السوداء ، والحمائم البيضاء ، وكأن ما ألم بنفسي من السرور أنساني ما ألم بجسمي من النصب فانحدرت إليها فما بلغتها حتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ ، فذعر مني كما يذعر الإنسان لرؤية الجان ، وما كان الذي قام في نفسه مني بأكثر مما قام في نفسي منه ، لولا أني ألفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكأنما ألهمت لغته ، فحييته بها فحياني وهو يقول : ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة ، أو أن في العالم إنسانًا غير هذا الإنسان ، فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بي ودعاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعامًا شهيًا ومهد لي مرقدًا وثيراً . وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه ، فنمت نومًا هادئًا مطمئنًا لا تروعني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك .

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفًا واحدًا أن ييسر لها الله عسرها ، ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره ؛ فأخذ منظرها هذا من نفسي مأخذًا عظيمًا فلم أرَ بدًا من الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها ؛ وعجبت أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخًا في نفوس أهل هذه المدينة ، ولم يرسل إليها رسول ، ولم ينزل عليها كتاب ، فلما فرغنا من الصلاة التفت إلى صاحب البيت وقلت له : أراكم تتعبدون ، فمن تعبدون ؟ وتصلون ، فمن الذي تدعون ؟ قال : نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها ؛ قلت : هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأيناه في أثاره ومصنوعاته ؛ رأيناه في السماء والماء ، والفلك الدائم والنجم السائر ، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات ، ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ، قلت : ولم تعبدونه ؟ قال شكرًا له على نعمة الخلق والرزق ، وأن أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة ؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين ، والمحسن إلى المحسنين ، فقلت في نفسي : لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا ، ثم سألته أين تذهبون بعد الموت ؟ قال : إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ؛ قلت : لعلك تريد الجنة والنار؟ قال : لا أفهم ما تقول ، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيراً على إحسانه ، كما يأبى عدله أن يسوي بين المحسن والمسيء ؛ قلت : متى يكون المحسن محسنًا والمسيء مسيئًا ، قال : الإحسان عمل الخير ، والإساءة عمل الشر ؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالإضرار بأخيه ، أو من يقصر في دفع

الأذى عنه ، فقلت في نفسي ـ ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم في الحيض والاستحاضة والمذي والودي والحدث الأكبر والحدث الأصغر . وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم ، والدور والتسلسل ، وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته ، ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه - يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار ، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ، ولا يميزون بين الدين والتين .

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيرني في المدينة ، فانحدر بي إليها ؛ فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة ؛ ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم ، مجدين في شؤونهم .. صغارًا وكبارًا .. رجالاً ونساءً .. ما فيهم فقير يتسول .. ولا متبطل يتثائب ويتململ ، وأغرب ما استهوى نظري أنني لم أرَ في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم .. ومطاعمهم ومشاربهم ، وهيآتهم وأزيائهم ، كأن جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة فسألت الشيخ : ألا يوجد فيكم غني وفقير ، و سيد ومسود ؟ قال : لا يا سيدي ، حسب الرجل منا بيت يؤويه ، ومزرعة تقيته ودابة تحمل أثقاله ، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لأنه لا يوجد فينا غني وفقير . قلت لابد أن يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان ! قال : أما الكسلان فلا وجود له بيننا ؛ لأنه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل ، وأما العاجز فنحدب عليه ونحسن إليه ، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلاً لأننا إنما نمنحه جزءً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين ، ورحمة البائسين .

وإنه ليحدثني بهذا الحديث إذ لاحت بنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البني بحسن نظامها ، وجمال هندامها ، فقلت للشيخ : هل أرى قصر ـ الملك ، قال لا ، ولكنه قصر ـ رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجن دون عبادة أرضهم ومالهم ليعلو فإنه ما أراح رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها ، وحلمها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض وأنواع الأسقام ما بغض إليه العيش ، وحبب إليه الموت : لم يحمه قصره ، ولم يغن عنه ماله ، فهو عبرة للمعتبرين ، وموعظة السابلة ، فكبر الرجل في ذرعي وعظم في عيني ،أكبرت فيه وفي أمته هذه الخلال الشريفة ، والأخلاق العالية ؛ وقلت لنفسي إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة

وأصول التربية وفنون الآداب ، لتعجز عن أن تخرج للناس رجالاً يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم وأردت - على ذكر المدارس - أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ : هل لك أن تزيرني مدرسة من مدارسكم ؟ فعجب لسؤالي وقال : ما المدرسة؟ فكان عجبي لجوابه أكثر من عجبه لسؤالي وقلت : المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون ؛ قال : ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار ؟ قلت : ما يصلح شأنهم وينفعهم في معا شهم وميعادهم؛ قال : وأي حاجة بنا إلى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ؟ إنا يا سيدي أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا ، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم . فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع ، نعلمهم فيها كيف يرمون البذور .. وكيف يستنبتونها .. وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها .. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم .. وإنا لا نعرف علمًا غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا .. ونستعين به على عبادة ربنا . قلت ألكم حاكم يتولى أموركم ؟ قال لنا حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته .. فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض . قلت : أليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ أحكامه ؟ قال كلنا جنده وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى .

قلت : أليس له سجنًا يسجن فيه المجرمين ؟

قال : لا .. حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به .. وأن أحدنا لا يؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف من السماء على أن يرى نفسه بغيضًا إلى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في أعينهم .. لا يرفعون إليه طرفًا ولا يقيمون له وزنًا .

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه .. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق .. فلم أرَ فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتًا أسعد حظًّا ولا أنعم عيشًا ولا أروح بالاً من هذا البيت .

تلك هي « مدينة السعادة » التي يعيش أهلها سعداء لا يشكون همًا .. لأنهم قانعون . ولا يمسكون في أنفسهم حقدًا .. لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفًا لأنهم آمنون .

تلك « مدينة الســعادة » التي رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها .. لولا أن لله في خلقه ســنة لا تتبدل .. و شأنًا لا يتحول . فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي في منزل الشيخ فلم أ ستيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ؛ فلا السهل ولا الجبل .. ولا الشيخ ولا المزرعة .. ولا المدينة ولا السعادة :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى   أنيقًا وبســتانًا من النور حاليًا
أجد لنا طيب المكان وحســنه   مني فتمنينا فكنت الأمانيا

■ ■ ■

## أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك أخذت على الدهر عهدًا أن يكون لك كما تريد في جميع شــؤونك وأطوارك .. وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي ، فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها . حتى تكر عليها راجعة فتســتردها .. وأن هذه ســنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم .. سواء في ذلك ساكن القصر و ساكن الكوخ .. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء .. ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفض من حزنك وكفكف من دمعك .. فما أنت بأول غرض أصـابه سـهم الزمان . وما مصـابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان .

أنت حزين لأن نجمًا زاهرًا من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينك نورًا .. وقلبك سرورًا ،وما هي إلا كرة الطرف أن افتقدته .. فما وجدته . ولو أنك أجملت في أملك لما غلوت في حزنك .. ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لرأيت برقًا خاطفًا .. ما تظنه نجمًا زاهرًا . وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسـعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها .. ونظر إليها نظرة المسـتريب بها .. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها . فإن بقيت في يده فذاك ؛ وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت ؛ ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق .

■ ■ ■

## إلى الدير

مســـكين ذلك الفتى الذي رأيته صـــباح أمس منزويًا في ركن من الأركان في أحد الأندية وقد ظللت جبينه سحابة سوداء من الحزن ، وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر أن قلبه يتنزى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه أراد بنفسه خيرًا لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء ، فبعدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والأحزان .

ســـألته : ما بالك أيها الصـــديق؟ قال : لا شيء ، قلت : أنت تكتمني ما في نفســـك ، ولو عرفتني ما كتمتني ، قال : ما جهلتك مذ عرفتك ، ولكنني أعطيت الله تعالى عهدًا مذ خلقت ألا أشـكو إلا من أرجو عنده البرء ، وما أنا براجٍ عندك ولا عند أحد من الناس براءً من دائي ، قلت : هبني طبيبًا ، والطبيب وإن كان لا يشـــفي إلا نادرًا فإنه يســـكن غالبًا ويعزي دائمًا . فإن أنا عجزت عن معالجتك فلن أعجز عن تعزيتك ، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه ، وإلا طار بالقدر ، طيران الهم بالصدر .

فأصــغى إلى كلماتي واســتخذى لها وأنشــأ يحدثني حديثًا تمازجه العبرات وتقطعه الزفرات ، يقول : زوجني أبي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وإرضـاء نفســها وهو يحســب أنه قد أحســن إلي بســليلة المجد ، وربيبة النعمة ، ومالكة الدور ، وســاكنة القصور ؛ أجل إنها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عنه - غفر الله له! - أنني ما كنت أريد أن أكون تاجرًا أكسب مالاً ، بل زوجًا ، وأن أجد بجانبي نفسًا يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي ، لا تكذبني في خير ولا شر وإني أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقًا في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ، ولبس ثوبها! على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها ، فقد كانت لها خادم لملابسـها ، وأخرى لشـعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ، ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها ، وطبيب لا يغب عن زيارتها ، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها .. ولم تكن ممن أنعم الله عليهم بنعمة الجمال .. فكانت تنفق ما يزيد عن نصـــف دخلها في الحســـن المجلوب والجمال المكذوب .. وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العذاب تخيلاً وتقديرًا ، بل كانت تقيم على من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب المحيط بها حراسًا كحراس الليل وجوا سيس كجوا سيس الإنكليز ، يرقبن مواقع نظري ومواطئ قدمي ، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي ــ فتغار علي من الكواكب إذا رأتني أنظر إليها .. وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم أني أحبه وأؤثره .. وتحسبها آهة الوجد أو دمعة إذا رأتني أتأوه من آلام عشرتها أو أبكي لعظم مصيبتي فيها .. وما هي بغيرة

الحب ، ولكنها الأثرة قبحها الله وقبح كل من تأتي به ، وأكثر ما كان يغيظني منها : أنها ما كانت تفتح علي باب الحساب على اللفتات والخطوات إلا في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسي أو بكتابي ، فما أكاد أنتفع بواحد منهما .. فإن سكت أغضبها سكوتي وإن نطقت أغضبها حديثي . وإن قرأت في كتابي ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بها لأستطيع أن أتخذها معتصمًا أعتصم به من محادثتها ومسامرتها .. فكان الكتاب في نظرها أعدى أعدائها وأبغض الأشياء إليها ، وجملة القول أنها كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها ، وأنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها ودمية قصرها ، وأداة لهوها ولعبها ، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي حقًا من حقوقها ، ولا أبكر لمزاولة أعمالي ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشمل إلا على نقد الأزياء واغتياب النساء . فإن وافيت فذاك وإلا استحالت في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس ، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ . فكنت - بين ألم رضاها وعذاب غضبها - في شقاء حبب إليّ الموت وبغض إليّ وجه الحياة .. وبعد : فقد رأيت أن العيش معها مستحيل .. فلم أرَ بدًا من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليّ من المجد .. ولا أسمج في نظري من المال . قلت : ولكني لا أزال أراك حزينًا حتى الساعة . قال : نعم لأنني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة .. ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت : ليكونن لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول .. بعد ما صار إلي الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار .. فهيأ لي الحظ جارًا ملاصقًا ما زلت أسمع مذ حل في جواري أن في بيته فتاة جميلة ما زال يعتني بأمرها حتى خرجها وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها .. وسيدة أترابها علمًا وفضلاً وتهذيبًا وأدبًا . فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها .. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها .. فوقعت في نفسي أحسن موقع .

* وحلت مكانًا لم يكن حل من قبل *

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني فامتلأ قلبي فرحًا وسرورًا .. وخيل إليّ أنني أرى في سماء الآمال نجمًا لامعًا ينير ظلمة حياتي ، و سجلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته ، فإني لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته ، ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد ، إذا بالبريد قد هجم علي بهذا الكتاب ، فهاكه فاقرأه ؛ فإن فيه بقية قصتي ، وسر نكبتي . ثم ألقى إليّ بكتاب معنون باسمه ، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه ، ووجدت مع البطاقة كتابًا فقرأت فيه ما يأتي :

« علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنك عما قليل ســـتكون زوجها ، ولعمري لقد كذبك نظرك ، وخدعك من قال لك أنك ستكون سعيدًا بها ، فإنها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك ، ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشـــقها ، فاعدل عن رأيك فيها ، وانفض يدك منها ، وإن أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظر إلى الصور المرسلة مع هذا الكتاب ؟

التوقيع

فما نظرت الصـورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء ، فأحســـت برعشـة تتمشى في أعضـائي ، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، إلا أنني تماسكت قليلاً ، فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما اســـتطعت أن أقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد ما انكشف لك سرها ، وظهرت لك حقيقتها ، ولو كنت مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها ، إلى الاستغفار من حبها ، وحمدًا لله على ما ألهم من صواب الرأي فيها ؛ أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن ، فإني لا أرى لك إلا أن تترهب وتتعزب ، وأن تقول ما قاله «هملت» وقد زهد في الزواج بعدما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها : « إلى الدير ... إلى الدير » . .

■ ■ ■

## الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعرًا بلا قافية ولا بحر ، لأني أريد أن أخاطب القلب وجهًا لوجه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر .

إن البذور تلقى في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها ، وجعل عاليها سافلها ، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا دخلته ، وتخللت أجزاءه ، وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد : كن رحيمًا ، أشعر قلبك الرحمة ، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : إني غير سعيد ، لأن بين جنبي قلبًا يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب ، أجل : فليكن ذلك كذلك ، ولكن أطعم الجائع واكس العاري ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك ، ولا تعجب أن يأتيك النور من ســواد الحلك ، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل ، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها .. ورثت حبالها .. وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد .. ولم يبق ما يعزي الإنسان عنها إلا لذة واحدة : هي لذة الإحسان .

إن منظر الشـــاكر منظر جميل جذاب .. ونغمة ثنائه وحمده أوقع في الســـمع من العود في هزجه ورمله وأعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول .

أحســـن إلى الفقراء والبائســين ، وأعدك وعدًا صــادقًا أنك ســتمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتســمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ، إنك أكرم مخلوق ، وأشرف إنســان ، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرًا بما فعلت .. فيدعو صـــاحبه بدعائه ، ويرجو برجائه .. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة ما يجده الصالحون إذا ذكروا في الملإ الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على مخزون أو مفؤود فتبتســـم سرورًا ببكائك .. واغتباطًا بدموعك ، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي ســـطور من نور .. تســـجل لك في تلك الصحيفة البيضاء : إنك إنسان .

إن السماء تبكي بدموع لغمام .. ويخفق قلبها بلمعان البرق .. وتصرخ بهدير الرعد ، وإن الأرض تئن بحفيف الريح .. وتضج بأمواج البحر ، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان .. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأنينها .

إن اليد التي تصون الدموع ، أفضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور ، أشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيي الميت ، ومن يميت الحي .

إن الرحمة كلمة صغيرة .. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها . والشمس في حقيقتها .

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم .. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة .

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم .. ولأقفرت الجفون من المدامع .. ولاطمأنت الجنوب في المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه . ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعًا .. بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته . ويسد حاجته .. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجن دونه رزقه .. فتغير نظام القسمة العادلة .. وتشوه وجهها الجميل .. ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل .

الفرد هو المجتمع .. وإنما يتعدد بتعدد الصور .. أتدري متى يكون الإنسان إنسانًا؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه .. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها ، فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها ، انفرد عنها واستوحش من نفسه ، وإذا كان الأنس مأخذ الإنسان المجتمع .. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع .

وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد ؛ إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم .

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل .. فإذا مشى مشى مندفعًا مندلثًا لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة ، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراق في الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه ، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته .. لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها .. ولو استطاع أن يهدم بيتًا ليربح حجرًا لفعل .. وإن من الناس لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره .. يبيت ليله حزينًا كئيبًا لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له ، وإن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة ، بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضرّي نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه . حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه .. وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها ، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية ، أو عن قلبه رأيت حجرًا صلدًا من أحجار الغرانيت لا يبض بقطرة من الرحمة .. ولا تخلص إليه نسمة من العظة .

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله أن تكون واحدًا من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية .. بل أعظك ألا تدنو من واحد منهم أو تعترض طريقه .. فربما بدا له أن يأكلك غير حافل بك .. ولا آسف عليك .

أيها الإنسان . ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها ، ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار ، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة .

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساومًا يساومها فيه فتعود به سالمًا إلى كسر بيتها .

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ، ولأن الله قد وكل أمرها إليك ، وما كان لك أن تكذب ثقته بك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجرًا تربح فيه ليكون من الخاسرين .

ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكي بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يبين .. ارحمه وكذب من يقول إن الإنسان طبع على ضرائب لؤم ، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد إليه يدًا .

ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء ، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، إن الله وهبها فضـاء لا نهاية له فلا تغتصـبها حقها فتضـعها في محبس لا يسـع مد جناحها ، أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار ، وفي الغابات ، وعلى شواطئ الأنهار ، وترى منظرها وهي طائرة في جو الســماء ، فيخيل إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار .

أيها الســعداء أحســنوا إلى البائســين والفقراء ، وامســحوا دموع الأشــقياء ، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

■ ■ ■

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها ، ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة بأنواع من الخلق لا أحصيهم عددًا ، فعلمت أني بعثت ، وأنه يوم القيامة ، فساورني من الهم ما ساورني حيث ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني القيامة ، وقلت : من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعًا ، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر ، فتماسكت بضعة أشهر ، ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلاً ، فزينت لي نفسي الكاذبة أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان ، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لأسترحمه وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انفضاض المحشر ، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة باسمه كما كنت أرقي بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة و سادتها ، فما أبه لي ولا فهم كلمة مما أقول ، فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه ؛ إلا أنه كان أرق منه وألين جانبًا ، فأشار علي بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه ، وأفهمني أن الأمر موكول إليه ، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به ، فبينا أنا أتخلل الصفوف ، وأزاحم الوقوف ، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم ، وأمعنت النظر فيه ، فإذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، وإذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه ، هذا يقول له : رويت بيتي على غير وجهه ، وذاك يقول : أعربته على غير ما أردت وذهبت ، فدفعني الفضول كما دفعهم إلى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت ، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت : قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب ، إنها شؤم الآخرة والأولى .

وقفت أحير من ضب في حمّارة قيظ لا أدري ما آخذ ، وما أدع ، حتى رميت بطرفي فإذا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في لفيف من العترة الطاهرة النبوية فدلفت إليه وأبثثته أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال : لا عليك ، ألك شاهد بالتوبة؟ قلت : نعم، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي ، فقال : تريث قليلاً حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أمرك ، فهي تمت إلى أبيها بما لا نمت به وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ، ثم تعود إلى مستقرها ؛ فإنا لكذلك ، وإذا بمناد ينادي أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد ﷺ ، فهرعت إليها ، فرأيتها راكبة مع إخوتها وجواريها على أفراس من نور ، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري ، فأنجز وعده ، فقالت لأخيها إبراهيم : دونك الرجل ، فقال : تعلق بركابي ، فتعلقت فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رؤوس القرون ، حتى وافينا محمدًا ﷺ ، واقفًا لشهادة

القضـاء ، فقصـت عليه فاطمة ما علمت من أمري ، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسـمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحًا مستبشرًا ، وما كنت أقدر أن بين يدي عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدتني لا أسـتمسـك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها أن تعبر معي فأمسـكت بيدي ، فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لها : احمليني زقفونة ، فقالت : وما زقفونة؟ فقلت : أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب :

صـلحـت حـالتي إلى الخلف حتى     صرت أمشيـ إلى الـورا زقـفـونـة

فقالت : ما سـمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب ، فقلت : ألقي يدي فوق كتفيك ، وأجعل بطني إلى ظهرك ، فحملتني ، وجازت بي الصرـاط كالبرق الخاطف ، حتى صرت إلى باب الجنة ، فرمت الدخول فوقف رضـوان في وجهي وقال : أين جوازك فبعلت بالأمر ؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شـجرة صفصاف فعالجته على أن يعطيني منها ورقة أعود بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى ؛ فقلت ، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي : أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء ، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء لما وصل شاعر إلى درهم ، ولا سائل إلى سحتوت ، ولهلك الفقراء بؤسًا وجوعًا ، فسمع إبراهيم عليه السلام حواري فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر إليّ شزرًا فدخلت ، فرأيت ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

رأيت أنهارًا من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، وأصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر ، إذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضًا قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكؤوس من الزبرجد ، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لأهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خمار ما باعوا قطرة منها بكل ما تشـتمل عليه بابل وقطربل من البواطي والدنان ، ولو نظر الأقيشر الأسدي بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكؤوس لخجل من نفسه أن يقول :

أفنى تلادي وما جمعت من نشـب     قـرع الـقـوازيـز أفـواه الأبـاريـق

وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سـطحها على صـورة الطيور كالكراكي والطواويس والبط والعنادليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت :

يعمن فيهـا بـأوسـاط مجنحـة     كـالطير تنشرـ في جو خوافيهـا

ورأيت أنهارًا من لبن ، وأنهارًا من عســـل لا يدرك الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها .

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة ن ثم تمثلت في نظري مصــغرة ، فإذا هي ســطور من النور ، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء ، قرأتها فرأيتها ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [محمد:١٥] .

ظللت أمشيــ فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظرًا عجبًا ينسيــ الســابق ، ويشــوق إلى اللاحق ، فوددت لو طويت لي الأرض طيًا فأتعجل النظر إلى ما غاب عني من الجنة وبدائعها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسيــ حتى رأيت بين يدي فرسًــا من الجوهر المتخير مسرــجًا ملجمًا فعلمت أني قد ســـعدت وأنها الأمنية التي كنت أتمناها ، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق من السحاب ، والسيف من القراب ، وعلى ما جهدته لم يشك إليَّ ما شكاه جواد عنترة العبسي إليه في قوله :

فـازور من وقع القنا بلبانـه  وشـــكـا إليّ بـعـبرة وتـحـمـحـم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله :

تشـــكي الكميت الجري لما جهدت-  -ه وبين لو يســـتطيع أن يتكلما

ذكرت أني ، وأنا في الدار الفانية كنت أســـمع بذكر الذاهبين الأولين من الأدباء والشــعراء والرواة ، فآسف على أن لم أكن في زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم ، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار ، وهل سعدوا أو شقوا ، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء ، ما لم يقيض في دار الفناء ؟

ثم رميت بطرفي فإذا فارس يحضرـ فرســه في الهواء إحضــارًا حتى تقاربنا فتماســت الركب واختلفت الأعناق ، فقال : انتســـب ، فقلت : فلان ، ومن أنت يرحمك الله ، وقد فعل ؟ فقال : عدي بن زيد العبادي ، فدهشـــت وقلت : عدي بن زيد في الجنة بعد الزيغ والضـــلال؟ فقال أنا عيســـوي ، وأنت محمدي ، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره ، وبلوغ دعوته ، فقلت : لا نكران ؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك ، وأين استهتارك في قولك :

بكر العـاذلون في وضـــح الصــبح  يـقـولـون لي أمـا تســـتـفـيـق
ودعوا بـالصـــبوح فجرًا فجـاءت  قـيـنـة في يمـيـنـهـا إبـريـق

قال : غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلت : هل لك علم بجماعة الشـعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة! فقال : اصـــحبني ، فطارت بنا الخيل ، فقلت له : هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لي عضدًا أو ساقًا؟ فتبسم ، وقال : أين يذهب بك؟ نحن في دار الخلود والبقاء .

مررنا بروضـــة من رياض الجنة يخترقها غدير خمري على شـــاطئه جمع كثير على سرر متقابلين ، أو على الأرائك متكئين ، فهوى صاحبي بفر سه فهويت هويه ، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، فرحبوا بنا وهشـوا للقائنا وانتسـبنا فتعارفنا ، ثم أخذوا فيما كانوا فيه ، فإذا الأصـمعي ينشـد مروياته ، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان ، وإذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع ، وأحمد بن يحيى لا يضـــمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضـــمر ، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون :

* مثل ريح المسك ذاك ريحها *

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه و شقاءه ، وقلت في نفسي : لولا أن قريشًا صدته عن الإ سلام لكان اليوم بيننا في مجلســنا هذا ، فســمعت هاتفًا من ورائي يقول : أنا بينكم ، وفي مجلســكم ، فالتفت فإذا الأعشىـــ ميمون ، فلم أدر من أي مدخليه أعجب ، أمن مدخله إلى الجنة؟ أم من مدخله إلى نفسيـــ ، وعلمه بما هجس في صدري ؟ فعلمت أن أهل الجنة ملهمون ، ثم سألته : كيف غفر لك؟ فقال : سحبتني الزبانية إلى ســـقر فرأيت في عرصـــات القيامة رجلاً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب : الشفاعة يا محمد ، فأخذت أخذهم ، وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه ، فدنوت فسألني : ما حرمتك؟ فقلت : أنا القائل :

| | |
|---|---|
| ألا أيـهـذا الســـائـل إن يممـت | فـإن لهـا في أهـل يثرب موعـدا |
| فـآليـت لا أرثي لهـا من كلالـة | ولا من وجى حتى تلاقى محمـدا |
| متى ما تناخى عند باب ابن هاشـم | تراحى وتلقى من فواضـــلـه نـدا |
| نـبـي يـرى مـا لا تـرون وذكـره | أغـار لعمري في البلاد وأنجـدا |

فقال : ما سمعتها منك قبل اليوم ، فقلت : خدعتني عنك الناس بعدما شددت راحلتي إليك ، وكنت رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه ، فشفع لي ، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها

الخمر ، فقنعت بالرضـاب عن الشراب ، وبماء الثغر المنضـود عن ماء العنقود ، ورأيت بجانبه شـابًا ريق الشباب ، فسألت عنه فقيل لي : زهير بن أبي سلمى ، فما كدت أصدق أنه القائل :

سـئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمـانين حـولاً لا أبـالـك يسـأم

فقلت له : بم غفر الله لك؟ فقال : كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد ، وأتمنى البقاء حتى أراه ، فحال بيني وبينه الموت ، فأوصـيت به ابني كعبًا وبحيراً وكنت أؤمن بالحسـاب فما نفعني شيء ما نفعني قولي :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب أو يقدم فينقم

وإلى جانب زهير ، عبيد بن الأبرص ، فسـألته عن مصـير أمره؟ فقال : كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئًا فشيئًا حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم .

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر ، في آنية الدر ، فانتشينا جميعًا فما أفقنا إلا على حفيف رف من أوز الجنة نزل بنا ، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج ، فما أتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضـاء ، وحتى ملكنا من الطرب ما يسـتخف الحلوم ويطير بالهموم ، وقلنا : لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه ، لقرع السن على أن باع دينه بسرور محدود وأنس معدود ، ودف وعود .

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى : : ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الصـافات]فتمنيت أن أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين ، فألهمت الإذن ، فأشرت لصاحبي فقام وقمت ، وركبنا فر سينا فطارتا بنا حتى انتهيا إلى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخًا يسكنه شيخ زري الهيئة ، فأشرفنا عليه فقال : لا تعجبوا لشأني ، أنا الحطيئة .. فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي :

أرى وجهًا شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

**لما دخلت الجنة .. ولما أدركت كوخًا ولا حجرًا ؛ فتركناه .. وطلعنا ، فما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد** ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ **[الأعراف:٥٠] . فرأينا ملوكًا وأكاسرة يتضاغفون في السلاسل والأغلال ويقولون** ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ . فيهتف بهم هاتف ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧] .

**ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فإذا هي الخنساء ، تطلع مثلنا فترى رجلاً كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار . فتمتعض وتقول : يا صخرة .. هذا تأويل قولي فيك من قبل :**

**وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار**

**ورأيت هناك كثيرًا من أمثال امرئ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد ، ورأيت بشارًا بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار ، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله ، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك :**

**إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار**
**النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار**

**وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع .. وإذا إبليس يهتف بنا : يا أهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم أدخل النار بسببه حتى أخذت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلا يهنأ كثيرًا بمصيري ، فقلنا : قبحه الله ، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم ، فما كان لنا هم بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام .. فلقيناه .. فبلغناه الرسالة ، فقال : وارحمتاه له ، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل .. فأرداه الحسد فكان من المهلكين .. فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير .. وحور وولدان ، كأنهم الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .**

■ ■ ■

بنى فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصرًا فخمًا يتلألأ في تلك البقعة الخضراء تلألؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء .. ويطاول بشرفاته الشماء أفلاك السماء ، كأنه نسر محلق في الفضاء ، أو قرط معلق في أذن الجوزاء ، وكأن شرفاته آذان تفضي إليها النجوم بالأسرار ، وطاقاته أبراج تنتقل فيها الشموس والأقمار .

شـــاده مرمرًا وجلله كلسـا فللطير في ذراه وكور

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة لرسام إلا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته وأركانه حتى ليخيل إلى السالك بين أبهائه وحجراته ، ومحاريبه وعرصاته أنه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء ، والأنوار البيضاء ، إلى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء ، والنمور الرقطاء ، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الأسود ، إلى غاب تصيد فيه الأسود الظباء ، وأنشأ في كبرى ساحاته ، وأوسع باحاته : صهريجًا من المرمر مستديرًا يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعدًا كأنه سيف مجرد ، أو سهم مسدد ، فيخيل إلى الرائي أن الأرض تثأر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب ، وهذه تحاربها بالسهام والقضب . وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات ، وأغصان ، صنوان وغير صنوان ، إذا رنحتها نسائم الأسحار .. رقصت فوق بساط الأزهار ، وتحت ظلال الأثمار ، فغنت على رقصها الأطيار ، غناء الأغاريد لا غناء الأوتار ، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته ما شاء الله أن يدخر من نضائد ومقاعد ، ووسائد ومساند ، وفرش ، وعرش ، وكلل وحجل ، وتماثيل وتهاويل ، وصحاف من ذهب ، كاللهب ، وأكواب من بلور ، كالنور ، وأقفاص للحمائم والنسور ، ومقاصير للسباع والنمور ، وعربات وسيارات ، وجياد صافنات ، ووصائف وولائد ، تحيط بالمجالس والموائد .. إحاطة القلائد .. بأعناق الخرائد .. وخدم حسان .. تنتقل في الغرف والقيعان .. تنقل الولدان في غرف الجنان .

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الإهاب ، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم يرَ أمامه غير خادمه «بلال» ، وهو خصي أسود من ذوي الأسنان ، رباه صغيراً وكفله كبيراً ، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء ، فأشار إليه إشارة الواله المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء ، فجاء بها ، فتساند على نفسه حتى شرب ، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه ، فسأله : في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال؟ فأجابه : نحن في الهزيع الأخير يا سيدي ، فقال : ألم تعد سيدتك إلى الآن . قال : لا ؛ فامتعض امتعاضًا شديدًا وزفر زفرةً كادت تخترق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث

نفســه ويقول : إنها تعلم أني مريض ، وأني في حاجة إلى من يســهر بجانبي ويتعهد أمري ويرفه عني بعض ما أعالجه ، وليس بين ســكان القصرـ من هو أولى بي وأقوم عليّ منها ، وأين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقســم لي بكل محرجة من الأيمان عليه؟ أين حبها الذي كانت تهتف به في صــباحها ومســائها وبكورها وأصــائلها؟ أين النعيم الذي كنت أقلبها في أعطافه والعيش الذي كنت أرشــفها كؤوســه؟ أإن علمت أني أصبحت بين حياة لا أرجوها ، وموت لا أجد السبيل إليه برمت بي واستثقلت ظلي واستبطأت أجلي وا ستطالت ضجعتي ، فهي تفر من وجهي كل ليلة إلى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور ، آه من العيش ما أطوله ، وآه من الموت ما أبعده!

ما زال يحدث نفســه بمثل هذه الأحاديث ، حتى هاج ســاكنه واضـطربت أعصـابه . فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعًا مريرة ، بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها .

أفاق من غشيته مرة ثانية ، فلم يرَ بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها ، فسأل الخادم : ألا تعلم أين ذهبت ســيدتك يا بلال؟ قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي ، وألا تلومها في بعدها عنك ؛ فإن لها عند بعض الناس دينًا فهي تخرج كل ليلة لتتقاضــاه ؛ قال : ما عرفت قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شــيئًا من ذلك ، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الســاعة من الليل ؟ وهل أعياها أن تجد من يقوم لها بذلك ، فهي تتولاه بنفســـها ؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليه ســـنة كاملة! قال : إن بينها وبين غريمها صــكًا مكتوبًا أن يؤدي ما عليه من الدين أقســاطًا في كل ليلة قســط ، على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي ، قال : ما ســـمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصــك ، ومن هو غريمها؟ قال : أنت يا ســـيدي . فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه ، وقال : إني أكاد أجن لغرابة ما أسمع ، وأحسب أنك هاذ فيما تقول أو هازئ . فدنا منه الخادم وقال : والله يا ســـيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت ، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضـــيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكأس تشربها ، وملاعب تجرر فيها أذيالك ، ومراقص تهتك فيها أموالك ، تاركًا زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرــير تشــكو الوحشــة وتبكي الوحدة ، تتقلب على أحر من الجمر شوقًا إليك ووجدًا عليك ، فلا تعود إليها إلا إذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح ، إنك سلبتها تلك الليالي السابقة فأصبحت غريمها فيها ، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها ، ذلك هو دينها وهذا غريمها ، ألا تذكر أنك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه ، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك

اليوم حقه ، ويأبى إلا أن يأخذه عينًا بعين ونقدًا بنقد ، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته ، ويقض مضجعك كما تقض مضجعه ، وأنا أعيذك بعدلك وإنصافك أن تكون من لواة الدين ، أو تكون من الظالمين .

قال حسبك يا بلال ؛ فقد بلغت مني ، وإن لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي ، فادع لي ولدي ، قال : لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن ، قال : لا أذكر ني بعثته في وجه ما ، وأين ذهب ، قال : ذهب إلى الحانة التي يختلف إليها ، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعًا إليك أن تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك ، فكنت تعرض عني إعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال ، كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة ، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم إنما هو الذي يرتزق منه . وأن ولدك عن ذلك من الأغنياء ، فلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة ، وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه الساعة من الليل ، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه .

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده ، وإذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها ، فقال السيد : هات يدك يا بلال واحملني إلى جوار النافذة لأروح عن نفسي بعض ما ألمَّ بها ، أو أودع إلى جانبها نسمات الحياة ، ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة : فجلس على متكإٍ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابها البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة . رآهما متحابين متعاطفين ، لا يتعاتبان ولا يتشاحان ولا يشكوان همًا ولا يندبان حظًا ؛ رآهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافيًا متسلسلاً وكأنهما يحاولان أن يخرجا من إهابهما مرحًا ونشاطًا ، رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشونة المطعم فلا يشتهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة ، سمعهما يتحدثان فأصغى إليها فإذا البستاني يقول لزوجه : والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه ، وآنيته وخرثيه ، على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران ، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والأحزان . فقالت : لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض ، فقد مر به على حاله تلك عام كامل ، وهو يزداد كل يوم ضعفًا

ونحولاً ، قال : قد علمت أن الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه وأضمر اليأس منه . ولا عجب في ذلك ، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها . قالت : ما أشقاه ، أكانت نفسه عدوة إليه فجنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ، قال : ما كان عدوًا لنفسه ، ولا كانت نفسه عدوة إليه ، ولكنه كان رجلاً جاهلاً مغرورًا ، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على الدهر عهدًا بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه ؛ قالت : أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟ قال : أعلم أنه سيكون لولده ، قالت : ولكنني أعلم أنه سيكون لفلان ، قال : إن فلانًا ليس وريث السيد بل صديقه ، قالت : إنه ليس بصديق السيد ، بل صديق السيدة ، فهو خاطب زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد مماته .

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطرابًا شديدًا ، وسقط عن كرسيه وهو يقول : أشهد أني من الأشقياء . وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم .

رأى ولده لاهيًا بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته تضاحك تربًا من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله ، ورأى صديقه أو ولي عهده يأمر في القصر وينهي ، ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ، ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر ، وهنا سمع كأن هاتفًا يهتف به من السماء ويقول : أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك لوفت لك ، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك ، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك .. فأغمض عينيه وهو يقول : « فلتكن مشيئة الله » .

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعًا بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره :

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

■ ■ ■

## أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها ، والأجسام أرواحها ، لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك ، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك ، لأني أعتقد أن لك شركاء في جريمتك . فلا بد لي من أن أنصفك ، وإن كنت لا أستطيع أن أنفعك .

شريكك في الجريمة أبوك ، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صـغرك ، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيراً ما كان يبخبخ لك إذا رآك هجمت على تربك وضربته ، ويصـفق لك إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك ، أو اختطاف لقمة من يده ، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالســقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي أنت معلق به اليوم ، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات ، ويصعد الزفرات ، ولو عرف أنها جريمته ، وأنها غرس يمينه لضحك مسرورًا بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكرًا على أن لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك في يده .

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنسـاني الفاسـد الذي أغراك بها ، مهد لك السـبيل إليها ، فقد كان يســميك شـجاعًا إذا قتلت ، وذكيًا فطنًا إذا سرقت ، وعالمًا إذا احتلت ، وعاقلاً إذا خدعت ، وكان يهابك هيبته للفاتحين ، ويجلك إجلاله للفاضــلين ، وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك في مرآته وجهًا أبيض ناصعًا ، فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمال ، ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصــورتها الشــوهاء ، وهنالك ربما وددت بجدع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها وحالت المنية بينك وبينها .

شريكك في الجريمة حكومتك ، لأنها كانت تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من ســلســلة كثيرة الحلقات ، وكانت تراك تمسـك بها حلقة وتعلم ما سـينتهي إليه أمرك فلا تضرب على يدك ، ولا تعترض سبيلك ، ولو أنها فعلت لما اجترمت ، ولا وصلت إلى ما إليه وصلت .

كانت حكومتك تسـتطيع أن تعلمك وتهذب نفسـك ، وأن تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير ، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك وتشرـيدهم في مجاهل الأرض ومخارمها .. وأن تعديك على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسـك .. وأن تحسـن تأديبك في الصـغيرة قبل أن تصـل إلى الكبيرة .. ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نومًا طويلاً .. حتى إذا فعلت فعلتك اسـتيقظت على صوت صراخ المقتول .. وشمرت عن ساعدها لتمثل منظرًا من مناظر الشجاعة الكاذبة .. فاستصرخت جندها ، واستنصرت قوتها وأعدت جذعها وجلادها ، وكان كل ما فعلت أنها أعدمتك حياتك .

هؤلاء شركاؤك في الجريمة .. وأقسم لو كنت قاضيًا لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكني لا أستطيع أن أنفعك .

فيا أيها القتيل المظلوم : رحمة الله عليك .

■ ■ ■

## الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء .

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق ، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر .. و سمعت بالكذب .. وما أعد الله للكاذبين من ســـوء العذاب وأليم العقاب .. وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم .. وإجماعهم أن الصــدق فضــيلة الفضــائل والأصــل الذي تتفرع عنه جميع الأخلاق الشريفة .. والصفات الكريمة .. وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله .. وأعلق به من نفسه . سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق في نفسي ريب في أن ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء ، وعيشي من الضنك ، وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جره عليَّ شؤم الكذب ، وإن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة ، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل .. ونزعة من نزعات الشيطان ، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت ، وأعددت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعدما وجهت وجهي إلى الله تعالى و سألته أن يمدني بمعونته ونصره .

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد ، وما رأيته من آثارها ونتائجها .

الموقف الأول : جلســت في حانوتي فما وقف بي مســاوم إلا صــدقته القول في الثمن الذي اشــتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا أستطيع أن أعد نفسي رابحًا إذا تجاوزت عن بعضه .. فيأبى إلا الحطيطة فآباها عليه ، فينصرف عني استثقالاً للثمن واستعظامًا لقدره ، وما هو إلا الربح الذي اعتدت أن آخذه منه في مثل تلك الصـفقة ، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصـل الثمن فيصـغر في نظره الربح ، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني إلى سواي ، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل ، ولم يفتح الله علي بقوت يومي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق .

الموقف الثاني : جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضيقة المعروفين بمشايخ الطرق .. وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحًا غريبًا يذهب فيه إلى أنه القعود عن العمل ، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه ، وإعراض عن كل سعي يؤدي إلى أية

غاية ، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء ، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه ، أو قرأها في كتابه ، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا » . فقلت له ، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه : يا شيخ : أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتعمد إلى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل ، ألم ترَ أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطانًا إلا بعد أن أمرها بالغدو ، وهي التي ترويها القطرة ، وتشبعها الحبة ، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي ، وهو من لا تفنى مطالبه ، ولا تنتهي رغباته؟

أيها القوم ، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم إلى الكسل ، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذرًا يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلاً ، وما هو إلا العجز الفاضح ، والإسفاف الدنيء .

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ، ونادى في قومه : أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي ، فتألبوا عليَّ تألبهم على قصاع الثريد ، وأوسعوني لطمًا وصفعًا ، ثم رموا بي خارج الباب ، فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت ، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رموني بالنظر الشزر ، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم .

الموقف الثالث : لا أكتمك يا سيدي ، أني كنت أبغض زوجتي بغضًا يتصدع له القلب ، غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي ، مداورةً لها وإبقاءً على ما تحتويه يدي من صبابة مال كانت لها ، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه ، فآليت على نفسي ألا أسدل بعد اليوم من دونها حجابًا يحول بينها وبين سريرتي ، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب ، فاستوحشت مني وأظلم ما بيني وبينها ، فما هي إلا عشية أو ضحاها ، حتى وهنت تلك العقدة ، وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق .

الموقف الرابع : حضرت مجتمعًا يضم بين حاشيته جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم ، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ، ويتغلغلوا في أطواء سرائرهم ، ويغالون في ذلك مغالاة الكيمائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلاً عظيمًا من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه ، أو وقف المواقف المشهورة وقوفه ، أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام

ما لاقاه ، سمعتهم يـ سمونه خائنًا ، فوالله لأن تقع الـ سماء على الأرض أحب إلي من أن يتهم البريء أو يجازى المحسن سوءً على إحسانه ؛ سمعت ما لم أملك نفسي معه ؛ فقلت يا قوم ، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفًا ثم لا تزالون عبيد الأوهام ، أسرى الخيالات ، سراعًا إلى كل داع ، سعاة مع كل ساع ، تنظرون بغير روية ، وتحكمون بغير علم ، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه ؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم ، وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم ، أن نراكم طعمة كل آكل ، ولعبة كل لاعب ، ويستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم ، والثاني بغضكم وموجدتكم . خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم ، فأرادوا شرًا بي ! فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي !

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طومارًا كبيراً كنت ذاهبًا إلى موعد لابد لي من الوفاء به ، فرض عليَّ أن يسمعني قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعد أن كاشفته بعذري فأبى ، فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتًا بيتًا ، وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أنه لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع ، وكلما أتى على بيت منها أقبل علي بوجهه ، وأطال النظر في وجهي وحدق في عيني ، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتًا ، ثم وقف وقال : هذا هو القسم الأول من أقسام القصيدة ، فقلت : وكم عدد أقسامها يرحمك الله؟ قال : عشرة ليس فيها أصغر من أولها ، قلت : أتأذن لي أن أقول لك يا سيدي أن شعرك قبيح ، وأقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الأجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجبًا يسهل علي فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي إلا لأجله .. فتلقاني بضربة بجمع يده في صدري ، فرفعت عـ صاي وضربته بها على رأ سه ضربة ما أردت بها - يعلم الله - إلا أن أ صيب مركز الـ شعر من مخه فأفـ سده عليه فـ سقط مغـ شيًا عليه . و سقطت القـ صيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها ، وأرحت نفسي منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبتي فيها ، وكان الشرطي قد وصل إلينا فاحتملنا جميعًا إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابي هذا .

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري ، وأنر ظلمة نفسي ، فقد أشكل عليَّ الأمر ، وأصبحت أسوأ الناس بالصـــدق ظنًا ، بعدما رأيت أني ما وقفت موقفه في حياتي إلا خمس مرات ، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي ، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة أخرى ، ذلك إلى ما أقا سيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام ، وصنوف الأقسام .

***

أيها السجين :

كتبت إلي - مسح الله ما بك ، وألهمت صواب الرأي في حاليك - تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره ، وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك ، وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغًا يذهب بر شدك ، ويطير بلبك ، فما أنت بأول صادق في الأرض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شرًا ؛ وكابد ضرًا .

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مرارتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال .

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال ، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال .

إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله ، أو يرفه بها عيشه ، يحتقرها ويزدريها ، لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع .

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزانًا يزن به أخلاقه فإن اتسع عيشه اطمأن إليها ، وإن ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء ، وبين الأرذلين كثيرًا من ذوي النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء ، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده أسباب العيش ويملك ينابيعه : سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يجبب إليه نفسه ، فلابد للصادق من صدر يسع هموم العيش ، وقلب يحمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار .

الصدق جنة حفت بالمكاره ، فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية .

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال ، وكما أن لكل فضـــيلة من الفضـــائل آفة من الآفات توعر طريقها وتبعد منالها إلا على أيدي الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون ، للصادقين وهم الأقلون .

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقًا ، وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر ، وأن يوافيك المجد طائعًا مذعنًا دون أن تبذل في سبيله شيئًا من مالك أو راحتك؟

إنك إن أردت ذلك أو قدرته في نفسـك ؛ تظلم الفضـيلة ظلمًا بينًا وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال .

أيحزنك انصراف الأغنياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والإلحاد أو المروق والخيانة ، وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته ، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت ، في سبيل إحراز ما أحرزت ، فما ندموا ولا حزنوا؟

أيها السجين الشريف :

هنيئًا لك السجن الذي تكابده ، وهنيئًا لك البغض الذي تحتمله ، وهنيئًا العيش الذي تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء .

لا تظلم الصــدق ولا تكن ســيِّئ الظن به ، وكن أحرص الناس على ولائه ومودته ، وإياك أن يخدعك عنه خادع ، واصبر قليلاً يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله ، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وأرباب الكنوز كنوزهم ، لما استطاعوا إليه سبيلاً .

■ ■ ■

## النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدأون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التي يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف ، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخليناه حية رقطاء ، ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم ، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه ، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه وعلله وزحافاته .

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون ، وإلا لا ستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرًا ؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق .

أيها القوم : ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدإ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار في الزند حتى إذا شدا فاضت على أسلات أقلامه كما تفيض الكهرباء على أسلاكها ، فمن أحس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم أنه شاعر ، أو لا فليكف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير ، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة ، فوالله للمحراث في يد الفلاح ، والقدوم في يد النجار ، والمسبر في يد الحداد : أشرف وأنفع من القلم في يد النظام .

فإن غم عليكم الأمر ، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم ، فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلكم عليكم ، حتى تكونوا على بينة من أمركم .

■ ■ ■

## الحرية

ا ستيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء بجانب فراشي وتتمسح بي ، وتلح في ذلك إلحاحًا غريبًا ، فرابني أمرها ، وأهمني همها وقلت : لعلها جائعة ، فنهضـــت ، وأحضرـت لها طعامًا فعافته ، وانصرفت عنه . فقلت : لعلها ظمآنة ، فأر شدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إليَّ نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والأحزان ، فأثر في نفسي منظرها تأثيرًا شديدًا ، حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وأفرج كربتها ، وكان باب الغرفة مرتجًا ، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصـــق بي كلما رأتني أتجه نحوه ، فأدركت غرضـــها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها ، فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي ، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة ، وأعجب لشـأنها وأقول : ليت شـعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها؟ أجل . إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وإمســاكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها ، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعيًا وراء بلوغها .

وهنا ذكرت أن كثيرًا من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة ، والوحش المعتقل في القفص ، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجه الخلاص أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه .

من أصـعب المسـائل التي يحار العقل البشرـي في حلها : أن يكون الحيوان الأعجم أوسـع ميدانًا في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤمًا عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدًا بحريته كما كان سعيدًا بها قبل أن يصبح ناطقًا مدركًا؟

يحلق الطير في الجو ، ويسبح السمك في البحر ، ويهيم الوحش في الأودية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ومحبس حكومته ، من المهد إلى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالاً ، وسماها تارة ناموسًا وأخرى قانونًا ، ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلة المخيفة ، وتركه قلقًا حذرًا ، مروع القلب ، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراسًا تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله ، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما أكثر جهله! وويح له ما أشد حمقه؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيرًا له من حياة لا يرى فيها شعاعًا من أشعة الحرية ، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدإ خلقه يمشي عريانًا ، أو يلبس لباسًا واسعًا يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، أو هبة النكباء ، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل ، وكفنوه كما يكفنون الموتى ، وقالوا له : هكذا نظام الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته ، فحالوا بينه وبين ذلك ، وملأوا قلبه خوفًا من المرض أو الموت ، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب ، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي ، وأن لا يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن ، إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات .

لا سبيل إلى السعادة في الحياة ، إلا إذا عاش الإنسان فيها حرًا مطلقًا ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس .

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ، فمن عاش محرومًا منها عاش في ظلمة حالكة ، يتصل أولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثًا جديدًا ، أو طارئًا غريبًا ، وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشًا يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

إن الإنسان الذي يمد يديه لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقًا من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لأحد عنده .

■ ■ ■

## عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبي ﷺ ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء ، أو الماء أو الهواء .

إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره ، وصدقه وإخلاصه ، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ، ومشي الشجر ، ولين الحجر ؛ وذلك لأنه ما كان يريبهم في الأولى ما كان يريبهم في الأخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة ، و سحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده ، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته ، ذلك هو معنى قوله تعالى : ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﭼ .

كان ﷺ شجاع القلب ، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قومًا مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون ، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم ، ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم .

كان على ثقة من نجاح دعوته ، فكان يقول لقريش - أشد ما كانوا هزءً به وسخرية - : « يا معشر قريش ، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما أنتم له كارهون » .

كان حليمًا سمح الأخلاق فلم يزعجه إن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون منه ويضعون التراب على رأسه ، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى الجزور ، وهو في صلاته ، بل كان يقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس ، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل ، فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس إلى قلبه ، فكان يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة ، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة ، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة ، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور .

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإســلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره ، وكانت عيدًا يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله .

لقد لقي ﷺ في هجرته عناءً كثيراً ومشقةً عظمى ، فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضنًا به ، بل مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصــار ما لم يجد بينهم ، كأنما يشــعرون بأنه طالب حق ، وأن طالب الحق لابد أن يجد بين المحقين أعوانًا وأنصارًا ، فوضعوا عليه العيون والجوا سيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكرًا بعدما ترك في فراشــه ابن عمه علي بن أبي طالب ط ، عبثًا بهم وتضــليلاً لهم عن اللحاق به ، ومشىـ هو وصـاحبه أبو بكر ط يتسـلقان الصـخور ، ويتسرـبان في الأغوار والكهوف ، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب ، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق .

إن حياة النبي ﷺ أعظم مثال يجب أن يحتذيه المســلمون للوصــول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال ، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والإخلاص في العمل والثبات على الرأي وسـيلة إلى النجاح وكيف يكون الجهاد في سـبيل الحق سـببًا في علوه على الباطل .

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاســفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الإفرنج ، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل ، والبر والثبات والحب والرحمة ، والحكمة والسـياسـة ، والشرـف الحقيقي ، والإنسانية الكاملة ، وهي حياة نبينا ﷺ ، وحسبنا بها وكفى .

■ ■ ■

## الإنصاف

إذا كان لك صـــديق تحبه وتواليه ، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك ، ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطرد عندك من أعماله ، أو كان لك عدو تذم طباعه ، وتنقم منه شـؤونه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة التي حمدتها ، عدك الناس متلونًا أو مخادعًا أو ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالأمس ، وتذم في ســـاعة من تمدح في أخرى ، وقالوا : إنك تظهر ما لا تضـــمر ، وتخفي غير الذي تبدي ، ولو أنصـفوك لأعجبوا بك وبصـدقك ، ولأكبروا سـلامة قلبك من هوى النفس وضـلالها ، ولسـمّوا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقًا ، وإنصـافًا لا خداعًا ، لأنك لم تغل في حب صـديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف ، فعنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لإصلاح ما فسد من الأولى ، واعوج من الأخرى .

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك ، وحلمك وجهلك ، وصوابك وسقطك ، ليس ممن يغتبط بمودته ، أو يوثق بصـــداقته ، لأنه لا يصـــلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشـــف لك عن نفسـك ، وتصـدقك عن زينك وشـينك وحلوك ومرك ، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد أن ترى نفسه ، لا ما لا يجب أن تراه ؛ وإما منافق مخادع قد علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول ، فجاراك فيما تريد ، ليبلغ منك ما يريد .

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا ، ويقلبون الحقائق ، فيسمون الصادق كاذبًا ، والكاذب صادقًا ؛ ولكن الناس لا يعلمون .

■ ■ ■

## المدنية الغربية

سأودع في هذه النظرة الخيال والشعر ، وداع من يعلم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشـــبه منها بالجد ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جده وعمله .

إن في أيدينا معشرـ الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا ، كما أداها إلينا أسـلافنا سـالمة غير مأروضـة ولا متآكلة ، فإن فعلنا فذاك ، أو لا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء .

الأمة المصـرية أمة مسـلمة شرقية ، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضـها ، وذهبت أهرامها في سمائها ، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله ، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون .

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز ، يمسك خشاره ويفلت لبابه ، أو الراووق من الخمر ، يحتفظ بعقاره ، ويستهين برحيقه ؛ فخير له أن يتجبنها جهده ، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب .

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته ، فلا ينشط إلا في غدواته وروحاته ، وقعدته وقومته ، فإذا وجد الجد وأراد نفسـه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصـبر والجلد ، دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء والكرى بين أهداب الجفون .

يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنث في الحركات ، الثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابئ الفجور .

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها ، وضجيجها وصفيرها ، فإذا قيل له : هذه المقدمات ، فأين النتائج؟ أسـلم رجليه إلى الرياح الأربع واسـتن في فراره اسـتنان المهر الأرن فإذا سـمع صفير الصافر مات وجلاً ، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد أن يقلده في السياحة ، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع ، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئًا مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور ، وملاعب القمار ، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من الثاني أكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته ، حادثة عودته موشاة بجمل الإجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام .

يريد أن يقلده في العلم ، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديدًا لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن .

يريد أن يقلده في الإحسان والبر ، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهابًا حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب ، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب .

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها ، فيقنعه من عملها مقال تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن تربيتها التفنن في الأزياء ، والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية ، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحي بها مقصدًا ، ولا يذهب فيها إلى مذهب ، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ، ويجارونهم في أداء صور العبادات ، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب ، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي ، فينتحر كما ينتحر الغربي ، ويلحد كما يلحد ، ويستهتر في الفسوق استهتاره ، ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوبًا جمة في أخلاقهم وطباعهم ، ومذاهبهم وعاداتهم ، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها ، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس وروما وسويسرا ونيويورك ، وإن دعوناهم إلى مكرمة ، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة ، وأقوال أنبياء

الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر ؛ وإن دعوناهم إلى حرب ، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير ، وصلاح الدين ؛ ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر ، وفي وقائع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية ، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين .

إن عارًا على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي فيمصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي والمعري .

لا مانع من أن يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كتابهم و شعرائهم ، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طربًا متهورًا ، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئًا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم ، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على أن نقلدها ونتقلدها ونتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد ، فليعلم كتّاب هذه الأمة وقادتها : أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً . فلا يخدعون أمتهم عن نفسها ، ولا يفسدون عليها دينها وشرقيتها ، ولا يزينون لها تلك المدنية تزيينًا يرزؤها في استقلالها النفسي ، بعدما زرأتها السياسية في استقلالها الشخصي .

■ ■ ■

## يوم الحساب

ســاهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملني ومللته وضــاق كل منا بصــاحبه ذرعًا ، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأدنيه فيبعده ، حتى أسلس قياده ، وسكن جماحه .

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل لي أني قد انتقلت من العالم الأول إلى العالم الثاني ، ورأيت كأني بعثت بعد الموت ، وكأن أبناء آدم مجتمعون في صــعيد واحد يحاســبون على أعمالهم ، فألهمت أنه موقف الحشر ؛ وأنه يوم الحساب .

وأنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا ، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه ، فلا يجد إليها سبيلاً ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ، علني أجد صديقًا أستأنس به في وحدتي ؛ وأستعين بمرافقته على وحشــتي ، فلا أرى إلا خلقًا غريبًا ومنظرًا عجيبًا ، ووجوهًا ما رأيت لها في حياتي شــبيهًا ولا ضريبًا ، ولولا أني أعلم أن الحساب خاص بالإنسان لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان .

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسيـ رأيت على البعد وجهًا يبتســم لي ويدنو مني رويدًا رويدًا ؛ فأرقلت نحوه حتى بلغته فإذا صديقي «فلان» وإذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء ؛ فسألته ما فعل الله به؟ فقال حاسبني حسابًا يسيرًا ثم غفر لي ، وها أنذا ذاهب إلى ما أعد الله لعباده الصــالحين في جنته من النعيم المقيم ، فعجبت لشــأنه وقلت في نفسيـ : لقد هان أمر الحســاب على كل عاص بعدما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه : لا يتقي مأثمًا ، ولا يهاب منكرًا ، ولا يخرج من حان إلا إلى حان ، ولا يودع مجمعًا من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء ، فنظر إليَّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما ضمرته في نفسي ، فذكرت أن قد كشف الغطاء في هذه الدار ؛ وأن قد رفع الحجاب بين الناس : فلا سر ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللســان وخطرات الجنان ، نظر إليَّ تلك النظرة وقال : لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب ، واعلم أن الله حاســبني على كل ما كنت أجترح من الآثام في الدار الأولى ، إلا أنه وجد لي في جريدة حســناتي حســنة ذهبت بجميع الســيئات : ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصـلاح والخير والمروءة والبر ، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله ، فأهمني أمره وأزعجني أن أراه في مســتقبل أيامه بائسًــا معدمًا ، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي إليهم نعمته ، فاحتلت على أن أدخل في بيته خادمًا كانت

في بيتي وجعلت لها جعلاً على أن تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها ، ولا يقف على سرها ، وما زال هذا شأني وشأنه ، لا يعلم من أين يأتيه رزقه ، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرق الموت بيني وبينه ، فما نفعني عمل من أعمالي ما نفعني هذا العمل ، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتي ؛ بل كان سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة . فقال : أما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتي دورك ، أما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شأنك ، فقلت : أنت من السعداء ، فهل تستطيع أن تشفع لي أو تطلب لي شفاعة من ولي من الأولياء أو نبي من الأنبياء ؟ قال : لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين في الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا ، وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقربين ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له أو في أعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباة .

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق إلى النار ، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه ، وهو يصرخ ويقول : « أهلكتني يا أبا حنيفة » فسألت صاحبي : ما ذنب الرجل؟ فقال : إنه كان في حياته يتخذ في أعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية» فكان يهب مالاً لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول ، ليتخلص من فريضة الزكاة ، ويطلق زوجته ثلاثًا ، ثم يأتي بمحلل يحللها له فيعود إلى معاشرتها ، وكان يرابي باسم الرهن ، فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالاً أبى أن يقرضه إلا إذا وضع في يده رهنًا ، فإذا وضع يده على ضيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال ، وكان إذا حلف لا يدخل بيتًا دخله من نافذته ، أو لا يأكل رغيفًا أكله إلا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها ، ثم يرفعها إلى الله قشورًا جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الأطفال والبله ، مستندًا على تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة ، وأبو حنيفة أرفع قدرًا وأهدى بصيرة ، من أن يتخذ هزءً وسخرية ، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين .

وما انقطع عنا صـوت هذا الشـقي ، حتى رأينا شـقيًا آخر ذا لحية طويلة كثة ، قد أحاط به ملكان وشـــدا عنقه بســـبحة طويلة ذات حبات كبيرة ، وقد أخذ كل منهما بطرف منها ، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له : « أمكر وأنت في الحديد؟ » فدنوت منه وأمعنت النظر في وجهه فعرفته ، فتراجعت ذعرًا وخوفًا وصـــحت أيكون هذا من أشـــقياء الآخرة ، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى! فقال لي صـــاحبي : إن هذا الذي كنت تحســـبه في أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة إلا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم ، ولكن الناس لا يعلمون .

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا : هذا إلى جنته ، وذاك إلى ناره ، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحدًا فواحد فأرى سعيدًا من كنت أحسبه شقيًا ، وشقيًا من كنت أحسبه سعيدًا ، فسجلت أن الله ســبحانه وتعالى يحاســب الناس على قلوبهم ، لا على جوارحهم ، ويســألهم عن نياتهم ، لا عن أفعالهم ، وأن لا سعادة إلا الصدق ، ولا شقاء إلا الكذب ، وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات ، يلم بها صــاحبها إلمامًا ، ثم يندم عليها ، ورأيت أن أكبر ما يعاقب عليه جناية المرء على أخيه بسـفك دمه أو هتك عرضــه أو سـلب ماله ، وأن أضـعف الوسـائل إلى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام والقعود ، فلو أن امرءً قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ظلم طفلاً صغيرًا في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته إلى سيئات ، وما أغنى عنه نسكه من الله شيئًا .

وبينما أنا أحدث نفسي بهذا الحديث ، وأقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر ، إذ قال لي صاحبي : أتعرف هذين؟ وأشــار إلى رجلين واقفين ناحية يتناجيان : أحدهما شـيخ جليل أبيض اللحية ، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضــه بمســوده ، فما هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام «محمد عبده» ورجل المرأة «قاسم أمين» فقلت لصاحبي : هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران؟ ففعلنا ؛ فسمعنا الأول يقول للثاني : ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفســـادها وتبذلها وإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء ، فقال له صاحبه : إني أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تســفر ، وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنســج لها برقعًا من الأدب والحياء ، قال له : ولكن فاتك ما كنت تنبأت به من أنها جاهلة لا تفهم هذه التفاصـيل ، وضـعيفة لا تعبأ بهذا الاسـتثناء ، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفًا ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال : أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك : إنك قد وقعت في مثل

ما وقعت فيه من الخطأ ، وإنك نصحتني بما لم تنتصح به ، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول . وأنت أردت أن تحيي الإسـلام فقتلته ، إنك فاجأت جهلة المسـلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت ؛ وفهموا غير ما فهمت . فأصبحوا ملحدين ، بعد أن كانوا مخرفين ، وأنت تعلم أن دينًا خرافيًا خير من لا دين . أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشـيطان والجنة والنار! وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها جملة واحدة وقلت لهم : إن الولي إله باطل ، والله إله حق ؛ فأنكروا الألوهية حقها وباطلها ، فتهلل وجه الشـيخ وقال له : ما زلت يا قاسم في أخراك ، مثلك في دنياك ، لا تضطرب في حجة ، ولا تنام عن ثأر ، لا تحمل همًا ، ولا تخشى شرًا ، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا ، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، إنا ما أردنا إلا الخير لأمتنا ، وما أردنا لها إلا ما تحتمله عقولها ، فإن كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله .

وما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما ، وذهبا لشـأنهما ، فقلت لصاحبي : هل لك أن تريني الميزان والصراط والجنة والنار ، فإني ما زلت في شوق إلى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها في « خريطة الآخرة » التي رسـمها الشـعراني في بعض كتبه ، قال : أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، وأما الصراط فهو سبيل الإنسان إلى سعادته أو شقائه ، وأما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما .

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتًا صارخًا ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي ، فعلمت أن قد جاء دوري ، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أرَ حسابًا ولا عقابًا ولا موقفًا ولا محشرًا ، فعلمت أنها خيالات وأوهام ، أو أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

■ ■ ■

## الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرآة ، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء ، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء .

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي فارتعت لمرآها كأنما خيل إليّ سيف جرده القضاء على رأسي ، أو على علم أبيض يحمله ر سول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الأجل ، أو يأس قاتل عرض دون الأمل ، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولابد لها مهما ترفقت في مشيتها ، واتأدت في مسيرها من أن تبلغ مداها ، أو خيط من خيوط الكفن الذي تنسجة يد الدهر وتعده لباسًا لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل .

أيتها الشعرة البيضاء ! ما رأيت بياضًا أشبه بالسواد من بياضك ، ولا نورًا أقرب إلى الظلمة من نورك ، لقد أبغضت من أجلك فيك كل سواد حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان .

أيتها الشعرة البيضاء ! ليت شعري ! من أي نافذة خلصت إلى رأسي ؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت إلى فودي ؟

كيف طاب لك المقام في هذه الأرض الموحشة التي لا تجدين فيها أنيسًا يسامرك ، ولا جليسًا يساهرك ، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يغش بصرك في هذا الظلام القاتم .

أيتها الشعرة البيضاء ! لقد عييت بأمرك ، وبعلت بحملك ، وأصبحت لا أعرف وجه الحيلة في البعد عنك ، والفرار من وجهك ، لا ينفعني معك أن أنزعك من مكانك ، لأنك لا تلبثين أن تعودي إليه ، ولا ينقذني منك أن أخضبك بالسواد ، لأنك لا تلبثين أن تنصلي ولأني لا أحب أن أجمع على نفسي ــ بين مصيبتين : مصيبة الشيب ومصيبة الكذب .

أيتها الشعرة البيضاء ! يخيل إليّ وأنا أنظر إليك أنك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث ، وأنك تهمسين في آذان إخوانك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، والتردي بردائك ، وكأني بك .. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حربًا شعواء ، وفتنة عمياء ، يختلط فيها الرامح بالنابل والدارع بالحاسر ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم .

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الأبيض ، الذي ينزل بأمة الزنج مستكشفًا ، فيصبح متسعمرًا ، ويدخل أرضها سلمًا ويفارقها حربًا ، فأسأل الله لرأسي العافية منك ، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك ، فكلاهما مشئوم الطلعة في مقامه وارتحاله ، وكوكب النحس في وقوفه وتسياره .

أيتها الشعرة البيضاء ! ما أنت وما شأنك ؟ وما وفودك إلي ؟ وما مكانك مني ؟ وما مقامك عندي ؟ إن كنت ضيفًا ، فأين استئذان الضيف وتلطفه ، وتجمله وتودده ، وإن كنت نذيرًا ، فأنا أعلم منه الموت وشأنه مالا أحتاج معه إلى نذير ، فلم يبق ألا تكوني أوقح الخلائق وجهًا ، وأصلبها خدًا ، وأنك قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهًا إلا تلك الحية التي كل جحر من أجحار الهوام والحشرات تعده جحرها ، وتحسبه بيتها .

أيبلغ بك الشأن وأنت التي يضربون الأمثال بدقتها وخفائها ، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها ، فلا يكادون يعرفون السبيل إلى مدارجها ومكانها أن تملأى من الرعب قلبًا لا يروعه السيف المجرد ، ولا السهم المسدد ؟

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك أن تتجاوزي عما أسأت به إليك في إطالة عتبك ، واستثقال ظلك ؟ فلقد رجعت إلى نفسي فعلمت أنك أكرم الخلائق عندي ، وأعظمها شأنًا في عيني .

هنيئًا لك رأسي مصيفًا ومرتعًا ، وهنيئًا لك فودي مرادًا ومسرحًا ، فأنت رسول الموت الذي ما زلت أطلبه منذ عرفته فلا أجد له سبيلاً ، ولا أعرف له رسولاً .

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه ، فيحزن على ذهابه ؛ ولم يذق حلاوة الحياة ، فيجزع لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصنًا رطبًا ، فيأسى عليها عودًا يابسًا .

ما الذي ينقمه من شؤونك رجل يعلم أنك وحي الأمل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءة .. إلا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان .. كما تكدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة .

أليس كل ما أعده عليك من الذنوب أنك طليعة الموت ، والموت هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام ، الحافل بالآلام والأسقام الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه ، وأخ يخون أخاه ، وعشيرة يحدد أنيابه لمضغ عشيره ، وغني يضن على الفقير بفتات

مائدته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغه الموت فلا يظفر بأمنيته وملك لا يفرق بين رعيته وما شيته ، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته ، وقلوب تضطرم حقدا على غير طائل ، ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل ، وظل زائل ، وغرض باطل ، وعقول تتهالك وجدا على نار تحرقها وأنياب تمزقها ، وعيون حائرة في رؤوس طائرة ، تنظر ولا ترى شيئا مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ما أمامها ؛ إن كان هذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك ، فإني لك من الغافرين .

أيتها الشعرة البيضاء ! مرحبًا بك اليوم ، ومرحبًا بأخواتك غدًا .. ومرحبًا بهذا القضاء المختبئ وراءك أو الكامن في أطوائك ، ومرحبًا بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربي ، وآنس بنفسي ، من حيث لا أسمع حتى دوي المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلاً بوافدة للشيب واحدة وإن تراءت بشكل غير مودود

■ ■ ■

## الصياد

حدث أحد الأصدقاء قال : بينا أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل عليَّ رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقة سمكة كبيرة فعرضها عليَّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذي أراده ، فأخذه شاكرًا متهللاً وقال : هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحته ، أحسن الله إليك كما أحسنت إليَّ وجعلك سعيدًا في نفسك كما جعلك سعيدًا في مالك ، فسرت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في أن تتفتح لها أبواب السماء المغلقة دوني ، وعجبت أن يهتدي شيخ عامي إلى معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة ، وهي أن للسعادة النفسية شأنًا غير شأن السعادة المالية ، فقلت له : يا شيخ ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس ، لأنني أفقر الناس ، قلت : هل تعد نفسك سعيدًا ؟ قال : نعم لأنني قانع برزقي مغتبط بعيشي ، لا أحزن على فائت من العيش ، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع ، فمن أي باب يخلص الشقاء إلى قلبي ؟ قلت : أيها الرجل ، أين يذهب بك ؟ ما أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله ، كيف تعد نفسك سعيدًا وأنت حاف غير منتعل ، وعار إلا قليلاً من الأسمال البالية ، والأطمار السحيقة ؟ قال : إن كانت السعادة لذة النفس وراحتها ، وكان الشقاء ألمها وعناءها ، فأنا سعيد ، لأني لا جد في رثاثة ملبسي ، ولا في خشونة عيشي ، ما يولد لي ألمًا ، أو يسبب لي همًا ، وإن كانت السعادة عندكم أمرًا وراء ذلك ، فأنا لا أفهمها إلا كذلك ، قلت : ألا يحزنك النظر إلى الأغنياء في أثاثهم وريا شهم ، وقصورهم ومراكبهم ، وخدمهم وخيولهم ، ومطعمهم ومشربهم ؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ؟ قال : إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أني لا أجد أصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها أكثر مما نلته بفقدانها .

هذه المطاعم التي تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فأنا لا أذكر أني بت ليلة في حياتي جائعًا ، وإن كان الغرض منها قضاء شهوات الطعام ما يفضلها ؛ أما القصور فإن لديَّ كوخًا لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فأقرع السن على أن لم يكن قصرًا كبيراً ؛ وإن كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي أن أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر وأذهب بها إلى شاطئ النهر فأرى منظر السماء والماء ، والأشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هي إلا لفتة الجيد أن يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب أو قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الأفق ميلاً أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حلية المتكسر ، أو درة المتحدر ، فإذا تجلى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ، ملك عليَّ شعوري ووجداني ، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام حتى أشعر بجذبة قوية في يدي ، فأنتبه فإذا السمك في الشبكة يضطرب ، وما اضطرابه إلا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه

مطلق السراح ، وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحًا ولا مضطربًا ، فلا أجد له شبيهًا في حالتيه لا الفقراء والأغنياء . يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير ، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء ، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق ، ومن الأرصاد أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف موقعًا حسنًا ؟ حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليه ، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات ، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ؛ ولا لفكرة الحرية في النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته ، مخافة أن يغفل عن إشارات السلام ، ومظاهر الإكرام .

فإذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل ، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلي ، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي ، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة ، لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير أو مهد وثير ، فهل أستطيع أن أعد نفسي شقيًا ، وأنا أروح الناس بالاً ، وإن كنت أقلهم مالاً ؟

لا فرق بيني وبين الغني ، إلا أن الناس لا ينهضون إجلالاً لي إذا رأوني ولا يمدون أعناقهم نحوي إذا مررت بهم ، وأهون به من فرق لاقيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، وما يعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا ، أو طاروا في الهواء ، أو غاصوا في أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الإنسان إلى الصور المتحركة .

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة بيني وبين ربي فأنا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده ، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس ، ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبي ، حتى لو طلع على الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لما خفق قلبي خفقه الرهبة والخشية ، ولا شغل من نفسي مكاناً أكثر مما يشغله ملك التمثيل .

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي ، وراحة نفسي من الهموم والأحزان ، فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليَّ عا صفة من عوا صف هذا الكون إلا انتزعني من بين مخالبها وهونها عليَّ ، حتى لا أكاد أ شعر بوقعها ، وكيف أتألم لمصاب أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه ، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه ، وسكوني إليه .

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره ، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ، فصغرت الدنيا في عيني ، و صغر شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها ، ولا أحزن لشرها ، ولا أعول على شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها ، وأقسم ما خرجت مرة إلى ضفة النهرر حاملاً شبكتي فوق عاتقي إلا وقع الشك في نفسي : هل أعود إلى منزلي حاملاً أو محمولاً ؟

ما العالم إلا بحر زاخر ، وما الناس إلا أسماكه المائجة فيه . وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غدًا ، فكيف أغتبط بما لا أملك ، أو أعتمد على غير معتمد ، إذن أنا أضل الناس عقلاً وأضعفهم إيمانًا !

قال المحدث : فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار ، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه . وقلت له : يا شيخ إن الناس جميعًا يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها . فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيدصا وما هو إلا شقاء ؟ قال : لا يا سيدي ، إن الإنسان سعيد بفطرته ، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء إلى نفسه ، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطمعه ، فيطول بكاؤه وعناؤه ، ويعتقد أن بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه ، فإذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه ، أنَّ و شكا شكاة المظلوم من الظالم ، ويبالغ في حسن ظنه بالأيام ، فإذا غدرت به في محبوب لديه من مال أو ولد ، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر ، وقتل الأيام علمًا وتجربة وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ، ووديعة موقوته ، وأن هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها .. إن أكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتي من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود ، والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتألم كلما ناجته بالإثم سريرته ، والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه ، أو حاقت به عاقبة ظلمه ، وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتاب ، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل .

ومن أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، وإلا فهو أشقى العالمين ، وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء .

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائمًا وتناول عصاه وقال : أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك وهي : أن يجعلك الله سعيدًا في نفسك ، كما جعلك سعيدًا في مالك .

## الانتحار

في كل موســم من مواســم الامتحان المدرسي نســمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والرا سبين ، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسرانًا مبينًا أسفًا على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية ، ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنها لم تقدم إليه في لفافة الشهادة المدرسية ، ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه : أن جناية المرء على نفســه أكبر إثمًا عند الله وأعظم جرمًا من جنايته على غيره ، لما خاطر بدينه في آخر ســاعة من ســاعات حياته ، وهي الســاعة التي ينيب فيها العاصي إلى ربه ، ويســتغفر فيها المذنب من ذنبه . ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب أن ينظر إليه طالبه من حيث ذاته ، لا من حيث كونه و سيلة من و سائل العيش ، لما جرى على القاعدة الفا سدة « والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتي وعلمه أن الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنســان من الجهد في خدمة الأمة أو المجتمع سـواء أكان في قصرـ الملك أم في دار الوزارة ، وفي حانوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما أكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار ، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه نفث في روعه روح الشــجاعة النفســية وعوده الصــبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء ، لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه أن عذاب النزع أهون من عذاب الهم .

لا يجني الطالب على نفسه ، وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه .

أما الوالد فإنه يقول له وهو ذاهب به إلى المدرســة : ســتكون غدًا يا بني مديرًا كهذا المدير ، ووزيرًا كهذا الوزير ؛ وكلما أراد أن يحضــه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشـله في الامتحان صـور له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه ؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له : إذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضـل من حياتك أما الأسـتاذ فإنه يضرـب له من نفســه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني ، إذ يراه بعينه يتجرع مرارة الذل ، ويعاني من كبرياء رؤسـائه وقسـوة المســيطرين عليه عناءً شـديدًا ، ويحتمل من ذلك مالا يحتمله الرجل الشريف ،حرصًا على منصبه وإرعاء عليه . فكأنما يلقي عليه درسًا عمليًا موضوعه « إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته ، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة » أما المجتمع فإنه يحترم

الموظف الصــغير ، أكثر مما يحترم العالم الكبير ، ويطير إلى تهنئته بإقبال المنصــب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه ، كأن الكوكب لا يدور إلا في دائرة المناصــب نحوسًــا وســعودًا ، فإذا رأى الناشــئ ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار ، ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه ، أو بعدها عنه ؛ فإذا وفق إليه لطم بأنفه قبة السماء . وداس بنعله هام الجوزاء ، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الأحمق :

* فإما الثريا وإما الثرى *

أيها الناشئ : لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخدعك هذا المجتمع الفاسد ، فكن أحسن حالاً منهم ، واعلم أن شرف العلم أكبر من شرف المنصب ، وأن المنصب ما كان شريفًا إلا لأنه حسنة من حسنات العمل ، وأثر من آثاره ، فإن فاتك حظك منه فلا تحفل به ، فهو أحقر من أن تشتد في أثره ، أو تبذل حياتك وجدًا عليه ، ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم ؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول ، وظاهر من النعمة ، ويهرج من الابتسام ، ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دمًا ، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى .

خذ لنفسك حظها من العمل والأدب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء .

■ ■ ■

## الجمال

الجمال هو التناســب بين أجزاء الهيئات المركبة ، ســواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات ، وفي الحقائق أم في الخيالات .

ما كان الوجه الجميل جميلاً إلا للتناســب بين أجزائه ، وما كان الصـوت الجميل جميلاً إلا للتناســب بين نغماته ، ولولا التنا سب بين حبات العقد ما افتتنت به الحـسناء ، ولولا التنا سق في أزهار الروض ما هام به الشعراء .

ليس للتناسب قاعدة مضطردة يستطيع الكاتب أن يبينها ، فالتناسب في المرئيات غيره في المسموعات ، وفي الرسـوم غيره في الخطوط ، وفي الشـؤون العلمية غيره في القصـائد الشـعرية ، على أنه لا حاجة إلى بيانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح إليه ، وما لا يلائمها فتنفر منه .

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرص في الجســم الأســود ، والخال في الخد الأبيض ، ويطربون لنقيق الضـفادع كما يطربون لخرير المياه ؛ ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان ، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعي مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتري ، ويضحكون لما يبكي ، ويبكون مما يضحك ، ويرضون بما يغضب ، ويغضبون مما يرضى !

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة ، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوهة غير متناسـبة ولا متلائمة ، لأنهم لم يدركوا سر الجمال فيصـدر عنهم ولم تألفه نفوســهم ، فيصـبح غريزة من غرائزهم .

إن رأيت شاعرًا يبتدئ قصائد التهنئة بالبكاء على الأطلال ، ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهزلية ، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه ، أو متكلمًا يقتضب الأحاديث اقتضابًا ، ويهزل في موضع الجد ، ويجد في موضع الهزل ، أو صحفيًا يضع العنوان الضخم للخبر التافه ، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الأرض ، أو حاكمًا يضـع الندى في موضـع السـيف ، والسـيف في موضـع الندى ، أو ماشـيًا يتلوى في طريقه من رصيف إلى رصيف ، كأنما يرسم خطًا متعرجًا ، أو لابسًا في الشتاء غلالة الصيف ، وفي الصيف فروة الشـتاء ، فاعلم أن ذوقه مريض ، وأنه في حاجة إلى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون إلى علاج عقله ، والمريض إلى علاج جسمه .

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى إبلاله ، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فإن رأيت من تؤمل في إصلاحه خيراً ، وتجد في نفسه استعدادًا لتقويم ذوقه ، فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال ، وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤتلفاته ، وإن استطعت أن تعلمه فنًا من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل ، فإنها المقومات للأذواق ، والغارسات في النفوس ملكات الجمال .

■ ■ ■

## الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب ، فلا تأمن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد ، واهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك : الرجل الكاذب .

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع ، ولعلهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية ، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذب الأفعال .

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول : إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالاً أرده إليك ، ثم لا يؤديه بعد ذلك ، وبين أن يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء ، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى ، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته .

ليس الكذب شيئًا يستهان به ، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له ، بل هو الرذائل نفسها . وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صورة متنوعة .

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه ، والمتكبر كاذب لأنه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته . والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه ، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنته ، فيتحرى الصدق في نميمته ، والمتملق كاذب لأنه ظاهره ينفعك ، وباطنه يلذعك .

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات .

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ، وويل له من صديق يخون العهد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غير أمين ، وجاهل يفشي السر ، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه ، وشيخ يدعي الولاية كذبًا ، وتاجر يغشُّ في سلعته ، ويحنث في أيمانه ، وصحفي يتجر بعقول الأحرار ، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء .

■ ■ ■

# غرفة الأحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه ، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه ، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، أو فسقه واستهتاره ، لأنني ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق .

قضيت في صحبته عهدًا طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئًا حتى سافرت من القاهرة سفرًا طويلاً فتراسلنا حينًا ، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني ، ثم رجعت فجعلت أكبر همي أن أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت إلى منزله ، فحدّثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد ، وأنهم لا يعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فأيقنت أني قد فقدت الرجل ، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً .

هنالك ذرفت من الوجد دموعًا لا يذرفها إلا من قل نصيبه من الأصدقاء ، وأقفر ربعه من الأوفياء ، وأصبح غرضًا من أغراض الأيام ، لا تخطئه سهامها ولا تغبه آلامها .

بينا أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السرار إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان ، أو مأوى الغيلان ، فشعرت كأني أخوض بحرًا أسود ، يزخر بين جبلين شامخين ، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض ، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تردد في جوف الليل ، ثم تلتها أختها ثم أخواتها ، فأثر في نفسي مسمعها تأثيرًا شديدًا وقلت : يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين .. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزونًا حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت ، أو الباكي إن عجزت ، فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته ، فطرقت الباب طرقًا خفيفًا فلم يفتح ، فطرقته أخرى طرقًا شديدًا ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها ، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فإذا هي في ثيابها الممزقة ، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها : هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت : أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ، ثم مشيت أمامي فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم ، فدخلتها ، فخيل إلي أني قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات ، وأن الغرفة قبر ، والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه ، فإذا قفص من العظم يتردد

فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشـــبي . فوضـــعت يدي على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي ، ثم فتح شفيته قليلاً قليلاً ؛ وقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت صديقي » فشعرت كأن قلبي يتمشى ـ في صـدري جزعًا وهلعًا ، وعلمت أني قد عثرت بضـالتي التي كنت أنشـدها ، وكنت أتمنى ألا أعثر بها ، وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضـــاء ، وألا يجدد لي مرآها حزنًا كان في قلبي كمينًا ، وبين أضالعي دفينًا ، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التي صار إليها؟ وكأن أنسه بي أمد مصباح حياته الضـئيل بقليل من النور ، فأشـار إليّ أنه يحب النهوض ، فمددت يدي إليه ، فاعتمد عليها حتى استوى جالسًا وأنشأ يقص علي القصة الآتية :

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتًا يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسنًا وبهاءً ، ورونقًا وجمالاً ، فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً ، فما زلت بها أعالجها فتمتنع . وأستنزلها فتعتذر ، وأتأتى إلى قلبها بكل الوســائل فلا أصــل إليه . حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها ، فســكن جماحها ، وأســلس قيادها ، فســلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد ، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنينها يضــطرب في أحشــائها ، فأســقط في يدي ، وطفقت أرتئي بين أن أفي لها بوعدها أو أقطع حبل ودها ، فآثرت أخراهما على أولاهما ، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئًا .

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال ، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب ، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتابًا باليًا مصفرًا ، فقرأت فيه ما يأتي :

« لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهدًا دارسًـــا ، أو ودًا قديمًا ، ما كتبت سـطرًا ، ولا خططت حرفًا ، لأني أعتقد أن عهدًا مثل عهدك الغادر ، وودًا مثل ودك الكاذب ، يستحق أن أحفل به فأذكره ، أو آسف عليه فأطلب تجديده .

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي نارًا تضطرم ، وجنينًا يضطرب ، تلك للأسف على الماضي ، وذاك للخوف من المسـتقبل ، فلم تبال بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسـك مؤونة النظر إلى شـقاء أنت صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها ، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟ لا .. بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان ، لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحش إلا جمعتها في نفســك ، وكل ما في الأمر أنك رأيتني الســبيل إلى إرضــائها فمررت بي في طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرقت لي بابًا ، ولا رأيت لي وجهًا .

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهابًا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السـقطة إلا صـنعة يدك وجريرة نفسـك ، ولولاك ما كنت مجرمة ولا سـاقطة ، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك ، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدي الجبار الكبير .

سرقت عفتي ، فأ صبحت ذليلة النفس حزينة القلب ، أ ستثقل الحياة وا ستبطئ الأجل ، وأي لذة في العيش لامرأة لا تسـتطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أمًا لولد ، بل لا تسـتطيع أن تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة رأ سها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها على كفها ، ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها ، خوفًا من عبث العابثين وتهكم المتهكمين .

سلبتني راحتي لأني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي ، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد ، ولا يطرق بابه ، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من أيام حياتي .

قتلت أمي وأبي ، فقد علمت أنهما ماتا ، وما أحسب موتهما إلا حزنًا لفقدي ، ويأسًا من لقائي .

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسـك ، والهم الطويل الذي عالجته بسـببك ، قد بلغا مبلغهما من جسـمي ونفسي ، فأصـبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفسًـا في نفس ، وأحسب أن الله قد صنع لي ، واستجاب دعائي ، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء ، إلى دار الحياة والهناء .

فأنت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك .

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهدًا ، أو أخطب إليك ودًا ، فأنت أهون علي من ذلك ، إنني قد أ صبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها ، سعادتها و شقائها ، فلا أمل لي في ود ، ولا متسـع لعهد ، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة ، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشـقاء ما أدرك أمها من قبلها » .

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدر على خديه فسـألته : وماذا ثم بعد ذلك؟ قال : إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسـسـت برعدة تتمشى في جميع أعضـائي ، وخيل إليَّ أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزنًا وجزعًا ، فأسرعت منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ،

فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السريـر جثة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاءً مرًا ، فصعقت لهول ما رأيت ، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية ، وأساود ملتفة ، هذا ينشب أظافره ، وذاك يحدد أنيابه ، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها ، وأموت موتها .

وها أنذا اليوم راضيًا مسرورًا ، فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء .

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول : ابنتي يا صديقي ، فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته ؛ وما رُئي مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكيًا .

ولما حشونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أني أكتب قصته ، ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج ؛ ولا أنسى ما حييت نداءه لي وهو يودع نسمات الحياة ، وقوله : « ابنتي يا صديقي » .

فيا أقوياء القلوب من الرجال ، رفقًا بضعفاء النفوس من النساء . إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن ، وعفتهن .. أي قلب تفجعون ، وأي دم تسفكون !!

# الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء .

ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوره ، يقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالي أن يسميه القانون بعد ذلك مجرمًا ، لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية ؛ وهي في نظره أعدل من القانون حكمًا ، وأصدق قولاً .

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الأعفاء والمستقيمين ، وأنا استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه إلا كل ذي حذق وبراعة ، وشجاعة وإقدام .

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن ، وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كل الشرف في إحراز المال وإن كان السبيل إليه دنيئًا وسافلاً ، وأن للذهب رنينًا تخفت بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئًا فشيئًا ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه .

هكذا يتصور الأدنياء أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوي جامعتهم ، أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه ، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه ، ويكرمون  صاحب الذهب ، ولو أن كل دينار من دنانيره محجم من الدم ، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلاً ، وطيب القلب مغفلاً ، وطاهر السرير بليدًا ، والحليم عاجزًا .

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوبًا غير ثوبها ، وتتراءى في لون غير لونها ، فإن بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى ليكاد يفخر بالأولى ويستحي من الأخرى .

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقًا من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية ، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصور ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم

الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب له عنده إلا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهمًا ، وهو يسرق الدنانير في جميع آنائه وأوقاته . ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه أشرف من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معًا في موقف واحد أمام قاضٍ عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختارًا ليرفه عيشه ، وبراءة الثاني ، لأنه سرق مضطرًا لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس ، ويقوم معوجها ، فليهذب تصوراتهم وليقوم أفهامهم ، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليس الرأي من أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزانًا يزن به أعماله أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقة بوزنه وتقديره .

ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفًا هو في الحقيقة كذلك .

ألا تراهم يعدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب أو يحلي بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها؟

لا شرف إلا الشرف الحقيقي ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه أو خدمة نوع من أنواعه .

فالعالم شريف ، لأنه يجلو صدأ العقل ويصقل مرآته والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف ، لأنه يحمي مواطنيه غائلة الأعداء ويقيهم عادية الفناء ، والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدي الـضعفاء ويحيي أنفس البائسين ، والحاكم العادل شريف ، لأنه ر سول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغي عليهم الظالمون ؛ وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه ، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق والآداب ؛ والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين ، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري ويحتملون في سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة والمشقة حذرًا عليه من التهافت والسقوط .

فإن رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء ، فاعلم أنك شريف وإلا فاسلك طريقهم جهدك ، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي .

■ ■ ■

## الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام ، ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صـــديقًا له من أسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية ، فوجده حزينًا كئيبًا على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره ، فعرف أنه كان متزوجًا من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفســـه وماله فلم تحفظ صـــنيعه ولم ترع عهده ، وأنها فرت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب ، فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها ، فلقيها في منزل عشـــيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين ، وقالت : إنها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وإن خالفت الشرائع الدينية ، لأن الأولى عادلة ، والثانية ظالمة ، وقالت : إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها إلمام الأزواج بنســـائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرـته ، وقالت : لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تعد المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها طاهرة ، إذا كانت تكره الأول .

هذا ملخص القصة على طولها ، وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب ، لأن الكاتب قد أعذر تلك الفتاة فيما فعلت ، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها وقضى لها فيما كان بينهما .

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية ، فالحق أقول : إن الكاتب أخطأ في وضعها وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية قد قضىـ وانقضىـ بانقضـاء العصـور المظلمة ، حتى قرأت هذه القصـة منشـورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية ، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به .

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة ، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سـائق حاجة ثم ثاب إليها رشـدها وهداها ، فقلنا : لا بأس بتهوينهم ذنبًا جسـمته العادة ، وألبســته ثوبًا أوســع من ثوبه ، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع إلى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ويأبى المجتمع البشري إلا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين .

أما وقد وصــل الحد إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصــالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها إلى ذلك داع من الهوى ، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يســتطاع قبوله ، إن فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها ، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذرًا يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت ، لأنها فرت من فراش زوجها ، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع ، لأنها كانت أهنأ النساء عيشًا ، وأروحهن بالاً ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في أعطاف العيش البارد لم ترَ مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة .

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعًا في وضــع كلمة الفساد في معاجمهم ، لأنها لا مسمى لها في هذا العالم ، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح ، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواخير لأنها لم تترك وراءها زوجًا معذبًا منكوبًا ، ولم ترضَ عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة .

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً ، فإذا جاز لكل زوجة أن تفر من زوجها إلى عشــيقها كلما وقع في نفســها الضــجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام .

أيها الكاتب! ليس في اســتطاعتي ولا في اســتطاعتك ولا في اســتطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصــد كر الغداة ومر العشيــ حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لعشرتها إذا علمت أن في الناس من هو أصغر منه سنًا وأكثر منه رونقًا وأنضر شبابًا .

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشــير واحد ، وقد علم الله ســبحانه وتعالى ذلك منه ، وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتهما ، ويطول ائتلافهما ، فوضـع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضــطرب وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطًا مقدسًــا حتى يحول بينهما وبين رجوعها إلى طبيعتهما ، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشــارب ، من حيث الميل لكل جديد ، والشغف بكل غريب .

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرـة بدلاً من الزواج ، فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية .

أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل منه؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون في منزلة أجمل منها ، لولا هذا الرباط المقدس : رباط الزوجية ، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس وهو الذي يعيد إلى النفوس الثائرة سكونها وقرارها .

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ويموت بموته . فالقلوب متقلبة ، والأهواء نزاعة ، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقًا أكثر منه عشيقًا ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها ، ويمتد ظلها ، أما الحب فظل ينتقل ؛ وحال تتحول .

■ ■ ■

الإسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام ، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضن به ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية ، ويصدق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلا .

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته أن الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدنية الرومان ، ولا تلقى شيئًا من علوم الشرائع والعمران .

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل ، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام ؟ وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبيًا مرسلاً موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ أما ما نقرأه أحيانًا لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته ، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق ، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحدًا منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين ، وجرائدهم ومجلاتهم ، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب ، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وإنما الإعراب ما نطق به العرب ، واللحن ما لم ينطقوا به ؛ فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الأول ونصب الثاني لحنًا ، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئًا من هذه المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دونها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه ، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حجة على النحاة ، وليست النحاة حجة على القرآن ، فإذا وجد

في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء ، على أنهم قصروا في شيء من ذلك ، وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادرًا ولا شاذًا إلا دونوه في كتبهم ، فلا القرآن ملحون ، ولا النحاة مقصرون ، ولكن المبشرين جاهلون ، فإذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكنا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا ، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول اللورد كرومر : إن الدين الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإسلامية ، ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي ، ويستدل على الإسلام بالمسلمين ، وعلى المسيحية بالمسيحيين .

في أي عصر من عصور التاريخ ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس الإنسانية ، وبكت الأرض منها والسماء ؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل ، فلا يعلم إلا يعلمه إياه ، ولا يفهم إلا ما يلقيه إليه ، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر أو إيمان ، وبهيمية أو إنسانية ، فيكاد يتخيل أن له ذنبًا متحركًا وخيشومًا طويلاً ، وأنه يمشي على أربع إذا قال له الكاهن : أنت كلب : أو قال له : إنك لست بإنسان؟ أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سم الخياط أقرب من دخول الغني في ملكوت السموات؟ أم في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس . وأن يتلقى علمًا في مدرسة غير مدرسة الكنيسة؟ أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الأدبار ؟! أما في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة إلى الملك شالمان ، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فر من وجهها ظنًا منه أنها تشتمل على الجن والشياطين؟! أم في العصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفًا بالقتل حرقًا أو صلبًا؟ أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة؟

هذا الذي نعرفه أيها الفيلســوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصــور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة ، وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية ، وإن لم نقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره ، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل ، فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوربا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحتل محلها كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لهما ، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة في أوربا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضــيت بالإبقاء عليه ، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه ، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفســية التي تســتعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المســيحية والتمدين الغربي من حيث يســتدل به عليها ، أو باعتبار أنه أثر من آثارها ، ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرنًا كانت فيها أوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ولا أغنى عنها كهنوتها .

أما المدنية الإســلامية فإنها طلعت مع الإســلام في ســماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد ، ثم سارت إلى جانبه كتفًا بكتف ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئًا ، فالمتعبد في مسجده ، والفقيه في درســه ، والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرســته ، والكيمائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلكي أمام اسطرلابه ، والكاتب بين محابره وأوراقه ، إخوة متصافون وأصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضًا ، ولا يبغي أحد منهم على أحد .

أيها الفيلسوف التاريخي : إن كان لابد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأمس ، والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى . وإليك البيان :

جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته ، وما يفيده منفردًا ، وما ينفعه مجتمعًا .

هذب عقيدته بعدما أفســدها الشرك بالله والإســفاف إلى عبادة التماثيل والأوثان ، وإحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان ، وأرشده إلى الإيمان بألوهية إله واحد لا يشرك به شيئًا ، ثم أرشده إلى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والأرض ليقف على حقائق الكون وطبائعه ، وليزداد إيمانًا بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره ، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعًا نفيسًا قلبيًا ، فلا يكون آلة صماء ، في يد الأهواء

تفعل به ما تشــاء ، ثم أرشــده إلى مواقف تذكره بربه وتنبهه من غفلته وتطرد الشــرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلا ، وهي مواقف العبادات ثم أطلق له الحرية في القول والعمل ، ولم يمنعه من الشرك بالله والإضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها ، وعلمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وأن الملك والسوقة ، والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي : أما الله والحق سواء وأن الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضر ، والثواب والعقاب ، والرحمة والغفران : بيد الله وحده لا ينازعه منازع ، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ثم نظر في أخلاقه فأرشده إلى محاسنها ، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب ، والنوم والمشي ، والجلوس والكلام ، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده . ويعطف الأخ على أخيه ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتوا صل بين الأقوياء وذوي الرحم ، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء ، وعطف الأغنياء على الفقراء . ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية . ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه ، فلا يغبن أحد أحدًا ، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج على أمير أو سلطان ، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها ، والقضاء وصفاته ، والإمارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسالمة لهم .

وجملة القول : إن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده ، إلا مد يده وأنار له مواقع أقدامه ، وأرشده إلى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نورًا وإشراقًا ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعًا سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع .

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء إلى أوربا من طريق إسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا ، فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين ، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا : أيمكن أن يعيش الإنسان حرًا على ظهر المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئًا في مضجعه مطمئنًا في مرقده ، لا يروعه دولاب العذاب ، ولا سيف الجلاد؟ أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟ أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضًا ؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكياء هي الخطوة الأولى التي مشتها أوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم أخذوا يعلمونه للناس سرًا ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئًا فشيئًا ، ويلقون في سبيل نشرها عناءً شديدًا ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قرونًا عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية ، فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي : إنك لابد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه ، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه ، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك ، حتى أنكرت عليه فضله في نفسه!

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الإسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران ، أو أعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، أو أصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءتها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخًا كما تقول .

غير أني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس سبب ذلك الإسلام كما نتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها إليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء ، وأمرائه الجهلاء ، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، وأوقعوا الفتنة فيهم ، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان .

كل ما نراه اليوم بين المسلمين : من الخلط في عقيدة القضاء والقدر ، وعقيدة التوكل ، وتشييد الأضرحة وتجصيص القبور وتزيينها والترامي على أعتابها ، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها ، وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين ، وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الأولى ، وليس من الإسلام في شيء .

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل إننا متعصبون تعصبًا دينيًا فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا ، فلم نرَ بدًا من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يدًا واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم ؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضًا حب آل محمد      فليشهد الثقلان أني رافض

## أهناء أم عزاء

فارق مصر ـ على أثر إعلان الدسـتور العثماني كثير من فضـلاء السـوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضـائلهم ومآثرهم وصـيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريـين تلك الدروس العالية في الصـحافة والتأليف والترجمة ، وبعدما كانوا فينا سـفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية .. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعد ما علموا المصري كيف ينشـط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فنسيء إليهم ، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسـب أنهم قوم من شـذاذ الآفاق أو نفايات الأمم جاءوا إلينا يصـادروننا في أرزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو أنصفناهم لعرفناهم وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وإنما ضـاقت بهم حكومة الاسـتبداد ذرعًا ، وكذلك شـأن كل حكومة مسـتبدة مع أحرار النفوس وأباة الضيم ، فأحرجت صدروهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفًا ينعاهم ، ومجدًا يبكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفًا كرامًا ، وأساتذة كبارًا فما أحسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم .

وبعد : فقد مضى ـ ذلك الزمن بخيره وشره ، وأصـبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم أنشكر للدستور أن فرج عنهم كربتهم وأمنهم على أنفسهم ، وردهم إلى أوطانهم أم ننقم منه أنه كان سـببًا في حرماننا منهم ، بعد أنسـنا بهم ، واغتباطنا بحسـن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم    رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم    شرب الدمع وعاف القدحا

## الزوجتان

حدّثني أحد الأصدقاء قال : سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعر ولا أكاذيب القصاصين .

أويت إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الإهاب فما استقبلت أول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فإذا الخادم تقول : إن امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول : إن لها عندك شأنًا ، فقلت في نفسي : لا شأن لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إلى أكثر من حاجتي إلى النوم ، على أن النوم لا يفوتني ، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء ، فارتديت ردائي ونزلت ، فإذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التي تتأجج بين أضــالعي بقطرة واحدة من الرحمة ؟ فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ قالت أنا فلانة زوج فلان ، فدهشــت وغصــصــت بريقي حتى ما أجد بلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت ، وقلت : يا للعجب ! زوج فلان على عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة ! وسألتها : ما شأنك يا سيدتي وممّ تبكين ؟ قال : لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها ، فوالله ما جئت إليك تحت ستر الليل إلا وأنت أوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ، ولولا شدة أقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضــت إليك ســواد الليل في مثل هذه الســاعة ولا احتملت في ســبيل ذلك ما احتملت ، قلت : عهدي بســـيدتي رخية البال ناعمة العيش ســـعيدة الحظ بزوج عذب الأخلاق كريم السـجايا يؤثر هوى نفسـه على هواك ، ولا يعدل بك أحدًا ، قالت : إنك تقصر عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاستمع مني حديث اليوم :

أظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة أعوام ، وأن أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين إليه من علية القوم وجلتهم ، وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شرًا ولا اعتمد أن يسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلًا طيب السر‍ــيرة طاهر القلب ، فخدعه الخادعون عني ، ومن ذا الذي لا يخدع بشــاب متعلم مهذب من ذوي المناصــب الكبيرة والرتب العالية ، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت ، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمت به النســاء إلى الرجال ، فما خنته ولا ضــقت ذرعًا به ، ولا قطبت في وجهه مرة ولا أتلفت له مالاً ، ولا نقضت له عهدًا ، فجازاني بالإحسان سوءً ، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان ، وخان ودي ، ونقض عهدي ، لا لذنب جنيته ، أو وصمة يصمني بها ، ولكنه رجل ملول

متبرم ، ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك : إن قلب الرجل متقلب متلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب ، وإن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقدًا ، وأمتن ودًا ، وأوفى عهدًا ، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ريب المنون . قلت : أنا لا أغضب لشيء إلا للإنسانية أن يخفر ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك؟ قالت : مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً أمكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر ، فكنت أغضى على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده ، حتى إذا صفرت يدي وأقفر ريعي أحسست منه مللاً كان يدعوه إلى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً ما يتهكم بي ويقول : إنني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها ، وآونة كان يعرض بي قائلاً : إن الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة ، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريض أحيانًا إلى التصريح ، فيقول كلما دخل علي متأففًا متذمرًا : ليت لي زوجة كفلانة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية ، فكنت أشك في سلامة عقله ، وأقول في نفسي : كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحيية المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعد ، فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء حتى تحول إلى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظني إلا شزرًا ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة ، ثم يخرج لشأنه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الأقاليم ، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلتي ، فلبثت أترقب كتابًا منه يدعوني فيه إلى اللحاق به ؛ فما أرسل كتابًا ولا رسولاً ولا نفقة ، فاستكتبت إليه الكتاب فما أسلس قياده ، ولا طاوع عناده ، فسافرت إليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معي ، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره ، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه المسائل الاجتماعية والسياسية ، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية ، فداخلني من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع ، ولا أظن إلا أن العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حسابًا غير يسير .

وكأنه شعر بمكاني ، فجاء إلى يتهددني ويتوعدني فتوسلت إليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها على يدي ، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها ، وذهبت في استعطافه واستدنائه كل مذهب ، فكنت كأنني أخاطب ركودًا صماء أو أستنزل أبودًا عصماء ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة ، فعدت من حيث أتيت .

فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل ، لأني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم ، ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى أن ترى لي رأيًا في التفريق بيني وبينه ، علني أجد في فضاء الحرية منفذًا كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به أنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله .

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني ، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد أن هونت عليها بعض أحزانها ولواعجها ، فعادت إلى منزلها وعدت إلى مضــجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة ، وقد اكتنفني همان : هم تلك البائسة التي لم أرَ في تاريخ شقاء النساء قلبًا أشقى من قلبها ولا نجمًا أنحس من نجمها ، وهم ذلك الصــديق الذي ربحته سـنين عدة وخسرتـه في سـاعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسيـ عليها فأصــبحت أعزيها عنه ، وكنت أحســبه إنســانًا فإذا هو ذئب عملس تســتره الصــورة البشرــية وتواريه البشاشة والابتسامة .

هذا ما قصــــه عليَّ ذلك الصـــــديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المســـكينة ، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه :

سيدي :

يهمني كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليَّ كتابًا منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي :

إنك لابد تذكر القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها «فلان» وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شــكواها إلي ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك ، فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضـــاء فضـــاق بأمرها ذرعًا فطلقها ، وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها ، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفسًا ولا أكرم عنصرًا ولا أذكى قلبًا منها ، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها ، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقامًا شــديدًا ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر ، والشـــقاء الأكبر ، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفســها مأخذًا عظيمًا فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شـؤونها وأطوارها ، والرجل المصرـي شرقي بفطرته كائنًا من كان ، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لســـانه ولا أثر لها في نفســـه ، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء ، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء ، والسلام؟

## في سبيل الإحسان

الإحسان شيء جميل ، وأجمل منه أن يحل محله ، ويصيب موضعه .

الإحسان في مصر كثير ، ووصله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل ؛ فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس ، وأنة محزون .

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ، فالعطاء قد يكون نفاقًا ورياءً ، وقد يكون أحبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس الأعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليذل قليلاً ويربح كثيراً .

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء : فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحسانًا - صادر عن تلك العاطفة الشريفة - لما تجاوز محله ، ولا فارق موضعه .

فوضى الإحسان :

الإحسان في مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ، ويحرم منه مستحقه ، فلا بؤسًا يرفع ، ولا فقرًا يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء :

ولو أن السحاب همى بعقل لما أروى مع النخل القتادا

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحًا من أضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشًا وأنعم بالاً ، أو يهدي ما يسميه نذرًا من نعم وشاء إلى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه ، وما أهدى شاته ولا بقرته - لو يعلم - إلا إلى «وزارة الأوقاف» وكان خيراً له أن يهديها إلى جاره الفقير الذي يبيت ليلة طويلة يشتهي ظلفًا يمسك رمقه ، أو عرقوبًا يطفئ لوعته .

وأعظم ما يتقرب به محسن إلى الله ، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتهما : أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات ، ينشدون مواطن الصلات ، لا أماكن الصلوات ، أو يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب والأركان ، مذهبة السقوف والجدران يسميها « سبيلاً » ولا يهولنك هذا الاسم الضخم ، فكل ما في الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون

بينه وبين ماء النهر إلا بضــع خطوات ، على أن الماء كالهواء ملء الأرض والســماء ، ويقف الضــياع الواســعة من الأرض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه أحسن إليهم ، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع ذلك الإحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقًا شريفًا ، فإن كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه إلى الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلمًا إلى طعام يطعمونه ، أو درهم يتناولونه ، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصــصــين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق ، ولا فرق بين الفريقين : إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصي ، وأولئك يتسلحون بالسبح والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع ، فلا يتركون صادحًا ولا باغمًا ولا خفًا ولا حافرًا ، ولا شيئًا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .. إلا أتوا عليه .

أسوأ الإحسان :

لم أرَ مالاً أضيع ولا عملاً أخيب ولا إحسانًا أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ويقلبونها ظهرًا لبطن ، ويجتمعون في مفارق الطرق ، وزوايا الدروب ، وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصمون الأسماع بأصواتهم المزعجة ، ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة ، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل ، والجالس والقائم ، فلو أن نجمًا هوى إلى الأرض لهووا على أثره ، أو طائرًا طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه .

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك ، وهل ما تسديه إليه من المعروف تسديه إلى صاحب حاجة ، فاعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ، ولا مسكن له يحتاج إلى مؤن ومرافق ، ولا شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملبس . حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب ، لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه ، وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوي إليه لفعل ، ولوجد في حرفته متسعًا لذلك ، ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه ، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ، ليجمع مالاً لا فائدة من جمعه ، ولا نية له في إصلاح شأنه به إذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك ، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى يدفن معه ، أو لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده ، ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل ، أن يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل في سبيل الله ، فيتعمد

قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما ، ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما يحسد صاحبه إذا رآه أكثر منه دمامة ، وأعظم تشويهًا .

كما يحكى أن شحاذًا مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر ، فتنافسا في مصيبتهما أيتهما أقذى للأعين ، وأقتل للنفوس ، وأجلب للرحمة والشفقة ، فقال الأول للثاني : لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حبالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب . فقال له صاحبه : وأين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهبًا؟

إن أكبر جريمة يجرمها الإنسان إلى الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغري كل من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم ، والاحتراف بحرفتهم ، فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضوًا كاملاً ، لو لم يقطعه لكان عضوًا عاملاً ، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الأنبياء والحكماء قرونًا عديدة لإصلاح المجتمع الإنساني ، وتهذيب أخلاقه ، وتخليصه من آفات الجمود والخمول ؛ فهل رأيت معروفًا أقبح من هذا وإحسانًا أسوأ من هذا الإحسان؟!

تنظيم الإحسان :

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان مما يستهان به ، فلو قال قائل : إنها تبلغ في مصر وحدها كل عام مليونًا من الذهب لما أخطأ التقدير .

سألت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والإحسان عن كمية ما ينفقه كل عام في هذا السبيل ، فأطلعني على جريدة حسابه فرأيتها هكذا :

| جنيه | |
|---|---|
| ١٠ | ولائم لمشايخ الطرق . |
| ٦٠ | ليالٍ في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي . |
| ٧٢ | مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله . |
| ٣٠ | هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر . |

| | |
|---|---|
| ١٨ | صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يوميًا تقريبًا . |
| ١٠ | توضع في صناديق الأضرحة . |
| ٤٠ | ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية . |
| ٢٤٠ | المجموع |

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل افحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد ، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة في أن يقدر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو أن هذا المقدار حل من الإحسان محله ، وأصاب منه موضعه ، وأنفق في سبل الخير النافعة ، ووجوه البر الحقيقية ، لارتقى بالأمة المصرية إلى ذروة الكمال ، ولكان له الأثر الجليل في وصولها إلى ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة .

لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحًا نافعًا وأدعو الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهييج النفوس ، وضرب الناس بعضهم ببعض ، أن يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد .

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها وأصحاب الرأي فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى «مجتمع الإحسان» ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له .

أما أعماله التي أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة :

(أ) استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الإحسان ، وما هو الغرض منه ، وما هي أفضل وجوهه ، وأي أنواعه أجمع لخيري الدنيا والآخرة .

(ب) بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الإحسان هذا بيت المال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها أن تأخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك مأخوذًا بشيء من الإحسان أمام ربه ، وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع .

(ج) إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذي لا كاســب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكســب وتفقد شــؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العزة والنعمة ، وصــيانة ماء وجوههم أن تراق على تراب الأعتاب ، والإنفاق على تعليم من يتوســم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمة في مســتقبلها من أبناء الفقراء ، إلى أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسـان بدونها ، ولا ينصرف معناه إلا إليها .

أنا أعتقد اعتقادًا لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى في ســبيل هذا العمل الجليل ، ومن يضــع الحجر الأول في بناء مجتمع الإنسان ، هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان .

■ ■ ■

## أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما أعتقد ، ولا أعتقد إلا ما أسـمع صـداه من جوانب نفسي ، فربما خالفت الناس في أشـياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم ، وأن في رأسي عقلاً أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سيقة للعقول ، وريشة في مهاب الأغراض والأهواء .

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول أو صـاعقة من الغضـب لأني خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه ، أو أن يرى أن له من الحق في حملي على مذهبه ، أكثر مما يكون لي من الحق في حمله على مذهبي .

لا بأس أن يؤيد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغني عنه شيئًا ، وهي وسيلة الشتم والسباب .

إن لإخلاص المتكلم تأثيراً عظيمًا في قوة حجته وحلول كلامه المحل الأعظم في القلوب والأفهام ، والشاتم يعلم عنه الناس جميعًا أنه غير مختص فيما يقول ، فعبثًا يحاول أن يحمل الناس على رأيه ، أو يقنعهم بصدقه ، وإن كان أصدق الصادقين .

أتدري لم يسـب الإنسـان مناظره؟ لأنه جاهل وعاجز معًا ، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضـوع المناظرة إلى البحث في شـؤون المناظر وأطواره وصـفاته وطبائعه ، كأن كل مبحث عنده مبحث «فسـيولوجي» ، وما أعجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مئونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، محقًا كان أم مبطلاً .

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئًا غير خدمة الحقيقة وتأييدها ، وأحسب أن لو سـلك الكتاب هذا المسـلك في مباحثهم لاتفقوا على مسـائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون . يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قويًا في ذاته ، لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمد قوته من القلب ، فإذا جيء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلاً : إنك جاهل لا يعتد برأيك أو إنك مضطرب

الرأي لا ثبات لك ، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس ، وهنالك يقول لك له الناس : رويدًا ، لا تخلط في كلامك ، ولا تراوغ في مناظرتك ، ولا شـأن لك بعلم صـاحبك أو جهله ، فإنه يقول شـيئًا ، فإن كان صـحيحًا فسـلم به ، أو باطلاً فبين لنا وجه بطلانه ، وهبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شـأن لك باضـطراب صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطأه اليوم ، والمرء يخطئ مرة ويصيب ، فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعًا فر إلى أضـعف الوسـائل وأوهنها ، فسـب مناظره وشـتمه وذهب في التمثيل به كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان في ذلك الميدان .

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فإن لكل شيء جهتين : جهة مدح ، وجهة ذم ، فإما أن تتسـاويا ، أو تكبر إحداهما الأخرى ، فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف ، وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الأخير .

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهماوحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه ، فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة ، يعلو بها الملك إلى مصـاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشـياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صـورة فتاة حسـناء ، وعلى الآخر صـورة عجوز شـوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما : أحب أن أعرض عليكما هذه الصـورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صـورة العجوز الشـمطاء فاسـتعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذمًا قبيحًا ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفسـاد الذوق وقد ظن أنه يذم الصـورة التي رآها هو . فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشـديد اسـتوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جبهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكًا كثيراً ، ثم قال لهما : هذا ما أنتما فيه منذ الليلة ، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضرب به لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسـائل التي تختلفان فيها من جهتيهما ، فشـكرا له همته ، وأثنيا على فضـله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعًا كثيراً ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً .

■ ■ ■

## الإحسان في الزواج

ورد إليَّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

حضرة السيد الفاضل :

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها ، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له ، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ، ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه ، فاتفق رأينا جميعًا على أن نكتب إليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة ، والسلام .

ف.س

أيها السائل الكريم :

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلاً إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل ، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا ، فقد أخطأ خطأً جمًا ، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته ، ويتعلق بلذته ، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها ، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة في نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لا يكفيها مئونة العيش ، ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الشغف بها ، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيج له وجدًا ، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقًا هادئًا مطمئنًا لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك المسكينة إلى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به .

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاءً لشهوته وإثارًا للذته ، لا ينفعها ولا يحسن إليها ، لأنه لا يهذب نفسها ، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها ، والاستمرار على عشرتها ، بل يسيء إليها بسوء تصرفه معها فيبغض إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد ، وعندي أنه في عمله هذا فاسق لا متزوج ، لأنه لو لم يرَ أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمى مهرًا ولا عقد عقدًا .

فإن كان حقًا ما تقول من أن باعثه إلى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشـفقة فقد أحسـن كل الإحسـان ، ولا أحسـب وأن بين أعماله الصـالحة عملاً هو أفضـل عند الله ذخرًا وأعظم أجرًا ، من هذا العمل الصالح .

العرض أثمن من الحياة ، فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريفًا ، فأشرف منه من يرد العرض الضـال إلى صاحبه المفجوع به .

ليت الرجال يتفقون جميعًا على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضـيق بهن حلقات العيش فيسقطن .

لِمَ لا يكون بابًا من أبواب الإحسـان أن يتفقد المحسـنون من الرجال الفقيرات من النسـاء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من أولادهم وأقربائهم ، وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات النسـب ، لأنه إحسان ، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

لو عرف المحسـنون معنى الإحسـان لعرفوا أن إنفاق الأموال على بناء التكايا والزوايا ، وتوزيعه على المتسـولين والمتكففين ، ووقفه على القارئين والذاكرين ، لا يدخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلى النساء بالعصمة من البغاء .

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل ، فجدير به أن يغرم ما أتلف ، ويصلح ما أفسد .

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شـاء الله أن يعده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسـحر جاذب ، حتى إذا خدعها عن نفسـها ، وغلبها على أمرها وسـلبها أثمن ما تملك يدها ، نفض يده منها وفارقها فراقًا لا لقاء بينهما من بعده .

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين ، مسيلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها ، تفلي أناملها التراب ، لا تدري أين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش!

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ، لأن الرجل يسـميها سـاقطة ؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ، لأن الرجل أهمل شأنها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ، لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حرامًا ؛ على أن يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بدًا من أن تطلبه من طريق البغاء .

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ، وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها ، ويظهر في كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فإنا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة ، وأن حقًّا عليه أن يؤدي دينه ، ويغرم أرش جنايته .

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغيًا فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج بابًا من أبواب الإحسان ، أي أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه ، وأحق النساء بالإحسان أولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال ، وحلية الحسب والنسب ، فإن أبى إلا أن يتزوج من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه إلى مواطن الشقاء ، ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء .

■ ■ ■

## لا همجية في الإسلام

أيها المسـلمون : إن كنتم تعتقدون أن الله سـبحانه وتعالى لم يخلق المسـيحيين إلا ليموتوا ذبحًا بالسـيوف وقطعًا بالرماح ، وحرقًا بالنيران ، فقد أسـأتم بربكم ظنًا ، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله وتدبيره في شـؤونه وأعماله ، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدده .

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه . ويمده برحمته وإحسـانه ، ويرسـل إليه في ذلك السـجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها : نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فجنينًا ، فبشرًا سويًا .

إن إلهًا هذا شأنه مع عبده ، وهذه رحمته به وإحسانه إليه ، محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها ، أو يرضى بسـفك دمه الذي أمده به ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسـيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال .

في أي كتاب من كتب الله ، وفي أي سـنة من سـنن أنبيائه ورسـله ، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه ، والقابع في كسر بيته ، فينزع نفسـه من بين جنبيه ، ويفجع فيه أهله وقومه ، لأنه لا يدين بدينه ، ولا يذهب مذهبه في عقائده .

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه ، لأقفرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهر الأرض أعرى من سراة أديم .

إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سـنة من سـنن الكون ، لا يمكن تحويلها وتبديلها ؛ حتى لو لم يبقَ على ظهر الأرض إلا رجل واحد ، لجرد من نفسـه رجلاً آخر يخاصـمه وينازعه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج إلا من التحاك بين جسـمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه .

أيها المسلمون : ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مرادًا به التشفي والانتقام منهم ، أو القضاء عليهم ، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل ، أي أن القتال كان ذودًا ودفاعًا ، لا تشفيًا وانتقامًا .

وآية ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب فيه حتى يصل إليها أمر الخليفة القائم أن لا تزعج الرهبان في أديرتهم ، والقساوسة في صوامعهم ، وأن لا تحارب إلا من يقاومها ولا تقاتل إلا من يقف في سبيلها ، ولقد كان أحرى أن تسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتسلب أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم .

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم ، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعًا ، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم ، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا متمذهب .

أيها المسلمون : ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام .

ما جاء الإسلام إلا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها ، ثم يملأها بعد ذلك حكمة ورحمة ، فيعيش الناس في سعادة وهناء ، وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل إلا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب إلى شفاء المريض .

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم ، أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يمدوا إليكم يد سوء ، أو يبتدرونكم ببادرة شر ، فلا عذر لكم .

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في الحياة أخذًا ولا ردًا ، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم ، وتتعجلوا قضاء الله فيهم .

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون .

من أي صخرة من الصخور ، أو هضبة من الهضبات ، نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم ، والتي لا تروعها أنات الثكالى ، ولا تحركها رنات الأيامى ؟

من أي نوع من أنواع الأحجارة صيغت هذه العيون التي تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتتمشى في أحشائه على مرأى ومسمع من أمه ، وأمه عاجزة عن معونته ، لأن النار لم تترك لها يدًا تحركها ، ولا قدمًا تمشي عليها؟

لا أ ستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار ، لأني أعتقد أن قتل الضعفاء جبن ومعجزة ، وأن سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أحرى أن يعزى فيها صاحبها ، لا أن يهنأ بها .

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم ، ولكن حذار أن تذكروا اســم الله على هذه الذبائح البشرــية فالله ســبحانه وتعالى أجل من أن يأمر بقتل الأبرياء ، أو يرضى باستعطاف الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين .

■ ■ ■

## البخيل

سألني سائل : ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبته بهذا الجواب :

البخل إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفوًا بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يسأل المسرف عن سبب إسرافه ، والغاضب عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه ، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حينًا ، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً ، لمكان تلك الملكات من نفوسهم ، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات ، ولا تزعزعها الإرادات ، وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله ، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه ، أحس كأن تيارًا كهربائيًا قد سرى من نفسه إلى يده فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء والانثناء ، فأخرجها صفرًا كما أدخلها ، وبوده أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة فوق قوة الإرادة ، وسلطانًا تخضع له الرغبات وتنقاد إليه العقول ، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها ؛ فإنه يكسر شرتها أحيانًا ، وإن لم ينتزعها انتزاعًا .

ويحكى أن شحيحًا تحركت في قلبه يومًا الشفقة على ابنته الجائعة العارية ، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئًا من ماله فتأبت عليه ، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه ، علمًا بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد .

فالوجه في السؤال أن يقال : ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل؟ فيكون الجواب عن ذلك : إن الأ سباب تختلف باختلاف الأ شخاص وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع .

الأول - الوراثة : وهي وإن كانت سببًا ضعيفًا لما يعرض للأخلاق الموروثة أحيانًا من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم ، إلا أنها كثيرًا ما تنمو وتتجسم إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها .

الثاني - التربية : إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه ، أخذ أخذهم في الحرص ، وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان ، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها .. ويحكى أن رجلاً دخل منزلاً يعرف أهله بالشح والحرص ، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة ، فطلب إليه أن يعطيه إياها ، فأجابه الطفل « إن يدك لا تسعها! » .

الثالث - سوء الظن بالله : ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن لله سبحانه وتعالى عينًا ساهرة على عباده الضعفاء ، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام ، فلا يلج به الحرص على الجمع ، ولا يزعجه الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان ، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والحدود ، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه .

الرابع - النكبات : كثيراً ما تحل بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها ؛ ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال ، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها ، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص وأغرق في المنع ، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقًا ثابتًا له ؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع ، فإنه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة ، ولا تضيع من ذاكرته آلامها . فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل إليه ما لا يتخيل ، ويريه ما لا يرى ، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالتي الأمن والخوف ، والوحشة والأنس .

الخامس - اللؤم : فإن النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها ، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه ، وبغض الخير للناس قاطبة ، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألمًا على ألم ، وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء ، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل .

السادس - سقوط الهمة : إذا نشأ الإنسان عالي الهمة طموحًا إلى المعالي محبًا للذكر الحسن والثناء الجميل ، سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه ، وحب المجد ، أسال الذهب من خزائن الأغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهبًا مقسمًا بين شفرات السيوف ،

وأسـنة الرماح ، طلبًا لسـعادة الحياة بالذكر ، وسـعادة الممات بالخلود . فمن لسـاقط الهمة ضـعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراســخة في قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حب الثناء ، وهو لا يشــعر بلذته؟ أو خوف المذمة ، وهو لا يتألم منها ، ولا يحس بمرارتها ؟ أم ســعادة الحياة و سعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الخطيئة من المكارم بلقمة يمضغها ، وحلة يلبسها .

السابع - فساد المجتمع الإنساني : ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صــاحبه لا لفائدة يرجونها ، خير يطمعون فيه ، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام ، وإن لم يحصلوا منه على طائل ، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ســاعة واحدة لأصــبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما في يده ، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له ، بل هو أشــهى الأشــياء إليه ، وأكثرها ملاءمة لفطرته ؛ ليزداد شرفًا وعزًا ، كلما ازداد ثراء ووفرًا ، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده : يا بني لأن يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهم من أن يقسـمها فيهم ، وقال رجل لآخر : يا بخيل ؛ فقال له : لا أحرمني الله بركة هذا الاسم ، فإني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنيًا فسم لي المال ولقبني بما تشاء .

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل ؛ فإن أغفلنا النظر إليها و سلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله ، حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختارًا فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة ، كان منال النجم أقرب من تطبق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل ، لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة ، بعضها نفسي ، والآخر جســدي ، فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصـاحب المال الكثير الذي يقنع بالشـملة والمضـغة ، والجرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز ، لأنه قادر ؛ ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع ، ولا على الخوف من الفقر ، لأن عنده من المال ما يفني الأعمار ، فهيهات أن يفنيه عمر واحد ، ولا على رغبة في ســعادة الذرية ، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكًا له في سعادته ، فأما أن يشقى في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبقَ لنا إلا أن نتوسـل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسـع في تفسـير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصورًا على المعربدين والهاذين ، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا

**يدرون ما يأخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلامًا نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان ، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانونًا لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانونًا لحفظ المال في صناديق المبذرين ، فإن تبذير المال يضر قومًا وينفع أقوامًا ، أما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين .**

■ ■ ■

## البعوض والإنسان

جلست ليلة أمس إلى منضدتي وعلقت قلمي بين أصابعي ، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه .. وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي : أنني لا أميل إلى الكتابة في بياض النهار ، ولا أحب أن أخط حرفًا على ما أحب وأرضتي إلا في ظلام الليل وهدوئه .

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنني أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام ، أو أنني أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته إلى سماء الخيال ، فكل ذلك لم يكن ، وليس في الناس من هو أدرى بدخيلة أمري منه ، وكل ما في المسألة أن هذه عادتي وتلك طريقتي ، وكفى .

لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في أذني ، ثم أحسست بلذعاته في يدي ، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعًا وتجمع من همي ما كان مفترقًا ، ولم أرَ بدًا من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل .

طاردته بالمذبة فما أجدى ذلك نفعًا لأنه على الطيران أقوى مني على المطاردة ، وفتحت النوافذ لأخرج ما كان داخلاً ، فدخل ما كان خارجًا ، وحاولت قتله فوجدته مبعثرًا ، ولو كان مجتمعًا في دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة ، ولم أرَ في حياتي أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير أمة البعوض ؛ فما أضعف هذا الإنسان ، وما أضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه ، واعتقاده أن في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يرسل أشعة عقله دفعة واحدة ، ويشحذ سيف ذكائه ، ويبتعث عزيمته ويقتدح فكرته .

يزعم ذلك ، وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه في مدافعة أصغر الحيوان جسمًا وعقلاً ، وأدناها قيمة و شأنًا ، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه ، وفي فلتات وهمه .. ولو علمه علمًا يتغلغل في نفسه ، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه ، وخفض من كبريائه ، وعلم علم اليقين أن الإنسان العاقل ، والحيوان الملهم ، والنبات النامي ، والجماد الجامد ، سواء بين يدي القوة الإلهية الكبرى ، التي لا ينفع نفعها حول ولا قوة .

علمت أني عييت بأمر هذا الحيوان ، فلذت بجانب الصبر ، والصبر - كما يعلم معشر الصابرين - حجة العاجز ، وحيلة الضعيف وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين ، وفضول المتطفلين ، وقلت في نفسي : لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتي ، وشرحت له عذري ، وسألته أن يمنحني ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتي هذه ، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي ، ينزل منهما حيث يشاء ، ويمتص منهما ما يشاء ، ولكنه - ويا للأسف - لا يسمع شكاتي ، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة ، لأنه ليس بإنسان .

أحسب أن لذعات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلي وفهمي ، وأني قد بدأت أهذى هذيان المحموم ، فمن أين لي أن لو كان البعوض إنسانًا كان يسمع شكاتي ، ويكشف ظلامتي ، أو أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الإنسان أحسن حالاً من البعوض وأرحم منه قلبًا وأشرف غاية ، فأتمنى لو كان مكانه؟ بل ، ومن أين لي أن هذا الذي أحسبه بعوضًا ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق؟ وأي غرابة في أن أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل إلى الأذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية ، والأجزاء المقومة للماهية؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعًا في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفردًا ؟

إن البعوض في امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضررًا وأشرف غاية ، وأجمل مقصدًا ، لأنه إن آذى الجسم فقد أبقى على الحياة ، ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف له طريقًا سواه ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر .

إني وجدت بين الإنسان والبعوض شبهًا قريبًا في صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفًا منها وتارك لفطنتك الباقي .

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك ، وهو أ شبه شيء بشارب الخمر : يتناول الكأس الأولى منها ، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته ، فتطمعه الأولى في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويؤدي بها ، من حيث يظن أنه ينعشها ، ويجلب إليها سرورها وهناءتها .

البعوض سيئ التصرف في شؤون حياته ، لأنه لا يسقط على الجسم إلا بعد أن يدل على نفسه بطنينه وضوضائه . فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه ، أو يفتك به قبل بلوغه إليه ، فمثله في ذلك كمثل بعض الجهلة من أ صحاب المطالب السيا سية : يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة إليها إلا بين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها ، وهنالك يدرك عدوهم مقصدهم ، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئًا ساكنًا من حيث لا يشعرون .

البعوض خفيف في وطأته ، ثقيل في لذعته ، فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره ، ويسوؤك مخبره! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء ، والسحر الحلال جمالاً وبهاء ، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب إليها سلسبيل الوفاء ، يقول لك : إني أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوي المال ، وجاهك إن كنت من ذوي الجاه ، فإن لم تكن هذا أو ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك ، ويثلم شرفك ، فإن فاته ما يشفي به داء بطنته ، لا يفوته ما يطفئ به نار حقده وموجدته .

لا يزال البعوض ملحًا في مهاجمتي ، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد مما كتبت ، والسلام .

■ ■ ■

## الجزع

**يا صاحب النظرات :**

**لي صديق سقط في امتحان «البكالوريا» هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً ، فهو لا ينفك باكيًا متألمًا حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول : كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي؟ وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي ؟ فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك ، التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟؟**

**حقوقي**

**ليست المسألة مسألة صديقك وحده ، بل مسألة الساقطين أجمعين ، فإن المرء لا يكاد يتناول نظره منهم في هذه الأيام إلا وجوهًا قد نسج الحزن عليها غبرة سودا ، وجفونًا تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج ، حتى ليخيل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم ، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفو سهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهناءته سدًا لا تنفذه المعاول ، ولا تنال من أيده الزلازل .**

**خفض عليك قليلاً أيها الطالب ، فالأمر أهون مما تظن ، وأصغر مما تقدر ، واعلم وما أحسبك إلا عالمًا أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك ، ولم يهوِ بك القضاء إلى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر .**

**إنك قد سعيت إلى غرض فإن كنت هيأت له أسبابه ، وأعددت له عدته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله ، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك ، فحري بك أن لا تحزن على مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك ، ولا جناية من جنايات نفسك عليك ، وإن كنت قصرت في تلمس أ سبابه ، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديرًا بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه؟**

**ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام ، ومطاوعة الأقدار؟ وهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي؟ وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك ، ولا يجري إلا بجدك؟ وعلى القلم أن لا يكتب في لوحة إلا ما دللته عليه ، وأوحيت به إليه ؟**

لا تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسك ، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك ، وامضِ لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك ، فإن تم لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك ، أو لا ، فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة كان كل ما تستفيده منها أن تشتري بها قيدًا لرجلك ، وغلاً لعنقك ، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم ، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الأسراء في سجون الآسرين .

إن اعتداءك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك ، وغاية همتك ، وإنك لا ترى بعدها مزيدًا من الكمال لمستزيد ، فإن صدقت فراستي فيك ، فاعلم أن الله قد خار لك في هذا المصير ، وساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه ، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالاً معلومًا ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق ، إلا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب .

إن كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك ، لا شأن للحكومة فيه ، ولا حاجب لها عليه ، وما هو إلا أن تجد في التزيد من العلم والمعرفة ، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية ، فإذا أنت شريف في نفسك ، وفي نفوس الخاصة من الناس ، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب ، ولا حي الله شرفًا يحيى بورقة ويموت بأخرى ، ولا مجدًا يأتي به سطر ويذهب به سطر ، وإن كنت تبكي على العيش ، ففي أي كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقف على الموظفين ، وحبائس على المستخدمين؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزانته إلا إذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير ، أو إشارة وزير؟

أيها الطالب :

قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء : إن الذي وهبني عقلي لم يسلنيه ، وإن الذي صور لي أعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها فيما خلقت له ، وإن الذي خلقني سوف يهدين ، إنه الرزاق ذو القوة المتين .

## النبوغ

من العجز أن يزدري المرء نفســه فلا يقيم لها وزنًا ، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق ، وعندي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا ، خير ممن يخطئ في تقديرها متدليًا ، فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده ، فتراه صغيراً في عمله صغيراً في أدبه ، صغيراً في مروءته وهمته ، صغيراً في ميوله وأهوائه ، صـغيراً في جميع شـؤونه وأعماله ، فإن عظمت نفســه عظم بجانبها كل ما كان صـغيراً في جانب النفس الصغيرة .

ولقد ســأل أحد الأئمة العظماء ولده ، وكان نجيبًا : أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب أن تكون؟ فأجابه : أحب أن أكون مثلك ، فقال : ويحك يا بني! لقد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبك على عقلك البواكي ، لقد قدرت لنفسي يا بني في مبدإ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب ، فما زلت أجد وأكدح حتى بلغت المنزلة التي تراها ، وبيني وبين علي ما تعلم ، من الشــأو البعيد والمدى الشاسع ، فهل يسرك ، وقد طلبت منزلتي أن يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين علي؟

كثيراً ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضــع وصــغر النفس ؛ وبين الكبر وعلو الهمة ، فيحســبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعًا ، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا ، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً ؛ وما التواضع إلا الأدب ، ولا الكبر إلا سوء الأدب ، فالرجل الذي يلقاك متبسمًا متهللاً ، ويقبل عليك بوجهه ، ويصــغي إليك إذا حدثته ويزورك مهنئًا ومعزيًا ، ليس صــغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ، لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع ، والأدب أرفع لشأنه فتأدب .

فتى كان عذب الروح لا من غض- -اضــة ولكن كبرا أن يقال به كبر

فإذا بلغ الذل بالرجل ذي الفضــل أن ينكس رأســه للكبراء ، ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثمًا وتقبيلاً ، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ، ويبصــبص برأســه ، وهو ســائر في طريقه بصــبصــة الكلب بذنبه ، ويجلس في مدارج الطرق ، وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين ، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب .

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزري به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة . كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنســـان إلى النبوغ في هذه الحياة ، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العالم ، لأن حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها إلى نبوغ ســـواه من الصـــانعين والمحترفين ، وهل الصـانعون والمحترفون إلا حسـنة من حسـناته ، وأثر من آثاره؟ بل هو البحر الزاخر الذي تسـتقي منه الجداول والغدران .

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظرًا يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، أو خرافة من خرافات الجان ، وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك و شجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول : من لي بسلم أصعد فيه إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم ، أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك ، وجو غير جوك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ، ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسع من رقعة الأرض ، وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسـدوك في خلواتهم من وصـفك بالوقاحة أو بالسـماجة ، فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون .

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى ســماء المجد والشرــف : علو الهمة والفهم في العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته . وأما الفهم في العلم ، فإليك الكلمة الآتية :

العلم علمان : علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين أن تسـمع من الحافظ كلمة ، أو تقرأ في الكتاب صـفحة ، فإن أشـكل عليك شيء مما تسـمع ، فانظر إن نطق الكتاب شرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ ما يســمع لأنه قوي الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدر مشـــترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل ، لأن الحافظ ملكة مسـتقلة بنفسـها عن بقية الملكات : وإنك لترى الشـيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم ، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها ، ويرتعد فرقًا حينما يسمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الجن والشياطين ، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخًا صحيحًا ضـــخمًا مملوءً بالغرائب والنوادر ، وقيل لأحد العلماء : إن فلانًا حفظ متن البخاري ، فقال : لقد زادت نسخة في البلد!

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ، لأن من فهم معلومًا من المعلومات حق الفهم أشربته روحه ، وخالط لحمه ودمه ، وو صل من قلبه إلى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بدًا من العمل به رضي أم أبى .

لولا أن العلم الديني قد أصبح اليوم علمًا محفوظًا لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على أبواب الأحياء والأموات في مزاراتهم وفي مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى : ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ من يسند النفع والضر إلى كل من سال لعابه وتمزق إهابه ، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقًا بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات .

لو كان العلم المحفوظ علمًا - وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ، ولا قدّسه كاتب ، أو ترنم بمدحه شاعر ، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ ، وآية فهم المعلوم تأثر العالم به ، وظهوره في حركاته وسكناته ، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك . فربما مر بالمعلوم محرفًا فأخذه على علاته ، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والسمين ، والجيد والزائف ، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية ، بالعقاقير السامة .

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب ، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدى به ، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله .

أما العلم المفهوم فهو الواســطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين . وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة ، أو كشف حقيقة ، أو أصلح هفوة أو اخترع طريقة ، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهومًا لا محفوظًا ، ولا يكون مفهومًا إلا إذا أخلص المتعلم إليه ، وتعبد له وأنس به أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته ، والمحترف لحرفته ؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه ، لا ما يغلو جوهره ؛ والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء ، أحسن أم أساء .

لا يزور العلم قلبًا مشـغولاً بترقب المناصـب ، وحسـاب الرواتب ، وسـوق الآمال وراء الأموال ، كما يزور قلبًا مقسـمًا بين تصـفيف الطرة ، وصـقل الغرّة ، وحسـن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام بالكأسين : كأس المدام ، وكأس الغرام .

■ ■ ■

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله ، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألمًا في عنقها ، وجرحًا في ذراعها ، وهمًا في نفسها ، وتدير في الحاضرين عيونًا حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج ، فسألت : ما شأنها؟ فعلمت أن أهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق . ثم زفوها إليه فحاول أن يفترشها ، وهي على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش فامتنعت عليه ، فأراد اغتصابها فعجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة ، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه إليه مرة أخرى ؛ وهنالك عاد زوجها إلى عادته معها ، فعادت هي إلى فرارها ، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم . فلما أعياها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهبًا ولا منزلة فلذات أكبادهم من نفو سهم ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج ، أو يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شؤونًا من شؤون أهله ، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل .

فإن كانت ذات جمال أو مال ، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع ، آلامًا جثمانية تطفئ نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها ، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ما يجعل أخلاقها قضاءً مملوءً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء ، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي ، فما أنس لا أنس ليلة زرت فيها صديقًا لي ، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكأنما هي الخلال رقة وذبولاً ، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها ، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها ، فسألتها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكمًا من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و« الإرادة» تماطل في إنقاذه ، فجاءت إلى هذا الطريق تستعين به على أمرها ، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ومعالجة القوت ما أسال شؤوننا ، وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدعا .

فخففت أنا والصديق شيئًا من آلامها فانصرفت ؛ وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس ، وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة .

أيها الرجل :

إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعدادًا مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة ، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك .

إن كنت زوجًا فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وإن كنت أبًا فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعًا ، ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها ، ثم يلقي إليك بعظامها .

ويا أيها المحسنون : والله لا أعرف لكم بابًا في الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة .

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

تم بحمد الله الجزء الأول من النظرات ويليه الجزء الثاني .

■ ■ ■

# النظرات
# الجزء الثاني

◆◆◆

# البيان

قال لي أحد الوزراء ذات يوم : «إني لتأتيني أحيانًا رقاع الشكوى فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، والكلمات الجارحة ، لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبيها وأين يذهبون ، ولولا ذلك لكنت من الظالمين» .

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزل في موضع الجد ، وجد في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان الإيجاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ، وجهل لا يفرق ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء ، والعلماء والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في الفاجعة يفجع بها ، ويكتب في الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ويناجي أجيره بما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة ، واختلفوا في شأنه اختلافًا كثيرًا ، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزه ، ولا يقصر عنه ، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنه الا ستكثار من غريب اللغة ونادر الأ ساليب فأغ صوا بها صدور كتابتهم ، وحشوها في حلوقها حشوًا يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها ، فإذا قدّر لك أن تقرأها ، وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا ، وفؤادًا جلدًا ، وجنانًا يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه ، قرأت متنًا مشوشًا من متون اللغة ، أو كتابًا مضطربًا من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول ، والتبسط في الحديث واقعًا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرّتها ، ويتمطقون بما تمطق الشفاه بريقها ، حتى تسف وتتبذل ، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

يخيل إليَّ أن الكتَّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تلجلج في صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فإني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع ، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه ، وخوالج نفسه .

الكلام صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف ، فإن أردت أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أُصيب البيان العربي بما أُصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة ، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتبًا عربيًا قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم ، وتصوراتهم وخيالاتهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ويتغزّلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأية لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمدادًا يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعته على صفحات قرطاسه .

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابئ والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعر به المتنقل دفعة واحدة من غرفة مُحكمة النوافذ ، مُسبلة الستور ، إلى جو يسيل قرًا وضرًا ، ويترقرق ثلجًا وبردًا .

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغتبط بها ، ولا هي بالعامية فألهو بأحماضها ومجونها .

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين : رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في روع قارئ كتابته أدون مما أخذها ، فيدلي آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهًا ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشيّ ، وطالب قصارى ما يأخذه من أستاذه : نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملاؤها ، ومترادفها ومتواردها ، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها ، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عنده علماء غير أدباء ، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ، ويوحي إليه بسرِّها ، ويفضي له بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها ، وعندي أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق

وأسـتاذ البيان ، فكما أن طالب الأخلاق لا يسـتفيدها إلا من أسـتاذ كملت أخلاقه وسـمت آدابه . كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين .

ولا يقذفن في روع القارئ أني أحاول اسـتلاب فضـل الفاضـلين أو أني أريد أن أنكر على شـعراء الأمة وكتابها وما وهبهم الله من نعمة البيان ، فما هذا أردت ولا إليه ذهبت ، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشـعراء البارعين ، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب .

وبعد : فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سـبيلاً إليه إلا مزاولة المنشـآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج . فإن رأيت أنك قد شـغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها ، وأن قد لذّ لك منها ما يلذ للعاشـق من زورة الطيف في غرة الظلام ، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصـيب ، فامض لشـأنك ، ولا تلو على شيء مما وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه ، فإني لا أحب أن تكون سـارقًا أو مختلسًـا ، فإن فعلت لم يكن دركك دركًا ، ولا بيانك بيانًا ، وكان كل ما أفدته أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها ، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها وإنما أريد أن تحصـل لنفسـك ملكة في البيان راسـخة تصـدر عنها آثارها عفوًا بلا تكلف ولا تعمل ، وإلا كان شأنك شأن أولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها ، فقنعوا بها ، وظنوا أنهم قد وصلوا من البيان إلى صميمه . فإذا جد الجد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم ، رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فإن وجدوا بينها قالبًا لذلك المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعًا وحشروه في كتابتهم حشرًا . وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة أو هجروا تلك المعاني إلى معان أخرى غيرها ، لا علاقة بينها وبين سـابقاتها ولاحقاتها ، فلا بد لهم من إحدى السوأتين : إما فساد المعاني واضطرابها ، أو هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحذر أن تكون واحدًا منهم ، أو أن تصـدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسـهم من أن اللغة العربية أضـيق من أن تتسـع لجميع المعاني المسـتحدثة ، وأنهم ما لجأوا إلى التبذل في التراكيب إلا لاسـتحالة الترفع فيها . فاللغة العربية أرحب صـدرًا من أن تضـيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعد ما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل لغيرها باحتماله ؛ وقدرت من هواجس الصـدور وخوالج النفوس على ما عيّت به اللغات القادرات .

وليس الشأن في عجز اللغة و ضيقها ، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها ، والتغلغل في أعماقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تثلج صدرًا ، ولا تشفي أوامًا .

وكل ما يعد عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة ، وهو في مذهبي أهون الذنوب وأضعفها شأنًا ، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالأمر أهوَن من أن نحار فيه ، وأحقر من أن نقضي أعمارنا في العراك ببابه ، والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه ، وأجداها عليه .

واعلم أنه لابد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزواله من المنشآت العربية ، فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك ، ولا أحسبك إلا واقفًا بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعناق الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقًا سليمًا ، وقريحة صافية ، وملكة في الأدب كمصفاة الذهب ، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي إليها من البذور الطيبة ، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة ، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه ، تناثر الورود والأنوار من حديقة الأزهار .

■ ■ ■

## السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الإنسان لرأى منها ما يرى الأعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيراً .

تتراءى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء ، فإن بدا لك أن تكتنه باطنها فإنك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات .

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمس لعابها من نافذة غرفته فإذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواح السانحات وغدو البارحات ، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسمها له ويدينها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد إلى الوصول إليها سبيلاً .

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه ، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه ، فلجّ بهم الشوق إليها لجاجًا طار بعقولهم وذهب بألبابهم ، فتراموا على أقدام المنجمين والعرّافين لثمًا وتقبيلاً ، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعًا وسجودًا ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الإبل العطاش بمنازل الماء ، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات ، ولا تجدي معه العزائم والرقى .

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكواكب في جنح ليل مبرد ، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار ، فتحسده على نعمته وسعادته ، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وإن بين جنبيه - لو علمت - همًا يعتلج ، وقلبًا يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الأعمار ، وكبدًا مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والأحزان ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان .

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحلو ، وثغره المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك وإعظامه لك وإعجابه بشمائلك ومحاسنك ، وتشيعه لآرائك ، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منه لوددت أن لو تيسر لك أن تبتاع أقدام السليك بجميع ما تملك يدك ففرت من وجهه فرارك من وجه الأسود السالخ ووددت بجدع الأنف أن لا يصافح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم .

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، وكان للكون نظام غير هذا النظام ، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات .

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا « نيشانًا » في صدر القائد ، أو جوهرة في تاجر الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين في مواقفهم بإشراك الوطنية وحبائل الدين ، لما دالت الدول ، ولا انتقلت التيجان ، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان . ولو علم جهلة المتدينين أن أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم عقولهم وأموالهم بالقليل من التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية ، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال ، لضعفت أصوات النواقيس ، وقصرت قامات المنائر ، ولهلك أرباب الطياليس والقلانس جوعًا و سغبًا ، ولأصبحت حبات السبح أكسد في سوق الأديان من بعد الآرام في سوق الأنعام ، ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته ، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه ، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه ، لضعفت صلة الود بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيراً منها ، لما وثقت بودِّه ولا اطمأنت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد .

■ ■ ■

## زيد وعمرو

أراد داود باشـا - أحد وزراء تركيا في العهد القديم - أن يتعلم اللغة العربية ، فأحضر أحد علمائه ، وأخذ يتلقى عنه علومه عهدًا طويلاً ، فكانت نتيجة عمله ما ستراه .

سأل شيخه يومًا : ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويبرّح به هذا التبرح المؤلم ؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه ، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير ؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظًا وحنقًا ، ويضرب الأرض بقدميه ؛ فأجابه الشيخ : ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي ، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب ، وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية . فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل إلى نحوي آخر فسأله كما سأل الأول ، فأجابه بمثل جوابه ، فسجنه كذلك ، ثم ما زال يأتي بهم واحدًا بعد واحد . حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس ، وأصبحت هذه القضية المشئومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد ، فأمر بإحضارهم ، فحضروا وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يراد بهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق والبصر بموارد الأمور ومصادرها ، فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه رئيس العلماء : إن الجناية التي جناها عمرو يا ومولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال ، فانبسطت نفسه قليلاً وبرقت أسارير وجهه ، وأقبل على محدِّثه يسأله : ما هي الجناية ؟ فقال له : إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيدًا يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله - يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود - فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : أنت أعلم من أقلته الغبراء ، وأظلته الخضراء ، فاقترح عليّ ما تشاء ، فلم يقترح عليه سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين فأمر بإطلاقهم ، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات .

أحسن داود باشا في الأولى وأساء في الأخرى ، ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلة البالية إلى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو ، وخالد وبكر .

لا ينال المتعلم حظه من العلم إلا إذا اســتطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به في مواضــعه ومواطنه التي وضـع لأجلها ، ولن يسـتطيع ذلك إلا إذا اسـتكثر له معلمه من الأمثلة والشـواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافتن له في إيرادها افتنانًا يقرّب إلى ذهنه تلك الصـلة من العلم والعمل ، ويسـهل له الوصـول إلى القدرة على تلك المطابقة ،وإن أكثر المتعلمين في مدرســة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة ، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم ! فلو أنك أردت أحدهم على أن يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية ، وفي النحو عن ضرب زيد عمرًا ، وقتل خالد بكرًا ، وفي البيان عن تشــبيه زيد بالبدر ، واستعارة الأظفار للمنية ، وفي الصرف عن فعلل وافعوعل لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة ، وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك على أعوام قضاها بين المحابر والدفاتر ، ثم لم يحصل من بعدها على طائل .

علام يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صـحيحًا كل كتاب وكل صـحيفة ؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام ، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أســـاليبه ، وعن الإبانة عما يدور في نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلق ولا اضطراب ؟ وعلام يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاســـد القضــايا وصــحيحها في كل ما يعرض عليه منها ، وإن لم يكن الموضــوع الإنســـان ، والمحمول الحيوان الناطق ؟!

عجيب جدًا أن يفهم الصانع الأمي أن العلم للعمل ، فلا يتعلم النجارة إلا ليصنع الأبواب والصناديق ، ولا الحداد إلا ليصــنع الأقفال والمفاتيح ، وأن يجهل المتعلم هذه القضــية الضرــورية ، فلا يهمه من العلم إلا الاســتكثار من المعلومات والقواعد ، وإن عجز بعد ذلك عن التصرــف فيها ، والانتفاع بها في مواطنها .

ما دامت مدرسـة الأزهر على هذه الحال من أسـلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مسـتقبل الأيام أن ينبغ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة انتفاع أمثالها بأمثالهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فويل للعمل من العلماء .

## أبو الشمقمق

إن كثيراً من الفقراء لم تمتد يد الفقر إلى رؤسـهم ، كما امتدت إلى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء ، ويفهمون كما يفهمون . وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس .

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية : ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة ، وزراع يفخر بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ . وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار ، والكل متفقون على أن الساعة التي أظلتهم أجنحتها على هذا العهد الأخير : عهد العدل والإنصاف ، عهد الحرية والمساواة ، عهد الرقي والعمران : هي أشبه شيء بسعادة المتقين في جنات النعيم .

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفة ، ويهز رأسه ، ويصعد أنفاسه ويمضغ أضراسه ، ويئن من أعماق قلبه أنينًا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر :

فيا لك بحرًا لم أجد فيه مشربًا على أن غيري واجد فيه مسبحًا

فما هو إلا أن قضوا لبانتهم من الكلام المملول ، والحديث المعاد حتى قاموا يطيرون الآمال وراء الأموال . فأشرت إلى أبي الشمقمق أن يختلف ففعل . فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيه ؟ فأجاب إني أكره الفضول في الحديث وقد فرق المقدار بيني وبينكم في المال ، فلا أشترك في المقال ، فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمة المصرية في عهدها الأخير وأنت فرد من أفرادها ، وجزء من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك، وسقوطها سقوطك ، والأمة - كما تعلم - هي الفرد المتكرر والواحد الدائر ، فأنت الأمة والأمة أنت ، فقال والله لا أدرى أتكلمني بلسان الصوفية ؟ ولست بصوفي ، أم بلغة الفلاسفة ؟ ولا أفهم للفلسفة معنى ، وكأنك تقصدني بالفرد المتكرر ، فإن كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والمثال في العوز والفاقة ، وواحد لا سند لي ولا عضد ؛ ودائر في مدارج الطرق ومعابر السبل فقد أصبت وأحسنت ، وإن كنت تريد معنى غير ذلك ، فأنا لا أفهم إلا كذلك ، فهل لك أن تعفيني من الجواب على هذه المعميات وتزن كلامك على مقدار عقلي وتحدثني فيما يتناوله سمعي وبصري ؟ فقلت : أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف ، ولا أريد إلا أن الأمة ليست في الخارج شيئًا غير أفرادها ، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبناؤها ، وحسبك أن ترى تقدم الأمة

المصرية في ثروتها وعمرانها ، وبذخها وترفها ، وكثرة ناطقها وصامتها ، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها ، فقال : إن لم تبين لي سهمي من هذه السعادة ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء ، وما دمت أرى أن لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء ، ويدًا تقصر عما تناوله أيديهم ، وبطنًا لا يمتلئ بما تمتلئ به بطونهم ، وما دمت لا أرى واحدًا بينهم يلبس معي ردائي الممزق .. وقميصي المخرق ..

كبدر أضاء الأرض شرقًا ومغربًا ... وموضع رجلي منه أسود مظلم

ما لي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه .. والقصر الذي لا أدخله مالكًا ولا زائرًا .. وهب أن الطرق مفروشة بالحرير والديباج .. لا بالحصى والمدر .. فهل أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئًا فأستطيع أن أميز بين خشن الملمس وناعمة ، ومعوج الأرض ومستقيمها ؟ وهبني إذا مشيت خضت في بحر مائج بأنوار الكهرباء . فهل سيغني ذلك عني شيئًا ؟ وهل يكون نصيبي منه إلا انكشاف سوأتي ورثاثة حالتي لأعين الناظرين ؟ ولقد حبب إليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرتق والفتق .. والتمزيق والترقيع .. وبعد : فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني ؟ هل ترقت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين ؟ وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء ؟ فقلت : نعم .. أما ترى الأموال التي يتبرع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية ، والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات ؟ فقال : إن هذه التي تسميها مكارم ، لا يسميها أصحابها إلا مغارم ، ألجأهم إليها التملق للكبراء ، وحب التقرب من الرؤساء ، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب .

ما لي وللمدارس والمستشفيات ، وأنا جوعان خبز لا جوعان علم .. ولا مرض عندي إلا مرض الفاقة ، فهل أجد في المدارس خبزًا أو في المستشفيات دواءً كذلك الدواء الذي وصفه أحد الأطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضًا فعرف سر مرضه فأعطاه علبة وكتب على غطائها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير .

أنا رجل ضـعيف البصر ـ ضـعيف القوة كما ترى .. فلا قدرة لي على العمل وعندي صـبية صـغار ليس بنهم من يســتطع عملاً أو يحســن صــنعًا ، ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه ، والعهد الذي تنقمون عليه ، منفســح عظيم في منازل المحســنين ومورد نمير من صــدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسـين ، أما اليوم فإني أبيت طاويًا ، وأصـبح شـاكيًا ، وأغدوا راجيًا وأروح يائسًا .

وهنا أرسل من جفنيه دمعة ليست بأول دمعة أرسلها على ردائه ، ولكنها أحر من سابقاتها ، لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة .

ثم نهض ومد يده إليَّ مودعًا ، فمسحت بيميني دمعة واحدة من دموعه الكثيرات .

■ ■ ■

## دورة الفلك

أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك ؟ أين النسر الطائر الذي كان يحلق في أجوائك ؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمسًا في صباحك وبدرًا في مسائك .

أين الأعلام والبنود تخفق في شرفاتك ؟ والقوّاد والجنود تخطر في عرصاتك ؟ أين الشفاه التي كانت تلثم ترابك ؟ والأفواه التي كانت تقبل أعتابك ؟ والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك ؟ والقلوب التي كانت تخفق لروعتك ؟

أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء ؟ أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض .

كيف استطاع الدهر أن يمد يده إلى شملك فيبدده ؟ وجمعك فيفرقه ؟ وسمائك فيكور شموسها ؟ وأرضك فيزعج أنيسها ؟

أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحراسك وحجابك ؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء ؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه      وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت      على عجل أستاره وستائره

أيها السجن :

حلّ بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز عن احتماله قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقًا به لا تزعجه ، ولا تحرج صدره ، وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال الذاهب ، والعز الزائل ، والرأس الذي بيضته حوادث الدهور ، والظهر الذي قوسته أيدي المقدور .

أيها الدهر :

ألا تستطيع أن تنام عن الإنسان لحظة واحدة ؟ ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة ، لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

إن كنت تريد أن تسـلبه فلم أعطيته ؟ وإن كنت تريد أن تعطيه فلم سـلبته ؟ كان خيراً له أن لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية ، ولأن لا تسـقيه كأس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السـم الذي أودعته تلك الكأس .

أيها الرجل المودع :

كان ارتفاعك عظيمًا ، فوجب أن يكون سقوطك عظيمًا .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصـة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت كما يجزع ويقطب كل من ذاق من الشراب مالا عهد له به ولا قبل له باحتماله .

لا تأس على ما فاتك ، فإنما كان وديعة من ودائع الدهر ، أعاركها برهة من الزمان ثم استردها .

إنك لا تدري ، لعلّ الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول أجلك فرصـة من الزمان تخلو فيها بنفسـك ، وتراجع فيها فهرس أعمالك ، فإن رأيت خيراً اغتبطت أو شرًا استغفرت .

قضى الله أن يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته وتوقظه من غفلته ، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته .

من بات بعدك في ملك يسرـ به    فـإنمـا بـات بـالأحـلام مـغـرور

■ ■ ■

## تأبين فولتير

في مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير .

ما مات « فولتير » حتى احدودب ظهره تحت أثقال السـنين الطوال ، وأثقال جلائل الأعمال ، وأثقال الأمانة العظمى التي عرضـت على السـموات والأرض ، فأبين أن يحملنا ، فحملها وحده وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها ، فاستنارت ، فاستقام أمرها .

مات فولتير مرذولاً محبوبًا في آن واحد يبغضه الحاضر لأنه يجهله ، ويحبه المستقبل لأنه عرفه .

إن في هاتين العاطفتين - البغض والحب - سرًا عظيمًا من أسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل العظيم .

كان وهو على سرير الموت محفوفًا بعاطفتين مختلفتين شكلاً ، متفقتين معنى ، لأنهما جميعًا في سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه ، فيسرُّه منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله ، ويلتفت وراءه فيطربه مشـهد البغض والازدراء والحقد الذي يضـمره الماضي في صـدره لأولئك الرجال البواسـل الذين حاربوه فانتصروا عليه .

كان « فولتير » رجلاً وأكبر من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسـه على إنجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده ، وكأن الإرادة الإلهية المتجلية في الشرـائع تجليها في الطبائع ، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنسـاني وجمعت عيدانه ؛ فوجدت فولتير أصـلبها عودًا ، فاختارته للقيام بالعلم الذي قام به فأتمه .

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية الكبرى ، جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشرـ رأي القرن التاسـع عشرـ فيه ، جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصـين ، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسـانية التي يسـعى إليها العلماء والعاملون ، والكتاب المجدّون ، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية ، عاطفة السلام العام .

إنا نمجد السـلام حبًا في المدنية ، وحرصًـا على جمالها ورونقها ، فالسـلام فضـيلة المدنية ، والحرب رذيلتها .

نحن في هذه الســاعة العظيمة ، في هذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ، ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ، ونقول للعالم الذي ينصت لسماع صوت فرنسا « لا قوة إلا قوة الضمير ، ولا مجد إلا مجد الذكاء » هذا في سبيل العدل ، وهذا في سبيل الحق .

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال الشعب في المنزلة الدنيا ، وفوق الدين والقضاء ، وهذا يمثله « القضاة » وذاك يمثله « الإكليروس » .

أتدرون كيف كان الشــعب ؟ وكيف كان الدين ؟ وكيف كان القضــاء في ذلك العهد ؟ كان الشــعب جهلاً ! والدين رياء ! والقضاء ظلمًا !

إن كنت في شـــك مما أقول فإني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناءً ومقتنعًا .

في ١٣ أكتوبر سـنة ١٧٦١ وجد شـاب مصـلوبًا في الطبقة الأرضـية من بيت في مدينة « تولوز » فهاج الشعب ولغط « الإكليروس » وبحث القضاة فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحرًا ، فسمي قتيلاً ، وكان والده برئيًا ، فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصـلحته أن يهلك والد الفتى لأنه كان بروتســتانتيًا لأنه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكثلكة ، إنها لجناية عظيمة جدًا ينكرها الدين ، ويحيلها العقل ولكن هان أمرها ، ولم يحفلوا بالشريعتين : شريعة القلب ، وشريعة العقل ، فحكموا أن الشيخ الكبير قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو « جان كالاس » ثم جرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت إليه أطرافه وترك رأسه متدليًا .

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتيل : كاهن يحمل الصليب ، وجلاد يحمل القضيب ، وقاض يحمل في صدره عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشـيخ المسـكين وقد شـق الخوف مرارته ، وتمشى قلبه في صـدره ، لينظر إلى الصـليب في يد الكاهن ، بل إلى القضيب في يد الجلاد .

ورفع الجلاد القضيب ، وضرب ذراع الشيخ ضربة قاسية صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمي عليه ، فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالمنبهات فانتعش ، فضربه الجلاد الضربة الأخرى فوق الذراع الأخرى فعاد إلى صرخته وإغمائه فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشـــه ، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومدَّ إليه الصليب ليقبله فحوّل وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القســوة الدينية من نفوس المتدينين ، فأقبل الجلاد وســـدد إلى صـــدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات « جان كالاس » .

وما هي إلا أيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحرًا ، لا مقتولاً فحكموا ببراءة الشـيخ بعد أن نفذ فيه سهم القضاء ، وماذا يعنيه بعد الموت ، أمات ظالمًا أم مظلومًا !

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب كما كانت موعظة الشيخوخة .

بعد مضيــ ثلاثة ســنوات من تاريخ الحادثة الأولى وجدوا في « إيفل » في ليلة عاصــفة صــليبًا أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحًا فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون .

من ألقى به من أعلى الســـور ؟ من أهانه ؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذي أجرم هذا الجرم العظيم ؟

ربما عصفت به ريح ، أو عبث به عابر طريق ، أو هوى به ضعيف الشيخوخة وإعياء الهرم لا .. لا .. كل ذلك لم يكن ، لأن الدين أبى إلا أن يوجد مجرمًا .. هنالك أعلن مطران « اميان » براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه .

إن الحرمان في الكثلكة جريمة هائلة فظيعة متى أوحى به التعصب الذميم ، إلى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمان ســببًا في أن القضــاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضــابطين اســم أحدهما « لابار » والآخر « ديتالون » مرا على جسر « إيفل » في تلك الليلة المشئومة يترنحان سكرًا ، وينشدان نشيدًا عسكريًا ، مرّا بالجسر وأنشدا النشيد ، فهما المجرمان ، وكانت المحكمة تقدس « إيفل » ولم تكن بأقل عدلاً وإنصافًا من « مجلس الكابيتول » في « تولوز» فأمرت بالقبض على الرجلين ، فاختفى « ديتالون » وقبض على « لابار » .

وأسلم إلى القضاء ، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر ، فحكمت محكمة إيفل بالإعدام ، وأيد حكمها برلمان باريس ، فدنت الساعة المخيفة الهائلة .

لقد تفننوا في تعذيب « لابار » وإرهاقة ليكشفوا عن سر فعلته ، وعن شركائه في جريمته ، أي جريمة المرور على الجسر ، وإنشاد النشيد .

لقد عذبوه عذابًا أليمًا ، حتى أن الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أغمى عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه .

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني ، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم إلى ساحة « إيفل » الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضرامًا ، فأسمعوه نص الحكم ، ثم بتروا يده ، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار .

على هذه الصورة مات « الشيفاليه دي لابار » كما مات من قبله « جان كالاس » .

أحزنك هذا المنظر يا فولتير ، وآلم نفسك ، وملك عليك عواطفك وشعورك ، فصحت صيحة الرعب والفزع ، فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك الخالد العظيم .

هنالك انبعثت نفسك إلى النزول في ميدان المجتمع الإنساني لتكف عادية الظالمين ، وتقلم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه وتنتصف منه للمستقبل ، فانتصفت وانتصرت ، وكنت من المحسنين .

فيا أيها الرجل العظيم ! طبت حيًا وميتًا .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء ، يغدو إليها الإنسان لاهيًا ، ويروح ساهيًا ، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ، ولا يخفضه فيرى ما تحته .

حث ذلك وأيام البلاط أعياد ، و « فرسايل » تتلألأ حسنًا وبهاءً ورونقًا وماء ، وظرفاء الشعراء أمثال «سان أولاير» و«بوفلير» و«جنتيل برنار» لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجرى حولها ، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع ، بذلك القضيب الحديد ، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد .

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفًا من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاد وقوة الأشراف ، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المتدفع ، وقوة الحكومة التي كانت أسدًا على الرعية ، ونعامة بين يدي الملك ، تجثو أمامه خاضعة صاغرة ، إلا أن جثيها كان على جثة الشعب .. وقوة « الإكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حربًا عوانًا على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة .. ولم يره أكبر من أن ينخذل .. ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر .

أتدرون ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها .. وتسبق الصاعقة في انقضاضها .. ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب ، وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة ، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة ، حرب العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهوى ، والصلاح والفساد ، فتم على يديه الغلب للخير على الشر ، وفاز فوزًا مبينًا .

وكان « فولتير » قلبًا وعقلاً .. كان له رقة الفتاة في غلالتها وشدة الأسد في لبدته« فولتير» محا الخرافات الدينية والعادات الفا سدة ، وأرغم أنف الكبرياء وأذل عز الرؤ ساء ، ورفع الـ سوقي إلى حيث لا يصل ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن .

هلم ومدن وهذب ، ولقى في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس ، فلم تنكسر سورته ، ولم تفتر عزيمته . بل كان يلقن الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة .

أقف هنا قليلاً إجلالاً لابتسامة « فولتير » .

« فولتير » هو الابتسامة ، والابتسامة هي فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير .. كان عقله ميزان أعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابسًا مقطبًا ، فما هي إلا كرة الطرف أن ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

تكاد تكون ابتسامته ضحكًا ، لولا حزن الحكيم ، وهم العاقل .

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء ، ويرتاح لها الأولياء .

كان يبتسـم للقوي فيخجله بتهكمه واسـتخفافه ، وللضـعيف فيسرـه بتحننه وانعطافه . فلنجد تلك الابتسامة التي كانت أشعتها كأشعة الفجر ، تمحو الظلام وتبعث الأنوار .

نعم الابتسام ، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح ، وبدد ظلمات التقليد .

إن ابتسـامة فولتير أنشـأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالإخاء والمودة والحرية والمسـاواة ، فنال العقل منزلته من الإجلال والإعظام ، سـواء أسـكن القصرـ الكبير ، أم الكوخ الحقير ، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة ، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ، ونشر السـلام أجنحته البيضـاء على المجتمع الإنسـاني فقرت السـيوف في الأغماد ، وهدأت الدماء في العروق ، والأرواح في الأجسـام ، كل ذلك بفضـل ابتسـامة فولتير ، ولسـوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء ، والعفو عن الخاطئين ، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الإكبار .

هل كان «فولتير» يحلم دائما فلا يستخف حلمه الغضب ؟ كلا : بل كان يغضب أحيانا في سبيل الحق .

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان ، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى ، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض ، وإن الفلسـفة هي الاعتدال وامتلاك أزمة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها ، إلا أن حب الحق يجب أن يكون دائمًا في مرتبة الغلو حتى تهب عاصـــفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها .

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الأولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الأمل ، لذلك يحب الناس القاضي العادل ، والكاهن الصـالح : لأن الأول صـورة العدل ، والثاني مثال الرجاء ، فإذا انقلب العدل ظلمًا ، والأمل يأسًـا ، عافهما الإنسـان ولوى وجه عنهما ، وقال للقاضي « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أؤمن بك » وهنا يهب الفيلسـوف الغيور غاضـبًا ، فيحاكم القضـاء أمام العدل والكهنوت أمام الله ، وكذلك فعل « فولتير » فكان من المحسنين .

**إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيدًا إلا قليلاً ، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شـــأنه وعلا ذكره ، فهو كالشـجرة الباسـقة تكون في الغابة الشـجراء أطول منها في التربة الجرداء ، لأنها تكون بين لداتها وأترابها ، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة : روسو وديدرو وبوفن وبروماشيه ومونتسكيو ، أولئك المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الأشياء ، والتفكر الصحيح الموصل إلى إتقان الأعمال ، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل ، فأجادوا وأفادوا .**

**مات أولئك القوم العظماء ، وهوت من أفقها كواكبهم ، ولقد كانوا في حياتهم جســـدًا وروحًا ، أما الجسد فقد طواه القبر ، وأما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .**

**أجل ، إن الثورة روحهم ، والمظهر الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم .**

**هم تراهم بعين بصــيرتك ، في كل مواقفها وموقعها ، وإذا اســتطعت أن تنفذ بعين بصــيرتك في مواطن الأشياء ، رأيت على نور الثروة الساطع أن ديدرو كان واقفًا وراء دانتون ، وروسو وراء روبسبير وفولتير وراء ميرابو ، ووجدت أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة .**

**إن الكلمة الخيرة التي أنطق بها في هذا الموقف العظيم ، هي دعاء المجتمع البشرــي إلى التقدّم بهدوء وسكون ، وثبات ووقار .**

**ولقد وجد الحق ضـالته التي كان ينشـدها ، وهي الإخاء الإنســاني والتعارف النفسيـ ، فمن العبث أن تشغل القوة بعد ذلك مكانًا في هذا المجتمع ، فإن فعلت كان أليق الأسماء بها اسم الاستبداد .**

**إن المجتمع الإنســاني أنكر على القوة حقها المزعوم ، وضـاق صـدره بجرائمها وآثامها ، فقضـاها بين يدي الحق ، وأتى بالتاريخ شــاهدًا على دعواه ، فقضىـ عليها « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا » .**

**شف ثوب الرياء عما تحته وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصبح الأبطال والمجرمون في نظر الإنسانية سواء لأنهم جميعًا يسفكون الدماء .**

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة : وهي أن الجرم العظيم أصغر من الجرم الصغير ، فأدرك الإنسان أن قتل الشعوب أكبر إثمًا ، وأعظم جريرة من قتل الأفراد ، واستكبر أن يعتبر الحرب مجدًا وهو يعتبر السرقة عارًا ، وبالجملة : عرف أن الجريمة ، حيثما حلت ، وفي أي مظهر ظهرت ، وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئًا أن يسمى القيصر أو يدعى الإمبراطور . ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تاج الملك ، أو قلنسوة الإعدام ! .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة ، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار ، إن الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

إن منظر الدماء والأشلاء أفظع منظر .

لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير ، وأن يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي : خفقن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن .

أتشقى المرأة فتلد ، ويغرس الزارع فيكسو الأرض بساطها الأخضر ، ويجد العامل فيملأ الخزائن فضة وذهبًا ، ويأتي بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها ، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟!

آه .. إننا لا نستطيع مع الأسف أن نخدع أنفسنا ، وننكر أن الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها ، وتنقص من سرورها .

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء .

إن الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لا تزال باقية .

فلنذكر عند ملوك الحرب : فولتير وجان جاك وديدرو ، ومونتيسكيو ملوك السلام ، ولنوجه وجوهنا إلى تلك الروح العالية ، إلى تلك الحياة العظيمة ، إلى ذلك الدفين المقدس ، إلى فولتير ، ولنبحث أمام قبره ضارعين متوسلين ، عسى أن يمدنا بروح من عنده ، ويهدينا إلى حظيرة السلام المقدسة ، فإنه وإن مر قرن على موته لم يزل في الأحياء الخالدين .

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسافكين بصوت عال : كفى كفى إنها همجية ، إنها وحشية ، إنها تشوه وجه المدنية الجميل .

إن أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق إلى البشر .

فلنضرع إليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها ، وينادوا : إن الحياة ملك الإنسان ، وعزيز عليه أن تسلب منه ، وإن التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار ، فلا يعترض سبيلها معترض .

عن النور لا أثر له بين أضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور .

■ ■ ■

## العلماء والجهلاء

لا تحسبن أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام ، أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما ، وإنزالهما منازلهما ، فالعلماء والجهلاء - إن دققت النظر - سواء لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة ، وأولئك يعلمونها مبعثرة ، وأن هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يبينون .

ومن نظر إلى الأشياء نظرًا ناقدًا وجد أن المعاني الصحيحة ، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر ، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياتيه المادية والمعنوية ، يشترك في العلم بها الناس جميعًا عامتهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل ، لا سيل يتدفق من الخارج ، ولأن المعلومات كامنة في النفوس كمون النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم إلا استثارتها من مكانها ، وبعثها من مراقدها .

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآية فضلهم ، إلا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب ، ولا قضية من قضايا الأخلاق التي تعدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة ، ومذلة بين أيدي الغوغاء والأميين .

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خيل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلامًا عجيبًا ، أو معنى غريبًا .

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون أحاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، أو أدركوا مالا عهد لهم به من قبل ، بل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شتات المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأنس بأفكار تشابه أفكارهم ، وآراءهم .

ولا أخشى بأسًا إن قلت : إن علم العامة أفضل من علم الخاصة ، لأنه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل ، حتى إنك لتجد في بعض الأحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه ، وما يترفع أضيق العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعل له شأنًا أو يقيم له وزنًا

؛ وثانيًا : لأنه يعلق بالنفس ويتغلغل بين أطوائها تغلغلاً تظهر آثاره على الجوارح ، وكثيرًا ما تجد بين الجهلاء من تعجبك ا ستقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وإن كان صحيحًا ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء .

فلا تبالغ في تقدير فلسـفة الفلاسـفة وعلم العلماء ، ولا تنظر إليهم نظرًا يملأ قلبك رهبة ولا تغل في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب .

إن في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه وتفرقه مذاهب و شيعًا ، وركوب كل فريق رأســه ، وهيامه على وجهه ، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصرـــ في مفارق الطرق ورؤوس المسـالك حيارى - ينشـدون فلا يجدون ويجدُّون فلا يصـلون - لدليلاً على أن الفلاسـفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأ سماء بلا مسميات ، وأن حقائق الأ شياء وأسرار الكائنات قد اسـتأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده ، ولم يمنحهم إلا بلة تزيدهم وجدًا كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقًا كلما تذوقوا طعمها :

ضريـبـك في بـنـي الـدنـيـا كـثـير      وعـز الـلـه ربـك مـن ضريـب
ومـا الـعـلـماء والـجـهـلاء إلا      قريـب حين تنظر من قريـب

■ ■ ■

## الرجل والمرأة

سيدي المحترم :

لا تعجب إن رأيت إعجابي بك ظاهرًا في كل سطر من سطور كتابي هذا فإنما أنطق بلسان كثير من العقلاء ، الذين يحبونك حبًا جمًا ، ويعتقدون أنك فريد في أدبك ، فريد في قلمك ، فريد في تسامحك وتساهلك ، لذلك أردنا أن نوجه إليك السؤال الآتي راجين منك الإجابة عليه :

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكمًا صارمًا فتنبذها وتحتقرها ، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتهما واحدة ؟

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه ، والسلام ؟

« سائل »

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقل ، وعندي أنهم أصابوا في الأولى وأخطأوا في الأخرى .

تستطيع المرأة أن تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ، ولا تستطيع أن تجاريه في الأناة والرفق وامتلاك هوى النفس ، والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب .

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار ، وأن تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لأن بين جنبيها نفسًا غير نفسه وهوى غير هواه ، ولأن لها قلبًا صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير .

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه .. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها ، فما وقفت معه في موقف إلا سقطت بين يديه عجزًا وضعفًا .. لأنه يعرف السبيل إلى قلبها .. ولا تعرف السبيل إلى عقله .

لا تعجب إن قلت لك : إن الذكاء غير العقل ، فاللصوص والمحتالون والمزوّرون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء .. وليس بينهم عاقل واحد .. لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك ، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئًا .. وكثيراً ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون ؛ حتى إنك لا تكاد ترى ذكيًا من الأذكياء ، إلا وترى له في شؤونه وأطواره أحوالا شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل .. ولا قاعدة من

قواعد الطبيعة . وعندي أن أكثر ما يصيب النوابغ والأذكياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد إلى ضعف في عقولهم .. ونقص في تصوراتهم ، وبعد . فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع .. وكثيرا ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه إذا كان طائشا أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن أو الغضب .

فما يغني المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويمسك بيدها أن تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة .

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن .. ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهن أن ينازعنني فيه مع شدة ذكائهن .. ولا في استطاعة أنصارهن من الرجال أن ينقضوه .. ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

لولا أن الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان .. وذلك الغلب .. ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب ولا أن يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها ، والخروج عليها .

القوي يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه ، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان ، وشأن الرجل مع المرأة .

الإنسان نوع من أنواع الحيوان ، لم يكن في مبدإ خليقته خيرا منها في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلا وأوسع حيلة ، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته ، حتى أصبح سيد الحيوان فمدن المدن ومصر الأمصار ، و شاد وبني ، وتأنق وترفه ، ثم طرد صاحبه إلى الصحارى والرمال ، ورؤوس الجبال ، يأكل بعضه بعضا ، ويتفانى شقاء وجهلا ، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد ، والأبوة والأمومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد في نفسه فضلا عليها في قوة العقل والتدبير .. وكان ظالما خشن النفس قاسي القلب فأبي إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها ، فتم له ما أراد .

ملك عليها جسـمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنت .. وملك عليها نفسـها لأنه ألقى في روعها أن ذنبها في جريمة الفسـق المشـتركة بينه وبينها أكبر من ذنبه ، وأن جنايتها ضـعف جنايته فصـدقت ، وطلب منها أن تسلم إليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت .. وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التي وضـعها لها ، والاعتبارات الفاسـدة التي اعتبرها معها ، كما ينظر إليها هو بعين الإجلال والإعظام .

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونساؤه .. وملأ قلبها هولاً ورعبًا وأوسع نفسها تقريعًا وتأنيبًا من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة .. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة .. وما كان له أن يقصر في ممالأة نفسه ومحاباتها ، لأنه شره طماع محب لذاته ، ولا أن يعدل في القضـاء في قضـية هو الخصـم فيها والحكم ، لأنه ظالم جبار .

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل ، لاسـتطاعت هي أن تحجبه في المنزل ، وأن تتولى التصرـف في شأنه ، وأن تعبث بعقله ما شاءت ، فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ، وأن تنفذ إلى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة ، وأن تحدثه فيصدق ، وتأمره فيأتمر .. وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد .

لا أريد أن أقول : إن هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد أن أقول : إن هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر .. والحكم الجائر .

وجملة القول : إن حكم المجتمع الإنسـاني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم ، ولو أنه أنصـفها لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية ، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضـعيفة المدافعة .. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون ، ولأن نسـاءه سـاذجات بسـيطات ، يصـدقن الرجال في أقوالهم ، وينظرون إلى المسـتحسـنات والمسـتهجنات بأنظارهم ، فإن أردنا أن تنال المرأة حقها من الرجل ، وأن تنتصف منه . فليس سبيلها إلى ذلك المغالبة والمصارعة . فإنها أضعف منه جسمًا وعقلاً . بل السبيل إليه أن نعلمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها ، وأن تعلمه ليستطيع أن يكون كريمًا ، وإنسانًا رحيمًا .

■ ■ ■

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيًا إلى ترك ضلالة من الضلالات أو بدعة من البدع ، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك ، أو يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشـــد في معترك الدعوة ، وليس ســـلب الأجسام أرواحها ، بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .. ولا يضن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب وذودًا عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصـــومها ، لأنهم يحاولون أن يرزأوها في ذخائر نفوســـها ، ويفجعونها في أعلاق قلوبها .

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة ، وقلوب صـــابرة على احتمال المصـــائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة ، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها أو يموتوا في طريقها .

الدعاة الصـادقون لا يبالون أن يسـميهم الناس خونة أو جهلة أو زنادقة أو ملحدين ، أو ضـالين ، أو كافرين ، لأن ذلك ما لابد أن يكون .

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمدًا ﷺ عاش بين أعدائه ساحرًا كذاباً ، ومات سيد المرسلين ، وأن الإمام الغزالي عاش بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام ، وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهانًا حتى كان الناس يبصــقون عليه إذا رأوه ، ومات فيلســوف الشرــق ؛ فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتًا .

ســيقول كثير من الناس : وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحســن به ظنًا ، ولا تســمع له قولاً ، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته ، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس .

هذا ما يوســوس به الشــيطان للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء فأمسك ألسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد ، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الأذهان ، وتبلدت المدارك ، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ، ولا ينفذ إليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يغشى العقل ، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدًا رويدًا . فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نورًا ، والألم لذة وسرورًا .

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان ، لأن الحق وجود ، والباطل عدم ، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبته ، وإغفالهم النداء به والدعاء إليه .

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد ، وإنما يهدمه أفراد متعددون ؛ في عصور متعددة ، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجرًا ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء ، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فرارًا من إزعاج المريض ، أو خوفًا من صياحه وعويله ، أو اتقاء لسبه وشتمه ، فإنه سيكون غدًا أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه .

وبعد : فقليل أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيبًا إليها إلا إذا كان خائنًا في دعوته ، سالكًا سبيل الرياء والمداهنة في دعوته ، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء ، وكظة الأرض والسماء ، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد ، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد .

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق ، وكلهم يعظون وينصحون ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضرًا ، أو يلاقي في طريقها شرًا .

رأيت الدعاة في هذه الأمة أربعة : رجلاً يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا ، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر ، ورجلاً يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته ، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها ، وكان خيرًا له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده ؛ ورجلاً لا يعرف حقًا ولا باطلاً ، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها ، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل ، والضار والنافع ، في موقف واحد . فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه :

* مكَرٍّ مفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا *

ورجلاً يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد ، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة ؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله ، فهو عدوّها في ثياب صديقها ؛ لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باســم الهداية والإرشـــاد . فليت شــعري من أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

ما أعظم شـقاء هذه الأمة وأشـد بلاءها ؛ فقد أصـبح دعاتها في حاجة إلى دعاة ، ينيرون لهم طريق الدعوة ، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها . فليت شعري متى يتعلمون ، ثم يرشدون؟

■ ■ ■

## الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشـــون في نفوس الناس أكثر مما يعيشـــون في نفوس أنفســـهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون .

حياة الإنسـان في هذا العالم حياة ضـمنية مدّخلة في حياة الآخرين ، فلو فتش عنها لا يجد لها أثرًا إلا في عيون الناظرين ، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين .

يخيل إليّ أن الإنســان لو علم أن ســيصــبح في يوم من أيام حياته وحيدًا في هذا العالم لا يجد بجانبه أذنًا تسمع صوته ، ولا عينًا تنظر شكله ، ولا لسانًا يردد ذكره ؛ لآثر الموت على الحياة عله يجد في عالم غير هذا العالم - من آذان الملائكة أو عيون الجنة - مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها .

إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين ، فأي مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحســـبها متكثرة متعددة ، إنما هي حياة واحدة يتفق جوهرها ، وتتعدد صـــورها ، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قددًا ، ونحسب كل موجة من أمواجه قسمًا من أقسامه ، فإذا دنونا منه لا نرى غيره ، ولا نجد لجزء من أجزائه حيزًا مستقلاً ، ولا وصفًا ثابتًا .

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية ، إلا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه وأطواره وآرائه وأعماله ، الذي كثيرًا ما نسميه مجنونًا ، فإن رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفًا ، ونريد بذلك أنه نصف مجنون ، فهو الذي يتولى شأن الإنسان ، وتغيير نظاماته وقوانينه ؛ وينتقل به من حال إلى حال بما يغير من عاداته ويحول من أفكاره .

أية قيمة لحياة امرئ ، لا عمل له فيها إلا معالجة نفســه على الرضـا بما يرضى به الناس ، فيأكل ما لا يشتهي ، ويصدف نفسه عما تشتهي ، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يحرج صــدره ، ويقصــم ظهره ، ويشرـب من الشرـاب ما يحرق أمعاءه ، ويأكل أحشاءه ، ويضحك لما يبكي ويبكي لما يضحك ، ويبتسم لعدوه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك - أي علم المداهنة والملق - زمنًا لو أنفق عشر معشاره في دراسة علم من العلوم النابغة لكان نابغته المبرّز فيه حرصًا على رضاء الناس ، وازدلافًا إلى قلوبهم .

ليســت شــهوة الخمر من الشــهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها ، وما جناها عليهم إلا كلف تاركيها برضـاء شـاربيها ، وما كان الترف خلقًا من الأخلاق الفطرية في الإنسان ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه وأثقال الحياة وأعبائها ، ما نغص عليهم عيشهم وأفسد عليهم حياتهم ، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع ، يبيع منزله في نفقة عرس ولده أو ابنته ، فلا يجد لفعله تأويلاً إلا خوفه من سـخط الناس واتقاءه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف من سـخط الناس والكلف برضـاهم ذكاء الأذكياء ، وأطفأ عقول العقلاء ، وكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملاً متلففًا لا يجرؤ على إظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هزء الناس وسخريتهم ، وعاقل لا يمنعه من الإقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ونقمة الناقمين .

وما أعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها إلى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئًا ن فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأي الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ، أو رضـوا بها؟ ولا يمسي متنقلاً في المجامع والأندية ، مسـائلاً عنها كل غاد ورائح ، ليجد خيراً فيضـحك ويستبشر ، أو شرًا فيبكي ويبتئس ، بل كثيراً ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم سـاكنًا هادئًا ، كأنما يتحدثون عن غيره ويعنون شـخصًـا سـواه ، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين : أحسنت وأجدت ، وأسأت وأخطأت بل قلما رأيته على كثرة لصوقي به ، وتفقدي مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصــحف عنه ، وما تعلقه غلو آرائه وأفكاره ، من مدح أو ذم ، حتى كدت أحمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة ، أو العظمة والكبرياء ، لولا أني فاتحته مرة في ذلك وســألته : لم لا تحفل برأي الكتاب فيك ، ولِمَ لا تقرأ ما يكتبون عنك؟ فأجاب : إنني ما أقدمت على الكتابة للناس في إصـلاح شـؤونهم ، وتقويم معوجهم ، إلا بعد أن عرفت أني اسـتطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم ، للناس خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، ولأني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث إليهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير أو شر ، لأني راض عن طريقتي التي أكتب بها رســائلي ، فلا أحب أن يكدرها عليَّ مكدر ، وعن آرائي التي أودعها إياها ، فلا أحب أن يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة

الفراسة ما أستطيع أن أميز به بين مخلصهم ومشوبهم ، فأقبل على الأول لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ؛ فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لابد له أن يفرغ منها في ساعة محدودة ، ثم علم أن على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيارها وتتألق أزهارها ، وأن على يساره غابًا تزأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفح أفاعيه وصلاله ، فمشى قدمًا لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ؛ ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه ، وأما عامتهم : فهم بين ذكيّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع أحسنه ؛ فأنا أحمد الله في أمره ؛ وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ، ولا يسمع إلا ما يطربه ، فأكل أمره إلى الله واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسرًا ؛ فأنا إنما أكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثرًا مما كتبت ، فلو أن هذه الملايين الإثنى عشر ـ التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني ، ثم رأيت من بينها رجلاً واحدًا ينتفع بما أقول ، لكان الواحد المستفيد آثر في نفسي ـ من الملايين المعجبين ، أتدري لِمَ عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنهم جالسون بين يدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ؛ فترى واحدًا منهم يكتب وهمه المالئ قلبه أن يعجب اللغويين ، أو يروق المنشئين ، أو يطرب الأدباء ، أو يضحك الظرفاء ، ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذي يجب أن يسلكه إلى قلوب الذين يقول إنه يعظهم أو ينصحهم أو يهذبهم أو يثقفهم ، ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم ؛ وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم ؛ فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها ، وعن فسادها إلى صلاحها ، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملاً سيفه كل يوم إلى الجوهري ليرصع له قبضته أو الحداد ليشحذ له حدّه ، أو الصقيل ليجلو له صفحته ، ولا تراه يومًا في ساحة الحرب ضاربًا به .

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهبًا من مذاهب الخير وطريقًا من طريق الهداية للضال عنها لو أن الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم ، والغالب على أمرهم ، ولو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي ، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم ، فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزانًا يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم ، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه ، أحبوه أم أبغضوه ، فإنما يبكي على الحب النساء .

■ ■ ■

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر ، وأحسبني قادرًا على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شأنه ، وعظم وقته ، فلما مات «مصطفى كامل» علمت أن من الرزايا ما لا يطاق احتماله ، ولا يستطاع تجرعه .

كل يوم نرى الموت ، ولا نزال نعد الموت غريبًا ، هيهات! لا غرابة في الموت ، ولكن الغريب موت الرجل الغريب .

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها ، وأكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل» دهشنا وجزعنا ، لأنه كان غريبًا في حياته ، فأحرى أن يكون غريبًا في مماته .

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك ، لأننا ما كنا نرى إلا أمواتًا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها . أما «مصطفى كامل» فكان حيًا حياة حقيقية ، فكان موته كذلك .

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئًا إذا بذلوا لذلك الرجل العظيم قطرة من المداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاء حسنًا إذا بذلوا له قطرة من الدمع ، فإنه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه ، ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه .

أين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ، أو قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم ، من قطرات الحياة التي أراقها «مصطفى كامل» في سبيل وطنه وأمته؟

كان «مصطفى كامل» سراجًا كبير الشعلة ، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكًا ، وتحترق ذبالته ، فينطفئ نوره .

كان « مصطفى كامل » نشيطًا سريع الحركة فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح «مصطفى كامل» وأسمع في صياحه عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهوري ، ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن به ، فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال «فولتير ، وهوجو ، وغاريبالدي ، وواشنطون» فلما نبغ بينهم « مصطفى كامل » عرفوا أن تربة الشرق لا تختلف كثيرًا عن تربة الغرب لو تعهدها الزارعون .

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب ، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائي ، فهي تتحرك بحركته وتسكن بسكونه .

ما كان « مصطفى كامل » أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ولكنه كان أشجع الناس .

كان يفكر فيقتنع فيصـمم فيمضي ـ فلا ينثني حتى الموت ، كان يخطئ أحيانًا في اتخاذ الوسـائل إلى آماله ، ولكنه كان إذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أي طريق يأخذ ، ولا أي مسـلك يسـلك ، مخافة أن تفتر همته بين الأخذ والرد ، فيكون خطؤه في تردده أكثر من خطئه في جهاده .

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له : إنك مخطئ أو مضر ، أو غير محسن ، أو غير عظيم ، فما كان يصدق من ذلك شيئًا كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه ، وخصومه وأولياؤه ، على أنه رجل عظيم .

ما كان «مصطفى كامل» من الأغنياء ، ولا من بيت الملك ، وما كان آمرًا ولا ناهيًا . ولا رافعًا ولا خافضًا . ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصـيبته .. ما لم يلق واحد من هؤلاء ، ولا فضـل لهم في ذلك عليه ، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ، ويجلون المناقب والمزايا .

فيا أيها القارئ الكريم : إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلاً فاجعل بين يديه حياة «مصـطفى كامل» ليتعلم منها الشجاعة والإقدام .

ويا أيها المصريـي : كن أحرص الناس على وطنيتك .. ولا تبغ بها بدلاً من عرض الدنيا وزخرفها .. فإنك إن فعلت كنت « مصطفى كامل» .

ويا أيها الإنسـان : أقدم على عظائم الأمور ، ولا تلتفت يمنة ولا يسرـة واخترق بسـيف شـجاعتك صفوف المعترضين والناقمين والهازئين والساخرين فإنهم سيعترفون بفضلك ، ويسمونك عظيمًا كما سموا «مصطفى كامل» .

ويا أيها الراحل المودع : إن بين جنبي لوعة تعتلج لفراقك لا أعرف سبيلاً إلى التعبير عنها إلا القلم .

وهأنذا أعالج القلم علاجًا شديدًا على أن يسعفني بحاجتي ، وأقلبه ظهرًا لبطن ، وأكثر من استمداده ، وأضغط به على القرطاس ضغطًا شديدًا ، فلا أرا يغني عني شيئًا .

خطر لي أن الحزن ســـويداء القلب ، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه الأداة القصـــيرة التي في يدي ، فاستبدلت بها أداة أطول منها فكان حكمها حكم سابقتها .

إذن كيف أعبر عن وجدي أيها الفقيد الكريم ، وقد خرس القلم وعي اللسان؟

الآن عرفت السبيل ووصلت إلى ما أريد .

أنت الآن في عالم الأرواح .. وقد انكشـــف لك كل شيء من أسرار النفوس ودخائل القلوب ، ولابد أن يكون قد انكشـف لك ما يكن قلبي من الوجد عليك .. والأسـف على فراقك .. فما حاجتي بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان .

أيها الراحل المودع : طبت حيًا وميتًا ، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك ، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصـريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أن الأمة المصـرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين .

■ ■ ■

كتب إليّ أحد علماء الهند كتابًا يقول فيه : إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثًا بلغة «التاميل» ، وهي لغة الهنود الســاكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدارس .. موضــوعه : تاريخ حياة الســيد عبد القادر الجيلاني ، وذكر مناقبه وكراماته ، فرأى فيه من الصــفات والألقاب التي وصــف بها الكاتب الســيد عبد القادر ولقبه بها صــفاتًا وألقابًا هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوّة .. فضــلاً عن مقام الولاية كقوله «سيد السموات والأرض» ، و« النفاع الضرار » ، و« المتصرف في الأكوان » ، و« المطلع على أسرار الخليقة » ، و« محيي الموتى » ، و« مبرئ الأعمى والأبرص والأكمه » ، و« أمره من أمر الله » ، و« ماحي الذنوب » ، و« دافع البلاء » ، و« الرافع الوا ضع » ، و« صاحب الـشريعة » ، و« صاحب الوجود التام » إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب!

ويقول الكاتب : إنه رأى في ذلك الكتاب فصــلاً يشرـح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر الـ سيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه : « أول ما يجب على الزائر : يتو ضأ و ضوءًا سابغًا ، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة .. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين .. أغثني وأمدني بقضاء حاجتي .. وتفريج كربي . أغثني يا محي الدين عبد القادر .. أغثني يا ولي عبد القادر .. أغثني يا ســلطان عبد القادر .. أغثني يا بادشــاه عبد القادر .. أغثني يا خوجة عبد القادر » .

« يا حضرــة الغوث الصــمداني ، يا ســيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة » .

ويقول الكاتب أيضًــا : « إن في بلدة (ناقور) في الهند قبرًا يســمى «شــاه الحميد» ، وهو أحد أولاد الســيد عبد القادر - كما يزعمون - وإن الهنود يسـجدون بين يدي ذلك القبر سـجودهم بين يدي الله .. وإن في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزارًا يمثل مزار الســيد عبد القادر .. فيكون القبلة التي يتوجه إليها المســلمون في تلك البلاد والملجأ الذي يلجأون في حاجاتهم وشـدائدهم إليه .. وينفقون من الأموال على خدمته وسدنته .. وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعًا لصاروا أغنياء .

هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب .. ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء وأظلمت الدنيا في عيني .. فما أبصر مما حولي شيئًا .. حزنًا وأسفًا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه ، ووضعوه بعدما رفعوه .. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها .. ولا شأن له بها .

أي عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن ، منظر أولئك المسلمين ، وهم ركع سجد على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته .. فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته!

أي قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعًا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكًا بالله ؛ وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات!

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين .. لم يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن ، وعلام يحاربونهم ، وفيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ، ولم يغرقوا فيه إغراقهم!؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل . فيتأولون فيه ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد ، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار ، وجثث أموات ، وقطع أحجار ، من حيث لا يشعرون!

كثيراً ما يضمر الإنسان في نفسه أمرًا وهو لا يشعر به ، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب ، قالوا : إنا لا نعبدهم ، وإنما نتوسل بهم إلى الله ، كأنهم يشعرون أن العبادة ما هم فيه ، وأن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين ، يلتمسون إمداده ومعونته ، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليعتق رقابهم من رق العبودية ، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم ، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل . وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى ، فكانوا ذوي أنفة وعزة ، وإباء وغيرة ، يضربون على يد الظالم إذا ظلم ،ويقولون للسلطان إذا جاوز حد سلطانه : قف مكانك ، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك ، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود ، واعلم أنه لا إله إلا الله .

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت رقابهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضرعت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستناموا إلى المنزلة الدنيا ، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين .

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد ، وإن طلوع الشمس من مغربها ، وانصباب ماء النهر في منبعه ، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون للأول كما يقولون للثاني : « أنت المتصرف في الكائنات ، وأنت سيد الأرضين والسموات » .

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقوامًا يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريًا ، فإذا نزلت بهم جائحة ، أو ألمت بهم ملمة . ذكروا الحجر قبل أن يذكروه ، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه .

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة! أدعو علماء مصر ـ وهم الذين يتهافتون على «يوم الكنسة» تهافت الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية! أم علماء العجم وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام ؛ أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب .

يا قادة الأمة ورؤساءها ، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها ، وقلنا إن العامي أقصر نظرًا وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والأضرحة والقبور ، فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله ، وتقرأون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ . وقوله مخاطبًا نبيه : ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ . وقوله : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ .

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم : « كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف » فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبرًا ، أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ ، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته ، يسأله قضاء حاجة ، أو تفريج هم؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن

إقامة الصـــور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا؟ أم مخافة أن تعيد للمســـلمين جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصـــور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور ، ما دام كل منها يجر إلى الشرـك ، ويفســـد عقيدة التوحيد ؟

والله ما جهلتم شيئًا من هذا ، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ، وانتقاض أمركم ، و سلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم ، ويستعبدون رقابكم ، ويخربون دياركم ، والله شديد العقاب .

■ ■ ■

## السياسة

**حضرة السيد الفاضل :**

**ما لك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية إكثارك منها في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية؟وكيف يضيق بالسياسة قلمك ، وقد وسع ما هو أدق مذهبًا منها ، فاكتب لنا في السياسة ، فأمتك تحب أن تراك سياسيًا ، والسلام .**

**«فلان»**

**أيها الكاتب :**

**يعلم الله أني أبغض السياسة وأهلها بغضي للكذب والغش ، والخيانة والغدر .**

**أنا لا أحب أن أكون سياسيًا ، لأني لا أحب أن أكون جلادًا ، لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد ، وأولئك يقتلون الأمم والشعوب .**

**هل السياسي إلا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلبًا ، ولا أعظم كيدًا ، ولا أكثر دهاء ومكرًا ، فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، وأجزل لها من الخيرات؟**

**أليس أكبر السياسيين مقامًا ، وأعظمهم فخرًا ، وأسيرهم ذكرًا ، ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها أشلاء القتلى ، ونقطها قطرات الدماء؟**

**أيستطيع الرجل أن يكون سياسيًا إلا إذا كان كاذبًا في أقواله وأفعاله ، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن ، ويبسم في موطن البكاء ، ويبكي في مواطن الابتسام؟**

**أيستطيع الرجل أن يكون سياسيًا .. إلا إذا عرف أن بين جنبيه قلبًا متحجرًا لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين؟**

**كثيراً ما يسرق السارق ، فإذا قضى مأربه من عمله .. رفع يديه إلى السماء متضرعًا إلى الله تعالى أن يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حرامًا ، وكثيراً ما يقتل القاتل ، فإذا فرغ من أمره ، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثاكل وحيدها ، ويتمنى بجدع الأنف لو رد إليه حياته ، وافتداه بنفسه . أما السياسي فلا يرى يومًا في حياته أسعد من اليوم الذي يعلم فيه أن قد تم له تدبيره في هلاك شعب ، وقتل أمة ،**

وآية ذلك أنه في يوم انتصاره - كما يسميه هو - أو في يوم جريمته - كما أسميه أنا وتسميه العدالة الإنسانية - يسمع هتاف الهاتفين باسمه ، واسم الجريمة التي ارتكبها مطمئن القلب ، مثلج الصدر ، حتى ليخيل إليه أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المحلق فرحًا وسرورًا .

يقولون : إن السياسة ليست علمًا من العلوم التي يتلقاها الإنسان في مدرسة أو يدرسها في كتاب ، وإنما هي مجموعة أفكار قانونها التجارب ، وقاعدتها العمل .. أتدري لماذا ؟

لأن العلماء أشرف من أن يدونوا المكايد والحيل في كتاب .. ولأن المدارس أجل من أن تجعل بجانب دروس الأخلاق والآداب ، دروس الأكاذيب والأباطيل ، وإلا فكل طائفة من المعلومات المشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها ، ويجمع شتاتها ، ويسمى علمًا .

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم ، فهل تظن يا سيدي أن رجلا نصب نفسه لخدمة الحقيقة ، ومناصرتها على الباطل ، واستنقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الأخلاق .. وملأ في رسائله فضاء الأرض والسماء بكاء على الضعفاء والمساكين والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع أن يكون سياسيًا ، أو محاسبًا للسياسيين ؟

■ ■ ■

## خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا : إن الكتاب يعرف بعنوانه .. فإني لم أرَ بين كتب التاريخ أكذب من كتاب «بدائع الزهور» ولا أعذب من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب «جواهر الأدب» ولا أرق من اسمه ، كما لم أرَ بين الشعراء أعذب اسمًا ، وأحط شعرًا من « ابن مليك » ، و« ابن النبيه » ، و« الشاب الظريف » .

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول : إن العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها .. وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها ، وإن العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير ، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل .

الأتقياء :

لولا خداع العناوين ما سمينا صالحًا تقيًا كل من حرك سبحته .. وأطال لحيته ، ووسع جبته ، وكور عمامته ، ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان كتابًا أسود الصفحات كثير السقطات ، وأن تحت هذا الستار الحريري الرقيق نفسًا سوداء مظلمة ، لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان .

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله ، أو في سبيل الجماعة من ذات نفسه ، أو ذات يده ، ما يشق على مثله الجود بمثله ، أما الجود بالشفاه للهمهمة ، والأنامل للمسبحة ، فعمل لا يتكلف صاحبه له أكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه ، وتحريك هدبيه ، وهل خلقت الشفاه إلا للتحريك ، والأنامل إلا للتقليب .

إن للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فإن بذل الضنين بماله في مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه .. والذب عن عشيرته وقومه .. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها . فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب أو لا فأهون بهمهمته ومسواكه ومسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب أجدر منه بعنوان التقي الصالح ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ .

الأمجاد :

يقولون إن الولد سر أبيه ، ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتســم فيها صــورته ،والبذرة التي تكمن فيها حقيقته ، وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد ، فأعظموا شــأن الرجل الذي يمســك بطرف سلسلة في النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس ، أو شريف من شرفاء الأخلاق .

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون في معناه ، حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يســمونهم أمراء ، والظلمة الذين يســمونهم ملوكًا ، والســفاحين الذين يســمونهم قوادًا ، واللصــوص الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم الخطأ في فهم الشرف إلى الخطأ في فهم المجد فسموا ماجدًا كل من ولد في فراش ملك وإن كان الحاكم بأمر الله ، أو أمير وإن كان الحجاج ، أو وزير وإن كان ابن الزيات ، أو قائد وإن كان تيمور لنك ، أو غني وإن كان قارون .

لا مجد إلا مجد العلم ولا شرف إلا شرف التقوى ، ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة ، رحمة بها وحنانًا عليها .

أولئك هم الأمجاد ، وأولئك الذي يفخر الفاخر بالاتصال بهم ، والانتماء إليهم ، وأولئك هم المفلحون .

الأغنياء :

لم أرَ بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض وراء لقمة يتبلغون بها أو خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاءً ونحيبًا على صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوي الأفاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة وتحت الشمس المحرقة ، أسوأ حالاً ولا أنكد عيشًا ، ولا أعظم شقاءً من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس أغنياء .

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما ينام ، ويشــتهي كما يشــتهي حتى لتكاد تثب أمعاؤه من جوفه وتسـيل أحشـاؤه من بين أشـداقه . شـوقًا إلى ما حرم على نفســه من أطايب العيش ولذائذه ؛ ويستن استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله ، حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل أوصاله ، حتى لو تخيل أن نجوم السماء دنانير منثورة ، لطار إليها بغير جناح ، فســقط هاويًا ؛ أو أن في بطن الأرض كنزًا مذخورًا ، لتمنى أن لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعته فأصبح من الهالكين .

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ؛ ولا تقف به نفسه عند مطمع .

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين؟!

المجرمون :

حضرت مجلسًا من مجالس الأحكام ، حكم فيه قاض مرتش على متهم سرق رغيفًا ، فوضعت يدي على فمي مخافة أن يخرج أمر نفسي من يدي فأهتف صارخًا لما ألم بقلبي من الرعب والفزع ، صرة تدوي بها جوانب القاعة دوي الموج الثائر ، في البحر الزاخر قائلاً فيها : مهلاً رويدًا أيها الحاكم الظالم ، فأنت إلى قاض عادل تقف بين يديه ، أحوج منك إلى كرسي فخم تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماثل بين يديك لبت وأعلاكما الأسفل .

إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين دينارًا ، فلم ترتش إلا لأنك شره طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف إلا لأنه جائع مرتاع ، ولو ملك ثلاثين درهمًا فقط ما فعل فعلته التي فعل ، فأنت مجرم إلا أنك في وشاح شريف ، وهو شريف إلا أنه في شملة مجرم .

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين .

ربّ نفس بين جدران السجون أطهر قلبًا ، وأنقى ردنًا ، وأبيض عرضًا ، من مثلها بين جدران القصور ، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها القدر الذي لا مفر منه إلى وقفة بين أعواد المشنقة ، كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حبالة ماله لخراب البيوت العامرة ، وقتل النفوس الطاهرة ، أو ذلك القائد الذي يسفك في موقف واحد من مواقفه دم مائة ألف أو يزيدون ، في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع ، أو ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة في سربها ، سعيدة في عيشها؛ فيستعبد أحرارها ، ويستذل أعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها ، وسعادتها وهناءتها .

المتمدينون :

ليس بين المصري وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصري أو الإنسان الراقي إلا أن يصقل جبهته ، ويصفف طرته ، ويفتح فمه للابتسام المتصنع ويقوّس يده للسلام المتعمل ، ويكثر في حديثه من ذكر المدنية الغربية وشؤونها ، وسرد أسماء نسائها ورجالها ، وطرفها ونوادرها ، ويستحسن

ما تستحسنه - وإن كان البراز والانتحار - ويستطرف ما تستطرفه - وإن كان الزندقة والإلحاد - ثم يزعم أنه أرقى الناس أدبًا ، وأحسنهم أخلاقًا ، وأدقهم نظرًا في إدراك سقطات الناس وعثراتهم ، وتحليل طبائعهم وغرائزهم . ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين ، يكون فاسقًا ينتهك الحرمات أو مدمنًا يترامى على أعتاب الحانات ، أو أحمق لا يصفح عن ذنوب ، ولا يغضي عن هفوة . و سفيهًا يشتم حتى أميره وسلطانه ، ووالده وأستاذه ، أو وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة ، ولا يستخذي لمروءة ، وشحيحًا لا يشرك صاحبه في مطعم ولا في مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر أو طارق حائر ، زاعمًا أن التمدين شيء وذاك شيء آخر . إن كان حقًا ما يقولون من أن التمدين يصقل الطباع الخشنة ، وينير النفوس المظلمة ، ويهذب الأخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون .

لو كان بي أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الإنساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يدًا ، ولا جردت قلمًا ، لأني أعلم أن طلب المحال عثرة من عثرات النفوس ، وضلة من ضلالات العقول ، ولكنني أطلب مطلبًا واحدًا - لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه - وهو أن يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التي أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها ، فلا يسمون المنافق تقيًا ، ولا المتمجد ماجدًا ، ولا البخيل غنيًا ، ولا الفقير مجرمًا ، ولا المتوحش متمدينًا ، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه ، ولا يستمر مسيء في إساءته .

■ ■ ■

## الإغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتًا لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون .

يسمع السامع أن زيدًا ملك كريم ن ثم يسمع أنه شيطان رجيم ، فيخرج منه صفر اليدين ، لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين .

يقولون إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الأرض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين .

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب ، كالجبل بين الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهي به الأمر إلى الانقطاع .

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص أنه جالس على كرسي القضاء ، وأن الناس سيسألونه عما قال ، كما يسألون القاضي عما حكم ، ما طاش سهمه في حكمه ، ولا ركب متن الغلو في تقديره .

كما أنه يجب على القاضي أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة ، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها ، وأن لا يعلو به فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته .

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقصات الحكم على الأشخاص ، وليس بينهم من لم يتمن أن يكون في موضع أولئك المؤرخين المتطرفين ، حتى لا يغلو غلوهم ، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم .

أيها الكتاب المحزونون : لا يحزنكم ما كان ، فقضى ذلك الزمان بخيره وشره ، ولا سبيل إلى رجوعه ، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الماضي ، فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الحاضر ، وكما أن للماضي مستقبلاً وهو حاضركم هذا ، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آت يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم ، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم ، وتطرفهم في آرائهم .

إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون .

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء ، وكل مؤلف أعلم العلماء ، وكل خطيب رئيس الأمة ؛ وكل فقيه إمام الدين ، فأين الفاضل والمفضول؟ وأين الرئيس والمرءوس ، وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو ، ويكون عمرو غدًا أفضل منه ؛ وأين ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم؟ وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس؟!

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان ، فتخيلت كأني رجل من رجال العصور الآتية ، وأني ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا ، فقرأت ما كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم ، فرأيته تارة عظيمًا وأخرى حقيرًا ، ومرة شريفًا ، ومرة وضيعًا ، ورأيته عالمًا وجاهلاً ، وذكيًا وغبيًا ، وعاقلاً وممرورًا في آن واحد فخرجت أضل مما دخلت ، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل ، أي أنه ذكر بالغ من بني آدم!

أيها القوم : إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين في أحكامكم وآرائكم ، إلا إذا أصلحتم نفوسكم أولاً ، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا من أهوائكم وأغراضكم قبل أن تناولوا أقلامكم .

أيها القوم : إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين ، فكونوا راحمين ؛ فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها ، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات .

■ ■ ■

**اللقيطة**

مر عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشـــتاء ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء وقد وضـعت رأسـها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود ، وليس في يدها ما تتقيه به إلا أسمال تتراءى مزقها في جسمها العاري كأنها آثار سياط المستبدين ، في أجسام المستعبدين .

وقف الرجل أمام هذا المشـــهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس ، وتزعج نفســـه مواقف الشـقاء ، ثم تقدم نحوها ووضـع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسـها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصـيح « لا أعود » فلم يزل يمســحها ويروضــها حتى هدأ روعها وعاد إليه رشدها وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه ، فنظرت إليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان .

- ما اسمك أيتها الفتاة ؟

- لا أعلم يا سيدي .

- بماذا ينادونك؟

- يدعونني اللقيطة .

- وهل أنت لقيطة كما يقولون ؟

- نعم يا سـيدي ، لأنني لا أعرف لي أبًا ولا أمًا ، في الأحياء ولا في الأموات ، سـوى رجل يتولى شـأني ، ويضمني إليه في منزله ، وكنت أحسبه أبي فيمتلئ قلبي سرورًا به ، وعطفًا عليه ، فلما رأيت أنه يعذبني عذابًا أليمًا ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء أبناءهم علمت أني وحيدة في هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمة التي ينادينى بها ، فألم بنفسيـــ من الحزن والألم ما الله عالم به ، وكنت كلما مشيت في الطريق ، ورأيت فتاة صغيرة سألتها ألك أم؟ فتجيبني : نعم ، ثم تقص عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها ، وعطف أمها عليها ، ورأفتها بها ما يزيدني همًا ، ويملأ قلبي يأسًـــا ، حتى كان يخيل إليَّ أنني أذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنبًا عاقبني الله عليه بهذا الوجود ، بيد أني صـبرت على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفني به من التسـول على قارعة الطريق ، إبقاءً على نفسيـ ، وضـنًا بحياتي ، أن تغتالها غوائل الدهر ، وكان كلما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه ، اشتط في ظلمي ، ولؤم في معاملتي ،

حتى صار يضربني ضربًا مبرحًا كلما عدت إليه عشاء بأقل من المبلغ الذي فرض عليَّ تقديمه في كل يوم ولم أزل أصابره وأحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان ، حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي ، ومصيبة المصائب ، فقد حاول أن يسلب من بين جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أرد بدًا من أن أفر من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيث لا يراني . وما زلت أمشي على غير هدى ، لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا ، حتى أويت إلى هذا الزقاق كما تراني . فهل لك يا سيدي أن تحسن إليّ كما أحسن الله إليك؟ وأن تبتاع لي رغيفًا من الخبز أتبلغ به ، فقد مر بي يومان لم أذق طعامًا ولا شرابًا ؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهي سلكه فانتثر ، ثم أخذ بيدها ، ومشى بها صامتًا واجمًا يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلغ قصره ، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله ، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمني نفسها بالو شل القليل منه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجهًا ، وأرقهن شمائل .. وأكرمهن أخلاقًا ، وأكملهن آدابًا .. لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان إلى هذا القصر مصيرها .

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي ربين التربية الحديثة التي يسمونها «التربية العصرية» ويريدون منها التربية الإفرنجية فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية :

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي ، وكلبها الرومي .

(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة .

(٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس .

(٤) الكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها .

(٥) الأثرة وحب الذات حبًا يملأ قلبها غيرة وحسدًا ، حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفًا من أوصاف الحسن يوصف به سواها .

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد أصبحت تقاسمها قلب أبيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق ، وحلاوة في الطبع ،وعذوبة في النفس ، فأضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضمره دائمًا أمثالها من اللواتي ربين تربيتها ، ونهجن في الحياة منهجها ، فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها ، وتغري بتبكيتها وتأنيبها ، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها ، وذهابًا بنفسها عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات ، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية :

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينما هو صاعد في السلم إذ عثر برقعة ملقاة ، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة :

سيدتي :

أنا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة .

«حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت به الأرض الفضاء ، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقيًا فيه ، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألم بنفسه من الحزن والقلق فقال : لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة ، ومن الظلم أن أتعجل باتهام ابنتي قبل أن أقف على الحقيقة ، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة ، فرجع أدراجه ، وما زال يترفق في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى شجرة اللقاء فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه ، وما أضمر له الغيب في طياته .

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة ، بل رسالة السيدة الشريفة . وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها أمام مرآتها تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بموقف اللقاء ، كانت الأولى نائمة في غرفتها نومًا هادئًا مطمئنًا لا تزعجه زورة الطيف ، ولا تروعه أحلام الشباب ، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت ، ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء .. وعرفت أن سيدها سيقف على سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانه زمنًا طويلاً .. وأنه لابد قاتل نفسه في ذلك الموقف حزنًا ويأسًا .. فعناها من أمره ما عناها ، ثم أطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هذه النازلة ، وتتطلب المخرج منها ، ثم رفعت رأسها ، وقد قررت في نفسها أمرًا .

نزلت مسرعة من سلم القصر ، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها ، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت إليها وقالت لها : ماذا تريدين مني؟ أتتجسسين عليّ !! قالت لها : لا يا سيدتي .. وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها ، فسقط في يدها ، وعلمت أن أباها قد وقف على سرها ، فقالت لها : لا تزعجي نفسك ، فإن أباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي إلى غرفتك ، وسأذهب إلى الموعد مكانك ، حتى إذا رآني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في أمرك .

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة ، وهناك برز الرجل من مكمنه ، واقترب منها حتى عرفها ، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ، ثم قال لها :

أيتها الفتاة : إني أحسنت إليك ، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء ، فأسأت إليَّ بما فعلت ، حتى كدت الليلة أهلك حزنًا وكمدًا ، وألصق بابنتي ذنبك وأحمل عليها عارك ، فاخرجي من منزلي ، فاللئيم ليس أهلاً للإحسان .

فخرجت خائبة تتعثر في أذيالها ، حتى وصلت إلى شاطئ النهر ، وهنالك أخرجت مذكرتها من محفظتها ، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها :

« أحمد الله أني قدرت على مكافأة الرجل الذي أحسن إليّ بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه » .

ثم ألقت بنفسها في النهر ، وما هي إلا دورة أو دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان ، جسمها وروحها ، فطفا منهما ما طفا ، ورسب ما رسب .

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها ، وعادوا بها إلى منزل سيدها .. فبكاها بكاءً كثيراً وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها ، ثم أمر بدفنها ، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها .

مرت الأيام تلو الأيام ، وجاءت الحوادث إثر الحوادث ، وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها ، وتهتكها واستهتارها ، ما لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ضاق بأمرها ذرعًا ، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه ورزاياه ، ثم ألم به الضجر ، فقام إلى صندوقه يفتش عن شيء يتلهى به ، فعثر بتلك الحقيبة ، ولم يكن قد فتحها قبل اليوم ، فإنه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها ، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشيًا عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت .

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذى هذيان المحموم ، ولبث على هذه الحال بضعة أشهر ، يمرض ثم يبل ، ثم يمرض ثم يبل ، حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضًا لم ينقض إلا بانقضاء أجله .

فيا أيها الوالد المجهول ، الذي قذف بتلك الفتاة البائسـة في بحر هذا الوجود الزاخر ، أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقي شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله؟

ويا أيها الآباء العظماء : إن كنتم تريدون أن تسـلموا بناتكم إلى هذه المدنية الغربية تتولى شـأنهن ، وتكفل لكم تربيتهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشـــهامة والعزة والإباء والأنفة ، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن ، وفجعكم في أعراضـهن وقفتم أمام ذلك المشـهد هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألمون .

ويا أيها الناس جميعًا : لا تحلفوا بعد اليوم بالأنســـاب والأحســـاب ، ولا تفرّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصـــور ، ولا تعتقدوا أن الفضـــيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء ، فقد علمتم ما أضمر الدهر في طيات أحداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء .

■ ■ ■

## الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور ، ويبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه ، والباقي يوزع على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدُّون بالمئات ، فهل ترون أن هذه القسمة شرعية ، مع أن الذين يأخذون الألوف أغنياء والذين يأخذون الآحاد فقراء ؟

أفتنا أيها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي أصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس ؟

«ابن جلا»

أيها السائل : أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك تعتقد أنه ميراث شرعي ، وأن لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورّثين .

إن الذي أعلمه أن هذا الحق المزعوم حق موهوب ، لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ، لأن الذين يضعون المال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك أن يهبوه أحدًا من السدنة والخدم ولو أن ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلاً من الصندوق «ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميت حي في قبره يسمع نجواهم ، ويفهم حديثهم ، ويلبي دعاءهم ، تجسم في نظرهم هذا الخيال ، فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء وصفاتهم حتى حب المال وادخاره ، فخيل إليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المال ويضعونه في صندوقه ، لأنهم يعجزون عن وضعه في يده .

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال ، وكيف ينفقه وفي أي شيء ينتفع به ، فذلك أمر لا يخطر ببالهم ، ولا يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم .

فإن وجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال إلى سدنة الضريح ، وخدمته فعلمه هذا لا يستفاد منه أن يهبه لهم ، أو يمنحه إياهم ، لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم ذلك المال ، أو يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي ، لما وسعه ذلك ولا رأى إن فعله أن عمل عملاً صالحًا .

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق بعد أن يضعه فيه أمر لا علاقة له به ولا شأن له فيه ، لأن المال قد خرج من يده إلى صاحب الضريح ، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء .

فهو في جميع حالاته و شؤونه لا يهب هبة صحيحة ، ولا يتصرف تصرفًا شرعيًا ، ولا يضع صدقة في موضعها ، ولا يطرق بابًا من أبواب البر المسنونة .

وعندي أن مثل هذا المال بعد أن أخرج من يد صــاحبه إلى غير يد ، وانقطعت ملكيته الأولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى ، يعتبر مالاً مهملاً ، لا صاحب له ، ولا علاقة لأحد به .

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في هذا المال أن ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها ، وافتتحها بأداة الحصر ـ التي تمنع غيرها من الاشــتراك معها في حكمها في قوله تعالى : : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

فإن كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة أنصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة داخل في قسمه من الآية الشريفة ، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيراً معدمًا ، كعامة فقراء المسـلمين ، لا من حيث أن له صلة بصاحب الضريح تسوّغ له أن يكون من ذوي الأنصبة والسهام في صندوقه ، فإن أمثال هذه الصــلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى . فلا هياكل اليوم ولا ســدنة ، ولا وســطاء ولا شفعاء ، ولا أقراط تعلق في آذان الأصنام ، ولا عقود تقلد فيها أعناق الأوثان ، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم ، وإنما الناس جميعًا سـواء بين يدي الله سـبحانه وتعالى ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى ، ولا زلفى لأحد يزدلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه ، وبره وإحسانه .

ذلك ما أراه في هذه المســألة وهذا ما أعتقده فيها ، ولا أعلم إن كنت أرضــيت الناس فيما كتبت أو أغضبت ، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي ، وحسبي ذلك كفى .

■ ■ ■

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان ، فأبرزتها الألحان فهو أفصح الناطقين لسانًا ، وأوسعهم بيانًا ، وأسرعهم نفادًا إلى القلوب وامتزاجًا بالنفوس ، واستيلاء على العقول ، وأخذًا بمجامع الأفئدة ، وبيان ذلك أن النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها ، فأدناها النثر وأوسطها الشعر ، وأعلاها الغناء ، فلو أن عاشقًا برح به الهجر مثلاً فأراد أن يبلغك ما في نفسه من ذلك ، فإن قال لك : إني مهجور ، فحسب ، فقد أبلغك بعض ما في نفسه . وترك في قلبك من الأثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير ، وإن أنشدك قول الشاعر :

فواكبدا من حب من لا يحبني ومن زفرات ما لهن فناء

أو قول الآخر :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال ، وصوَّر لك خواطر نفسه بصورة وضح من الصورة الأولى ، وترك في نفسك أثرًا أعظم من الأثر الأول ، وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فقد صوَّر لك قلبه كما هو . وألمسك موضع الألم والحزن منه ، فبلغ بك التأثير منتهاه ، وربما بكيت عند سماعه حزنًا ورحمة ، وما بكيت إذ بكيت إلا لأن الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها ، وكما أن الأبيات قيود المعاني كذلك الألحان قيود الأبيات ، فلا يزال المعنى مشرَّدًا ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر . فإذا هو مستقر في مكانه ، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يقوده الصوت الحسن ، فإذا هو مستودع في الصدور .

والغناء فن من فنون الطبيعة ، تهتدي إليه الأمم بالفطرة المترنمة في هدير الحمام وخرير المياه ، وحفيف الأشجار . فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليطرب جمله أو ناقته فينشطان للمسير ، وما زال هذا الفن مبتديًا ببداوة الأمة العربية لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال ، ومناغاة الأطفال ، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات إلى منفسح الكماليات ،

وتوســعت فيه وزادت في أنغامه وضروبه ، وتفننت في آلاته وأدواته ، وكذلك كان شــأن العرب في جاهليتهم ، ينظمون أشــعارهم على نســب متوازية ، وأنغام متوازنة . فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها ، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك ، فكأنما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحانًا موسيقية ، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى . وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر ، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينه متسع للبراعة في هذا الفن ومنتدح في مناحيه ومقاصده ، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير ، يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية ، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحينًا بزوا فيه أساتذتهم ، وولدوا ألحانًا وأنغامًا لم يأت بها من قبلهم ، شأنهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر في تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومخارق ، وطويس ، وإبراهيم الموصلي ، وابنه إسحاق ، وإبراهيم بن المهدي ومعبد - الذي طالما ضربت به وبحسن صـوته الأمثال على ألسـنة فحول الشـعراء . كقول أبي عبادة البحتري في وصـف فرس كان أهداه إليه أحد الأمراء :

هزج الصـــهيل كأن في نبراته　　　نغمات معبد في الثقيل الأول

والثقيل والخفيف الأول والثاني أسـماء اصـطلح عليها العرب ومرجعها إلى حركات الأصـابع الخمس في أوتار العود الخمسة شدة وضعفًا ، وما أحسن قول أبي العلاء المعري :

ولقد ذكرتك يا أميمة بعدما　　　نزل الدليل إلى التراب يسـوفه

وهواك عندي كالغناء لأنه　　　حســن لديّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته في ذلك العهد - عهد الصدر الأول - و شدته في النهي والتلهي بالغناء والعزف والزمر وأمثالها ونعيه على من يحترف ذلك أو يتخلقه ، فقد كان للمغنين الشــأن الرفيع في مجالس الخلفاء والأمراء ، والنصــيب الأوفر من جوائزهم وصــلاتهم ، ولا غرو في ذلك ، فســلطان الوجدان فوق سلطان الأديان ، ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحاق الموصلي شتم إبراهيم بن المهدي في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل ، فما استطاع أخو الخليفة أن ينتصف لنفسه منه هيبة وإجلالاً ، وكان ابن عائشة المغني لا يغني إلا لملك ، أو ولي عهده ، حتى كان الخليفة

إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب له بذلك عهدًا ، بل يأذن لابن عائشة أن يغني عنده ، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى يفد الناس إليه يهنئونه بولاية العهد ، فإن دعاه إلى الغناء لديه أمير أو وزير وجد من قوة الدالة بنفســـه ما يدفع به الطلب عنه . ويروى أن ابن عتيق وهو من تعلم في شرف البيت وجلال المحل رأى ابن عائشـــة يومًا وحلقه مخدوش ، فقال : من فعل بك هذا؟ قال : فلان ، وأشـار إلى ضـاربه . فمضىـ ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه وجعل يضربه ضربًا موجعًا ، والرجل يصيح : أي شيء صنعت؟ وما ذنبي إليك؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه و سألوه عن ذنبه ، فقال : إنه أراد أن يكسر مزمارًا من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه . ومما يروى من حوادث تيهه وترفعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه :

أبعـدك معقلاً أرجو وحصـــنـــا      قـد أعيتني المعـاقـل والحصـــون

فأطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ، فبينا هو يسير إذ نظر إليه رجل من أهل وادي القرى كان يشتهي الغناء فدنا من غلامه وقال : من هذا الراكب المختل؟ قال : ابن عائشة المغني ، فدنا منه وقال : جعلت فداك أنت ابن عائشة؟ قال نعم ، قال : أم عائشة المؤمنين؟ قال : لا ، أنا مولى لقريش وعائشـــة أمي ، وحســـبك هذا فلا تكثر ، قال : وما هذا الذي بين يديك؟ قال غنيت أمير المؤمنين صـــوتًا فأطربته فأمر لي بهذا المال وهذه الكسـوة ، قال : جعلت فداءك هل تمن علي بأن تسـمعني ما أسـمعته إياه؟ فقال له : ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟ قال فما أصـــنع؟ قال : الحقني إلى المنزل ، يريد مخاتلته والنجاة منه وحرك بغلة شـقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه . حتى وافيا المنزل كفرسي رهان ، ودخل ابن عائشـــة فمكث طويلاً طمعًا في أن ينصرـــف فلم يفعل ، فلما أعياه قال لغلامه : أدخله فلما دخل قال له : من أين صبك الله علي؟ قال : أنا رجل من أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء ، قال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال : وما ذاك؟ قال : مائتا دينار وعشرـة أثواب تتصرـف بها إلى أهلك ، فقال له : جعلت فداءك والله إن لي لبنية ما في أذنها علم الله حلقة من الورق وإن لي زوجة عليها يشـــهد الله قميص ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك بن أمير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان الصـــوت أعجب إليَّ منه ، وما زال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعد لأي فطرب الرجل له طربًا شديدًا وجعل يحرك رأسه وينطح بها الجدار حتى خيف أن يندق عنقه ، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئًا .

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي ســقناه له ما يدل على أن الغناء العربي كان قريبًا إلى القلوب وأنه كان منها بمنزلة الأصــابع من الأوتار ، فإذا لمســها رنت رنين الثكلى والمرزوءة في واحدها ، وأن الوجدان العربي وجدان رائق شـفاف تأخذ منه مختلفات الأنغام ، فوق ما تأخذ الكهرباء من الأجسـام ، كما تبلغ منه نظرات الغرام ، فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام .

وكانت الأ صوات عندهم تن سب إلى وا ضعيها وت سمى بأ سماء أ صحابها كما هو ال شأن في ال شعر ، فيقال : صـوت إسـحاق أو معبد ، كما يقال شـعر مسـلم أو بشـار ، وكان المغني أحرص على صـوته من الكريم على عرضه ، فإذا صنع صوتًا لا يسمح لأحد من المغنين أن يأخذه عنه حتى يغنيه مرارًا وتعرف نسبته إليه ، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لإ سحاق المو صلي القدرة الغريبة على مخاتلة المغنيين عن أ صواته ، حتى صنع مرة صوتًا وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعدما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة فما ا ستطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وكانت مجالس الغناء عندهم تشـبه أن تكون مجالس علم لدراسـة هذا الفن وتهذيبه ، فكان أحدهم لا يحجم إن رأى في صوت صاحبه مأخذًا أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطإ مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه ، وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء الغربي كان له عند العرب صــبغة جدية فوق صــبغة اللهو ، وأن الغربيين في هذا العهد ليسـوا بأعلم بصـناعة الغناء ، ولا أقوم على أمرها من العرب في ذلك العهد ، ولو أن العرب توسـعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها . ولكنهم كانوا قلما يحفلون بإدخاله في الأغراض العالية كالحروب والشــؤون الوطنية وأمثال ذلك من المناحي والمقاصــد إلا قليلاً ، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا أن سبيل الو شاية بهم إلى الر شيد سبيل وعردسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة :

ليـت هنـدًا أ نجزتنـا مـا تعـد  وشــفـت أ نفســنـا مما تجـد
واســتـبـدّت مـرة واحــدة  إنمـا الـعـاجـز مـن لا يســتـبـد

فحرك ذكر العجز والاســتبداد ما كان كامنًا في نفس الرشــيد من شــعوره بســلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه ، فقال عند تمام الصوت : «نعم إني عاجز» ثم كان أمره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد م ضى ال صدر الأول من الإ سلام و شأن فن الغناء العربي في هذا ال شأن العظيم خ صو صًا في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، ثم أخذت شمسه الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار

اللغة العربية وشـعرها حتى أصـبح في حضـارة الأندلس قدودًا وموشـحات ، بعد أن كان قصـائد ومقطعات ، فكان لا يسمع أبناء العرب في ذلك العهد إلا إلى قول المغني :

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصـباح
ومعصـــم النهر في حلـل خضرـ من البطـاح

أو قوله :

كللي يا ســحب تيجان الربى بالحلي        واجعلي ســورها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشـحات فإنها وإن لم تكن شـعرية اللفظ فهي شـعرية المعنى عالية الخيال ، وهي على علاتها خير من شـــعر العامة الذي قضىـ عليهم فســاد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به كالزجل ، والمواليا ، والقوما ، والدوبيت ، وكان ويكون ، غير ذلك مما يســمى في عهدنا هذه بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها .

فهل لجماعة المغنين في عصرـنا أن يعفونا من : « أحب جميل طبعه الدلال » ومن : « يا حلو صـون عهد ودادي الله يصونك » ويأخذوا بنا في مسلك أشرف من هذا المسلك ، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول كما صـنع شـعراء العصرـ برفيقه الشـعر ، فلقد كان الشـعر والغناء أخوين أليفين ، رضـيعي ثدي وضجيعي مهد ، ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما ، وماذا على المغنين والشـعراء في مصرـ لو عقدوا بينهم عهدًا أن يهذبوا أخلاق أمتهم ويرفعوا شـأنها ليكون لهم من الفضـل في نهضـتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسـفة والحكماء ، فينظم الشـاعر المقطوعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد في صـــغائر الأمور ، والترغيب في عظمائها ، فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها أكثر ما يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل ثم يغنيها في الناس غير مبال بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه ، وفي اعتقادي أن لهذه الطريقة من الأثر الحســن في نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم ، وتقويم ألســنتهم وعقولهم ، ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال .

■ ■ ■

## التوبة

علم فلان ، وكان شابًا من شبان الخلاعة واللهو ، وقاضيًا من قضاة المحاكم ، أن المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد ، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكررها أخرى فبلغت منه ، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا ، وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جنبيها همًا يضطرم في فؤادها ، وجنينًا يضطرب في أحشائها ، وقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل ، أما الثاني فسر مذاع ، وحديث مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تتسع له البطون ، وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد .

ذلك ما أسهر ليلها وأقض مضجعها ، وملك عليها وجدانها وشعورها ، فلم تر لها بدًا من الفرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمدت إلى ليلة من الليالي السوداء فلبستها ، وتلفعت بردائها ، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود ، فما زالت أمواجها تترامى بها حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر ، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية ، في بعض الأحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب .

كان لها أم تحنو عليها ، وتفتقد شأنها ، وتجزع لجزعها . وتبكي لبكائها ففارقتها ، وكان لها أب لا هم له في حياته إلا أن يراها سعيدة في آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزله ، وكان له خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها! فأصبحت لا تسامر غير الوحدة ، ولا تساهر غير الوحشة ، وكان لها شرف يؤنسها ويملأ قلبها غبطة وسرورًا ورأسها عظمة وافتخارًا .. ففقدته .. وكان لها أمل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام في أملها .

ذلك ما كانت تناجي نفسها به .. صباحها ومساءها ، بكورها وأصائلها فإذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب أحزانها علمت أنه ذلك الفتى الذي وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها ، ولم يف بعهده لها ، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير .

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ، ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته ، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض .. فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات .. ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد .. وتعاني من صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعًا بهذا الضيف الجديد ، وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قربًا إلى نفسها .. فجلست ذات ليلة ، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها ، وظلت تقول :

ليت أمي لم تلدني ، وليتني لم أكن شيئًا .

لولا وجودي ما سعدت ، ولولا سعادتي ما شقيت ، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي .

لقد كان لي قبل اليوم سبيل إلى النجاة من هذه الحياة ، أما اليوم ، وقد أصبحت أمًا فلا سبيل .

أأقتل نفسي فأقتل طفلتي؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة؟

لا أحسب أن الموت تاركي حتى يذهب بي إلى قبري ، فماذا يكون حال طفلتي من بعدي؟

إنها ستعيش من بعدي ، وتشقى في الحياة شقائي ، لا لذنب جنته ولا لجريمة أجرمتها ، سوى أنني أمها .

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومتي حينما تسمعين قصتي وتسمعين شكاتي؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلاي إلا قليل سأبيعه كما بعت سابقه ، فماذا يكون شأني و شأنك بعد اليوم ؟

محال أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي ، لأنه لم يبق لي مما يعزيني عن شقاء العيش وبلائه ، إلا أن أهلي لا يعرفون شيئًا عن جريمتي ، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الأعزاء ، ولأن يبكوا مماتي ، خير لي ولهم من أن يبكوا حياتي .

وكذلك ظلت تلك البائسة المسكينة تحدث نفسها تارة ، وطفلتها أخرى بمثل هذا الحديث المحزن الأليم ، حتى غلبها صبرها على أمرها ، فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء العاجزون ، ويقدر عليه القانطون اليائسون .

دارت الأيام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها ، وما يحمل بدنها وما تشتمل عليها غرفتها من حلي وثياب ، وأثاث ورياش ، ولم يبق لها إلا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها ، ولم يبق لطفلتها إلا أسمال باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة ، فكانت تقضي ليلها شر قضاء حتى إذا طار غراب الظلام عن مجثمه أسبلت برقعها على وجهها ، واتزرت بمئزرها ، وأنشأت تطوف شوارع المدينة ، وتقطع طرقها ، لا تبغي مقصدًا ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسايرها ويترسم مواقع أقدامها .

وأحسب أن عجوزًا من عجائز المواخير رأتها فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى دخلت غرفتها ، فوغلت عليها ، وسألتها ما خطبها؟ فأنست الفتاة عند رؤيتها ، وكذا يأنس المصدور بنفثاته ، والبائس بشكاته ، فأصرحت لها بسرها وألقت إليها بخبيئة صدرها ، ولم تترك خبرًا من أخبار نعيمها ، ولا حادثًا من حوادث بؤسها لم تحدثها به ، فعرفت الفاجرة محنتها ، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها ، وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت غنى الدهر ، وسعادة العمر ، وما هو إلا أن أرسلت إليها بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها ، حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها ، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا لأمثالها من بلوغها .

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد ، عيشًا أشقى من عيشها الأول في منزلها القديم لأنها ما كانت تستطيع أن تصل إلى لقمتها - وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة - إلا إذا بذلت راحتها وشرّدت نومها ، وأحرقت دماغها بالسهر ، وأحشاءها بالشراب ، و صبرت على كل من يسوقه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم ، على اختلاف طبائعهم ، وتنوّع أخلاقهم ، لأنها لم تر بدًا من ذلك .. فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلاً .

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان الأمر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من سار في الطريق التي سارت فيها ، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه ، فساق إليها ذئبًا من ذئاب الرجال كان ينقم عليها شأنًا من شؤون شهواته ولذاته ، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاها عندها ، ووقع أمرها إلى القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها .

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقت إلى المحكمة ، وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها ، فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة ، فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها ، ذلك أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعلة بلائها ، فنظرت إليه نظرة شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى بها المكان دويًا وقالت :

رويدك يا مولاي القاضي ، ليس لك أن تكون قاضيًا في قضيتي! فكلانا سارق وكلانا خائن ، والخائن لا يقضي على الخائن ، واللص لا يصلح أن يكون قاضيًا بين اللصوص .

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغضب لهذه الجرأة العجيبة ، وهمّ أن يدعو الشرطي لإخراجها ، فحسرت قناعها عن وجهها ، فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شيء ، فشعر بالرعدة تتمشى في أعضائه ، وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت ، وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت :

أنا سارقة المال ، وأنت سارق العرض ، والعرض أثمن من المال ، فأنت أكبر مني جناية ، وأعظم جرمًا .

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع أن يعزي نفسه عنه باسترداده أو الاعتياض عنه ، أما الفتاة التي سرقت عرضها فلا عزاء لها ، لأن العرض الذاهب لا يعود .

لولاك ما سرقت ، وما وصلت إلى ما إليه وصلت ، فاترك كرسيك لغيرك ، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها ، وأنا المسخرة فيها .

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة ، ثم تأتي بنا إلى هذا المكان ، فتقف أحدنا في أشرف المواقف ، وتقف الآخر في أدناها ، لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول ، أو زمام غير منقضب .

رأيتك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك ، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت : يا للعجب!! كم تكذب العناوين ، وكم تخدع الألقاب ، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء!

بخ بخ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة ، شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب . ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ، وو ضعوا بين يديك هذا القانون ، وأوقفوا أمامك هذا الشرطي يأتمر بأمرك وينزل على حكمك .

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوسًا ليست بأقل من نفوسنا شرًا ، ولا أخبث منها مذهبًا ، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا في العناوين والألقاب ، والشمائل والأزياء .

أتيت بي إلى هنا لتحكم عليَّ بالسجن ، كأن لم يكفك ما أسلفت إليَّ من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلاحق لذلك السابق .

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ ألست إنسانًا ذا شعور وإحساس فترثى لشقائي وبلائي؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمتُّ بها إليك ، فوسيلتي عندك ابنتك هذه ، فهي الصلة الباقية بيني وبينك .

فرفع القاضي رأسه ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة رحمة وإشفاق وقد قرر في نفسه ألا بد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لها من نفسه ، غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصًا جميلاً ، فأعلن أن المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها ، وأن لابد من إحالتها على الطبيب . فصدق الناس قوله . ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه ، وقلب غير قلبه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى استقال من منصبه بحجة المرض ، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما فيه أحد ، فتزوج منها وأنس بعشرتها ، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة أن أدل عليه إذا ذكرتها لذكرتها ، ولا يزال حتى اليوم يكفِّر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية ، وأنواع الكرامة ، حتى نسيا ما فات . ولم يبق أمامها إلا ما هو آت .

■ ■ ■

## الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى إليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين ، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين .

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته ، لا يعرف لها شأنًا ، ولا يقيم لها وزنًا ، حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها ، ويرشده إليها بتحقيرها ، والغض منها ، فهو الصديق في ثياب العدو ، والمحسن في ثياب المسيء .

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد ، ينقم على محسوده نعم الله عليه ، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة ، وفي تلك الأمنية قد أضاف إلى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم .

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها ، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخيرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرة خفيفة ، فحيث ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها .

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأنًا ، وأهون خطرًا من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين ، وألقها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها ، فاعلم أنهم قد منحوك لقب «المحسد» فليهنأ عيشك وليعذب موردك .

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل ، فانظر إلى أكثرهما نقمة على صاحبه ، وكلفًا بالغض منه ، والنيل من كرامته فاعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلهما فضلاً .

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها ، فالشارب يتألم عند حلول المرض ، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر ، والسارق يتألم يوم دخول السجن .

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة ، لا تفارقه ساعة واحدة .

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمة موجود مكن الموجودات الثابتة التي لا يلم بها إلا التنقل من مظهر إلى مظهر ، والتحوّل من موقف إلى موقف فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضي عذابه ، حتى تقر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي ينبض .

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة ، ولكل داء دواء ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ، ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها ، ولا أحسب أنه ينفق من وقته ومجهوده في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده ، والنيل منه ، فإن كان يحسده على المال ، فلينظر أي طريق سلك إليه فيسلكه ، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم أو الأدب فليتأدب ، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك ، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك ، والكمد القاتل .

■ ■ ■

## الوفاء

يا صاحب النظرات :

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة ، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان ، وقد عرض لها في هذه الأيام رمد في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء ، وأصبحت أعمى بجانبها ، وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها .. فماذا ترى ؟

« إنسان »

أيها الإنســـان : لا تفعل ، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين وجرم الغادرين ، وكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، لتســـتطيع أن تدخر لنفســـك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين .

لا تقل إنها عمياء فلا خير لي فيها ، لا غبطة لي بها ، فإنك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه الناعمون بالحور الحسان ، قي مقاصير الجنان .

اجلس إليها صـباحك ومسـاءك ، وحادثها محادثة الصـديق صـديقه ، بل الزوج زوجه ، وتلطف بها جهدك وروّح عن نفســـها ما يســـاورها من الهموم والكروب وقل لها : لا تجزعي ولا تحزني ؟ فإنما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين .

أعيذك أيها الإنســـان بالله ورحمته ، والعهد وزمامه ، ألا تجعل لهذا الخاطر الســـيئ - خاطر الطلاق والفراق - سـبيلاً إلى نفسـك ، فإنها لم تسيء إليك فتسيء إليها ، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها ، فإن كنت لابد ثائرًا لنفسك فاثأر من القدر إن استطعت إليه سبيلاً .

إن عجزًا من الرجل وضعفًا أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه ، ويعتدي عليه .

إن لم يكن احتفاظك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه فليكن إحسانًا تحاسبك الإنسانية فيه .

إنك قد خسرت بصرها ، ولكنك ستربح قلبها ، وحسب الإنسان من لذة العيش وهناءته في هذه الحياة قلب يخفق ، ولسان يهتف بذكره .

إنها أسعدتك برهة من الزمان ، فليخفق قلبك رحمة بها ، بقدر ما خفق سرورًا بعشرتها .

لا أحسب أنها كانت تاركتك ، أو غادرة بك ، لو أن هذا السهم الذي أصابها قد أصابك من دونها ، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضيلة الصدق والوفاء .

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها ؟ وأي موطن من المواطن هيأته لمقامها ؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها ؟ وتأنس بها في وحشتها ووحدتها ؟

كيف يهنأ لك عيش ، أو يغمض لك جفن ، إذا أظلك الليل فذكرتها وذكرت أنها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله ، وأنها ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها إليها ، أو كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها ، أو ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجاتها فأخطأ تقديرها فصدمها الجدار في جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها ؟

أيها الإنسان : إن لم تكن عادلاً ولا وفيًا ولا محسنًا فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لابد أن يساورك ، يفت في عضدك ويزعجك من مرقدك ، فإن لم تكن هذا ولا ذاك فغيرك أُخاطب لأني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان .

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء فاغتبط بها برهة من الزمان ، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجك ، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها ، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئًا ، فكان يعتب عليها في بعض الأحايين في أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا الناظرون المبصرون ، يريد بذلك أن يلقي في روعها أنه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة ، وأنه لا يرى شيئًا جديدًا طرأ عليها ، رحمة بها وإبقاء على ما كانت تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها والإدلال بمزاياها .

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب في آدابهم ، ومكارم أخلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم ، فلم أر بينها نادرة أوقع في النفس ، ولا أجمل أثرًا في القلب ، من قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية ، وكان كفيف البصر :

**اختلف إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد أربعين عامًا فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي ، خذ بيده يا غلام ، بل يقول اخرج معه يا غلام .**

**فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب ، ما سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ ، فلا تطلق زوجك ، ولا تنقم منها أمرًا قد خرج حكمه من يدها ، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش ، فاعلم أنه ما من لذة يتمتع بها الإنســـان في حياته إلا ويشـــوبها الكدر ، أو يعقبها الألم ، إلا لذة البر والإحسان .**

■ ■ ■

## خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضــائه عن يمينه رجل من ذوي الأســنان قذر « دميم » المنظر ، تسنح شعراته البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الأبيض في الدخان الأسود ، وتتمشى في أديم وجهه عبرة قاتمة من رآها علم أنها نشيج دخان الحشيشة ، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه ، ووقف عن يســاره صــبية ســتة نحل الأبدان جوع الأكباد ، لم يترك لهم الدهر - آكل الناس وشـاربهم - إلا هيكلاً من العظم تلمع في رأســه عينان جائلتان ، لا تســتقران في محجريهما إلا إذا استقر الزئبق الرجراج في قرار مكين .

نظر إليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة ، وتخالطها الشــفقة ، والقضـــاة لا يرحمون ولا يشـــفقون ، لولا أن من المناظر مناظر تســتهوي القلوب القاســية ، وتذيب الأفئدة المتحجرة ، وأنشــأ يسألهم واحدًا فواحد ما شأنهم ؟ وما خطبهم ؟ وما مصيرهم ؟ فكان جوابهم جوابًا واحدًا خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنســـان رأى خلتهم من حيث يخفي مكانها فثغر فيها ثغرة انحدر منها إلى أعرا ضهم ، فيبعث بها ما شاء و شاء العابثون ، فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها ، حتى إذا ا ستنفد درتها ألح على دمائها فاســتنزفها ، ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فإذا علم أنهم هلكوا أو كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة ، والمضـــغة بعد المضـــغة ، ويرمقهم العيش ترميقًا لا إبقاء عليهم ، بل على ما يصـــل إلى يده من المال من طريقهم ، وزعموا أنه كان يريبه منهم في بعض الأحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيملأ أدمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم ، ويحل عقدة إبائهم ، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون .

وما وصـلوا من شـكواهم إلى هذا الحد حتى سـقط منهم اثنان بين يدي القاضي فراعه من أمرهم ما راعه ، ثم علم أنه الجوع ، فأمر لهم بخبز وادم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته . وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر غليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده إذا أفلت من حبالته .

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه ، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله ، وحسبت أنه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدإ الخليقة في مغارة من مغاور الجن أو شفعة من شفعات الجبال ، وقلت له : أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن إنســـان ؟ قال : لا تعجل فما حدثتك إلا عن رجل حمّار لا يفارق وجهه صورة حماره ليله ونهاره ، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين ، والأشراف والمستورين ؟

قلت : لا تحدثني عن شيء ، فلم يبق في قلبي متسع ، لاحتماله أكثر مما احتملت والأمر لله وحده .

ليست مسألة الزوايا وخباياها أمرًا يستهان به ، أو تفضي العيون عليه فإننا نريد أن نعد لوطننا رجالاً ذوي شـــجاعة وإقدام ، وعزة وأنفة ، من الذين إذا عظم الخطب كانوا حماة الديار ، وإذا اشـــتد البأس لا يولون الأدبار .

■ ■ ■

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعي ، ويريدون منه أن يكون الإنسان مجنونًا في شأن واحد من شؤونه ، عاقلاً في باقيها ، وعندي أن الرجل إما أن يكون عاقلاً أو مجنونًا ، ولا ثالث لهما .

العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها ، فموقفه أمامها موقف واحد ، فإما أن يغلبها جميعًا أو تغلبه جميعها .

أما ما يراه الرائي أحيانًا من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتارًا يستهلك نفسه وعقله ، وزهده في بعضها زهد الإعفاء القانعين ، فذلك لأنه رغب في الأولى فا ستر سل وراء رغبته ، ولم يدعه إلى الأخرى داع من شهوات قلبه ونزعات نفسه ، ولو دعاه لخف إليه ولباه ، ولن يسمى الرجل زاهدًا أو عفيفًا إلا إذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه إليها فيدفعها ، وتثور تائرتها بين جنبيه فيقمعها .

لا تقل إن السكير عاقل إن رأيته غير فاسق ولا عاهر ، واعلم أنه يؤثر الفسق ولا تجذبه إليه جواذبه ، ولو آثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات ، ولا تقل إن الفاسق عاقل إن رأيته غير سارق ولا مختلس ، فإنه لا يحب السرقة ولا الاختلاس ، ولو أنه أحبهما لكان في التسلل إلى أعماق الدور والقصور ، أبرع منه في التسلل إلى مكامن الفسق والفجور ، ولا تقل إن المقامر عاقل إن رأيته لا شاربًا ولا فا سقًا ، فإن القمار قد ا ستهلك شهوته وا ستخلصها لنفسه ، ولم يدع فيها فضلة لسواها ، لولا ذلك لكان أكبر السارقين ، وأفسق الفاسقين .

ولو كنت من المصانعين ، الذين يزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ويصبغونها من ألوان التعليل ، لما ا ستطعت أن تصانع المقامر لأن حاله من الجهل الفاضح ، والغباوة المستحكمة ، أبعد الحالات عن عذر المعتذرين ، وتأويل المتأولين .

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار ، إلا بعد أن استقر في ذهنه أن الدرهم الذي في يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن إلى دينار ، ويعود به إلى أهله فرحًا مغتبطًا ، واحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة ، تعجز عن إدراك هذه العقيدة ومثارها .

إن كان يؤمل الربح لأنه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح . فلم لا يخاف الخسران لأنه يرى عن يساره مائة خاسرين ؟ وإن كان يضحكه منظر الربح لأنه يرى في بعض مواقفه أحد الرابحين ضاحكًا ، فلم لا يبكيه منظر أصدقائه ورفقائه الخاسرين ، وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود القذائف المنطلقة .

ما أشبه المقامر الذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائي الذي يطلب من القصدير فضة ، ومن النحاس ذهبًا ، كلاهما يتاجر بالأحلام في ســوق الأوهام ، فيربح ربحًا مقلوبًا ويكســب كســبًا معكوسًــا ، وما أشبههما جميعًا بذلك الرجل الذي علم أن في صحراء من صحاري أواسط أفريقيا كنزًا دفينًا لا تعرف له بقعة معينة ، وليس عليه دليل فحمل فأســه على كتفه ومشىـ في تلك الصـحراء يحفر الحفرة التي تســتنفذ قوته وتستهلك مؤنته .. وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ كر الغداة ومر العشي .. حتى إذا بلغ قرارتها .. وعلم أنه لم يعثر بضالته .. تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها .. فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأول .. وهكذا .. حتى أدركه الموت ، وهو في بعض تلك الحفر .. فكان هو نفســه الكنز الدفين .. إلا أنه كنز لا يطمع فيه طامع ولا يرغب فيه راغب .

إن كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتلاقي الضدين ، فاعلم أن المقامر في آن واحد أجشع الناس ، وأزهد الناس ، فلولا حبه المال لما هان عليه أن يبذل راحته وشرفه و سعادته وحياته في سبيله ! ولولا زهده فيه لما أقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها ولا لمأرب يسعى إليه .

إنا لا أريد أن أنصـح للمقامر بترك القمار ، لأني أعتقد أن من يملك عقلاً مثل عقله ، وفهمًا مثل فهمه ، لا يســتطيع أن يفهم كلمة مما أقول ، ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الأيام عن أن ترد عليه ضــالة عقله وتهديه الســبيل إلى نفســه لا تنفعه كلمة كاتب ، ولا موعظة واعظ ، وإنما أريد أن أقول للذين لم يقدر لهم أن يخطو خطوة واحدة في هذه الطريق الوعرة حتى اليوم : لا تقامروا جدًا ولا هزلاً ، فإن هزل القمار يجر إلى جده ، ولا تمروا بمعاهد القمار قصـدًا ولا عفوًا ، فإن من حام حول الحمى يوشــك أن يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الأحوال ، فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم ، فإن فعلتم خسرـتم مالكم وشرفكم وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوّض عليكم ما خسرتم ، فارحموا أنفسكم إن كنتم راحمين ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين .

مرض فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومسائها ، وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطًا من خيوط الأمل ، ولا شعاعًا من أشعة الرجاء لولا أن بين يديه ولدًا صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد قريب . والشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حنين الإبل إلى أعطانها ، فنظر إليه ، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع المنسجم ، ثم زفر زفرة حرى خيل لرائيها أنها الزفرة الأخيرة ، وأنشأ يقول :

أي بني ، من لي بقلب يرعاك مثل قلبي ، وعين تسهر مثل عيني ، وروح ترفرف فوق رأسك مثل روحي ، ونفس تضم جوانحها عليك مثل نفسي ؟

أي بني ، كأني بركب الموت ، وقد نزل بي ، وحل بساحتي ، وكأني به ، وقد احتملني من فضاء القصر إلى مضيق القبر ، ومن نور الحياة إلى ظلمة الموت ، وكأني بك ، وقد طفقت تنشدني فلا تجدني ، وتفتش فلا تراني ففزعت وارتعت ، ثم صرخت فصعقت ، ولم تجد بجانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك .

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه ، ورحمته وحنانه ، فأكل إليه أمرك وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك ، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك ؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يأنس به ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه فقال له : هون عليك يا مولاي فأنا صديقك الذي تنشده وأنا والد ولدك من بعدك ، وخلفيتك بعد الله عليه ؛ ثم تهافت على فراشه وظل يبكي لبكائه ، وينشج لنشيجه ، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل وقال : أحمدك اللهم قد رحمت ولدي وحفظت بيتي . وما هي إلا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده ، ثم أجاب دعوة ربه تاركًا في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه ، وماله وولده .

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقًا له في الأعوام الأخيرة من أعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف إليه ، ويطيل اللبث بجانبه ، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخف لقضاء حاجاته ولباناته ، ذلك إلى ما كان يراه متجملاً به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات ، والتسبيحات المتواليات وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته .. وتورع حتى عن الرجعة يتجرعها في حضرته .. فاستخلصه لنفسه .. وأنزله من قلبه المنزلة التي لا ينزل معه فيها غير ولده .. وأصبح آثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، إلى أن أحس باقتراب الأجل ،فأوصاه بما أوصى ، وعهد إليه بما عهد .

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ ، أما تاريخه بعد مماته فأسمعك منه ما تهوى له الأفلاك عجبًا ، وتخر له الجبال هدًّا .

لم تكن صلاته إلا رياءً ونفاقًا ، وركوعه و سجوده إلا كيدًا ومداهنة ، وعفته وزهادته إلا حبالة نصبها ليعلق بها عقل الشيخ ، وقد علق ، فيسلبه ماله وولده ، وقد فعل ، وما كان اختلافه إليه ، ولا تردده عليه إلا طمعًا في هذا المصير الذي صار إليه ، فلما علم أن قد تم له من أمره ما أراد ، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود ، ويبتاع به لنفسه ما شاء أن يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع ، فنبه ذكره بعدما كان خاملاً ، ونبت ريشه بعدما كان عاريًا ، وأصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء .

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده ، ويملك شده وأنه سيقطع عليه لذته ، ويقف له موقف المعترض سبيله ، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير ، فلم ير بدًا من أن يعد لذلك اليوم عدته فعمد إلى الولد فقطعه عن المدرسة لأنه لا يحب أن ينشأ متعلمًا ، ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الفجور ، لأنه لا يحب أن ينشأ عاقلاً ، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب برأسه علوق السلال بالصدور ، فأصبح بين الحانات والمواخير ، كالطائر بين الأغصان لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقًا .

فكأنما وكل بعقله مقراضًا يبضع له في كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتي عليه ، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصي على القاصر قيمًا على المعتوه ، ولم يبذل في سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لقمات ألقاها من فتات تلك المائدة إلى أعضاء المجلس الحسبي ، فأدخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب .

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوّام عليهم ، رحمة بهم فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم وأصبح اللص الذي يجهل صناعة فتح الأقفال ويتقي مغبة تسلق الجدران ، قادرًا على أن يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات ، وجر الأغلال الثقال في غيابات السجون . وانتقلت الثروات العظيمة من أيدي أصحابها مخافة أن يسرفوا فيها إلى أيدي آخرين يبددونها تبديدًا ، ويمزقون أديمها تمزيقًا ، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب ، أو وشيجة رحم ، حتى أصبح السعي إلى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملاً من الأعمال الباطلة ، وضربًا من ضروب الخرق الواضح ، والجهل

الفاضـــح ، فمن لي إن أنا دبرت المال وجمعته أن لا يكون خليفتي عليه من بعدي لصًـــا من أولئك اللصـوص الذين تمنحهم المجالس الحسـبية ، ما تمنعهم الشرـائع الإلهية ؟ ومن لي أن أعيش إلى أن أدرك ولدي تولى أمر تربيته بنفسي قبل أن يظفر به في حداثته ظفر جارح من أظفار أولئك الأوصياء فيميت نفسـه ، ويقتل عقله .. ويفسـد عليه حياته ، ويلبسـه من الفضـيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها ، ويزعج عظامي في مرقدها .

فلقد حدثني من قص عليّ تلك القصة أن ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد ، عمد إلى تزويجه من فتاة حسـناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له في ذلك مأربًا من المآرب الفاسـدة ، فإنها ما كادت تخلع ثوب عرسـها حتى أنشـأ يختلف إليها ، ويكثر إزديارها في الجناح الذي تسـكنه من القصر ، بما له على زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية وبحجة النظر في شـؤونها ومرافقها ، ثم مازال يختلها عن نفسـها ويزين لها ما يزينه الشـيطان للإنسـان حتى علقت بحبالته ، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها ، وبرمت به ، فرابه من أمرها ما رابه ، فرصـدها ليلة من الليالي حتى عرف سرها وموضـع هواها ، فشـكا فلم يجد سـامعًا ، ثم بكي فلم يجد راحما ، فكان يقضي كثيرا من لياليه في غرفة من غرف القصر واجما مطرقًا مسـلمًا رأسـه إلى ركبتيه ، ودمعه إلى خديه ، لا سـمير له ولا مؤنس إلا رنات الضـحكات التي تنهل عليه من مخدع زوجه ن فكان يثب تارة وثبة الأسد فيثير في القصر ثائرة شعواء تضج له جوانبه ، فيتسارع إليه الخدم فيضربون على يده وفمه ، وأخرى يعود إليه بلهه وخبله ، فينظر إلى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب .

مرت على تلك الحوادث سـنوات اسـتأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسـعة وألح عليها بكلكلة ، حتى اجتز وبرها ، ثم اسـتكشـط جلدها فلم يبق منها إلا هيكل عظمي قائم ، فلما علم أن قد قامت قيامة الناس عليه ، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مسمع الخافقين ، وأن نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول ، عمد إلى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل المحزن الأليم .

تفتح للغلام بعد انقباضـه ، وابتسـم إليه بعد تقطيبه ، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر ، ومركب فاره ، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان ، ثم خلا به في سـاعة من سـاعات نشـوته وارتياحه فقال له : أيها الصديق قد آن أوان استقلالك بشأنك وانفرادك بأمرك ، فاكتب إلى المجلس الحسبي رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك ، واكتب توقيعك على هذه « المخالصة » براءة لذمتي ؛ فا ستطير الغلام فرحًا وسرورًا ، وما لبث أن كتب الأولى ووقع على الأخرى ، ثم أوعظ إلى المجلس الحسبي بتلبية طلبه ، فلباه ، وقضى برفع

الحجر عنه ، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامئ كأس الشراب ، وكان لابد له من أن يشرب حتى يبشم ، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد ، وكان الرجل قد وكل به عونًا من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته إلى المال هذا يعطي وذاك يأخذ حتى أصبح نصف « الدائرة » بعد عامين ملكًا لعون الوصي وللوصي غدًا بثمن لا يساوي عشر معشارها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها ، وأنفق عليها إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصي وقعد ، ونادى في الناس بصوت يشبه صوت الحق ونغمة تشاكل نغمة الصدق : أيها الناس قد كنت أنذرتكم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه فكذبتم قولي وسفهتم رأيي ، وما زلتم تقولون وتتقوّلون حتى أحرجتم صدري ، ودفعتموني إلى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليَّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده ، ولا أخلى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها ، فها أنتم ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجرير سعيكم .

ثم أعاد كرته على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبي فأعاد سيرته الأولى ووضع في عنقه غلاً لا فكاك له من بعده ، إلى يوم يبعثون .

ليس شعري ، هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده ، وأن المال قد ورثه غير وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ؟ وأن ولده قد أصبح ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة فتلتوى عليه ؟ وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مطرحًا في زوايا الحانات ، لا وطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير قطع السحاب ؟ وهل أعد عدته للوقوف بين يدي الله تعالى في ذلك اليوم المشهود ؟ يوم تكشف الهنات ، وتفضح العورات .. فيمسك ولده بيمناه ووصيه بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول :

اللهم أعدني على هذا الكاذب الذي ختلني وخدعني وخفر ذمتي وخاس بعهدي وخان أمانتي وأفسد وصيتي ، وخذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله وهتك عرضه وعذب نفسه ، ونغص عيشه . فأنت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين .

■ ■ ■

## العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عام يقف ركب العالم السـائر بمنزلة من منازل الحياة ، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعة من وعثاء السفر بعد أن نال منه الأين والكلال وأضناه سري الليل وسير النهار ، ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا .

هنالك يجتمع السفر في صعيد واحد فيتعارفون ، ويتفقد بعضهم بعضًا ، فيجدون أن فلانًا مات جوعًا ، وفلانًا مات ظمأً ، وآخر افترسه سبع ، وآخر قتله لص ، وآخر مات غيلة ، وآخر سقط عيًا وآخر طارت به قنبلة ، وآخر هوت به طيارة ، وآخر اجتاحه بركان ، وآخر تردى عليه معدن ثم يعودون إلى جرائد الإحصاء فيدونون فيها حاضرهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازنون بين هذا وذاك فيجدون أن الحاضر شر وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء ، ومصانع الموت لا تزال تفتن في عدد وتستكثر من أدواته ، وأن جذور الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر ، حتى ما يتمنى أحد أن تقع عينه على أحد وأن سحب البغضاء القاتمة لا تزال مخيمة على المجتمع الإنساني من أدناه إلى أقصاه شعوبًا وقبائل وأجناسًا وأنواعًا ، ومذاهب وأديان ، ومنازل وأوطانًا ، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه ، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه في دينه ، فإن وافقه فيه أبغضه لأنه ينطق بغير لغته فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه فإن كان مشاركًا له أبغضه لأنه يزاحمه في حرفته فإن بعد عن طريق مزاحمته أبغضه لأنه يخالفه في رأيه ، فإن لم يخالفه أبغضه لأنه لا يحاكيه في لونه ، فإن لم يجد شيئًا من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه شخص سواه ! كأن قضاء حتمًا على الإنسان أن يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته .

فإذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم ، والموازنة بين حاضرهم وماضيهم ، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب ، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد أخيه مهنئًا له بالعيد السعيد داعيًا له بدوام الغبطة والهناءة ، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية .

علام يهنئ الناس بعضهم بعضًا ؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها ؟ ويغتبطوا المراحل التي يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيدًا كما أمسى ؟ أو أمسى كما أصبح ؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع في إحدى لياليه ولم ير بجانبه ما يرى في الليلة البارقة من رعود قاصفة ، ورياح عاصفة ، وصواعق محرقة ، وشهب متطايرة ؟

بأية نعمة من النعم ، أو صنيعة من الصنائع ، تمن يد الحياة على إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم إلا إلى ظلمة العيش ، ولا يفلت من ظلمة العيش إلا إلى ظلمة القبر ، كأنما هو يونس ، الذي التقمه الحوت فمشى في ظلمات بعضها فوق بعض ! وأية يد من الأيادي أسدتها الأيام إلى رجل يظل فيها من مهده إلى لحده حائرًا مضطربًا ، يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه ، ويثلج صدره ، فلا يعرف لها مذهبًا ولا يجد إليها سبيلاً ، وإن كان غنيًا اجتمعت حوله القلوب الضاغنة ، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة ، فإما قتلته ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً عد الناس فقره ذنبًا جنته يداه ، فتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والألسن بالقذف ، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى ، وإن كان عالمًا ولع الحاسدون بذمه وهجوه ، وتفننوا في تشويه سمعته ، وتسويد صحيفته ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالمًا كجاهل وحيًا كميت ، وأن يكتم علمه في صدره ، فلا يفضي به إلى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموت ، وإن كان جاهلاً اتخذه العالمون مطية يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يهادنونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها . وإن كان بخيلاً ازدرته القلوب ، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه وبرزت له الأنياب ، وانقبضت له الأسرة ، والتهبت له الأنظار ، وأرسلت إليه الأغصان ألسنة نيرانها حتى تحرقه ، وإن كان كريمًا محسنًا عاش مترقبًا في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم إما لأنه ذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه فلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل إليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدي ، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقابل فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم .

لا سعادة في الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري ، ولن ينتشر السلام إلا إذا هدأت أطماع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كل ذي حق حقه ، وقنع كل بما في يده عما في يد غيره فلا يحسد فقيرغنيًا ، ولا عاجز قادرًا ، ولا محدود محدودًا ، ولا جاهل عالمًا ، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين ، وامتلأت النفوس عزة وشرفًا ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أخرى ، ولا ترى طبيبًا يدعى علم ما لم يعلم ليسلب منه خصمه ، ولا

تاجرًا يشـتري بعشرـة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، وكاتبًا يضرـب الناس بعضـهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منهما .

وما دامت هذه المطالب أحلامًا كاذبة وأماني باطلة ، فلا مطمع في سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا هناءة ، ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده ، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه .

■ ■ ■

## سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير ، وهي الرواية المعروفة برواية « يوليوس قيصر » موقفًا لبطلين من أبطال الفصاحة ، وفارسين من فرسان البيان . وقد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب ، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين .. تعلو بها حينًا وتسفل أحيانًا ، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة ، فعلمت أن العامة عامة في كل عصر ، والشعب شعب في كل مصر . وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر ، وأن رأس التاريخ اليسوعي ، مثله في ذنب التاريخ المحمدي ، تدنو به كلمة ، وتنأى به أخرى ، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء .

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلاً .. ملك عليه حواسه ومشاعره حتى ما يكاد يشعر بمرارته ، وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله فيها ، وعلم أن حياة ذلك الشعب بموت ذلك القيصر .. فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده ، افتداء لأمته ووطنه ، فطعنه طعنة نجلاء ، سلبته نفسه في لحظة واحدة ، فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه ، هياج الأمواج الثائرة على السفن الماخرة ، فوقف الرجل خطيبًا أمام ذلك الشعب الهائج المحتدم وقفة المستبسل المستميت ، وكان لابد له في هذا الموقف من أحد المصيرين ، إما نصر يعلو به إلى مدارك الأملاك ، أو خذلان يهوى به إلى مقر الأسماك ، ومن أحد المخرجين : إما مخرجه مرفوعًا على محفة الأبطال ، أو محمولاً على أعناق الرجال ، فبعد لأي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحك ، وهو يتلمس في هذا الظلمة الحالكة المخرج من جريمته .

### الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة ) : أيها الرومانيون ، أتعدونني بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره ، إكرامًا لموقفي وإكرامًا للعدل ؟

أنا لا أريد أن أخدعكم ، ولا أعبث بعقولكم وأهوائكم بل أريد منكم أن تنظروا إلى قضيتي نظر الحذر المتيقظ الذي لا يعطي هوادة ولا يلقي قيادًا لأني لا أعتقد أن في زاوية من زواياها كمينًا أخاف أن تقع عليه العيون .

أيها الرومانيون ، إن كان بينكم صديق ل- « قيصر » يحبه ويذوب حزنًا عليه فليسمح لي أن أقول له : أيها الصديق الكريم ، إن بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر منك .

أيها القوم : والله ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ، فاعلموا أني ما قتلت قيصر لأني كنت أبغضه ، بل لأني كنت أحب روما أكثر منه . كان قيصرـ طماعًا فقتلته ، ففي ســاعة واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري .

أنا لا أصدق أن بينكم من يحزن لموت قيصر ، فأنتم رومانيون ، والروماني لا يحب أن يعيش ذليلاً .

من منكم يكره أن يكون رومانيًا ؟ من منكم يكره أن يكون حرًا ؟ من منكم يحتقر نفســـه ؟ من منكم يزدري مصـــلحة وطنه ؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم ، لأنه هو الذي يحق له أن يثأر لنفسه مني ، لأني لم أسئ إلى أحد سواه .

الشعب - لا ، لا ، ليس فينا واحد من هؤلاء .

بروتس - إذن أنا لم أسئ إلى أحد منكم .

وهنا دخل أنطونيوس صــديق قيصرـ ورأس الناقمين على قتلته والمطالبين بثأره هو وآخرون يحملون على أيديهم جثة قيصر لتأبينه في هذا الجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال :

ها هي جثة قيصر ، وها هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا ما يقال عن الثاني ، واسمحوا لي أن أقول كلمة أختتم بها خطابي .

أيها الرومانيون : إن الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل روما لا يزال باقيًا عندي لذبح بورتس في سبيل قيصر إذا أرادت روما ذلك .

## تأثير الخطبة

الشعب - ليحيى بروتس .

أحد الناس - أنا أقترح أن نحمله على الأكف إلى منزله .

آخر - انصبوا له تمثالاً .

آخر - امنحوه عرش قيصر .

آخر - إنه أفضل من قيصر .

آخر - إن قيصر كان ظالمًا .

آخر - إنه كان الظلم بعينه .

آخر - لتهنأ روما بالخلاص منه .

آخر - ألا نسمع تأبين أنطونيوس؟

آخر - نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك .

وهنا نزل بروتس والقلوب طائرة حوله ، والعيون حائمة عليه . ثم وقف على أثره أنطونيوس فرمقه الشعب بين الغضب والحقد .. ولولا إشارة من بروتس ما استطاع أن يثبت في موقفه لحظة واحدة ، ثم أخذ يتلو كلمة التأبين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبيانًا .

أنطونيوس - أيها الرومانيون ..

أحد الناس - اسمعوا ما يقول أنطونيوس .

آخر - لا .. لا نسمعه .

أنطونيوس - اسمعوني إكرامًا لبروتس .

أحد الناس - ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس؟

آخر - لا يقول شيئًا .

آخر - إذن نسمعه .

أنطونيوس - أيها الأصدقاء ، إنني ما جئت هنا الساعة لأرثي قيصر بل لأدفن جثته .

أيها القوم : ما من أحد من الناس إلا وله في حياته أعمال حسنة وأخرى سيئة .

أما حسناته فتموت بموته ، وأما سيئاته فتبقى من بعده إلى يوم يبعثون .

كذلك كان قيصر في حياته ومماته . وكذلك كانت سيئاته .

أيها القوم : ما كنت لأســـتطيع أن أقف موقفي هذا بينكم ولا أن أقول كلمة مما أريد أن أقول لولا أن بروتس قاتل قيصر أمرني بالوقوف وأمرني بالكلام ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته ، وأذعنت له لأنه رجل شريف .

أيها القوم : يقول الشريف بروتس إن قيصر كان رجلاً طماعًا ، وأنا لا أستطيع أن أخالفه فيما يقول ، لأنه رجل صادق لا يكذب .

أنا لا أستطيع أن أقول إن قيصر كان رجلاً قانعًا معتدلاً ، لأن الشريف بروتس يقول غير هذا .

كل ما أ ستطيع أن أقوله إن الفدية التي افتدى بها أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم إلى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها .

كل ما أســتطيع أن أقوله إني رأيت قيصر ــ بعيني يبكي لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم ، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهرًا لا يغمض له جفن حدبًا بهم ، وعطفًا عليهم .

كل ما أستطيع أن أقوله إني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في «لوبر كال» عدة مرات فأباه زهدًا فيه ، وتعففًا عنه .

كنت أ ستطيع أن أقول إن الطمع لا يـ سكن قلبًا مثل هذا القلب ولا يخالط فؤادًا مثل هذا الفؤاد ، لولا أن بروتس يقول إن قيصر رجل طماع وأنا لا أستطيع مخالفته ، لأنه رجل شريف .

أيها الرومانيون : إنكم أحببتم قيصر قبل اليوم حبًا جمًا ، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه .

إن لم تبكوه لصــفاته الكريمة ، فابكوه لأنكم كنتم تحبونه ، ابكوه لأنه كان بالأمس ينطق بالكلمة فتدوي في صدور العظماء دوي الرعد في آفاق الـسماء ، فأ صبح اليوم مطرحًا مهينًا في ظل هذا الحائط ، ولا يجد بين الناس من يأبه له ، ولا من يعطف عليه .

أيها العقل الإنـساني : كيف حالت حالك ، وتغيرت آيك؟ وكيف انتقلت من الـصدور الإنـسية ، إلى الـصدور الوحـشية ، وكيف ضللت سبيلك ، وعميت عليك مذاهبك ، فحـسبت الخير شرًا ، والـشر خيراً ، واختلط عليك الأمر ، فلم تستطع أن تميز بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم .

أيها الرومانيون : عفوًا إن هذيت بينكم ، أو أسأت إليكم ، واعلموا أن الحزن قد قسم فؤادي قسمين : قسم على هذا المنبر ، وقسم في ذلك النعش .

أيها الأصــدقاء : إن بين جنبي قلبًا يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ولولا مخافة أن تنفجر صدوركم حزنًا وجزعًا لقلت لكم : إن قيصر قتل مظلومًا .

إنني أعتقد أن بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء ، لذلك أحب أن أسيء إلى نفـسي وإلى قيـصر وإليكم قبل أن أقول إنهم أخطأوا في قتل قيصر .

« وهنا صمت أنطونيوس وأرسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع » .

أحد الناس (يقول لصاحبه) - يلوح لي أن فيما يقول الرجل شيئًا معقولاً .

آخر - إنك إن أمعنت النظر وجدت أن قيصر قد أسيء إليه .

آخر - لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك .

آخر - لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي رحمة بالفقراء .

آخر - إن الذي يرثى لبؤس البؤساء لا يكون طماعًا ولا ظالمًا .

آخر - إذًا فسيكون لمقتل قيصر شأن غير الشأن الأول .

آخر - لابد من عقاب القاتل .

آخر - (يقول لجليسه) انظر إلى أنطونيوس فهو يبكي وينتحب .

آخر - ليس في رومة رجل أشرف من أنطونيوس .

أنطونيوس - أتأذنون لي أن أفارق موقفي هذا لحظة ، لأقف قليلاً بجانب جثة القتيل؟

الشعب - نعم .. نعم .

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة قيصر ، وهو لا يزال في ملابسه التي قتل فيها ، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه) ثم قال :

أنطونيوس - من كان يملك منكم دموعًا فليعدها لهذا الموقف العظيم ، فإنه موقف يحتاج إلى كل ما في عيونكم من دموع .

إنكم تعرفون جميعًا هذا القباء ، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئًا ، أنا أعلم أن قيصر لبسه أول ما لبسه في مساء اليوم الذي انتصر فيه على «الدفى» ذلك الانتصار العظيم الذي نالت به روما فخر الأبد .

(ثم وضع يده على أحد الثقوب التي في القباء وقال) : في هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم .

ومن هذا الثقب مرّ خنجر بروتس إلى صدر قيصر . ومن هذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب ، وأحسب أن جميع أفراد النوع الإنساني قد مرّوا بخاطر قيصر واحدًا واحدًا قبل أن يمر بخاطره صديقه : «بروتس» .

عرف قيصر أن قاتله هو صديقه ، وصنيعة إحسانه ، ففترت همته ، وعجز من المقاومة ، لأن الطعنة التي أصابته في جسمه ، لم تكن بأقل من الطعنة التي أصابته في قلبه ، ولم يكن منظر المدى والخناجر ، أبشع في نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصر عن أن يقول شيئًا غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الأخير .

« وأنت أيضًا يا بروتس؟ »

وهنالك تحت تمثال «بومباي» وجد قيصر قتيلاً وقد لف وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل .

ها أنتم تبكون على قيصر ، فشكرًا لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهرتم بها ما لوّثت به يد الظلم تربة هذه الأرض من الدماء .

إنكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته؟

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه ، وقال) : إن في كل جرح من هذه الروح لسانًا يشكو إليكم ، فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء .

أحد الناس - يا له من منظر فظيع!

آخر - وارحمتاه لقيصر !

آخر - إن يومًا يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير !

آخر - يا للدناءة والسفالة !!

آخر - يا للغدر والخيانة !!

آخر - الانتقام .. الانتقام .

**الشعب - (وهو يضج ضجيجًا عظيمًا) حرّقوا القتلة ، مزقوهم ، لا تبقوا على أحد منهم .**

**أنطونيوس - مهلاً . مهلاً . أنا لا أريد أن أشـــعل بينكم فتنة عمياء ولا أريد أن تطالبوا القتلة بالدماء التي أرقوها ، فإنني لا أزال أعتقد أنهم قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أســـبابًا لقتله لا نعرفها ، وإنما أريد أن أقول لكم : إن قيصر كان يحبكم حبًا جمًا فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه .**

**لولا أني أؤثر البقاء عليكم ، ولولا أني أحب تخفيف ما ألم بقلوبكم من الحزن على فقيدكم ، لتلوت عليكم وصـــيته ، لتعلموا أن الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقًا أن يقتل بينكم ، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض .**

**الشعب - اقرأ الوصية .**

**أنطونيوس - إني أخاف على صدوركم أن تنشق حزنًا على القتيل الشهيد .**

**الشعب - نريد سماع الوصية .**

**أنطونيوس - إنه يعطي كل فرد من أفراد الشـعب الروماني خمســة وســبعين فرنكًا ، ويوصي بجميع غاباته ومتنزهاته للأمة .**

**أحد الناس - يا له من رجل كريم !**

**آخر - يا له من رجل شريف !!**

**آخر - ويل للقتلة !**

**آخر - الثورة .. الثورة .**

**آخر - سنحرق منزل بروتس .**

**ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط .**

**أنطونيوس (في موقفه وحده) - أيتها الفتنة العمياء قد أيقظتك من مرقدك فارفعي رأسك وامضي في سبيلك ، واشتعلي حتى يحرق لسانك أديم السماء ووجه الغبراء .**

**وهكذا اســتطاع أنطونيوس في موقف واحد أن يســتعبد الشــعب الروماني لنفســه قبل أن يفيق من استعباد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من إحدى العبوديتين : إما العبودية لحملة التيجان ، أو حملة البيان .**

■ ■ ■

## الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم ، لأني أشغل وظيفة عالية فيها ، وقد بدا لي أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة ، فاختلفت حتى فاجأني يومًا من الأيام ما لم يكن في الحسبان .

حدث أن صــعلوكًا يعرفني ، ويعرف مقامي ، تمادى في وقاحته وســوء أدبه ، حتى وقف بجانبي في الصــلاة ، فا شمأزت نفسي من هذا الأمر ا شمئزازًا عظيمًا ، وحاولت أحتمله فلم أ ستطع ، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به ، فهل تعرف مسوّغًا شرعيًا يفرّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟

« سائل »

يا مولانا الحاكم :

رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك ، لا تضن عليه بمذقة من ظلك الظليل أن تمتد إليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى فيها ، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردانك عله يجد فيها روح الحياة ، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناءة ، فيهدأ ساعة من الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، إن الله يحب المحسنين .

ليفرخ روعك وليثلج صدرك ، واعلم أن هذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم ، وبرح به الشقاء ، أن يقتطع قطعة من سعادتك أو يفتلذ فلذة من شرفك ، فشرفك كالمصباح تستمد منه المصابيح ، ونوره نوره ، وبهاؤه بهاؤه .

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه ، أو سيئ الأدب ، فإني - بما أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم وآمالهم التي تعتلج بها صــدورهم وتهتف بها أحلامهم - أعتقد أنه ما وقف بجانبك إلا طمعًا في دورة الفلك التي علت بك ، وأنزلتك منازل العظماء ، أن تدور به كذلك فتنزل منزلتك ، وتعلو به إلى مقامك ، فاغفر له جهله وقصوره ، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة .

إنك تريد مني أن ألتمس لك من أبواب الشريعة الإسلامية بابًا يسوغ لك طرد هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقي عليك .

إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك أعظم شأنًا وأجل خطرًا ، من أن يحفل بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقميصك المحبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر مما تعرف لصاحبك فما كان له أن يأمرك بالتقدم عليه في موقف الصلاة ، ولا أن يأمره أن يقف منك موقف العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم .

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة ، وحكمًا جمة ، أرادها الشارع منهما ، وأنك لن تجد بين هذه الحكم ، وتلك الفضائل ، حكمة أغلى ، ولا فضيلة أنفس من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى أنه قد وقف من الفقير في ذلك الموقف المقدس موقف الأخ من أخيه والكفيء من كفيئه .

إن كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك إلى المسجد ألا تترك للفقير موقفًا من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه ، حتى موقفه بين يدي ربه ، فخير لك أن تستصحب معك عند ذهابك شرطتك وأعوانك لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده وإقصائه والتنكيل به جزاء له على وقاحته وسوء أدبه ، فإن تم لك من ذلك ما أردت ، فاحذر أن تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية ، بعدما نطقت بكلمة الألوهية ، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء .

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أن الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها ، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه ، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره ، فلم يعد يبصر شيئًا مما حوله ، ولا يعلم أواقف هو في صفوف الملوك أو في زمرة الصعاليك؟

أيها العظماء :

ليست العظمة التي تعرفونها لأنفسكم إلا منحة من الفقراء إليكم فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم . ولولا تصاغرهم في حضرتكم ما استكبرتم فلا تجزوهم بالإحسان سوءً ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر ، تستدفعوا النقم ، وتستديموا النعم .

أيها العظماء :

ما هذه القصور التي تسكنونها ، ولا هذه الدور التي تغمرونها ، وهذه الأردية التي تجرون أذيالها ، إلا ألوانًا وأصباغًا لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم ، ولا صلة لها بجواهر أفئدتكم وقلوبكم ، وما هو إلا أن تطلع عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابًا بألوان السحاب وأصباغ الثياب ، فإذا أنتم عراة مجردون ، لا تشفع لكم إلا فضائلكم ، ولا تنفعكم إلا مواهبكم ومزاياكم .

أيها العظماء :

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم و شؤونكم ، فإن كنتم من أرباب الفضائل فحري بالفاضل أن لا يشوِّه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء ، أولاً ، فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهًا ، ولا أصلب خدًّا من جهلة المتكبرين ، فانظروا أين تنزلون ، وفي أي مقام تقيمون ؟

■ ■ ■

## الانتحار

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد ، أو شدة مرض ، أو بؤس حال ، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه .

إن الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر ، فكيف هان عليه ، وهو في آخر يوم من أيام حياته ، أن يضم إلى خسارة دنياه خسارة آخرته ، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء ؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة ، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها .

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم ، وكنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك ، قلنا يوشك أن يقتل الشرقي نفسه بنفسه إذا علم أن تلك عادة من العادات الغربية ، فقد صار قريبًا ما كان بعيدًا ، وأصبح مألوفًا ما كنا نعده فرضًا من الفروض .

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور ، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والخبل ، وأحسب أن الإنسان لا يقدم على الانتحار ، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور .

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده ، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه ، فهو شاذ في طبيعته ، غريب في خلقه ، معاند لإرادة الله تعالى في بقاء الكون وعمرانه ، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل .

لا عذر للمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالأسى ، ومهما ألمت به كوارث الدهر ، وأزمت به أزمات العيش ، فإن ما قدم عليه أشد مما فر منه ، وما خسره أضعاف ما كسبه .

ولو كان ذا عقل لعلم أن سكرات الموت تجمع في لحظة جميع ما تفرق من آلام الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال ، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه ، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة.

ما أكثر هموم الدنيا ، وما أطول أحزانها ، لا يفيق المرء فيها من هم إلا إلى هم ، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسعادة و شقاء ، فإذا صح لكل مهموم أن يمقت حياته ، ولكل محزون أن يقتل نفسه ، خلت الدنيا من أهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود إليها ، وتبدلت سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ما سمي القاتل مجرمًا إلا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد ، وأقسى منه قاتل نفسه ، لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول ، فهو أكبر المجرمين ، وأقسى القاتلين .

يخدع المنتحر نفسه إن ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة ، وأنه إنما يفعل فعلته عن روية وبصيرة ، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مآزق الموت حتى يثوب إلى رشده وهداه ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلاً .

إن ألقى نفسه في الماء تخبط وبسط يده إلى من يرجو الخلاص على يده وودَّ لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه ، وإن حبس نفسه في غرفته ليموت مختنقًا بالغاز ودَّ لو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل ، فاسد السمع والبصر .

إن فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان ، وخطرة من خطرات النفس الشريرة ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتريث ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت ، وآلام النزع ، وماذا يكون حديث الناس عنه بعد موته ، وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له أو مشفق عليه ، أو مقتصد في النيل منه والسخرية به؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب وأنواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لأمثاله .

إني لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان وحشًا في ثوب إنسان ، أو بطلاً من أبطال المارستان .

■ ■ ■

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحيانًا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها في أفواههم ، حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش ، ولا يكره ميت طلعة الموت .

لذلك ترى كل حي يهرب من الحياة الحسية جد الهرب ، لاجئًا إلى الحياة الشعرية من أي باب من أبوابها ، لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السآمة والضجر من صنوف المناظر وأفانين المشاهد ، وغرائب المؤتلفات ، وعجائب المختلفات .

لولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس كثير من المولعين بتخدير أعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيش وآكلي الأفيون . وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء ، إلا أنها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين .

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته إلا إذا أسلم نفسه إلى كأس الشراب فنقلته من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالم واسع النطاق ، شاسع الأطراف يرى فيه كل ما تشتهي نفسه أن تراه، فإن كان قبيح الوجه مشوه الخلقة تخيل أنه شرك الأبصار ، وفتنة النظار ، وأن القلوب محلقة على جماله تحليق الأطيار على الأشجار ، وإن كان فقيراً معدمًا لا يملك فلسًا واحدًا توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجان في يمينه ، والتاج فوق رأسه واعتقد أن عبيد الله تعالى جميعًا عبيده ، وجنود المملكة بأسرهم جنوده ، حتى ذلك الجندي الذي يسحبه على وجهه إلى غرفة السجن ليقضي فيها ليلته ، وجملة القول أن عينه لا تقع على ما يحزنه من المنظورات ، وأن أذنه لا تسمع ما ينفره من المسموعات ، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء .

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة إلا إذا جن الليل ، وأوى إلى معبده ، وخلا بنفسه ، فتخيل أن له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء فيرى الجنة والنار ، والعرش والكرسي ، ويسمع صرير القلم في اللوح ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون .

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها ، إلا إذا جلس إلى منضدته ، وأمسك بيراعه ، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار ، وتنقل به بين مسارح الأفلاك ومسابح الأسماك . ووقف تارة على الطلول الدوارس ، يبكي أهلها النازحين وقطانها المفارقين . وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومها الباليات ، وأعظمها النخرات .

ليس الأمل إلا بابًا من أبواب الحياة الشــعرية ، ولا يوجد بين قلوب البشرــ قلب لا يخفق بالآمال العظام والأماني الحســان ؛ فالأمل هو الحياة الشــعرية العامة التي يعيش في ظلها الناس جميعًا أذكياء وأغبياء ، فهماء وبلداء ، والأمل هو السـد المنيع الذي يقف في وجه اليأس ، ويعترض سـبيله أن يتسرب إلى القلوب ، ولو تسرــب إليها لضــاقت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم ، فطلبوا الخلاص منها ولو إلى الموت ، طلبًا للتغيير والانتقال ، وشغفًا بالتحوّل من حال إلى حال .

يقولون : أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء  ويقولون : ما لذة العيش إلا للمجانين .

أتدري لماذا؟ لأن نصـيب الأولين من الحياة الشـعرية أضـعف من نصـيب الآخرين ، وذلك أن عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسـة ولا يسـمح له علمه بأحوال الدنيا وشـؤونها ، ومعرفته أن المصـائب والآلام لازم من لوازمها التي لا تفارقها ، يؤمن منها في طبيعتها من دوام السرـور واسـتمرار الهناءة ، فلا يطلب سعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤملين ، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين .

والحق أقول ، لولا الحياة الـشعرية التي أحياها أحيانًا في هذه الكلمات التي أكتبها ، لأحببت ، زاهدًا في هذه الحياة الحسـية ، أن تطلع الشـمس من مغربها إيذانًا بانقضـاء العالم وفنائه ، ولتمنيت حبًا في الانتقال من حال إلى حال أن أنتقل ولو إلى رحمة الله .

■ ■ ■

## رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام يومًا من الأيام كما يقف مســافر ضــل به ســبيله في فلوات الأرض ومجاهلها بواد معشب أريض في وسط فلاة جرداء عند متقطع العمران ، فما خطوت فيه بضع خطوات حتى رأيت ما شــاء الله أن أرى من أنوار بيضــاء ، وورود حمراء ، وألوان من النبات ، مشــتبهات وغير مشــتبهات ، وغدران مطردة متســلســلة تنبســط في تلك الديباجة الخضراء تبسـط النجوم البيضـاء في الديباجة الزرقاء وأسراب من الحمائم والعصافير والبلابل والشحارير ، تتطاير من فرع إلى فرع ، وتنتقل من غصــن إلى غصــن ، وتجتمع لتفترق ، وتفترق لتجتمع ، وتتقاتل مرة ، وتتلاءم أخرى ، وتصـعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط حتى تصافح صفحة الماء ، ولا تزال تغرّد في صعودها وهبوطها تغريدًا مختلف النغمات ، متنوّع النبرات ، فيتألف من ذلك الاختلاف والتنوع نغم لذيذ لا أعرف له شبيهًا إلا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان ، في فراديس الجنان .

فلم أزل أتقلب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجر ذيول تلك الجداول البيضاء ، وأقلب طرفي فلا أرى رائحًا ولا غاديًا . أتســمع فلا أســمع هاتفًا ولا داعيًا ، حتى وقف بي الحظ على درجة فرعاء ، مائلة على رأس بعض الجداول ، وقد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم رجل هانئ باسم ، يقرأ تارة ســورة الجمال في وجه فتاة جالســة بين يديه ، ويقبل أخرى ثغر الكأس التي تتلألأ في يمينه ، ويترنم بين هذا وذاك بمقطوعات شــعرية بديعة ، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها وســعادة الوحدة وهناءتها ، ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ، تاركًا هذا العالم الحافل بالهموم والآلام ، طاردًا عن نفسه كل خاطر من خواطر الشرور والآثام ، ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله ومائه وكأسه وفتاته .

فإن مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز وســلطان ، ولذة واســتمتاع ، قال : مالي وللملك والسـلطان ، والحاشـية والجند ، والقصـور الشـماء ، والجنان الفيحاء ، هنالك المحنة والشـقاء ، والفتنة الشــعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء والأشــلاء ، والعويل والبكاء ، وهنا الراحة والســكون في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين : ثغر الفتاة ، وثغر الكأس ، وذينك الصـديقين : هذا الكتاب المفتوح ، وذلك الغصـن المطل ، كل ما يتمنى السـعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة .

وإن ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال : إن من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول ، أنا اليوم موجود -، فلابد أن أستمتع بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي به . ولا بما قدر لي فيه ، وعسير عليّ أن أتصور أننا معشر الأحياء الناطقين قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم في باطن الأرض لينبش عنا النابشون غدًا .

ثم يعود إلى نفسه متسغفرًا الله من ذنبه في شكه وارتيابه فيقول : اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر المؤمنون الموحدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فإني ما أذنبت عنادًا لك ، ولا تمرُّدًا عليك ، ولكنها الكأس غلبتني على أمري ، وحالت بيني وبين عقلي وأنت أجل من أن تقاضيني مقاضاة الدائم غريمه ، لأنك كريم . والكريم يمنح العطية منحًا ، ولا يقرضها قرضًا ، ويسبغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين .

وأحيانًا يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحياءهم وأمواتهم ، ويقول مخاطبًا فتاته : رويدًا أيتها الفتاة في خطاك على هذه الأعشاب النابتة ، فلعل جذورها ممتدة إلى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك ، ووجدان مثل وجدانك ، وجمال رواء مثل جمالك وروائك ، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء ، وإذا هي في دجنة تلك الأعماق السوداء ، فارفقي بها ، واسكبي هذه الفضلة من كأسك على تربتها علها تتسرب إليها فتطفئ ذلك اللاعج الذي يعتلج بين جوانحها .

ثم يتخيل أحيانًا كأنه واقف بين يدي رجل خزاف يحرق حمأته في تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه النار ، فقد كانت بالأمس إنسانًا مثلك ، وستكون أنت في مستقبل الأيام حمأة مثلها ؛ وربما ساقك القدر إلى يد خزاف تحتاج إلى رحمته ورفقه ، فارفق بها اليوم يرفق بك خزافك غدًا .

وآونة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعى على السعداء سعادتهم ، ويذكرهم بما آلت إليه حال الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ، من خرائب دورهم وعمران قبورهم ، وغروب شموسهم ، وعفاء آثارهم .

ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه ، وترقب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته وتنطفئ جذوته ، وتضعف منته ، ويمحو نهار مشيبه ليل شبابه ، فيزحف إلى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه ، فيعود كما كان سرًا مكتومًا في ضمائر الأقدار ، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان .

وهكذا ما زال يتنقل من عبرة بليغة ، إلى عظة بديعة ، ومن خيال جميل إلى تشبيه رقيق ، ومن وصف ناطق ، إلى تمثيل صادق ، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا

الشاعر الجليل مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه ، وليله ونهاره ، وناطقه وصامته ، و صادحه وباغمه ، وأن فخار الأعراب بمتنبيها ومعريها ، والفرنسية بلا مرتينها وفكتورها ، والسكسون بشكسبيرها وملتونها ، والطليان بدانتها ، والألمان بجيتها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميرها ، ومصر القديمة ببنتاؤورها ، ومصر الحديثة بأحمدها ، لا يقل عن فخار فارس بخيامها .

■ ■ ■

## إلى تولستوي

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك ، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار ، وشط المزار ، عهدًا طويلاً كنا فيه أصدقائك ، وإن لم نرك ، وأبناءك ، وإن كان لنا آباء من دونك ؛ وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشيرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع .

حدثنا الناس عنك أنك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعًا بعد أن أعجزك إصلاحه وتقويمه فأبغضته ، وعفت النظر إليه ، وأبغضت لبغضه كل شيء حتى زوجك وولدك ، ففررت بنفسك منه إلى غاب تسمع زئير سباعه ، أو دير تأنس برنة ناقوسه «وأسجلت أن لا تعود إليه ، وأن تقطع كل صلة بينك وبينه إلى الأبد فعذرناك ، ولم نعتب عليك ، ولم نسمك جبانًا ولا رعديدًا ، ولا مواليًا ولا مدبرًا ، لأنك قاتلت فأبليت ، حتى لم يبق في غمدك سيف ، ولا فوق عاتقك رمح ، ولا في كنانتك سهم ، والعدو كثير عدده ، صعب مراسه ، وافرة قوته ، والشجاعة في غير موضعها جنون ، والوقوف أكثر من ثمانين عامًا أمام عدو لا أمل في براحه ، ولا مطمع في زياله : عناد ، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت قتيلاً في المعركة إلا مصير أولئك الفلاسفة العظماء من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهدرت دماؤهم ، واغتمضت عيونهم قبل أن يروا منظرًا من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشري يعزون به أنفسهم عن أنفسهم ، ويروحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع ، وفي أفواههم من مرارة الموت .

ماذا لقيت من الدنيا؟ وما الذي أفدت منها؟ وأين وقع علمك وفضلك؟ ولسانك وقلمك؟ وقوة عارضتك ، ومضاء حجتك ، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم ، وظلم ألسنتهم وأيديهم؟

قلت لقيصر : أيها الملك ، إنك صنيعة الشعب وأجيره ، لا إلهه ومعبوده ، وإنك في مقعدك فوق عرشك ، لا فرق بينك وبين ذلك الإكار في المزرعة ، وذلك العامل في المصنع ، كلاكما مأجور على عمل يعمله ، وكلاكما مأخوذ بإتقان ما يعمل ، فكما أن صاحب المصنع يسأل العامل هل وفى عمله ليوفي له أجره ، كذلك يسألك الشعب : هل قمت بحماية القانون الذي وكل إليك حراسته فأنقذته كما هو من غير تبديل ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت أن تستخلص عقلك من يدي هواك؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطانًا على

نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته؟ وهل أ صممت أذنك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم ، ولم تقتل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، أو الطمع في ضعفك ، مذهب الزلفى إليك بالكذب والنميمة والتجسس ، والتسقط ، وذلة الأعناق وصرع الخدود؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه ، ورآك أمينًا على العهد الذي عهد إليك به ، أبقى عليك وأبقى لك عرشك وتاجك ، وحفظ لك يدك التي اصطنعتها عنده ، وأحسن إليك كما أحسنت إليه ، أو لا ، كان له معك شأن غير هذا الشأن ، ورأى غير ذلك الرأي .

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها ، لأنه لم يجد بين الكثيرين الذين يعاشرونه من يسمعه مثلها فحقد عليك وأضمر لك من الشر ما يضمر أمثاله لأمثالك ، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه .

وقلت للغرندوق الروسي : ليس من العدل أن تملك وحدك - وأنت نائم في سريرك ، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك - هذه الأرض التي تضم بين أقطارها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين - الذين يفلحونها ويحرثونها ، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها ، ويسوقون ماشيتها ، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها - شبراً واحدًا فيها ، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم ، وأ شعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في سبيل حياتك ، واعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء .

ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك ، فعمدت إلى أرضك فجعلتها قسمة بيك وبين القائمين عليها من الزارعين ن ثم عمدت إلى فأسك فحملتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ، ولم تزل سائرًا حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقتها لنفسك فضربت مع الضاربين ، وخضت مع الخائضين ! لتعلم ذلك الجبار بفعلك ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك ، فسخر منك ، ورثى لعقلك ، وألف من أحاديثك رواية غريبة يروّح بها عن نفسه - في مجتمعات أنسه ولهوه - ما يساوره من السآمة والضجر .

وقلت للكاهن : إن المسيح عاش معذبًا مضطهدًا لأنه لم يرض أن يقر الظالمين على ظلمهم ، وأنه أبى أن يخفي المصباح الذي في يده تحت ثوبه ، بل رفعه فوق رأسه غير مبال بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوآتهم ، ويهتك أستارهم ، وأنت تزعم أنك خليفته ، وحامل أمانته ، والقائم بنشر آياته ، والمترسم مواقع أقدامه في خطواته ، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين؟ وما هذه اليد التي تبسطها إليهم بالمودة والإخاء كأنما تريد أن تعقد بينك وبينهم عهدًا أن يظلموا ما شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذي تحمله في يدك ، وما هذه السلطة التي تزعمها لنفسك أن تدخل الجنة من تشاء ، وتخرج منها من تشاء؟ وما هذه القصور التي تسكنها ، والديباج الذي تلبسه ، والعيش البارد الذي تنعم به؟ وأنت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن الدنيا وزخرفها إلى عبادة الله والانكماش في طاعته .

ذلك ما قلت للكاهن ، فكان جوابه أن أرسل إليك كتاب الحرمان ، وهو يعلم أنك لا تعترف له بالقدرة على إعطاء ولا منع ، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغض من كرامتك ، وإغراء العامة بك ، فكان ذلك كل ما أفدت من نصيحتك وعظتك .

وأبكاك منظر المنفيين في سيبيريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من أنواع الآلام ، فصرخت صرخة دوى بها الملآن : الأعلى والأدنى ، وقلت : أيها الناس إن الشر لا يدفع الشر ، وإن الأشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم ، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم ، والانتقام يلهب نارها ، واجعلوا المدارس مكان السجون ، والمعلمين مكان السجانين . فلم يسمع صرختك سامع ، ولا بكا لبكائك باك ، وما زال القضاة يحكمون والجند يصادرون ، والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون .

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب ، وبكاء النساء المعولات خلف أزواجهن وأولادهن وإخوتهن ، وهم سائرون إلى حرب لا يعرفون لها مصدرًا ولا موردًا ، وقد حمل بعضهم لبعض ضغائن وسخائم لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة فخيل إليهم أنهم أعداء وهم أصدقاء ، فخلعوا ثوب الإنسان ولبسوا فروة السبع ، وأنشب كل منهم ظفره في صدر أخيه كأنه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكانًا عليًا لولا جور السياسة وظلالها .

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا أجدى عليك عويلك وأنينك ، فالحرب لم تزل باقية ، ومصـــانع الموت لم تكتف بما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض حتى أصبحت تعد مثلها لمعارك السماء .

فهنيئًا لك أيها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة الهادئة المطمئنة ، لقد نجوت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت فيهلك غيظًا ، أو ينطق فيموت كمدًا .

ربما استطاع الحكيم أن يحيل الجهل علمًا ، والظلمة نورًا ، والسواد بيضًا والبحر برًا ، والبر بحرًا ، وأن يتخذ نفقًا في الأرض أو سـلمًا في السـماء . ولكنه لا يسـتطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنسـاني فضـيلة ، وفساده صلاحًا .

ما دام الإنســان لا ينتهي عن ظلم الإنســان حتى يخافه ، وما دام لا يحســن إليه إلا إذا راد أن يتخذ عبدًا يعبده من دون الله  وما دام للأثرة هذا الســـلطان الأكبر على أفراد المجتمع ، ومن أكبر كباره إلى أصغر صغاره ، فإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والأحراش بالأمس ، لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشرـوره ومفاســده إلى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج شـفاف لا يكتم ما وراءه .

■ ■ ■

في ذلك الإقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم ، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة به ، ولا من الحياة غير ألسنة تهتف به في صباحها ومسائها ، وبكورها وأصائلها بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرها ، ويسدد خطاها ، وييسر لها السبيل إلى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ ، يريد أن يسلبها ما أبقت الأيام في يدها ؛ وما أبقت في يدها سوى لقيمات غير سائغة ، وجرعات غير هنيئة ، وظل غير ظليل .

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس ، إنهم عاجزون عن أن يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل أشلاء مبعثرة تحت كل كوكب ، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء .

وارحمتاه لهم ، إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثًا ، ويستصرخون فلا يسمعون مجيبًا ، وقد تقطعت بهم الأسباب ، وأعوزتهم الوسائل ، وسدَّت في وجوههم السبل ، فلا يبقى لهم منها إلا سبيل الموت ، وفي الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها ، لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم أرامل ضعفاء ، وأيتامًا صغارًا ، وشيوخًا كبارًا ، لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر في صدره من نعيم أو شقاء .

كأني أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية ، فأبوا إلا أن يزحفوا إلى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم أن باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدرتها ، فتجردت من أثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها ، وكأني أرى الرجل منهم ، وقد دخل إلى بيته ليعدّ عدّته ، ويودع أهله الوداع الأخير ، فبكت أمه وناحت زوجه وصاح ولده ، فبكى لبكائهم ، ورن لرنينهم ، لا جزعًا من الفراق ، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى ، ولا خشية من الموت ، لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يضن بها صاحبها ، بل مخافة أن تستبد بأعراض بيته وحرماته ، تلك الأيدي الظالمة التي لا ترحم صغيراً ، ولا تعطف على كبير ،أو أن يهلكوا من بعده جوعًا وفقرًا ، لأنه لم يترك لهم قوتًا يتبلغون به ، ولا عمادًا يعتمدون عليه ، فإذا علم أن موقفه بين أهله موقف جلل يكاد يغلب فيه على صبره ، نظر نظرة في السماء أرسل فيها إلى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين ، وأمل ورجاء ، ثم انفتل من بين أيديهم ، ومضى لسبيله لا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يبلغ ساحة الحرب ، فلا يزال يقرع باب الحياة الأخرى حتى يفتح له .

هنالك تنوح النائحات ، وتبكي الباكيات ، وتطير النفوس ، وتصـــعق القلوب ، وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد ، وهنالك ترى المرأة المســـلمة المخبأة التي لم تر في حياتها وجه الشـــمس إلا من كوة بيتها : برزة الوجه ، عارية الرأس حيرى مولهة هائمة في الطرق والمذاهب ، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها ، فإما بقيت في حيرتها بياض يومها وســـواد ليلها ، وإما عادت إلى بيتها بالثقل القاتل ، والحزن الدائم ، وهنالك ترى الشـيوخ الكبار والأطفال الصـغار ، والعاجزين والضـعفاء لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون أن يتقوا بها صواعق الحرب و شهبها ، فلا تقيهم ، أو عاندين بالمضايق والشعاب يفرون إليها من وجوه الخيل و سنابكها فلا تحميهم ، وهناك ترى أولئك القوم الذين يسمون أنفسهم مجاهدين ، أو فاتحين ، أو قوَّادًا عظامًا ، أو سواسًا كبارًا ، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرح المختال ، وينظرون إلى أولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم ، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم ، نظر السيد إلى مولاه الذي ملك ولاءه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رموا إليهم في تلك السـاعة بلقيمات كتلك التي يلقيها سـيد الكلب إلى كلبه ، أو الراعي إلى ماشـيته ، ليشـهدوا العالم الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الأوصال ، ولا أيموا النساء ، ولا يتموا الأطفال ، ولا انتهكوا الحرمات إلا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشأنها .

لا أحســب أن مســلمًا دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحســانًا ، وعطفًا وحنانًا ، يسـتطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعًا ، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قرارًا ، حزنًا على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون ناصرًا يعينهم على أمرهم ، أو منجدًا يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أممًا إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفســـها ، فأحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسـلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يسـتعينون به على جهاد عدوّهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعًا من بعدهم .

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفًا هو أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رحمته وإحســـانه ، وأجلب لمغفرته ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزلهم ، تعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده .

إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا إلى أنفسكم ، وإن تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم ، فإن بينكم وبينهم لحمة أقوى من لحمة النسب ، ووشيجة أوثق من وشيجة القربى ، وإنكم جميعًا تصلون إلى قبلة واحدة ، وتهتفون في الغداة والعشي بذكر واحد ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم إلى إله واحد ، وتقفون في بيت الله بين حرمه والمقام موقفًا واحدًا .

أيها المسلمون :

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غدًا ، وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبدًا ، وإنكم إن قدمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم ، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته ، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

■ ■ ■

## خطبة الحرب

يا أبطال برقة ، وليوث طرابلس ، وحماة الثغور ، وذادة المعاقل والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء ، فاستنيروا بنورها ، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم .

إن الله وعدكم النصر ، ووعدتموه الصبر ، فأنجزوا وعدكم ينجز لكم وعده .

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار ، فوالله إن فررتم لا تفرون إلا عن عرض لا يجد له حاميًا ، وشرف لا يجد له زائدًا ، ودين يشكو إلى الله قومًا أضاعوه ، وأنصارًا خذلوه .

إنكم لا تحاربون رجالاً أ شداء بل أ شباحًا تتراءى في ظلال الأ ساطيل ، وخيالات تلوذ بأكناف الأ سوار والجدران ، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها ، فلا يجدون لبنادقهم كفًا ولا لأسيافهم ساعدًا .

إنهم يطلبون الحياة ، وأنتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوت ، وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم ، وتطلبون جنة عرضها السموات والأرض ، فلا تجزعوا من لقائهم ، فالموت لا يكون مر المذاق في أفواه المؤمنين .

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعدله ورحمته فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ، ويكلكم إلى أنفسكم ، وأنتم من القوم الصادقين .

إن هذه القطرات من الدماء التي تسيل من أجسامكم ستستحيل غدًا إلى شهب نارية حمراء تهوي فوق رؤوس أعدائكم فتحرقهم وإن هذه الأنات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم ، والله سميع الدعاء .

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم ، وبقروا بطون نسائكم ، وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلاء فساقوهم إلى حفائر الموت سوقًا ، فماذا تنتظرون بأنفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم وأ صدقوا حملتكم عليهم ، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء ، وأزعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم ومنامهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين !

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبورًا ، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا يكون حفرة من حفر النار .

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الواسطة بين الطرفين ، ولا العيش الذي هو الموت أشبه منه بالحياة ، بل اطلبوا إما الحياة أبدًا ، وإما الموت أبدًا .

غدًا ينتهك أعداؤكم حرمة أرضــكم ودياركم ؛ ويملكون عليكم نســاءكم وأولادكم ؛ ويطأون بحوافر خيولهم مســاجدكم ومعابدكم ، وينظمون في ثقوب آنافكم مقاود يقودونكم بها إلى مواقف الذل والهوان ؛ كما تقاد الإبل المخشومة إلى معاطنها ؛ فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته ، فموتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليل ولامات كريم .

إن هذه الأسـاطيل الرابضـة على شـواطئكم ، والمدافع الفاغرة أفواهها إليكم والبنادق المسـددة إلى صـدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتألف منها سـور منيع يعترض سـبيلكم في رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار ؛ فسيروا في طريقكم إلى آخرتكم ، فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت .

المستميت لا يموت ، والمستقتل لا يقتل ، ومن يهلك في الإدبار أكثر ممن يهلك في الإقدام ، فإن كنتم لابد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغي الموت .

إن كتّاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسنات أو سيئات ، فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام .

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غدًا أذلاء .

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتنشدوه فيعجزكم .

موتوا اليوم شــهداء في ســاحة الحرب تكفنكم ثيابكم ، وتغســلكم دماؤكم وتصــلي عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله إليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلمًا يصلي عليه صلاة الجنازة ثم يمشي وراء نعشه إلى قبره حتى يودعه حفرته ، ويخلي بينه وبين ربه .

إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالدًا وعليًا ، والأسدين حمزة والزبير ، والفاتحين سعدًا وأبا عبيدة ، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة الإســلام وذادته ، من الســابقين الأولين والمجاهدين الصابرين ، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء ، لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي

تركوه في أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وإنا على آثاركم لمهتدون .

إن هذا اليوم له ما بعده ، فلا تســـلموا أعناقكم إلى أعدائكم ، فإنكم إن فعلتم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا .

■ ■ ■

## الإنسانية العامة

الجامعة الإنسـانية هي الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنسـاني كلما أزمته أزمة أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي تشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه ، وتكشف غماءه ، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها ، ويدب دبيب العداوة والبغضـاء بين أحيائها ، وهي السـلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله ، فتخر له الجباه سجدًا ، وتبتدر يديه الأفواه لثمًا وتقبيلاً .

الجامعة الإنسـانية هي الجامعة الأسـاسـية الثابتة التي رأت آدم أولاً ، وسـترى نفخة إسرافيل آخرًا والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره وسهله وحزنه وحياته وموته ، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره وصـلاحه وفسـاده ، واسـتقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها ولا تسـتحيل مادتها ، ولا تبلى جدتها على كر الليالي ومر الأيام .

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية إلا وهي تعتمد على الجامعة الإنسـانية في سـيرها وتسـتظل بظلها ، وتهتدي بهديها ، فالمجاهد الوطني يقول : إني أدافع عن وطني ، وأحمي حوزته ، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد المناضـل ، لأني أعتقد أني أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنو بمثل ما أنا ممنو به في وطني تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية ؛ فجرى سـيلها متدفعًا لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه ، والمجاهد الديني يقول : إني أعتقد أن الإنسـانية لا تزال معذبة يأكل قويها ضعيفها ، ويغتال كبيرها صغيرها ؛ ويستضعف حاكمها محكومها ؟ حتى تدين بالدين الذي أدين به ، فأنا إن حاربت البلاد ، وقاتلت العباد ، فإنما أريد بخوض هذا البحر الأحمر من الدماء أن أصل إلى سفينة الإنسانية المشرفة على الغرق فأستخلصها من يد الموت الذي يحيط بها .

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن ، ودعاة كل جامعة ، وهكذا يجب أن يقولوا ، فإن لم يفعلوا ، وأبوا إلا أن يغفلوا ذكر الجامعة الإنسانية في دعائهم إلى جامعاتهم التي يدعون إليها فسد عليهم أمرهم في كل ما يقولون وما يفعلون .

ليس لصـاحب وطن من الأوطان ، أو صـاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسـكن وطنًا غير وطنه ، أو يدين بدين غير دينه : أنا غيرك ، فيجب أن أكون عدوك ، لأن الإنسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيريـة ، ولأن هـذه الفروق التي توجـد بين النـاس في آرائهم ومـذاهبهم ، ومواطن إقـامتهم وألوان أجسادهم ، وأطوالهم وأعراضهم إنما هي اعتبارات ومصطلحات ، أو مصادفات واتفاقات ، تعرض

لجوهر الإنسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه ،وتتوارد عليه توارد الأعراض على الأجسام ، ففي كل بلد ، وفي كل عصر يستعجم العربي ويستعرب الأعجمي ، ويسلم المسيحي ويتمسح المسلم ، ويلحد المؤمن . ويؤمن الجاحد ، ويستشرق المغربي ، ويستغرب المشرقي ، ولو شئت أن أقول لقلت إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ، ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه ، ودين غير دينه ، وأمة غير أمته .

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره من الأقاليم ، جاز لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد ، بل جاز لكل بيت أن ينظر تلك النظرة الشزراء إلى البيت الذي يجاوره ، بل جاز للأب أن يقول لولده ، وللولد أن يقول لأبيه : إليك عني ، لا تمد عينيك إلى شيء مما في يدي ، ولا تطمع أن أوثرك على نفسي بشيء مما اختصصتها به ، لأنني غيرك ، فيجب أن أكون عدوك المحارب لك ، وهناك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة ، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنق عيشه ، ويطيل سهده ، ويقلق مضجعه ويحبب إليه صورة الموت ، ويبغض إليه وجه الحياة ، وهنالك يصبح الإنسان أشبه شيء بذلك الإنسان الأول في وحشته وانفراده ، يقلب وجهه في آفاق السماء ، وينبش بيديه طبقات الأرض فلا يجد له في الوحشة مؤنسًا ، ولا على الهموم معينًا .

الجامعة الإنسانية أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان ، وأعلقها بفؤاده ، وألصقها بنفسه ، لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف - وإن كان ذلك المصاب تاريخًا من التواريخ أو أسطورة من الأساطير ، ولأنه لا يرى غريقًا يتخبط في الماء ، أو حريقًا يتلظى في النار ، حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله ، فيقف وقفة الحزين المتلهف إن كان ضعيفًا ، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل إن كان قويًا ، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية ، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها ، ولولا أن ستارًا من الجهل والعصبية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء السذج ، لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين .

لا بأس بالفكرة الوطنية ، ولا بأس بالحمية الدينية ، ولا بأس بالعصبية لهما ، والذود عنهما ، ولكن يجب أن يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها ، أي أن تكون دوائر الجامعات كلها داخلة في دائرة الإنسانية العامة غير خارجة عنها ، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية ، فإذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة ، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها ، فإذا هو شعبة من شعب الجنون .

فإن كان لابد للإنســان من أن يحارب أخاه أو يقاتله ، فليحاربه مدافعًا لا مهاجمًا ، وليقاتله مؤدبًا لا منتقمًا ، وليكن موقفه أمامه في جميع ذلك موقف العادل المنصـف ، والشـفيق الرحيم ، فيدفنه قتيلاً ، ويعالجه جريحًا ، ويكرمه أسيرًا ، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده ، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

إذا احتربت يومًا ففاضـــت دماؤها تذكرت القربى ففاضـــت دموعها

■ ■ ■

## أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة النقية البيضاء ، لا تعبث الحضارة بجمالها ، ولا تعبث المدنية في صورتها ، شمسها في آفاقها ، فتنبسط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها ، من حيث لا يعترض سبيلها من الظل سحب ، ولا من السقوف حجب ، وينبت نباتها حيث يجري ماؤها ، لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير ، ولا تقويس ولا تعريج ، ويجري ماؤها في سبيله حيث ينساب به تسلسله واطراده ، ولا تلوي به عن قصده الحفائر ، ولا تنتصب في وجهه القناطر ، ويهيم وحشها في جبالها .. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرين موصود .. ولا الآخر قفص محدود ، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وفطرتها .

ينطق العربي بما يعلم .. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدث عما تمثل في نفسه حديثًا صادقًا لا تكلف فيه ولا تعمل .. لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء وأرض وسماء .. وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات على الفطرة السليمة الخاصة ، فأحرى أن يكون شعره كذلك .

ذلك كان شأن الشعر العربي والعرب على فطرتهم . وذلك معنى قولهم : الشعر ديوان العرب ، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية ؛ ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية ؛ فإن ظن ظان أن التماثيل والنصب والصور والتهاويل ، وبقايا الآثار ، وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان ، والفينيقيين والفراعنة ؛ أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب قلنا له : ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته ؛ أما الديوان العربي فصورة صحيحة وآية ثابتة ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس ؛ فانتقلت الأمة العربية من بداوتها إلى حضارتها . وهاجر معها شعرها بهجرتها . فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان : بشار ، وأبو نواس ، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة ؛ فقلنا لا بأس ، فالشعر العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته وضرورتها ، في جميع شؤونها وحالاتها ، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعة اللفظية ، فسلك إلى كثير من معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المتكلف ، فثغر في الشعر العربي ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صيروها فوهة واسعة لا تمنع ما وراءها ولا تدفع ما أمامها ، فأصبح الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج والورّاق وأبي الحسن الجزار والصفي الحلي وأمثالهم ، أشبه شيء بتلك الآنية الصينية التي

يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهرًا زاهيًا ، وبطنًا خاويًا ، لا تشفي غلة ، ولا تبض بقطرة ، ولا تســمن ولا تغني من جوع ، ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه المنزلة ، فجاءوا بشيء هو أشبه الأشياء بتلك التفاعيل التي وضعها الخليل ميزانًا للشعر ، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها .

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل ، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل ، حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان ر سلاً في هذا العهد الأخير أخذوا بيده ، ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم ، أجسام امرئ القيس ، والنابغة ، ومسلم ، وأبي نواس ، وأبي عبادة ، والشريف ، ومهيار لا فرق بينهم وبينهم سوى أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترعون الأركان .

■ ■ ■

## حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيع أن أتصوّر الفرق بين رجل يمد يده إلى خزانة بيتي فيسرق مالي ، وبين آخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه ، كلاهما مجرم فاتك ، وكلاهما لص مغتال ، وإن كان أولهما في نظر القانون وفي عرف الناس أكبرهما إثمًا ، وأسوأهما أثرًا .

المال خادم من خدام الشرف ، وحاجب من حجابه والوقوف على بابه ، ولولا مكان الشرف ، والكلف بصيانته ، والضن به أن يعبث بجوهره عابث ، ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من أن يقيم به صلبه . ويمسك به حوباءه ، فإن كان سارق المال مجرمًا من حيث كونه هاتكًا لذلك الحجاب المسبل دون الشرف ، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه أن يكون رأس الجانين وأكبر المجرمين .

يكون للرجل - من الصحفيين مثلاً - عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم مأرب من المآرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقًا ولا يمت إليها بسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة ، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات ، يصيب به مقتلاً من شرفه وكرامته ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته يلف عثنونها على يده ثم يقوده بها إلى حيث شاء كما تقاد السائمة إلى مصرعها .

يحب الرجل المجد حبًا يملأ ما بين جوانحه ، ويكلف به حتى يصبح آثر عنده من نفسه التي بين جنبيه ، ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد ليله يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه ، وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب في حمأتها ، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حربًا عوانًا يحمل في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر ، حتى إذا أمكنه المقدار منه وبدأ ينهل أول نهلة من مورده البارد العذب ، رآها ممزوجة بذلك العلقم المر الذي صبه له في إنائه ذلك المجرم الأثيم .

إن بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها «إدارات» قومًا مفاليك قد دارت عليهم الأيام دورتها ، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ، ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم . فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو أن الله أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة ، فلم يجدوا بين أيديهم منفذًا ينفذون منه إلى القوت ، فتحوا حوانيت للاتجار بأعراض الناس وكرامتهم سموها صحفًا ، وأكثر مشتملاتها أعراض الأشراف والعظماء وأرباب الجد والعمل ، الذين سبقوهم إلى فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم ، يتأكلون غيظًا لحرمانهم مما

أفاض الله عليهم . فهم إن فتشت عنهم ، وكشفت عن دخائل نفوسهم ، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل الملوك والأمراء ، وأستغفر الله ، فللفوضويين رأي في تلك الجرائم يرونه ، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون وهم مقفرو الأيدي من الزاد .

ولقد يكون خطبهم سهلاً ومصابهم محتملاً ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البينة ، ولكنهم مراؤون مخادعون ، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية أو الأدبية ، ووالله ما بهم من أدب ولا دين ، ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محددون ، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغًا ، وضاقت بهم الأرض الفضاء على رحبها ، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء ، وتنغيص لذة السعداء .. ويطلبون قوتهم فيما بين هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيع أن تفرق بين الكاتب الذي يكتب ليقوّم معوجًا ، أو يصلح مختلاً ، أو يرفع بدعة باطلة ، أو يكشف عن حقيقة خافية ، وبين الآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس ، لا يفارقه حتى تفارقها ، والذي لا يلذه شرب الماء إلا ممزوجًا بدم . والله ما أدري ما الذي أقامهم هذا المقام وعهد إليهم هذا العهد ، ومن الذي وكل إليهم النظر في شؤون الناس والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الأتقياء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلة حسنة في منازلهم ، فيكونوا قدوة صالحة في أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم ، ونستن بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين فنتعبد بإجلالهم وإعظامهم ، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه ، أو التاجر في حانوته ، أو العالم في معلمه ، فيصلح أن يكون حكمًا في قضايا الأشراف والنبلاء ، وميزانًا لحسناتهم وسيئاتهم . وعنيد أن لو جمعت عيوب الناس جميعها في كفة ميزان ، ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس ، وهتك الأعراض ، واتهام الأبرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلت كفتهم أمام كفة الذين يزعمون أنهم يقوّمون معوجهم ويثقفون منآدهم ، ويصلحون ما فسد من شؤونهم .

ما أنس لا أنسى رجلاً كان خير من لقيت من الرجال ، وكان يعجبني منه أدبه وفضله ، وعفته وحياؤه ، وشرف نفسه ، وطهارة قلبه ، وأنه كان صبورًا محتملاً تقرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية ، كما ترتد الكرة عن الحائط إذا قرعتها .

كان فقيرًا لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيم صلبه ، ويمسك حوباءه ويستر سوأته ، فزوجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دمامتها ، وسوء خلقها ، وجفاء طبعها ، ممن يطمع مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه ، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه ، لأنه كان برًّا به ، مطيعًا له ، نازلاً عند أمره ونهيه ، وعن مجافاة زوجه ، وإطراحها والانقباض عنها ، لأنه كان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، رفيقًا بالضعفاء والعاجزين ، فتزوجها وفي نفسه من المضض والألم ما يلهب الجوانح ، ويذيب لفائف القلوب .

وأذكر أني على طول عشرتي له ، ولصوق نفسي بنفسه ، ما سمعته يشكو إليَّ يومًا من الأيام ما كان يعالجه من سوء عشرتها ، ويكابده من شرورها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته . وإيثارًا لفضيلة الصبر والجلد ، وسكونًا إلى ما جرت به الأقلام في ألواح المقادير . فكنت أرحم صمته وسكونه ، وأرثي لجمود عينيه عن البكاء ، لأني أعلم أن نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها ، ولا يهدأ اعتلاجها ، إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات . وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأطايبها ؛ أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين إلى أحد أصدقائه في الريف فيقضي عنده يومين أو ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح قبل انحدارها إلى مغربها ثم لا تلبث أن تتلاشى ، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول ، لا يحزن فيبكي ، ولا يفرح فيبتسم ، حتى يخيل للناظر إليه أنه يعيش في عالم غير هذا العالم ، ولا يظلله ليل ولا يضيئه نهار .

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أني أجهله فأكاتمه ذلك العلم جهدي رفقًا به وإشفاقًا عليه ، حتى زرته في منزله ذات يوم فرأيته جاثمًا في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد أطرق إطراقًا طويلاً ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولي حتى أخذت مكاني ، فرفع رأسه فأدهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه ، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر إليّ نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال :

- أتعتقد أن الله موجود؟ قلت : نعم - معالجًا نفسيـ على كتمان ما كان يذهب بلبي من تنكر حاله ،وتغير أطواره .

قال : وتعتقد أنه عادل؟ قلت : نعم .

قال : وراحم؟ قلت : نعم .

فبسط يده إليّ فعل الضارع المستصرخ وقال :

- هل لك أن تحدثني أيها الصـــديق عن نزول الصـــواعق ، وثورة البراكين ، وطغيان البحار ، وغرق السفن ، وانتشار الأوباء ، وفتك الأداء ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء ، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والأحزان؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة ؟

قلت : نعم ، إن الله يمتحن عباده ليعلم الذين صـــبروا فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها .

قال : إن الله أكرم من أن يجعل الشرـ طريقًا إلى الخير ، وألا يحســـن إلى عباده إلا بعد أن يســـلبهم الإساءة .

قلت : ذلك ما كتب على نفسه أن يحازي كل عامل بعمله . إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

قال : إنه كتب على نفسه الرحمة .

قلت : نعم ، إنه أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء .

قال : حدثني عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شر ، ولم يتسرب إلى قلبه كيد ، مالي أراه مفترشًا حجر أمه وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل جمر الغضىـــ مما يســـاوره من الآلام؟ فينتفض تارة ويختلع أخرى ، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع ، وتحول بين العين وبين الدموع؟ ومالي أرى أمه باكية مولهة ، ذاهلة اللب موجعة القلب ، تفزع لفزعاته ، وتصرخ لصرخاته وقد اختبل عقلها والتاث أمرها ، وعظم يأسها ، وفنيت حيلتها وقلّ مساعدها وضعف ناصرها ، فأنشأت تقلب وجهها في السماء ضارعة إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها ، وبينا هي تنتظر صوت الإجابة يرن في آفاق السماء ، إذا بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها ، وإذا به ينزع نزعًا مؤلمًا يطير باللب ، ويذهب

ببقية الصبر ، حتى تفيض نفسه ، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة ؟

قلت : وما يدريك لعل الله أراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم أنه سـيلقى فيها مثلما تلقى أنت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الأليم؟

فنالت هذه الكلمة من نفسـه ، وجمد أمامها جمودًا طويلاً ، ثم قال : أحسـنت أيها الصـديق ، ليت الذين يشـقون في هذه الحياة يشـعرون بصـغر هذه الدنيا ، وحقارة شـأنها ، فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم ولم يكتب لهم سـطر واحد في الوجود ، وبعد فهل لك في سـفرة معي إلى ذلك الصـديق الريفي نقضي عنده يومًا واحدًا ثم نعود؟ على أن تكون معي كما كان موسى مع الخضر ، لا تسـألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا؟

فوافيت رغبته ، وقبلت شرطه ثم قام وقمت ، ولو أنني ملكت في هذه اللحظة الدنيا بحذافيرها لوهبتها لمن يكشـف لي سر صـديقي ويدلني على مكان نكبته التي زعزعت نفسـه ، وصـهرت قلبه ، وملكت عليه لبه ، وكادت تعبث بيقينه ، وما هي إلا سـاعات حتى بلغنا المنزل الذي أردناه ، وقد أظل الليل بجناحيه ، فقضـينا واجب التحية والسـلام ، ثم خلا الصـديق بصـديقه خلوة طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهم ، ثم خرجا إلي فجلسـنا سـاعة نتحدث . ثم قمنا إلى فراشـنا فنمت نومًا متقطعًا مملوءً بالوساوس والهواجس ، فما انتصف الليل حتى شعرت أن صديقي يتحرك في فراشه ، ويطيل النظر إليّ ليعلم أنائم أنا أم مستيقظ؟ فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاسًا حتى وصل إلى المشـجب فلبس أثوابه ، ثم تسـلل من الغرفة فخفق قلبي خفقة الرعب والفزع وقلت : لابد أن الرجل يريد بنفسه شرًا وأنا أكون ألأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء ، فقمت على أثره أتتبع خطواته ، وأسـير وراءه من مدرجة إلى أخرى ؛ حتى بلغ مقبرة البلد ، فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التي جثمت في أمكنتها جثوم الآبال في معاطنها ، ثم مشى يتصـفح القبور قبراً قبراً ، فخيل إلي أنه شبح من أشباح الموتى يهيم في أرجاء تلك المقبرة الموحشة ، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لسـاني لولا إجلالي لهذا الموقف الرهيب ، وشـعوري أنني واقف على أبواب تلك الدور التي سـلب خوفها العاقلين عقولهم ، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم ، ونغص عليهم ما يتمنون أن يصفوا من طعامهم وشرابهم ، والتي يفد إليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي أهليهم ، وذوي أرحامهم .. ليقدموهم بأنفسهم هدية إلى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من

سـواد عيونهم وبياض ثغورهم ، مراتع ترتع فيها كما تشـاء .. من حيث لا يملك مالك منهم عن نفسـه دفعًا ، ولا يعرف إلى النجاة سبيلا .

مرت بخاطري تلك الذكرى فملكت عليَّ نفسيــ حتى ذهلت عن موقفي ، وأنســـتني الحيرة في أمر نفسيـ الحيرة من أمر صـديقي ، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشـؤون وعجائبها ، ثم اسـتفقت فرأيته جاثيًا أمام قبر من تلك القبور جثيّ العابد بين يدي معبوده ، فدلفت حتى دنوت منه فســمعته يقول :

اللهم إنك تعلم أني ما كفرت نعمتك ، ولا خفرت ذمتك ، ولا هتكت حرمة من حرماتك ، ولا نزلت عند سـخطك وغضـبك ، ولا تبرّمت بقضـائك وقدرك ، وإنك أحسـنت إليّ بتلك الطفلة إحسـانًا عظيمًا لأنك أنقذت بها حياتي من همومها وآلامها ، ثم لم تلبث أن سلبتنيها و شيكًا أهنأ ما كنت بها وأرجى ما كنت إلى قضاء ساعات العمر بجانبها ، فاغفر لي جزعي وحزني فكثير عليّ أن لا أجزع ولا أحزن .

لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسـموات ، وكأنما اسـتحالت في نظري حقائق الأشـياء ، فأصـبحت لا أرى في النجمة لألاءها ، ولا في الزهرة جمالها ، ولا في السماء صفاءها ، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى إذا ذهبت ذهب بذهابها كل شيء؟

لقد ذهبت بي الأيام فيما مضىـ كل مذهب ، وجرعتني من كؤوس الشـقاء جرعًا ما احتمل فيم قبل فمي مرارتها ، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي حينما أســدت إليّ تلك اليد التي أنســـتني جميع هموم الحياة وآلامها .. وأما اليوم وقد صــفرت منها يدي ، وأقفر بفراقها ربعي .. وحالت تلك الصــفائح بيني وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى .

من لي بضرــبة من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي جملة واحدة ، فلا أعود أذكر أيام حياتها معي ومقعدها بجانبي ، وصـوتها الرقيق ، وحديثها العذب ، وصـفاء عينيها ، ورونق وجهها ، وصـورة قومتها وجيئتها وذهوبها وضـحكها وبكائها ويقظتها ومنامها ، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي ، فإني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال إلى أفلاذ صغيرة تتطاير في أجواز الفضاء .

اللهم إني أعلم أن الدنيا ليسـت بدار قرار ، فلا أمل في البقاء فيها ، والركون إليها ، والاسـتمتاع بلذة العيش فيها ، وإنها الجسر الذي يمر به الأحياء إلى دارهم الأخرى ، وكل ما كنت أطمع فيه منها أن يكون لي كما للناس جميعًا رفيق يعينني على قطع تلك الشــقة البعيدة ، ويهوّن علي آلام وحشــتها وكآبتها ، فحرمتني ذلك الرفيق المعين . فكيف أسير ، وأين أعيش؟

اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ويطفئ بها المحزونون لواعج قلوبهم ، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في القدر المحكمة الغطاء ، فامتن علي بدمعة واحدة أطفئ بها غليلي ، ولا أحسب أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك أن تعالج بها نكبات المنكوبين ، وبؤس البائسين .

اللهم لا ريبة في عدلك ، ولا ظنة في كرمك ، ولا اعتراض على قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحنتك ، خرج أمر نفسي من يدي ، وأصبحت لا أستطيع أن أبصر ما بين يدي ، فاغفر لي سقطي وزللي .

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة ، فلا تمنعني حظي من الموت ، فاسترد إليك عاريتك التي أعرتنيها فقد عجزت عن حملها ؛ وضقت ذرعًا بأمرها ؛ إنك بعبادك رءوف رحيم .

وما أتم كلمته حتى صاح صيحة عظمى ، ثم سقط على صفائح القبر ، فعلمت أن الرجل قد انفجر ؛ وأن الله قد استرد وديعته إليه ؛ واختار للرجل ما عنده ؛ فذعرت وارتعدت والتفت حولي فإذا صديقه واقف ورائي يشهد المنظر الذي أ شهد ، ويذرف من الدموع أ ضعاف ما أذرف ، فدنونا منه معًا وحركناه فإذا هو ميت ، فنقلناه إلى المنزل ، وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع ، وهنالك قص عليّ ذلك الصديق قصته وكشف لي عن خبيئة أمره فقال : إنه قضى زمنًا طويلاً يشكو إليّ آلام نفسه التي يعالجهم من سوء عشرة زوجه وخشونة طبعها ، وجفاء خلقها ، ثم اقترح علي يومًا من الأيام أن أزوجه من أختي ففعلت رحمة به وإشفاقًا عليه ، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة أو مرتين ، وظل على ذلك عدة سنين ، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهبت بها إلى ربها ؛ وتركت له فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهناءتها ، وكان يختلف إليها كما كان يختلف إلى أمها ، وشغف بها شغفًا بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقول لي إنني أشعر أن حياتنا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة ، وأنا إما أن نعيش معًا ، أو نموت معًا وكأنه ألهم بما سيكون ، فقضى الله أن تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها أكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأمها ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتها إليه بكتاب أرسلته إليه بالأمس ، فجاء وجئت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون .

**دفنت صـديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنته التي قطع جسرـ الحياة الطويل في لحظة واحدة شـوقًا إليها ، ووجدًا عليها ، ثم عدت إلى بلدتي صفر الكف من ذلك الإنسان الذي كنت مالئًا منه يدي ، والذي كنت أجله وأعظمه حيًا ولا أزال أبكيه وأذكره ميتًا ، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد ، والوفاء والكرم عبرة أعتبر بها حتى يجمع الله بيني وبينه .**

**كـفـى حـزنًـا بمـوتـك ثـم إني نفضـــت تراب قبرك من يـديـا**
**وكـانـت في حـيـاتـك لي عـظـات وأنـت ا ليوم أو عظ منـك حيـا**

■ ■ ■

كتب إليّ كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شـــاعرًا ما تكاد تكتب ســـطرًا ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تكاد تنظم بيتًا ، فلم لم تكتب في عهدك الأول ، ولم لم تنظم في عهدك الثاني؟ كأنما ظن عافاه الله أنني أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، أو أهيم في واد غير ذلك الوادي! وهل الشـــعر إلا نثارة من الدر ينظمها الشـاعر إن شـاء شـعرًا ، وينثرها الكاتب إن شـاء نثرًا؟ أو نغمات الموسـيقى يسـمعها السـامع مرة من أفواه البلابل والحمائم ، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر ، أو عالم من عوالم الخيال ، يطير فيه الطائر بقادمتين من عروض وقافية أو خافيتين من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالي شـــاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصـــباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شـــؤونه وأطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا أن غريزة في النفس أن يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحًا عن نفســه ، وتطريبًا لعاطفته ، ما نظم ناظم شــعرًا ولا روى عروضي بحرًا .

ما كان الرجل العربي في مبدإ عهده ينظم الشـعر .. ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضـه ، وما علله وزحافاته؟ ولكنه ســمع أصــوات النواعير وحفيف الأوراق وخرير المياه ، وبكاء الحمائم ، فلذ له صــوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذ له أن يبكي لبكائها وينشــجج لنشــيجها ، وأن يكون صـــداها الحاكي لرناتها ونغماتها ؛ فإذا هو ينظم الـشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة المو سيقية العذبة الخالبة ، ولا من أبحره وضروبه سوى أنها صورة من صوره ، ولون من ألوانه .

ذلك منتهى نظر العربي إلى الشـعر ، وذلك ما دعاه إلى أن يسـمي النبي الذي بعثه الله إليه شـاعرًا ، وهو يعلم أنه ما قـصد في حياته قـصيدة ولا رجز أرجوزة ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفـصلات أبلغ الكلام وأفصـحه وأعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب ، وأملكه للعواطف والمشـاعر ، وأجمعه لصـنوف التـشبيهات البديعة ، والا ستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة ، والكنايات المـستطرفة ، وأمثال تيك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشـعري فشـبه له فسـمى ما سمعه شعرًا وسمى الناطق به شاعرًا ، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

ما كل موزون شعرًا ، وكل ناظم شاعرًا ، فالوزن ملكة تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم والتغني به مقطعًا تقطيعًا يوازن تفاعيله .. فهو نغمة موســـيقية ولحن خاص من ألحان الغناء ، يتمثل في قول الملك الضليل :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

كما يتمثل في قول الخليل :

* فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن *

ويتراءى في أوتار الحلق الناطق كما يتراءى في أوتار العود الصامت .

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان ، ومال النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسناء ، أو الوشي في ثوب الديباج المعلم . فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزري به أنه غير معلم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها أنت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشـأ لها سـوى ما اعتاده على كثير من الناس أمرهما ، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشـعراء وألقت عليهم جميعًا رداءً واحدًا لا يسـتطاع معه التمييز بينهما إلا القليل من الناقدين ، فأصـبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصـيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتًا ، ونتصـفح الديوان ذا المائة قصـيدة فلا نعثر بقصـيدة ، وأصـبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئًا غير شـاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصـوّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعانًا بعد به عن مكانه وضل به عن قصده ، وعندي أن أفضـل تعريف له أنه (تصـوير ناطق) لأن قاعدة الشـعر المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر ، وسر ذلك أن الشـاعر يتمكن ببراعة أسـلوبه ، وقوة خياله ، ودقة مسـلكه ، وسـعة حيلته ، من رفع ذلك السـتار المسـبل بينه وبين السـامع ، فيريه نفسـه على حقيقتها حتى يكاد يلمسـها ببنانه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ، ويضحك لضحكه ، ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ، ويطير معه في ذلك الفضـاء الواسـع من الخيال ، فيرى الطبيعة بأرضـها وسـمائها ، وشـموسـها وأقمارها ، ورياضـها وأزهارها ، وسـهولها وجبالها ، وصـادحها وباغمها وناطقها وصـامتها ، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدمًا ، أو يلاقي في سبيله نصبًا ، فإن سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ، ويأذن للنسيم
يروع حصاة حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

خيل إليه أنه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره ، خطر أن النسيم بين ظلاله وأشجاره ، وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحات ، وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء . فتولهن وفزعهن إلى جوانب عقودهن يلمسنها بأطراف بنانهن ، يحسبن أن قد وهت فانتثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض .

وإن سمع قول الآخر :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
حبست بها صحبي وجمعت شملهم وأني على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثًا ويومًا له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس
فللراح ما زرّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

تمثل له كأنه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون ويقرعون الكؤوس بأمثالها ، فاقترب منها وأطل من خصاص بابها ، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قد تكاملت سنه ، وشيب الدهر فوديه ففصدوه فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشًا فارسية قد صورت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين أيديهم ، ورآهم يملأون الكؤوس خمرًا إلى ما يوازي أعناق أولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء إلى ما يغطي رؤوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطًا بمجتمعهم ، وبما هيئ لهم من الهناءة والنعمة فيه ، ثم مر بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرة من أهلها لا تسمع بها

نغمة ولا نأمة فدخلها فلم ير فيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها .. مبعثرة في جوانبها .. وخطوطًا كانت رســـمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوّها ورواحها بين أولئك الندماء فانصرـف حزينًا مكتئبًا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها فيردد قول القائل :

رب ركـب قـد أنـاخـوا حـولـنـا　　　يشـــبون الخمر بـالماء الزلال
عصـــف الـدهر بهم فـانقرضـــوا　　　وكـذاك الـدهر حـالاً بعـد حـال

وإن سمع قول الآخر :

ويـوم كـتـنـور الإمـاء ســـجـرنـه　　　وأوقدن فيه الجزل حتى تضرـما
رميت بنفسيــ في أجيج ســـمومه　　　وبـالعيس حتى بض منخرهـا دمـا

شـــعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه فيشـــيح عنه فرارًا من لفحاته ويكاد يبكي رحمة بذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله ، وحالت بينه وبين نفسه ، فلا هو بصابر إن رام صبراً ، ولا بناجٍ إن أراد نجاء .

وإن سمع قول الآخر :

وارحمتـا للغريـب في البلـد النـا　　　زح ، مـاذا بنفســـه صـــنعـا؟
فـارق أحـبـابـه فـما انـتـفـعـوا　　　بـالعيش من بعـده ولا انتفعـا

هملت عيناه حزنًا على ذلك الغريب الحائر  وتمنى أن لو التقى به في بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته . ثم أخذ بيده فأنزله من بيته منزلاً كريمًا وأبدله أهلاً بأهل ، وجيرانًا بجيران .

وإن سمع قول الآخر :

وإن الـذي بيـنـي وبـين بـنـي أبي　　　وبين بني عمي لمختلف جـدًا
فـإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم　　　وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا
وإن ضـــيعوا غيبي حفظت غيوبهم　　　وإن هم هووْا غيي هويـت لهم
وإن زجـروا طـيراً بـنـحـس تمـرُّ بي　　　زجرت لهم طيراً يمر بهم ســـعـدا
ولا أحمـل الحقـد القـديم عليهم　　　وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جـلّ مـالي إن تتـابع لي غنى　　　وإن قـلَّ مـالي لم أكلفهم رفـدا
وإني لعبد الضـــيف  ما دام  ثاويًا　　　وما شـــيمة لي غيرها تشـــبه العبدا

أكبر تلك المكرمة وأجلها ، ونظر إليها وهي في علياء سمائها ، نظر الفلكي إلى كوكبه الساري ، وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى نفسه فأضاءها .

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ ، فطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة ، فقد نكب الشريد البرامكة عندما دس له أعداؤهم ذلك المغنى الذي غناه هذا الصوت :

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرّة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودّد فيهم ... وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب ط على الحطيئة وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي ﷺ قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة :

أمحمد يا خير ضنء كريمة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرّك لو مننت ، وربما ... من الفتى ، وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة ... وأحقهم ، إن كان عتق ، يعتق
ظللت سيوف بني أبيه تنوشه ، ... لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال - وهو من لا ظنة في عدله ، ولا ريبة في حكمه - : « لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته » .

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر ، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته إلا للشعر ، وللشعر الفضل الأول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال .. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقًا وصامتًا ، أما الناطق فقد عرفته ، وأما الصامت ، فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال : شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصوّر خواطر القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق ، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي : شعر ، وهدير الأمواج : شعر ، لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلام الليل : شعر ، لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف الأوراق : شعر ، لأنه يمثل تناجي العشاق ، وبكاء الحمائم : شعر ، لأنه يمثل فجيعة البين ولوعة الفراق ، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم الطبيعة أخرى ، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة ، وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض حتى أحببناها ، وولعنا بها ، وحرصنا عليها ، وأعددنا العدة للبقاء فيها .. والسكون إليها ، فكتبنا ودونّا وألفنا واخترعنا ، وتعلمنا فعلمنا ، وبنينا فشيدنا ، وغرسنا فجنينا ، وعملنا فربحنا ، واجتهدنا فأثرينا ، وأملنا فسعينا ، وسعينا فبلغنا ، فكان الشعر سر هذه الحياة ، وعلة هذا الوجود ، لا تطير إلينا الحقائق إلا على جناحه ، ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره ، فلنمجد الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شموس الحكمة ، ومطالع كواكب الفضل ، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها ، ثم يتسرب إلى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءة .

■ ■ ■

لم تغتمض عيناي ليلة أمس ، لأنني بت أسـمع في الدار الملاصقة لبيتي أنين امرأة متوجعة ، تعالج همًا ثقيلاً ، وتشكو مرضًا أليمًا ، ويخيل إليّ أني لا أسمع بجانبها معللًا يعللها ، ولا جليسًا يتوجع لها ، فلما أصبح الصباح ذهبت إليها ، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على أكثر من سرير بال يتراءى فوقه شبح مائل من أشباح الموتى ، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها ، وكأنها شعرت بمكاني فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء ، فأسعفتها بها .. فاستفاقت قليلاً ، فوقفت بجانبها أسائلها عن خطبها فأنشأت تقص عليّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كأني أنتزعه من بين ماضغيها انتزاعًا وتقول :

زوجني أبي منذ سنوات من رجل مزواج مطلاق ، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عامًا واحدًا ، ولو كان للفتاة رأي في نفسها من دون رأي أوليائها لعرفت كيف أحسن الاختيار لنفسي ، بل لو لم يكن في الأمر إلا أن أتبتل كما تتبتل الراهبات ، أو أتزوج زواجًا ينتهي بي إلى هذا المصير ، لكان لي في الرهبانية رأي غير ما يراه النساء جميعًا ، ولكنني عجزت فأذعنت ، وحملت إليه فاستقبلني أحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه لديه ، وأكرمهن عليه ، فكان يريبني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الأسد ، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبنى وإنني أصبحت في المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لي إلا طفلتي الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا أملك رده ولا أعرف وجه الحيلة فيه ، واحتملت طفلتي إلى بيت أبي فوجدته مريضًا مشرفًا ، فبكى رحمة بي ، واستغفرني من ذنبه إليّ فغفرته له ، وما هي إلا أيام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعًا برزئي الذي نزل بي ، فعلمت أن الدهر قد سجل عليّ في جريدة الشقاء أيامًا طوالاً لا أعلم متى يكون انقضاؤها ، ولا أدري ما الله صانع فيها ، فظللت أستكتب الناس الكتب إلى ذلك الرجل أسأله القوت ، لأستعين به على تربية طفلته ، أو التسريح عسى أن يبدلني الله خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا ، فضن بالأولى واستعظم الأخرى ، فلم أرَ لي سبيلاً غير سبيل العمل ، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل ، قائمة النهار ، استقطر الرزق من سم الخياط ، فلا أبلغ منه الكفاف .. حتى نال مني الجهد .. فذهبت بمعضلة من الأدواء خرجت لها عن كل ما أملك من حيلة وذخيرة .. وكسوة وآنية ، وأصبحت لا أملك درهمًا أبتاع به قارورة الدواء ، ولا أجد مزقة أمسك بها قوائم هذا السرير المتداعي ، ولم يقنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر بجانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد كتبت إلى ذلك الرجل منذ شهر أصف له حالتي وأفضى إليه بذات نفسي وأسأله أن يمدَّني وابنتي بقليل من القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتها خطوب الأيام

وأرزاؤها من أعظمنا وجلودنا ، ولبثت أترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سـواد السـفينة ، فإني لجالسـة منذ أيام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه إليّ وسـيئاته عندي ، فلا أفرغ من عقد إلا إلى عقد ، ولا أنتهي إلا إلى حيث أبتدئ ، وقد أجلست طفلتي بين يدي أتطلع إلى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلمات بحره إلى نجمة القطب .. إذ هجم عليّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتي من بين يدي من حيث لا أملك دفعًا لما نابني ، ولا أجد ما أذود به عن نفسيـ ، إلا زفرات لا يسمعها سامع ، وعبرات لا يرحمها راحم ، فشعرت كأن سهم الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم ههنا وهنا .. قد أصـاب في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي كما يجب أن تبيت امرأة بائسـة معدمة قد فجعها الدهر بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالها ، فأصـبحت لا تجد أمامها يدًا تنبسـط إليها ، ولا عينًا تبكي عليها ، وقد مر بي على ذلك نيف وعشرـون ليلة لا يرقأ لي دمع ولا يهدأ بي مضـجع ، حتى إذا اختلسـت من يد الظلام نعسـة تراءت لي تلك الفتاة في نومها كأنها صـارخة باكية تهتف باسـمي ، وكأن أباها يو سعها ضربًا وتعذيبًا ،وكأنني أحاول ا ستنقاذها مما هي فيه فلا أجد إليها سبيلاً ، وهأنذا أ شعر أن سحابة الموت تغشى على بصري . وإني مفارقة هذا العالم قبل أن ألقي على ابنتي نظرة أتزود بها منها قبل أن أفارق هذه الدار .

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى جرضت بريقها وتتابعت أنفاسها وشطر بصرها ، فجثوت عند سريرها أدعو الله أن يعينها على أمرها ، ويمدها برحمته وإحسـانه . فإني لذلك ، وقد اسـتغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله . إذ رأيت من خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحًا منتصبًا عند باب الغرفة فتأملته فإذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة . فتقدمت نحوه فرأيته خاشعًا مسـتكينًا ينظر إلى فتاته نظرات الوجد والرحمة ، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضـو ، ولا ينبض بها عرق . فقلت : من أنت وماذا تريد ؟ قال : أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة ، قلت لعلك جئت تستغفرها من ذنبك إليها في التفريق بينها وبين ابنتها ؟ قال : يا سيدي ما زالت الفتاة مذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءً مرًّا ، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها ، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب ، ولا ينجع فيها دواء ، فلما رأيت أن الأمر قد وصـل بها إلى هذا الحد جئت بها إلى أمها أرجو أن تجد بين ذراعيها شـفاء من دائها ، قلت : ذلك موكول إلى القضاء ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملتها برفق حتى وضـعتها بين ذراعي أمها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها والأم بفتاتها ، حتى فاضت نفساهما معًا ، كأنما كانت من الردى على ميعاد !!

***

الآن وقد عدت من دفن الشهيدتين ، وجلست لكتابة هذه السطور ، أشعر أن نفسي تسيل من بين جنبي حزنًا على تلك المرأة المسكينة ، لا بل حزنًا على جميع البائسات من النساء اللواتي يقتلهم الرجال كل يوم صبراً بسيف الطلاق الماضي ، من حيث لا يجدن راحمًا يرحمهن ، ولا ثائرًا يثأر لهن .

■ ■ ■

## الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو :

قومي يا بنية إلى الصلاة ، فقد نزل ستار الليل ، ودب الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب ، وأجرى البدر المنير ليقته الفضية البيضاء ، على صفحة النهر ، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل على أوراق الأشجار ، غبار النهار .

قومي يا بنية إلى الصلاة ، فقد مات النهار ، وماتت بموته الآلام والأحزان والأحقاد والضغان ، والمظالم والمآثم ؛ ولم يبق من تلك الأعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه إلى أبواب السماء .

قومي يا بنية إلى الصلاة ، فقد أوى الناس إلى منازلهم ، والطيور إلى وكناتها ، والوحوش إلى أوجرتها ، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها ، ولم يبق من أصواتها إلا أنين الراحة المتمثل في جعجعة هذه المركبة المقبلة ، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها ، ودمدمة تلك الرياح الضاربة في ذوائب الأشجار ، وأعالي الأبراج .

قومي يا بنية إلى الصلاة ، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الأطفال حول أسرتهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس ، شواخص الأبصار ، يطلبون الراحة من الله تعالى لآبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين ، فترن أصواتهم ، في علياء السماء ، رنين نغمات الموسيقى في أجواز الفضاء فترددها الملائكة طائرين بها إلى عرش الرحمن ، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ؛ ذهبوا إلى مضاجعهم وناموا نومًا هادئًا وقضوا حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ؛ ذهبوا إلى مضاجعهم وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أفواههم الباسمة ، كما تتطاير أسراب النحل حول أحواض الأزهار .

قومي يا بنية إلى الصلاة .. واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الأولى من عالمها ، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريرًا قبل سريرك ومن أحشائها مهادًا قبل مهادك ، والتي قدم لها الدهر كأسي شقائه ونعيمه فشربت الأولى وآثرتك بالأخرى .

اطلبي لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب ، طاهرة النفس ، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها ، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذي يمازج ابتسامات النساء ، وتمد يدها إلى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهي عنها ، وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف

والتهاويل وقفة المتمهل الذي يتهم سـمعه وبصره ، وتنظر إليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم أن السـعادة الكاذبة أمرّ مذاقًا في الأفواه من الشـقاء الصادق ، وأن الذين يضحكون سرورًا بهذه الصـورة الخالية إنما يبكون من حيث لا يشـعرون ، وأن الجالسـين حول مائدة الشـهوات واللذائذ إنما يقامرون بأنفسـهم ولابد أنهم خاسرون فتحول بصرها ، وتشـيح بوجهها ، وتعود أدراجها بقلب غير مخدوع ، وفؤاد غير مصدوع .

اذكري يا بنية أن تطلبي الرحمة لأبيك كما تطلبيها لأمك ، فهو أحوج إليها منها ، ولأن الخطايا قد أثقلت ظهره فأ صبح لا يـستطيع أن يرفع رأ سه إلى الـسماء ؛ وغلت يده فلا يـستطيع أن يمدها إلى الله بالدعاء .

إنني أشعر يا بنيتي جينما أسمع نشيد دعائك أنني أسمع صوت انقسام القيود عن قدمي ، وأن تلك الـسحابة الـسوداء التي تغـشى على عيني تنقـشع عنها قليلاً قليلاً وكأن جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به في أعالى السماء .

اطلبي الرحمة للآباء العائدين إلى منازلهم تحت جنح الظلام بدمع منهلة ، وقلوب واجمة ، بعد أن سـايروا الشـمس من مشرقها إلى مغربها فلم يجدوا ما يمسـحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم .

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسـات حول أسرة أبنائهن المرضى وقد رجفت قلوبهن وحارت أبصـارهن مخافة أن يذقن مرارة الثكل والثكل كثير على قلوب الأمهات .

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشـبع صـندوقه ، والأحمق الذي يبتسـم للمعان الحرير في صدره ، والذهب في أ صابعه ، والملك الذي يـشعل نار الحرب في أمته ، ليطفئ نار غـضبه ، والزوج الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقـضيها خارج بيته ، ويحاسب زوجه على ابتسامة تبسمها لرجل غيره ، وسائر البائسين الذين لا يشعرون ببؤسهم ، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء .

اطلبي الرحمة لأولئك الذين عمروا الأرض وبنوا دورها ، وشادوا قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها ، وأغوارها ، وأنجادها ، فجازتهم سوءً بما عملوا ، وابتلعتهم في أعماق جوفها ، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمة الموحشة التي تختلط فيها الرؤوس بالأقدام ، والنعال بالتيجان ، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث ، انطواء اللجة تحت اللجة في البحر المحيط ، يتألمون وينطقون ، ولا يستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم ، أو يلبي دعاءهم .

اطلبي الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص يستحيل في نظرهم إلى روضة غناء تزهر فوق أجداثهم ، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها ، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم . وتطفئ جذوة الحزن الملتهبة في أحشائهم ، إنهم إلى الرحمة محتاجون وإلى الله راغبون .

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار ، والعصاة ، والطائعين ، والملحدين والمؤمنين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل سابحة في السماء ، ولا تيأسي أن يستجيب الله دعاءك فلكل بداية نهاية ، ولكل سائلة قرار .

كما أن النهر يصب في البحر ، والطائر يقع على الغصن ، والشمس تجري لمستقرها ، والنفس تصعد إلى عالمها ، كذلك أبواب السماء ، مفتحة لخالص الدعاء .

■ ■ ■

## الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسدًا أحدًا على نعمة ، فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره ، لو أن للأوهام سلطانًا على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابًا من دون الله .

أنا لا أغبط الغني إلا في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيته يشبع الجائع ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه ، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها ، ويمسح بيده دمعة البائس ، والمحزون ثم أرثى له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثى له إن رأيته يتربص وقع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل ، وأرثى إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الإنساني فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثى له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء ، وطال بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر بعينه خزرًا ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحًا جعدًا مقترًا على نفسه وعياله ، بغيضًا إلى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه .

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشًا ، وأروحهم بالاً ، إلا إذا كان جاهلاً مخدوعًا يظن أن الغني أسعد منه حظًا ، وأرغد عيشًا ، وأثلج صدرًا فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العبرة فالعبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رب صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالاً وأكثر لألاء من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشية من الشعر أو الوبر أنعم ملمسًا وألين مضجعًا من وسائد الحرير ونضائد الديباج .

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم أغنياء .

وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة أو يسيغ غصة ، وليت شعري إن كان لابد لهم من إجلال المال وإعظامه حيث وجد ، فلِمَ يقبلون أيدي الصيارفة ، ولا ينهضون إجلالاً للكلاب المطوّقة بالذهب ، وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟

لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفســـهم في وحشـــة من أنفســـهم ولشعروا أن بدرات الذهب التي يكنزونها إنما هي أساور ملتفة على أقدامهم ، وأغلال آخذه بأعناقهم ، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في أحمال المال .

فليعظم الناس الكرماء ، وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا أن الشرــف شيء وراء الغنى والفقر ، وأن السعادة أمر وراء الكوخ والقصر .

■ ■ ■

## على سرير الموت

مررت يومًا من الأيام على باب منزل صغير في أحد الأزقة الضيقة ، فرأيت حوله مجمعًا حافلاً تصطك فيه الأقدام بالأقدام ، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس ، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة وسمعت قائلاً يقول : « قبح الله الانتحار » وآخر يقول : « أحسبه شابًا غريبًا لأني لم أرَ عينًا تدمع عليه » فعلمت أن هناك شابًا منتحرًا ، وأن هذا الحادث سبب هذا الاجتماع .

لم أقنع بالإجمال ، فأحببت معرفة التفصيل ، فحاولت الدخول إلى المنزل فما استطعت إلى ذلك سهلاً ، فتريثت حتى لمحت رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فدخلت معه وهنالك رأيت على سرير الموت فتى في نحو العشرين من عمره ، رقيق الجسم أصفر اللون ، لم تستطع يد الموت أن تمحو كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة .

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ، واهتم الطبيب بجثته ليعرف علة موته ، أما أنا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون أفكر في مصيبته ، وأندب شبابه وجماله ، فلمحت حول سريره أوراقًا منثورة فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما أفعل ، علني أجد فيها عبرة من العبر .

وما هي إلا ساعة ، حتى قرر الطبيب أنه منتحر بشرب مادة الزرنيخ وقرر الضابط نقل جثته إلى المستشفى ، فنقلت الجثة ، وانفض الجمع المزدحم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئًا .

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق ، تناول كأس الحب بيده فارتشف منها الرشفة الأولى فوجدها حلوة المذاق ، فألصق الكأس بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعر بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الأخيرة ، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته .

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه ، ثم طويتها وألقيت بها بين أوراقي ، وظلت على ذلك أعوامًا طوالاً .

وبينما أنا أقلب أوراقي ليلة أمس إذ عثرت بها في سفط صغير ، قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه ، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية ، فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي ، وتخيلت أنها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر .

ثم عدت إلى نفسيـ فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها ، فرأيت قلب العاشـق مرسـومًا فيها رسـمًا صحيحًا في حالي سعادته و شقائه ، وهأنذا أنشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل ، سبيل الحب القاتل :

-١-

رأيتها فأحببتها ، وما كنت أعرف الحب من قبلها .

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة ؛ لها من الشمس نورها وجمالها ، وليس لها منها حرارتها ولذعتها .

كنت أشعر قبل اليوم كأن قلبي في صحراء هذه الحياة وحيد موحش لا يعرف القلوب ، أو يعرفها ثم ينكرها ، فلما أحببت رأيت بجانبه قلبًا يؤنسه ويزيل وحشته ، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعًا ما خالطها حزن ولا مسها ألم .

كنت أ سمع با سم السعادة ولا أفهم معناها غير أني كنت أ سمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة ، والفضة والذهب ، والسلطة والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما أحببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير سـعادة الحب ، وأيقنت أن الناس جميعًا إنما يطلبون سـعادة الأجسـام لا سـعادة النفوس ، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديباج ، وباطنه مسرح الدود ومرتع الهوام والحشرات .

-٢-

أحببتها قبل أن أعرف عنها شــأنًا من الشــؤون ســوى أنها تحبني ، فكأنني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحتني قلبها ، وهو ثمن قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت أحدث نفسيــ بها ، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأماني ، ولا سوانح الأحلام .

عشــت دهرًا بين أقوام لا يعنيهم أمري ولا يهمهم شـأني ، وذقت من آلام الحياة وشـقاء العيش ما لا أستطيع أن يحتمله بشر ، فسمعت من يسألني : كيف حالك ؟ ومن يقول لي :

ما أ شد جزعي لمصابك ؟ ومن يتباكى رحمة بي وإشفاقًا عليّ ، ولكني لم أرَ بجانبي يومًا من الأيام عينًا تدمع ، ولا قلبًا يخفق !

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالاً متقن الصنع ، ومن يحب مالي كما يحبه في كيسه أو خزانته ، ومن يعجب بحديثي إعجابه برواية بديعة ، ولكني لم أرَ في حياتي من يحبني !

أما اليوم فقد وجدت بجانبي القلب الذي يخفق لأجلي ، والعين التي تبكي في سبيلي ، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي ، فقليل لها مني أن أمنحها حياتي فكيف أبخل عليها بقلبي !

-٣-

جلست إليها للمرة ألأولى فحدثتني نفسي أن أمد يدي إلى يدها فأضعها على صدري لأطفئ بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرت إليّ نظرة العاتب ، وقالت : كن رجلاً في حبك ، واترك الطفولة لغيرك .

إن كنت تحبني لنفسي فها أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني .. وإن كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك .. وما أصغر نفسك ! .

أتذرف دمعك ، وتسهر ليلك ، وتذيب حبة قلبك ، من أجل عظمة تلمسها أو جلدة تلثمها ؟

أنت شريف في نفسك ، فكن شريفًا في حبك ، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي .

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي وتمنيت أن لو عجل إلى أجلي قبل أن يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني . ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي ، وما عدت من بعدها إلى مثلها .

-٤-

الآن عرفت مبلغ عظمتها ، وفضل هدايتها ، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس ، فهأنذا أشعر كأن نفسي مرآة يغشاها الصدأ ، وكأن الحب صيقل يصقلها فيجلوا صفاتها شيئًا فشيئًا .

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغنًا وحقدًا ، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل ، لأن الحب ملك على قلبي ، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه .

كنت ضيق الصدر إن مسني ألم .. سريع الغضب إن فاتني مأرب .. فأصبحت فسيح رقعة الحلم ، لا يستفزني غضب ، ولا يحرجني محرج لأني قنعت بسعادة الحب ، فلم أحفل بعدها بشيء سواها .

كنت شديد القسوة ، متحجر القلب ، لا أعطف على بائس ، ولا أحنو على ضعيف ، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ، ولا تصيبني ، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون ، لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نورًا .. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب .

وجملة القول أنني كنت وحشًا ضاريًا أعيا العالمين رياضته وتدليله ، فصرت بين يدي الحب الشريف إنسانًا شريفًا ، وملكًا كريمًا .

-٥-

خرجت بها في الليل إلى ضفة النهر ، وكان الماء رائقًا ، والسماء صافية ، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلط علينا الأمر حتى ما نفرق بين الأصل والمرآة ولا ندري أين مكان السماء ، فمشينا طويلاً لا ينبس أحدنا بكلمة وكأن سكون الليل قد سرى إلى أفئدتنا وملأ ما بين جوانحنا ، فأمسكنا عن الحديث هيبة وإجلالاً .

وكنت أشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي ، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل إلىّ أني لو شئت أن أطير لطرت بغير جناح وأن في استطاعتي أن أخترق بنظري حجب السماء وأنفذ إلى الملإ الأعلى فأرى هنالك ما هو محجوب عن نظر الناس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فلا يهتدي إلى مغربه ، وأن يختبئ الليل في بردته فلا يعثر به فجره ، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام .

فالتفت إليها وسألتها : هل تشعر بالسعادة التي أشهر بها ؟

قالت : لا لا ، لأني أعرف من شؤون الأيام وأحوالها غير ما تعرف ولأني لا أنظر إلى الدنيا بالعين التي تنظر بها إليها !

أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة .

إنك سعيد لأنك تظن أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها ، وأنا شقية لأني أتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها .

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء ، وأن تحول بين الأرض ودورتها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك ، والمتحرك أن يسكن ، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها .

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلاً ، فرأيت مدامعها تنحدر على خديها بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون ، فبكت لبكائها ، وقلت لم تبكين ؟ قالت : خوف الفراق ، قلت : فراق الحياة ، أو فراق الموت ؟ قالت : أما فراق الحياة فإنني لا أخافه ، لأنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تحول بيني وبينك ، إنما أخاف فراق الموت ، لأنه الفراق الذي لا حيلة لي فيه .. ولا منتدح عنه ، قلت : هل لك أن نتعاهد على أن نعيش معًا ونموت معًا ، قالت : ذلك ما يهون عليَّ ألمي ، فتعاهدنا ثم رجعنا أدراجنا ، والليل يشمر أذياله للفرار من النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

-٦-

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الإنسان ؟

ألا يستطيع أن يستقيه كأسًا واحدة لا يخالطها كدر ، ولا يمازجها شقاء ؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتًا فلا يذيقه من كأسها قطرة واحدة ما دام يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غدًا ؟

إن الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المتقطعة .

يقولون : إن الأمل حياة الإنسان ، وما قتل الإنسان ومزق شمل حياته إلا الأمل .

ليتني ما سعدت ، لأنني ما شقيت إلا بسعادتي ، وليتني ما أملت لأن اليأس القاتل ما جاءني إلا من طريق الأمل الباطل .

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي ، وأشعةآمالي ، وينبوع سعادتي وهناءتي .

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء ، فمات بموتها كل حي في هذا الوجود .

أرى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، وأرى الطيور صامته لا تغرد والغصون ساكنة لا تتحرك ، وأرى النجوم آفلة ، والأزهار ذابلة والطبيعة واجمة حزينة لا يفتر ثغرها ولا يتلألأ جمالها ، وأرى الدنيا كأنما عادت إلى عهدها الأولى لا يسكنها إنسان ولا يخطر بها حيوان ، وكأنني فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته .

**أيها الدهر الغادر : إن غلبتني عليها فإنك لن تستطيع أن تغلبني عن نفسي ، لك أن تخرج من الدنيا من تشاء ، ولكن ليس لك أن ترد إليها من تخرج منها .**

**ويا أيتها النفس الهائمة في ســـمائها ، لا تجزعي ، ولا تعجلي ، فوالله لأفين بعهدك ولأذهبن عما قليل وحشــتك ليكونن عهدنا في مســتقبلنا كعهدنا في ماضــينا ، فما تعارفنا في العالم الأول إلا بأرواحنا فلنكن كذلك في العالم الثاني .**

■ ■ ■

## غدر المرأة

يقصون في بعض الأساطير القديمة أن حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبًا ملك عليه قلبه وعقله .. وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها ، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطًا باعتلاقه إلى صائد آخر يعتلقه من بعده ، وكان كلما أبث زوجته سرّه وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم ، حنت عليه ، وعللته بمعسول الأماني وأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حيًا وميتًا .. فكان يسكن إلى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد .. ثم لا يلبث أن يعود إلى هواجسه ووساوسه ، حتى مر في بعض روحاته إلى منزله في إحدى الليالي المقمرة بمقبرة المدينة .. فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى ، وكثيرًا ما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقًا الإصغاء إلى حديث المردة والجان ، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة أمام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الأبيض مطرز بأسلاك من الذهب ، تحركها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمرآه .. ثم أنست به حينما عرفته .. فسألها ما شأنها .. وما مقامها ههنا ؟ ومن هذا الدفين ؟ وما هذا الذي تفعل ؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها ، فجلس إليها وتناول المروحة منها ، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها ، وأنه مات منذ ثلاثة أيام ، وأنها جالسة من الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد أقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره ، وأن هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحنث بيمين أقسمتها له .. أو تخيس بما عاهدته عليه ، ثم قالت له : هل لك يا سيدي أن تقبل هذه المروحة هدية مني إليك .. وجزاء لك على حسن صنيعك معي ؟ فتقبلها منها شاكرًا بعد أن هنأها بزواجها الجديد ! ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية ، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدّث نفسه ويقول : إنه أحبها وأحسن إليها ، فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه .. ولا لتتذكر عهده ، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي أقسمتها له ؛ فكأنها وهي جالسة أمام زوجها الأول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها وتصفف طرتها وتلبس حليتها ، للزفاف إلى غيره .

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى مفسره في منزله من حيث لا يشعر ، ورأى زوجه ماثلة أمامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن فقال لها : إن امرأة خائنة غادرة أهدت إليّ هذه المروحة فقبلتها منها إليك .. لأنها أداة من أدوات الغدر والخيانة ، وأنت أولى بها مني ، ثم أنشـــأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها ، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها إربًا إربًا .. وأنشأت تسب تلك المرأة وتشـتمها ، وتنعى عليها غدرها وخيانتها وسـفالتها ودناءتها ، ثم قالت : ألا يزال هذا الوسـواس عالقًا بصدرك ما دمت حيًا ؟ وهل تحسـب أن امرأة في العالم ترضى لنفسـها بما رضيت به لنفسـها تلك المرأة الغادرة ؟ فقال لها : إنك أقســـمت لي ألا تتزوجي من بعدي ، فهل تفين بعهدك ؟ قالت : نعم ، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر إن أنا فعلت ؛ فاطمأن لقسمها وعاد إلى هدوئه وسكونه .

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضًـا شـديدًا ، فعالج نفســه فلم يجد العلاج حتى أشرف على الموت ، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فأذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه ، فأمرت أن يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شـــاء الله أن تفعل ، وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادم وأخبرتها أن فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعوده حينما سـمع بخبر مرضـه ، فلما سـمع حديث موته ذعر ذعرًا شديدًا وخر في مكانه صعقًا وأنه لا يزال صريعًا عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره ، فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى يستفيق ، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها ، فلما مر الهزيع الثاني من الليل دخلت عليها الخادم مرة أخرى مذعورة مرتاعة وهي تقول : رحمتك وإحســـانك يا سيدتي فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذابًا أليمًا وقد حرت في أمره ، وما أحسبه إن نحن أغفلنا أمره إلا هالكًا ، فأهمها الأمر وقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره ، والمصـباح عند رأســه فاقتربت منه ونظرت في وجهه ، فرأت أبدع سـطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، فخيل إليها أن المصـباح الذي أمامها قبس من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير ، وأن أنينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنة ترن في جوف الليل البهيم ، فأنساها الحزن على المريض المشرــف الحزن على الفقيد الهالك ، وعناها أمره فلم تترك وســيلة من وســائل العلاج إلا توسـلت بها إليه حتى اسـتفاق ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشـكر والثناء ، ثم أنشـأ يقص عليها تاريخ حياته ، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعرفه ، فعرفت مسـقط رأسـه وسـيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب في قومه لا أب له ، ولا أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنا أطرقت

برأسها ساعة طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده ؛ وقالت له : إنك قد ثكلت أستاذك وأنا ثكلت زوجي ، فأصبح همنا واحدًا ، فهل لك أن تكون عونًا لي وأن أكون عونًا لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعدًا ولا معينًا ، فألم بخبيئة نفسها فابتسم ابتسامة الحزن والمضض ، وقال لها : من لي يا سيدتي أن أظفر بهذه الأمنية العظمى ، وهذا المرض الذي يساورني ، ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليَّ عيشي ، وأفسد عليَّ حياتي ، و قد أنذرني الطبيب باقتراب ساعة أجلي إن لم تدركني رحمة الله ، فاطلبي سعادتك عند غيري ، فأنت من بنات الحياة ، وأنا من أبناء الموت . فقالت له : إنك ستعيش ، وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحري ، ونحري قال : لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فأنا عالم بدوائي ،وعالم بأني لا أجد السبيل إليه ، قالت : وما دواؤك . قال : حدثني طبيبي أن شفائي في أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء ، فارتعدت وشحب لونها وقالت : كن مطمئنًا فدواؤك لا يعجزني ، ثم أمرته أن يعود إلى راحته وسكونه ، وخرجت من الغرفة متسللة حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها فأخذت منه فأسًا قاطعة ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاسًا حتى وصلت إلى غرفة الميت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريرًا مزعجًا ، فجمدت في مكانها رعبًا وخوفًا ، ثم دارت بعينها حولها فلم ترَ شيئًا فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده ، ولم تكد تهوى بها حتى رأت الميت فاتحًا عينيه ينظر إليها ، فسقط الفأس من يدها ، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف والخادم واقفين يتضاحكان ، ففهمت كل شيء .

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة أجمل من هذه الفأس في يدك ؟ أليست التي تجفف تراب زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ؟ فصارت تنظر إليه نظرًا غريبًا ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها .

■ ■ ■

## الضاد

كان العرب الأولون أحرارًا في لغتهم ، يضـــعون لكل ما يخطر ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط ، ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسـهمنا في الضـاد سـهمهم ، وحقنا فيها حقهم ، فلمَ يضـعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا أوفر عددًا من مرافقهم ، وأوسع فصولاً وأنواعًا ؟

أين باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يعمرها إلا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل ومرابض الشاء ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات ، وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، وأكثرها مستحدث لم تتداوله السنون والأيام ، ولم تعصف به عواصف القرون والأعوام .

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش ، أن تضـيق حاجتهم عن لغتهم ، فيتفكهوا بوضـع خمسـمائة اسم للأسد وأربعمائة للداهية ، وثلثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقة ؟ وتضيق عن حاجاتنا ، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الأدوات التي يضمها المعمل اسمًا عربيًا واحدًا ؟ اللهم إلا القليل التافه من أمثال : المسبر والمبرد ، والمنشار والمسمار ؟

أيكون لسـفينة البر - وهي لا تحمل إلا الرجل ، أو الرجل ورديفة - مائتا اسـم ومائتان من الأسـماء لأعضائها وأوصالها ، ورحلها وكورها .. ولا يكون لسفينة البحر - وهي المدينة المتنقلة في الدأماء - القليل من ذلك الحظ الكثير ؟

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف ، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم ، ويتناشدون ويتساجلون ويتحاورون ويتطارحون ، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم ، ويحكمون لمبرّزهم على مقصرهم ، حكمًا لا يرد ولا يعارض ، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل في تلك البقاع وبعد ما بين قاصـيها ودانيها فكان مطمح أنظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شـتاتهم والرجوع بها إلى لغة قريش التي هي أفصح اللغات وأقربها مأخذًا وأسهلها مساغًا وأحسنها بيانًا .

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن ؟ ونحن إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه ، لأن تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغه في عصرنا بين لغة الأدباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين ، ولغة المترجمين ، ولغات العامة التي لا حصر لها .

إن كان الجاهليون في حاجة إلى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة ، فنحن في حاجة إلى مجتمعات كثيرة : مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به ، ومجتمع دائم لوضع أسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب أو النحت أو الاشتقاق ، وآخر للإشراف على الأساليب العربية المستعملة ، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر ، والوقوف بها عند الحد الملام للعقول والأذهان ، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرّز منهم والمقصر ، إن خيراً فخير وإن شرًا فشر .

■ ■ ■

## سياحة في كتاب

أعجب ما أعجب له من أمر نفسي أني أحب الجمال خيالاً ، أكثر مما أحبه حقيقة ، فيعجبني وصف الروض أكثر مما يعجبني مرآه ولا أطرب لمنظر الفتيات الجميلات طربي لمنظر القصائد الغزليات ، وأحب أن أقرأ وصف المدن الجميلة ، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهولها وبطاحها وأنهارها وجداولها .. وميادينها وتماثيلها ، وأنديتها ، ومجامعها ، ولا يهمني أن أراها ،كأنني أريد أن أستديم لنفسي تلك اللذة الخيالية وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها وأحسب أني لو كنت عاشقًا لأصبحت أضحوكة العاشقين .. وأعجوبة الهازئين والساخرين ، ولكان مثلي مثل الرجل الذي أحب امرأة فاستزارها فمنعته حينًا ثم زراته ، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه وسألته : ما باله ؟ فقال لها : أريد أن أنام علني أرى طيفك في المنام !

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال الجيش المدجج للملك المتوج ، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق ، بعد طول الفراق ، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة ، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها : فمن صاعد إلى رؤوس الجبال ، وسارب في سهل الرمال ، واقف موقف الإعجاب والإجلال .. بين جمال الأنوار ، وأنوار الجمال ، ومقلب طرفة بين حسن الزاهرات وحسن الفتيات .. لا يعلم أتشبه القامات الغصون ، أم الغصون القامات .

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب ، وما كان لي أن أذهب مذهبهم لأني لا أعجب بما يعجبون . ولا أهتف لما يهتفون ، فقبعت في كسر بيتي أفتش عن ضالة خيال أجد فيها من السعادة والهناءة ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء ، فلمحت بجانبي كتاب بلاغة العرب ، وهو الكتاب الذي ترجمه الأستاذ « كامل حجاج » ، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها .. فقلت : حسبي من الرياض هذه الزهرات ، ومن النسائم تلك النفحات .

خطوت الخطوة الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفًا تحت نافذة قصر اللوفر في باريس ، ورأيت الناس وقوفًا في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رقعة الأرض ، ورأيتهم يمدون أعناقهم إلى تلك النافذة وينظرون إليها نظرة الفلكي إلى كوكبه اللامع ، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب ، وإنهم لكذلك إذا أطل عليهم نابليون الأول من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس ، وملك روما كما يسميه أبوه ، فضج الناس لمطلعه ضجيجًا ملأ مسمع الخافقين ، وابتسموا لمرآه ابتسامًا أضاء ما بين المشرقين والمغربين ، وهنا سمعت الشاعر الكبير يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائًلا له :

رويدا أيها الرجل المغرور بالتاج والسريـر ، والملك الكبير .. والجيش الخاضـع ، والشـعب الطائع ، أنت تقدر لطفلك في مستقبل الأيام ملكًا كملكك ، ومجدًا كمجدك ، وعزًا و سلطانًا كعزك و سلطانك ، غير عالم بما تكتمه ضمائر الأيام من الحوادث العظام ، والخطوب الجسام ، فهل أخذت على الأيام عهدًا لنفسك فتأخذه لولدك؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك؟

أيها الملك المغرور : إنك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير .. إلى الكوخ الحقير ، وسيحيط بك الجند في منفاك إحاطة الإخضـاع والإذلال .. لا إحاطة الإعظام والإجلال ، وسـيموت ولدك محرومًا هذا العرش الذي هيأته له بل محرومًا بضعة أشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت .

أيها الملك المغرور : لا تقل إن المستقبل لي فإنما المستقبل لله .

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلأت نفسي عبرة بمصائر الأيام ، ومصارع الكرام ، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض ، وإبراهم ونقض ، ومشيت حتى وصلت إلى برية جرداء ، ودوية قفراء ، لا يطرقها إنسان ، ولا يدب بها حيوان ، فلمحت على البعد رجلًا يمشي على بعض الشواطئ فوق أرض رملية يخدع ظاهرها ، ويقتل باطنها ، ويدب ماؤها في أحشائها ، دبيب الصهباء في الأعضاء ، ويكمن في صدورها كمون الأسرار في صدور الأقدار .

فما هي إلا بضـع خطوات حتى وقع نظري على رجل مسـكين غاصـت قدماه في الرمل فحاول نزعهما فغاص إلى ركبتيه ، فتحلحل ، فغاص إلى صـدره ، وما زال يسـاعد على نفسـه بنفسـه ويهبط شـبرًا كلما حاول أن يرتفع فترًا ، حتى لم يبق منه على ظهر الأرض غير فم يصرخ بالنداء ، وعين تذرف بالبكاء ، ثم ما لبث أن غطاهما الرمل فرفع يديه بالدعاء ، فلم يجد من رحمة في الأرض ولا في السماء .

وقفت أمام هذا المشـهد المؤثر المحزن وقفة أرسـلت فيها بضـع قطرات من الدمع على هذا البائس المسكين ، وقلت في نفسي : إنني عجزت عن إ سعاده في نكبته ومعونته في شدته ، فلا أقل من أ سعده بقليل من الأسف على مصيره المحزن الأليم .

ثم فارقته ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامرتين فرأيته جالسًا في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقعى على عتبة بابه ؛ فسمعته يخاطبه ويقول له :

أيها الكلب الأمين ، قد هجرني الناس وبقيت بجانبي ؛ وخانني الأصـدقاء ووفيت لي ؛ فأنت في نظري أوفى الأوفياء ؛ وأصدق الأصدقاء ؛ ولولا أنك كريم الأخلاق متواضع ، تأبى إلا أن تعرف لسيدك منزلته

من السيادة عليك ، وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة إليك ، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة الباب ، ولأجلستك بجانبي على فراشي ، لأنك صديقي ومؤنسي ، ولأنك أحق بالإكرام من كثير من أولئك الذين يفترشون الطنافس ، ويتوسدون الوسائد ، وحسبي منك هذه النظرات التي تلقيها عليّ بهدوء وسكون ، كأنك تقرأ فيها صفحة وجهي ، ما غاب عنك من دخيلة أمري ، وكأنني أسمعك تقول : ما باله ، وما شأنه؟ وما الذي يبكيه؟ ليتني أعرف دخيلة أمره ، وليتني أستطيع أن أكون فداءه! فحسبي منك ذلك ، وهل يطمع الإنسان أن يجد من أوفى أصدقائه أكثر مما أجده في لفتاتك ، وألمحه في نظراتك؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق ، فتسللت وذهبت لشأني وأنا أقول في نفسي : إذا كان لامرتين - وهو أشعر شاعر في فرنسا ، وفرنسا مهبط وحي الشعر - لم يجد له صديقًا وفيًا غير كلبه المقعي على عتبة غرفته ، فأين يذهب سائر الشعراء ، ومتى يجدون الأصدقاء ؟

تركت منزل لامرتين وذهبت إلى منزل «دي موسيه» فرأيته معتزلاً في غرفة من غرف منزله يبكي بكاء مرًا .. ويزفر زفيرًا شديدًا ، تكاد تنقطع له أحشاؤه . فقلت : ليت شعري ما أبكاه؟ وما الذي دهاه؟ فسمعته يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه ، شرحًا مؤثرًا مؤلمًا حتى كان يخيل إليَّ أن كل بيت من أبياتها جذوة نار ملتهبة . وسمعته يشكو من خيانة حبيبته «جورج صاند» ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهدها وزمامها فلا يجد إلى ذلك سبيلاً .. وما هو إلا أن أتم قصيدته حتى تغير لونه وشخص بصره .. واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة .. بين أيدي الرياح العاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم ، ويخلط في كلامه خلطًا شديدًا ، فعلمت أن الرجل قد جن ، وأن العالم الشعري قد فجع إلى الأبد . فمضيت لسبيلي ، وأنا أسأل الله العافية . وأقول : إن جمال المرأة أحقر من أن يقتل أوفر عقل ، وأعجز أن يطفئ أكبر قريحة .

ولكنها الأقدار تجري بحكمها  علينا وأمر الغيب سر محجب

تركت منزل دي موسيه ، ومشيت في شارع من شوارع باريس ، فرأيت شيخًا رث الثياب ، زري الهيئة ، يمشي مشية هادئة مطمئنة ، ويجر في رجليه نعالاً بالية ، قد أطلت أصابعه من خروقها كما تطل الحيات من أحجارها فأتبعته نظري ، فرأيته لا يرفع طرفه سكونًا وإطراقًا ، ولا يكاد يحرك عضوًا من أعضائه رزانة ووقارًا ، فقلت في نفسي : إن لهذا الرجل شأنًا ، فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت إسكاف ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه ، فجلس على الأرض ينتظره حتى يعود

فيخصف له نعله ، فسألت بعض المارة عنه فقال : هذا «كورني» شاعر فرنسا ، فأخذتني الدهشة وملكني العجب ، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي ، وقلت في نفسي : ويح لكم معشر الناس . أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر ، على رجل يقلد أعناقكم الدر والجوهر . أعجزتم عن أن تجمعوا أمركم على أن تمسحوا هذه الغضون عن تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم ، ويخفف محنتكم ، ثم رجعت أدراجي وأنا أقول : كان قضاء حتمًا على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون .

إن في جلسة «لامارتين» منفردًا في منزله لا مؤنس له غير كلبه ، وفي عزلة «دي موسيه» في غرفته بين دموعه وأحزانه ، وفي جلسة «كورني» أمام حانوت الإسكاف ينتظر ترقيع نعله ، لآية للمتفكرين ، وعبرة للمعتبرين .

***

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب أشكر للكاتب ما كتب ، وللمترجم ما ترجم ، وأقول : من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب؟

## دمعة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودي ، وإمام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، و سكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا ، ثم كفكفنا من تلك الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : إن في الباقي عزاء عن الفاني ، وإن الأبناء خلف من الآباء ، ولقد كر على عهدهما الشـــهر بعد الشـــهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم في مكمنه هامد لم يبعث من مرقده بعد ما قبرناه ولم ينشرـ من قبره بعد ما واريناه ، فتساءلنا : أين الباقي الذين يزعمون؟ والخلف الذي يذكرون؟

أين فطاحل اللغة العربية ، لا السياسية ، وأرباب الأقلام العربية ، لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير واليازجي ، لأنهما ماتا ولحقا بصــاحبيهما : فهل مات شــوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير؟

ما مات منهم أحد ، وإنما كانت حياة ذينك الرجلين ، حياة الصـــناعيين وكان لوجودهما سر من الأسرار ينبعث في الألســنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصــابيح الكهرباء ، تشـتعل المصـابيح بتيارها ، وتضيءـ بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها وانقضىـ أجلها ، عم الظلام واشـتد الحلك ، والمصابيح - كما هي - جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى .

أما شـــوقي فقد طار في جو غير هذا الجو ، وهام في واد غير ذلك الوادي وما زالت تعبث به الأنواء حتى أغرقته في شـبر من الماء ، وأما حافظ فقد انقبضـت حياته النثرية قبل انقضـاء البؤسـاء ، أما حياته الشـعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السـياسـية من العام إلى العام ، وأين هذه القيثارة البسـيطة ذات اللحن لواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان؟ وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التأليف ، هذا بصهاريجة وذاك بفتراته ثم لحقا بالسابقين ، ومضيا على أثر الماضيين :

أيــن ســـــكـانــك لا أيــن لــهــم        أحـجـازًا أو طـنـوهـا أم شـــآمـا

أين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها ، ونهصر أغصانها ، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها؟ وأين البلابل التي كانت تنتقل بين أشجارها فتطرب بالأغريد ، وتستهوي بالأناشيد .

فـاســـألنهـا واجعـل بكـاك جوابًـا        تجـد الـد مع ســـا ئلاً و مـجـيبًـا

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهؤلاء الأدباء : يحزنون فلا يبكون ، ويطربون فلا يضحكون ، ويألمون بلا أنين ، ويعشقون بغير حنين .

أيطرب البلبل فيغرد ، ويشجي الحمام فينوح ، ويطرب الشاعر ، ويشجي الكاتب ، فلا ينطق لسانهما ولا يهتز قلمهما؟

لما سنَّ عمر بن أبي ربيعة ورأى أن شعر الغزل والتصابي غير لائق بشيبه ووقاره ، عزم على هجره فما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وغلب على أمره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه ، فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتًا من الشعر إلا أعتق رقبة ، فشكا إليه رجل حبًا برح به ، فحن واهتاج ، ونظم أبياتًا في شأن الرجل ووجده ، ثم أعتق عن كل بيت رقبة .

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبي ربيعة ، وهم في شرخ الشباب وإبان الفتوة ؟ إن كانوا فعلوا ذلك فاسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج أشجانهم ، فتحنث أيمانهم ، والأمة كفيلة لهم بوفاء النذور ، وكفارة الإيمان :

وذو الشوق القديم وإن تعزّى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

■ ■ ■

## النظرات
## الجزء الثالث

◆◆◆

أعرف أديبًا من أفضـــل الأدباء في هذا البلد المضـــطلعين باللغة وفنونها ، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها ، إلا أنه لا يكتب كلمة في صـحيفة ، ولا ينشر في الناس كتابًا ، إلا أعجم كتابته وأبهمها ، وتعمل فيها تعملاً يأخذ على القارئ عقله وفهمه ، فلا يدري أي سبيل يأخذ بين مسالكها و شعابها ، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه ، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة ، فلا سبيل له إلى التخلص منها ، والنزوع عنها ، حتى اطلعت له عند بعض أصـدقائه على كتاب صـغير كان قد أرسـله إليه في بعض الشـؤون الخاصـة وكتبه بتلك اللغة السـهلة البسـيطة التي يسـمونها اللغة العامية ، فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا إعجابًا كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصـيح بفطرته ، قادر على الإبانة عن أغراضـه ومراميه ، كأفضـل ما يتقدر متقدر على ذلك ، إلا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفًا ، ويأخذ نفسه أخذًا ، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتّاب شأنًا ، وأرفعهم صوتًا في عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قدر له أن يقضي بنفسه على نفسه .

وقرأت منذ أيام لأحد الشـعراء المتكلفين ديوان شـعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها ، وما أحسبها أفلتت من يده ، ولا جاءت في هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها ، والتدقيق في وضعها فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يسأل عن الإجادة في الشعر ، لا عن البراعة في النثر ، وأن الناس سـيغتفرون له ضـعف الكاتب ، أمام قوة الشـاعر غير عالم أنه كاتب من أفصـح الكتّاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعرًا من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما أحسن إلا حيث ظن الإساءة ، ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان .

ووالله لا أدري ما الذي يسـتفيده هؤلاء الأدباء من سـلوكهم هذا المسـلك الوعر الخشـن في أسـاليبهم الكتابية والشـعرية وتكلف الإغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لا لأنفسـهم ؛ وأن الناس ، خصوصًا في هذا العصر عصر المدنية والعمل ، والحركة والنشاط أضن بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه ، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه ، ولم لا يؤثر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله ، أو للشهرة والذكر أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها ، وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتّاب الناس ليفضوا إليهم بخواطر أفكارهم ، وسوانح آرائهم ، وخلجات نفوسهم ، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما

يقول ، وأن يجد بين يديه ســامعًا مصــغيًا ، ومقبلاً محتفلاً ، وأي فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص ، أو يفضي إليهم ببعض الآراء فيتلطف في تفهيمهم ، وإيصال معانيه إلى نفوسهم ، ويفتن في اجتذاب ميولهم وعواطفهم ، وبين أن يجلس إلى مكتبه ليبعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم ؛ ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى ؟

ليس البيان ميدانًا يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة في اللغة وأوسع إطلاعًا على مفرداتها ، وتراكيبها ، وأقدر على اســتظهار نوادرها وشــواذها ومترادفها ومتواردها ، ولا متحفًا لصــور الأســاليب وأنواع التراكيب ، ولا مخزنًا لأحمال المجازات والاســتعارات ، وحقائب الشــواهد والأمثال ؛ فتلك أشــياء خارجة عن موضـــوع البيان وجوهره ، إنما يعنى بها المؤلفون والمدونون وأصــحاب القواميس والمعاجم وواضـــعو كتب المترادفات ومصـــنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها ، أما البيان فهو تصـــوير المعنى القائم في النفس تصويرًا صادقًا يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئًا ، فإن عجز الشاعر أو الكاتب - مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه - عن أن يصـــل بســـامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء الفضلاء ، أو أذكى الأذكياء ؛ ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب .

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني ، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر .

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء صخورًا صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبئًا ثقيلاً على كواهل الناس وعواتقهم فمله الكثير منهم وبرموا به ، وأخذوا يطلبون لأنفســهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشــوا بأوامره ونواهيه مع شــؤون المجتمع وأحواله ، لاســتطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم ، والأخذ بأسباب دنياهم .

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصــور يتشــددون في اللغة ويتحذلقون ويتشــبثون بالأســاليب القديمة والتراكيب الوحشية ، ويغالون في محاكاتها واحتذائها ، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاســبون الكاتبين والناطقين حســابًا شــديدًا على الكلمة العربية والمعنى المبتكر ، ويقيمون المناحات الســوداء على كل تشــبيه لم تعرفه العرب ، وكل خيال لم يمر بأذهانهم ، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلائقهم فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم ، وكادت

تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه ، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوبًا وسطًا معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت ، أو غلبت عليها العامية فاستحالت .

***

قال لي أحد الأدباء المتكلفين في معرض اعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي ينهجه في أســـلوبه : أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد ألفوا من طريق خطإ الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقد غامض ، وإن تفهت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة وإن اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعاني ، أي أنهم لا يرون الســهولة والانســجام حتى يتوهموا التفاهة والفســولة ، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وســـمو المعاني وشرفها ، وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرـــية أن تزدري المبذول لها ، وتستثنى قيمة الممنوع عنها ، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر فحسب ، بل مع أدباء كل عصرـ وجيل ، فهم يســمون البحتري وأبا نواس والشرـيف الرضي وأمثالهم : شـعراء الألفاظ ، ويســمون المتنبي والمعري وابن الرومي وأشــباههم : شـعراء المعاني ، ليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعاني وشرفها إلا أن الأولين أمطروها على الناس وبعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم ، وضـــن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم ، وحلت في صدورهم . قال : ولقد عرضت السلعتين في سوق الأدب فكتبت أتفه المعاني وأدونها في أخشن الأساليب وأوعرها فنفقت في تلك السوق نفاقًا عظيمًا ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها ، وكتبت أشرف المعاني وأبرعها في ألطف الأســاليب وأعذبها فما أبه لها إلا القليل من الناس ، وربما لم يأبه لها أحد ؛ فلم أر بدًا من أن أنتهج لنفسيـــ في الكتابة الخطة التي أعلم أنها أجدر بي وأجدى علي .

فعجبت لرأيه عجبًا شـــديدًا وقلت له : أما هذا الذي تذكره فإني لا أعرفه إلا لفئة قليلة من القراء فاســـدة الذوق لا يعبأ بها عابئ ، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين ، بل ولا رأي العامة من أبناء هذه اللغة ، وهب أن الأمر كما تقول ، فالأدب ليس ســلعة من الســلع التجارية لا هم لصــاحبها ســوى أن يحتال لنفاقها في ســـوقها ، إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون - بأداء حقه والقيام على خدمته - إخلاص غيرهم من المشـــتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والأدباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالتهم وفساد تصوراتهم ، ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له ، فحمدت الله على ذلك .

***

ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتّاب الرسائل - في هذا العصر عصر الحضـــارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلاً - باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والخطفي ورؤبة والعجاج ، ويكتب بها الحجاج وزياد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربية الأولى ، فليس عصرنا كعصرهم ، ولا جمهورنا كجمهورهم وأحسب لو أنهم نشروا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بد من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا .

ليست الأساليب اللغوية دينًا يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة ، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه ، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئًا .

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها ، ثم نكون أحرارًا بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذي نريد .

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرآة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل .

ويجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ ، حتى إذا حســـن الأول أفاض على الثاني جماله ورونقه ؛ فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل .

لو لم يكن للفصـــاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها ، ومقياس تقاس عليه ؛ لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها ، واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم .

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة ، ولا يقضي حياته ناعيًا عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضـــة عنه غير حافلة به ولا مصـــغية إليه ، فالأمة قد ارتقت واســـتنارت ، وأصـــبحت طماحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشـــاعر أن يرن على صـــفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب أن يسود بياض الصحف دون أن ينير لها أذهانها ، ويغذي عقولها ومداركها ؛ فإن كان لابد باكيًا

فليبك على نفسه ولينع عجزه وقصوره وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول .

إنني لا ألوم على الركاكة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت أقلامهم ، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ؛ ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية ، ولا خاصة من خواصها ، وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك فهؤلاء جميعًا لا حول لنا فيهم ولا حيلة ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ؛ إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلعوا على أدبها ، وفهموا سر فصاحتها ، وأنقم منهم عدولهم عن المحجة في البيان إلى الجمجمة والغمغمة فيه ؛ وأنعى عليهم نقص القادرين على التمام .

## الناشئ الصغير

لي ولد وحيد في السـابعة من عمره ، لا أسـتطيع على حبي إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنيًا لأني فقير ، وما أنا بآ سف على ذلك ولا مبتئس لأني أرجو بفضل الله وعونه ، ورحمته وإحسانه ، أن أترك له ثروة من العقل والأدب ، وهي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب .

أحب أن ينشأ معتمدًا على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته ، لا على أي شيء آخر ، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه . ومن نشأ هذا المنشأ وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيده ، نشأ عزوفًا عيوفًا مترفعًا لا يتطلع إلى ما في يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان .

أحب أن ينشأ رجلاً ، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل ،وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة ، ودافع من الحاجة ، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرهًا وفضولاً ، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته .

أحب أن يعيش فردًا من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة ، يصـارع العيش ويغالبه ، ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروى ، ويجرب ويختبر ، ويقارن الأمور بأشـباهها ونظائرها ويسـتنتج نتائج الأشـياء من مقدمتها ، ويعثر مرة وينهض أخرى ، ويخطئ حينًا ويصـيب أحيانًا ؛ فمن لا يخطئ لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم له شؤون حياته .

ذلك خير من أن يجلس في شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين ، والمجاهدين ، يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل .

أحب أن يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ويشـاهد بعينيه بؤس البؤ ساء و شقاء الأ شقياء ، ويسمع بأذنيه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته إن كان خيرًا منهم ويشـاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم ، لتنمو في نفسـه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشـعر بآلام الناس ومصـائبهم ، أو يعطف على بأسـائهم وضرائهم ؛ فإن حاول يومًا أن يمدّ يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب ، فعل ذلك متفضـلاً ممتنًا لا راحمًا ولا متألمًا .

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه ، بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها ، فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مكرمة من مكرماتها ، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالإنسان الناطق .

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه ، أي أنني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا إلا لمحات البرق تخفق حينًا بعد حين في ظلمات الشقاء ، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها ؛ وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون ينعمون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها ؛ فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر ؛ فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التعب من التعب ؛ ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان ؛ وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها ؛ تفريجًا بكربتهم وتنفيسًا عن أنفسهم . وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب القمار ، ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل . يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت إلى الموت .

أحب أن يكون غنيًا بالمعنى الحقيقي ، لا بالمعنى الاصطلاحي ، أي أن يكون مستغنيًا بنفسه عن غيره ، لا كثير المال والثراء . وما سمي المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه ، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب ، فإن أكثر الناس فقرًا إلى المال وأشدهم ولعًا بإحرازه ، وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء ، أصحاب المال والثراء ، وإن كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين ، أكثر منه في جانب الأغنياء الكثيرين ، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فإذا هو في نظره الحياة نفسها ، يجمعه ولا يدري ما يريد منه ، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله ، فضلاً عن كثيره ، وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون ، وتغيير نواميسه ، فيرى الرؤوس أذنابًا ، والأذناب رؤوسًا ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام .

لا أكره أن ينشأ ولدي غنيًا ، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر .

أخاف عليه أن يعتدّ بالمال اعتدادًا كثيراً ، ويقدره فوق قدره ، ويعتبره الكمال الإنســاني كله . فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ؛ وألا يجد من حوله من عشرائه وخلطائه مرآة فيها هناته وعيوبه لأن عشراء الأغنياء متملقون ، مداهنون ، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم .

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة ، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ، ولا تعنى بشيء سواها ، فيصبح رجلاً قاسيًا صلبًا ، ميت النفس والعواطف ، لا يرحم بائسًا ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثى لأمة ، ولا يبكي على وطن ، ولا يشترك في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه ما دام راضيًا عن نفسه مغتبطًا بحظه ؛ أسقطت السماء على الأرض ، أم بقيت في مكانها .

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب ، ويزدري المواهب والعقول ، والفضائل والمزايا ؛ فيصبح عار أمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة التي لا تزول ، ومن أشرب قلبه حب المال ، ونزل من نفسه إلى قرارتها ، لا يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزنًا ، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة ، بل لا حق لهم في الوجود .

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيء سواه ، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه .

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم ، وكبيراً في أيدي عشراء السوء ، فيصبح نكبته الكبرى في حياته ، وعاره الدائم بعد مماته .

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه مروعًا مذعورًا خافق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر ، ويصعقه فوت الربح إن فاته ، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الأسعار ، ونزول الأسهم ، وتقلبات الأسواق ، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم ، والآفات السماوية والجوائح الأرضية .

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقًا إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه ، أو الذي كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يتح له .

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعًا ، ولا يجد ما يسدّ به رمقهم ، بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، أو أن سهمًا من أسهمه قد نزل .

وحدّثني من رأى بعينه من جن وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيرًا من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى .

أخاف عليه أن يصبح واحدًا من أولئك الوارثين المستهترين الذي لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم ، وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه ، فأندب حظي في قبري ، وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد .

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين ، رأيت غلامًا من الوارثين جالسًا بإحدى الحانات يمرح في نعمائه ، وآخر من المتشردين نائمًا تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه ، أما الأول فقد كان جالسًا بين مائدتي شراب وقمار ، تسلب الأولى عقله والأخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على أقواله ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ، ويصيح صياح الثعالب ، وأما الثاني فقد كان عاريًا إلا قليلاً ، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيه إلى صدره كلمها أحس صوت مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه أحيانًا وهو مغتمض إن خيل إليه أن يدًا تمتد إليه بالإحسان ، ولا يد هناك ولا إحسان .

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتناقضين ، فثارت في نفسي تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للأول وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني ، وقلت في نفسي : لو كان لي ولد وكان لابد له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثرًا ، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين ، على أن أراه بين فئة الوارثين ، لأني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحمًا يحسن إليه ، ويستنقذه من شقائه ، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فإني لا أرجو له شيئًا .

إن للرحمة طيشًا كطيش القسوة والشدة ، وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائبًا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضنًا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها فإذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الأثقال التي يحملونها من مكان إلى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئًا فشيئًا إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد ؛ فإذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين ، صفر الأكف ، فارغي الجيوب ، مطرقي الرؤوس ، لا حول لهم ولا حيلة ، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم وعدموا في عام واحد أو عامين قرنًا كاملاً مجيدًا من أعلاه إلى أسفله ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك .

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمهم من هذا المصير المحزن ، وضن بهم على هذا التراث المشئوم .

يقولون إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول : إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء ، بل أشد منها خطرًا وأعظم هولاً ، فإن كان بين الفقراء ، اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق ؛ فبين الأغنياء : المحتالون والمزورون ، والمغتصبون والخائنون ، والمداهنون والممالئون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في شهر كامل ، والقوام والأوصياء الذين يورثون التركات من دون وارثيها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها .

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى ، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق . ولا يسرق السارق ، ولا يسلب السالب ، ولا يلص اللص إلا جزءً من حقه الذي كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة ، وللرحمة سبيل إلى الأفئدة والقلوب .

ليفتح الأغنياء المدارس وليبنوا الملاجئ ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين ، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة ، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصًا أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه .

لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق ، وإن الفقر علة صلاحها ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء : إني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ، ولم أر إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين .

إن العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر ؛ وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذي كتبت به المصنفات ، ودونت به الآثار ، إلا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم والأحزان وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة ؛ والأفئدة الحزينة ، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة ، والزوايا المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء ، وحكماء وأدباء ، إلا في مهود الفقر ، وجحور الإملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ؛ ولولا الشقاء ما وجدت السعادة .

إن المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحد أحدًا ، ولا يلوي مقبل على مدبر ، يعدون ويسرعون ويتصادمون ويختطبون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة ، أو مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامه ، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو .

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ، ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة والقتال المستحر بين البشر جماعات وأفرادًا وقبائل و شعوبًا وممالك ودولاً؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد : هو أن الناس يعتقدون اعتقادًا خطأ أن المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسعون إليه لا من أجل الجمع والادخار ، كما يجب أن يكون ، بل ومن أجل القوت وكفاف العيش ، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة ، أو تنازع البقاء . وما هو بالتنازع ولا التناظر ، إنما هو التفاني والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد .

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة ؛ وأن الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وأن سعادة العيش وهناءة وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد وهو الاعتدال .

***

الآن أستطيع غير خاش لومًا ولا عتبًا أن أقضي للناشئ الفقير على الناشئ الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم! وأن أقول للناشئ الفقير : صبرًا يا بني وعزاء ، فإنك لم تخلق إلا للعمل ، فاعمل واجتهد ؛ ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك ، ولا تحصد غير الذي زرعته يدك ، فإن لم تجد معلمًا يعلمك فعلم نفسك ، والزمن خير مؤدب ومهذب ، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ؛ وإن كنت ممن لا يعدّون وظائف الحكومة ومناصبها غنمًا عظيمًا كما يعدها القعدة العاجزون ؛ فها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور التي ليس لها مثل عقلك وقوتك ، فإن الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعًا أو تهلك ظمأ ، ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغني أسعد منك حالاً ، وأوفر حظًا ، وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدّتها أقل هموم الحياة وأهونها .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ونفس هادئة وقلب شريف ، وأن تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده ، وتعهدها بنفسه ، وسقاها من عرق جبينه .

■ ■ ■

## قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشركة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب ، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعًا .

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر ، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد .

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة أو بيداء مجهل ؛ فنفزع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم ، وفي ملتقى غاديهم برائحهم ، ولابد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيبًا ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسدّ بها جوعتها ، فما أقسى قلب الإنسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلبًا من الإنسان فذهبت إليه تبثه شكواها ، أو أن الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه ، وأحسب لو أن الصخر فهم شكواها لأ شكاها ولو أن الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها ، لأني لا أعرف مخلوقًا على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

ألم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها .

لم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ، ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجته فيتصدق به عليها ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير ، والخبز أكثر منه ، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها السامعون ، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في

مواقف المفاخرة والمكاثرة ، والتي لا تفهم من معنى الإحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلبًا رحيمًا .

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات ، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليونًا من النفوس ، فأما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولاً إلى نفسه ، ومسئولاً أمام ربه و ضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم لسدّها ، فها هم الفقراء يموتون جوعًا بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين .

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفًا تتبلغ به أو درهمًا تبتاع به رغيفًا فلم تفعل ، وكان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن فلم تفعل ، لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها ، على أن تعيش بعارها ، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعًا غير شرفائها وأعفائها .

■ ■ ■

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صـاحبها أن يقدم على شر ، أو يحدث نفســه به ، أو يكون عونًا لفاعليه . فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس ، أو نزوة من نزوات العقل ، وجد في نفسه عند غشـيانه من المضـض والارتماض ما ينغصـه عليه ويكدر صـفوه وهناءه ، ثم أصـبحنا وإذا الأدب صـور ورسوم ، وحركات وسكنات ، وإشارات والتفاتات ، لا دخل لها في جوهر النفس ، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها ، فأحســن الناس عند الناس أدبًا وأكرمهم خلقًا ، وأشرفهم مذهبًا ، من يكذب على أن يكون كذبه سـائغًا مهذبًا ، ومن يخلف الوعد على أن يحســن الاعتذار عن إخلافه ، ومن يبغض الناس جميعًا بقلبه على أن يحبهم جميعًا بلسـانه ومن يقترف ما شـاء من الجرائم والذنوب على أن يحسـن التخلص من نتائجها وآثارها ، وأفضـــل من هؤلاء جميعًا عندهم أولئك الذين برعوا في فن «الآداب العالية» أي فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا في اسـتظهار تلك الصـورة الجامدة التي تواضـع عليها «جماعة الظرفاء» في التحية والسلام واللقاء والفراق ؛ والزيارة والا ستزارة والمجالسة والمنادمة ؛ وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبًا إلى صـغر النفس وإسـفافها ، أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها ؛ فكان الناس لا يسـتنكرون من السـيئة إلا لونها ؛ فإذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسـوا بها وسـكنوا إليها ؛ ولا يعجبهم من الحسـنة إلا صـورتها ؛ فإذا لم تأتهم في الصـورة التي تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها ، أي أنهم يفضـلون اليد الناعمة التي تحمل خنجرًا ، على اليد الخشنة التي تحمل بدرة ، ويؤثرون كأس البلّور المملوءة سمًا على كأس الخزف المملوءة ماء زلالاً ، ولقد سمعت بأذني من أخذ يعدّ لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعًا للوث صـــحائفهم ثم ختم كلامه بقوله : وإني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل «ظريف!» وأغرب من ذلك كله أنهم وضـعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأن جميع هذه الأ شياء فضائل لا شك فيها ، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي و ضعت لها ، وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصرـي الذي أجمع الناس في مصرـ منذ أيام على احتقاره وازدرائه لا لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في أحد أندية القمار ، وسـموه لصًا دنيئًا ، والقمار لصـوصـية من أساسه إلى ذروته .

***

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ، ومركز واحد : أحدهما خير الناس ، والآخر شر الناس ، وإن كان الناس لا يرون رأيي فيهما .

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق ، والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة ، والزهد والسماحة والنجدة ، والمروءة والكرم ، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم ، وافتتن بتلك الفضائل افتتانًا شديدًا ، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف! وفهموا من معناه مثل ما فهم ، وأخذوا منه بمثل الذي أخذ ، فغضب في وجه الأشرار ، وابتسم في وجهه الأخيار ، والأولون أكثر عددًا وأعظم سلطة وجاهًا ، فسمي عند الفريقين شرسًا متوحشًا ؛ وامتدح إحسان المحسن ، وذم إساءة المسيء ، والمحسنون في الدنيا قليلون ، فسمي وقحًا بذيئًا حتى بين المحسنين ، وبذل معروفه للعاجز الخامل ، ومنعه القادر النابه ؛ فلم يشعر بمعروفه أحد فسمي بخيلاً ؛ واعتبر الناس بقيمهم الأدبية ؛ لا بمقاديرهم الدنيوية ، فلقي الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقى به العامة والدهماء ؛ فسمي متكبراً ؛ وقال لمن جاءه يساومه في ذمته : إني أحبك ولكني أحب الحق أكثر منك ؛ فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه .

أما الثاني فأقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده ؛ ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلافًا ؛ وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفًا على بائس أو منكوب ؛ ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين ، ويستبكي لهم فعدّ من الأجواد السمحاء ؛ وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم ؛ ولكنه لا يزال يمسح رؤوسهم ؛ ويحتضنهم إلى صدره في المجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين ؛ فسمي الوصي الرحيم ؛ ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم ، إلا أنه يخلط جده بالهزل ، ومرارته بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئًا سوى أنه الماجن الظريف .

ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأيًا عامًا يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ؛ ويعلمه الوالد ولده والأستاذ تلميذه ؛ ويقتتلون اقتتالاً شديدًا على انتحاله والتجمل به ؛ كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها حتى تبدّلت الصور ، وانعكست الحقائق ، وأصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدرًا ، وأضلهم بهما سبيلاً ، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضي فيه بقية أيام حياته غريبًا شريدًا؟ أم يبرز للعيون فيموت همًا وكمدًا؟

***

يجب أن يكون أدب النفس أســـاس أدب الجوارح ، وأن يكون أدب الجوارح تابعًا له وأثرًا من آثاره فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والســـكنات أســـاس صـــلاتهم وعلائقهم ، وميزان قيمهم وأقدارهم ، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلي ، وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين .

■ ■ ■

## إيفون الصغيرة

« مترجمة »

ماتت وكأنها لم تمت ، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها ، يحسبها الرائي نائمة نومًا هادئًا لذيذًا ، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة ؛ ويرى هبوط صدرها وارتفاعه .

أين صفرة الموت ونحوله ، أين آلام النزع وشدائده ، أين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها ؛ والدوائر الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها؟

لقد مات كل ذلك بموتها فعاد لها رونقها وبهاؤها ؛ وأصــبحت كأنما قد خلقت الســاعة ولما تنبعث الروح في جسدها .

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفأة با سمة مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني أمام قفص عصـفورها أنشـودة السـعادة والحياة ، وبهاتين اليدين البيضــاويين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشــيخ ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت .

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها «ســأموت الســاعة ، فائتوني بعصــفوري أودعه» فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر إليه باسمة منطلقة . وظل العصفور يلعب ويغرد تغريدًا شجيًا ، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت .

وهنا وقف الشيخ الذي تبناها بجانب فراشها واجمًا حزينًا ، مشرد اللب ؛ ذاهل العقل ؛ ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته ، فأخذها ووضعها على صدره ، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية في قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه ، وظل على حاله تلك هنيهة ، ثم التفت فجأة إلى أصــدقائه ، وقال لهم ها هي ذي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئًا فشيئًا فنظروا إليه آسفين محزونين ، ثم نكسوا أبصارهم ، وأســبلوا مدامعهم فظل يدير بينهم عيونًا حائرة ؛ ويتنقل بنظراته ههنا وههنا ، كأنما يســألهم المعونة على أمره ، ومن ذا يعين على القدر ؛ أو يعترض سهم المنية القاتل .

وما هي إلا لحظة حتى شـعر أن يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذارعيها الضـعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسها .

إن لله وإنا إليه راجعون ، ماتت إيفون الصغيرة ، ماتت الطفلة الوديعة الجميلة . ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ؛ في سبيل الله نجم تلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى وغصن أزهر في روض المنى ساعة ثم ذوى ، وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر .

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتسامتها حتى في الساعة تختفي فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التي كانت تقضي فيها كل يوم بضع ساعات من ليلها أو نهارها تلاعب أطيارها ، وتقطف أزهارها ، وتتعهد أ شجارها والمماشي التي كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتًا ومرجانًا ، وقد خلت جميعها منها ، وهيهات أن يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم .

كانت إيفون جميلة الخلق ، طيبة النفس ، نقية الضمير ، تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز ، ولا تتودد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وسجرائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى في حياته وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من تلاميذ مدرستها ، لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها والخبيث بعفوها وصفحها . وهي وإن لم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولمعانهما الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها ؛ وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت بوصاية جدها كما كانوا يقولون لها ، بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئًا ، وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بها أقفال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها ، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن ، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف .

لذلك عجل الموت إليها لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا طويلاً على ظهر الأرض .

دقت أجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها ، ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها شوقًا ولهفة كما كان شأنها في حياتها ، ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير ، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها ، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها ، والنساء اللواتي كن يحببنها من أجل حبها أبناءهن ، وبكاها أكثر من هؤلاء جميعًا ذلك الشيخ المسكين ، لأنها كانت كل دنياه فخسرها في ساعة واحدة .

وظل كثير من الوقوف يردد ذكراها ، فيقول أحدهم : طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسة وحدها وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياته . ويقول الآخر : لقد دخلت الكنيســـة ليلة فرأيتها هائمة وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية فعجبت لصـــلاحها وتقواها ؛ وتقول امرأة : لقد عثرت ابنتي يومًا من الأيام في منصرفها من مدرستها ببعض الأحجار عثرة برحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل ، وتقول أخرى : لقد كنت أراها كل يوم بجارتنا فلانة المســـكينة فتعطيها رغيفًا من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها .

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ســـاعة الدفن فعلت الأصـــوات بالبكاء ثم غيبوها في قبرها وحثوا عليها التراب ، وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وســـاد فيه ســـكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون :

« وارحمتاه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت إليها » .

■ ■ ■

## الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي- منذ أعلنت هذه الحرب ؛ قبحها الله ؛ وقبح كل ما تأتي به ألا أكتب كلمة في صحيفة سيارة في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي أجلها وأن أترك هذا القلم هادئًا مطمئنًا في مرقده مدرجًا في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يراد منه ، ولكن نازلاً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام أو عامين لم أحفل به في مبدئه ؛ ولم ألق له بالاً ؛ وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنقشع ولكن ها قد مضى العالم والعامان وهو باق في مكانه ؛ لا يتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتًا ورسوخًا وأحسبه سيبقى في مستقبل أيامه أضعاف ما بقي في ماضيها إن لم نثر عليه معشر الكتّاب حربًا شعواء ، تهز جدرانه هزًا ، وتدكه دكًا ، وتلحق أعاليه بأسافله لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الآلية التي كنت آليتها ، فلعل أصدقائي من أفاضل الكتاب يساعدونني في هذا الشأن الذي إن عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غدًا .

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية وما هي في شيء من الهزل ولا الجد ؛ ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا بأي فن من الفنون الأدبية ، فأقبل عليها الناس إقبالاً عظيمًا ، وأغرموا بها غرامًا شديدًا ، فليقبلوا عليها ما شاءوا ، وليفتنوا بها ما أرادوا ، ولكن فريقًا واحدًا من الأمة هو الذي نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه أو تظلل سماؤها رأسه لأنا نضن به على كل منقصة في العالم تزري به ، أو تنال من كرامته .

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا وأبناءنا ، وعنوان مجدنا وشرفنا ، وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط أمانينا وآمالنا فائذنوا لكاتب من كتابكم ، وصديق من أصدقائكم ، أن يحادثكم قليلاً في هذا الشأن كما يحادث الأب ولده ، أو الأخ أخاه لا قاسيًا ولا متجبراً بل عاتبًا متلطفًا ، وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم ، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم .

الحق أقول ، إن الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم ، فلا أدري كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم؟

أأعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وســوء عقابه مثل ما أعلم أو أدعوكم إلى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضــيه! أو أقول لكم إن هذه الأماكن التي تطؤها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرــف ومدافن الفضائل والأخلاق ، ومصارع الأعراض والحرمات! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهل أحد منكم شــيئًا مما أقول ، ولكنه الشــباب يغري الضــعيف العاجز عن احتمال ســلطانه وســيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضيــ إليها قدمًا ، لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها ، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم .

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتنون بها وتتهافتون عليها حســنة تغتفر ســيئة ، أو جمالاً يفي بقبح ، أو خيراً يعزى عن شر . فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظًا قليلاً من سلامة الذوق أن يصــبر نفســه ســاعة واحدة على النظر إليه وملحها ثقيلة مســتبشــعة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصــة ثم قلب نظره في وجوه الجالســين حوله لرأى في ابتســامات الســخرية المترقرقة في شفاههم ما يذيبه حياءً وخجلاً ، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها إلا أ صحاب الأذواق العامية الخ شنة الذين يطربون لن شيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات و ضجيج الباعة في الأسواق ، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك؟

بقي فيها الهزء والســخرية بالطبقات الشرــيفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا ، والشــيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضــل الأمة وعيونها ، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وأمثالهم .

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشــهوات البدنية والنفســية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخى على مثلها الستور ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .

فلو أن غريبًا وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شــأنه شــيئًا فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة الأولى بأنها أحط الأمم وأدناها .

ذلك إلى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهجو التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته أو مشهد من مشاهدها ، إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يومًا من الأيام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان» فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين .

ولقد قال لي أحد الأصدقاء الظرفاء مرة أن شتائم «أم شولح» قد انتقلت إلى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت إليه ، فإني أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد في أفواه الأطفال هازلين ، وفي أفواه الخدم جادين .

أتدرون أيها الأصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ممثلين ، ويسمون ما يهذون به في مسارحهم روايات ، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لو أن جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقي لهم بالاً ولا نعيرهم أذنًا اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة يدًا واحدة في مكان واحد لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربري وشرفنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة ، ويجترئون بالشربة ، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم ونتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الأتاوة المضروبة عليها .

وألطف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين «كان الشر مفرقًا في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد» .

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، أن تنخدعوا بألاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها ، ولا يمتون إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق ، وها هم أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم ، أو يعينهم على ما هو بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه .

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح أبيض ور شدي وعكا شة وأمثالهم إن كنتم أنتم لا تذهبون إليها! ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها؟!

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين ، فإذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وأمثالهما راضين عن مقامكم فيها ، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها ؟!

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان - مشهدكم في الأجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة - إن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم ، ويصلحها الجهل ، أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيهم فيقول : ليت الأمة عا شت جاهلة عمياء ، موفورًا لها حظها من الأخلاق والآداب . فذلك خير لها من علم يهوي بها في مهواة الشقاء والعار .

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيدًا ولا أسمج وجهًا من هؤلاء القوم .

إنهم يحاولون دائمًا أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد ، وهو إن كان ثوبًا شفافًا ينم عما وراءه ، إلا أ نه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة ، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك المخدرات المتحجبات .

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية بشكله ، والهزء بصفاته وأعماله ، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد (ما دامت بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح إن كنتم تحبوا وطنكم) .

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصري تبديد أمواله في سبيل شهواته ، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال!

ويهدمون اللغة العربية هدمًا بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم ، وينظمون بها أنا شيدهم وينشرونها في كل مكان ، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحماتها ، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (ما لها لغتنا العربية ، آل همجية ، يادي المصيبة يا دي العار ، فشر ... دي لغة المدنية اتمسكوا بها صغار وكبار) .

ولا يستحيون أن يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم «أبيع هدومي عشان بوسة ، من خدك القشطة يا ملبن ، يا حلوة زي البسبوسة يا مهلبية تمام وأحسن » . وبين قولهم « مصر يحميك ربك ، ما تشوفي إلا أيام سعدك » أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» ، و« حب وطنك» ، و« مت في سبيل الأوطان» وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في أفواههم إلا أنهم يعتقدون أن المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغًا لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات .

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين أمام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا إلا أن ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم ، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعًا أن الدخول إلى تلك الأماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه .

نحن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب ، وأن في نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة ، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيء غير ذلك فإن فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم ، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا .

إنكم لا تذهبون في الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم بل يذهب إليها معكم إخوانكم وأخواتكم ، وبقية أفراد أسركم ، لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم ، وتروون لهم ما سمعتم فكأن سكان البلد جميعًا رجالاً ونساءً كبارًا و صغارًا يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة ، فهل يستطيع متصور أن يتصور خطرًا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر ؟

إنني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط ، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم اليوم ، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غدًا ، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها الذي أعتقد أنه أمانة في أيديكم ، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم ، وشرف ضمائركم .

اهدموا هذه الأماكن هدمًا بالإعراض عنها واحتقارها ، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين : ها قد نجت الأمة من خطر عظيم ، وها نحن قد قمنا جميعًا بالواجب علينا لوطننا .

■ ■ ■

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ في الصور ، وهكذا تطوى السماء طي السجل للكتاب .

أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الأفئدة والصدور ، وملء الأسماع والأبصار ، وملء الأرجاء والأجواء ، جثة ضاوية نحيلة مدرجة في كفن ، ملحدة في مهوى من باطن الأرض سحيق؟

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعري الأشجار عن أوراقها ، ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسمات الربيع ، وينام الأحياء في مضاجعهم ، حتى طلع عليهم الكوكب النهاري ، وعبثت أشعته بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم ، وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها ، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته آمل ، فكأن ما صار إليه : العدم الذي لم يسبقه وجود .

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حي ، وأن مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهامًا طائشة ، ولا نياقًا عشواء ، وإن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبتت فيها أ شواك الموت ، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع ، إذا فارقنا عزيز علينا ، لأن ساحة الصبر التي منحتنا ، أضيق من أن تسع نازلة البلاء التي ابتليتنا ، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين .

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لا نجد فيها ظلاً نستظل به ، ولا أكمة نأوي إليها ، وإن الصديق الذي نعثر به في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسري فنترامى في ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين ، فإذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فإنا لا نجد بدًا من البكاء والجزع ، لأن من الشقاء ما لا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كأسه .

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب ، والنجم المتلألئ الذي كنا نتنوره من حين إلى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم ، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها فنحن إن بكيناه فإنما نبكي الأمل الذاهب ، والسعادة الراحلة ، والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو الأمة غير هذين الرجلين ، ميت الأمس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ علي يوسف ، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها ، يمسكها الأول إن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها ، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحدًا ، فويل للأمة في دينها وويل لها في جامعتها .

العلماء والخطباء والكتّاب في هذه الأمة كثير ، ولكن الرجال قليل .

إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه : الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها ، فيقوم لها بكل ما تريد ، ويسعى لها سعي الكادح المجد ، ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر عبث أطفالها ، وجهل شيوخها ، ويرى لها في كل شأن من شؤونها خيرًا مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها ، من حيث لا يمن عليها بذلك . ولا يطلب عندها جزاء ولا أجرًا ، بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه آلام الحياة وما يعالج من شدائدها في سبيلها .

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته ، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال .

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكانًا ، وأدق مسلكًا ، من أن تتناولها النظرة الطائرة ، ولأنه كان مخلصًا متحنثًا يعمل في سره أكثر مما يعمل في علانيته . ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه .

رأيته في حادثة الأزهر - في تلك الأيام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين - يقضي كثيرًا من لياليه مترددًا على أبواب القائمين بالأمر ضارعًا إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم قائلاً عنهم ما كان يقوله النبي ﷺ عن فئة حنين : « اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا » فلا يقف في سبيله إلا حماقة أولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم .

ورأيته يضم إلى كنفه كثيرًا من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة «عبد الحميد» وتنكر لهم الناس جميعًا خصوصًا أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم ، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله ، فلم يبال بشيء من ذلك .

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حربًا عليه وشـــقاءً له يعودون إلى حظيرته واحدًا بعد آخر يســـتغفرونه فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء كأنما كانوا معه على ميعاد .

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقدًا ولا واجدًا ولا منتقمًا ولا طالبًا بثأر ولا ذائدًا عن نفســه إلا في الساعة التي يعلم فيها أن قد جد الجد وأن قد أصبح عرضه وشرفه على خطر ، ولم أر سائلاً دخل إليه يشكو حاجة من الحاج صادقًا كان فيها أم كاذبًا ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه إلا أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سـبيلاً ، رحمةً وإشـفاقًا ، لا رياءً ونفاقًا ، وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعًا غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فإذا هو مصيب والناس جميعًا مخطئون .

ففي ســبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك ، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سرًا كامنًا بين أحشاء ضلوعك لا يكتنهها ولا يستشف باطنها إلا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعًا رأي العين إلا وهي طائرة في جو السـماء إلى ربها ، وكذلك شـأن هذه الأمة البائســة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشــعر بعظمتهم ، إلا وهم ذاهبون إلى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم ، فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل أن في أرضها كنزًا مخبوءً حتى إذا باعها ممن يســتخرج ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون .

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها ، بل كنت أفضــل من الحقيقة ، لأن الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها ، أنا أنت فكنت تخدم أصدقاءك وأعداءك ، أما الأولون فلأنك كنت تحســن إليهم بجاهك أو بمالك ، أو برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك وشرفك ، فويل للفريقين معًا من بعدك ، وكنت القطب الذي تدور حوله رحى الأقلام في هذا البلد ، فقد كانت وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك أو يكتنهوا مقاصـدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك أو يذموك ، فإن كتبوا في شـأن من الشـؤون غير هذا فتروا واسـتبردوا ، فواضـيعة الأقلام وما أضـيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك ، وكنت العصـمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف بؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، وما أحسب إلا أن الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها في ماضيها ، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم .

أيها الراحل الكريم : لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبي بقية من الصـــبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعدني عن موطنك في آخر أيام حياتك فحرمني جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك ، وأرى آخر نظرة من نظراتك ، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشـك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات ؛ ووقفة أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دمعة يذرفها الباكون عليك ، فلئن بكيت موتك يومًا فسأبكي حرماني وداعك أيامًا طوالاً حتى يجمع الله بيني وبينك .

■ ■ ■

## العظمة

إن رأيت شــاعرًا من الشــعراء ، أو عالمًا من العلماء ، أو نبيلاً في قومه ، أو داعيًا في أمته قد انقســم الناس في النظر إليه وفي تقدير منزلته انقسـامًا عظيمًا وانفرجت مسـافة الخلف بينهم في شـأنه ، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملك ، ودان ببغضــه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشـيطان ، فاعلم أنه رجل عظيم .

العظمة أمر وراء العلم والشعر ، والإمارة والوزراء والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون ، والعظماء منهم قليلون ، وإنما هي قوة روحية موهوبة غير مكتســبة تملأ نفس صــاحبها شــعورًا بأنه رجل غريب في نفســه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأســاليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال ، ولا مقدود على مثالهم ، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة ، فإذا نزلت نفســـه من نفســـه هذه المنزلة أصـبح لا ينظر إلى شيء من الأشـياء بعين غير عينه ، ولا يسـمع بأذن غير أذنه ، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفســه ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شـأنه وشـأن صـاحبه سـلطانًا عليه في رأي أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبة لطريقة ، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوســهم أن حقًا على الناس جميعًا أن يســتقيدوا له ، وينزلوا على حكمه ويترســموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم تبهر وتدهش الأنظار ، وتملأ القلوب هيبة وروعة ، فإن كان شاعرًا كان مبتكرًا في معانيه أو طريقته ، أو كاتبًا أخذ على النفوس مشاعرها وأهوائها ، أو فقيهًا هدم من المذاهب قديمًا وبنى جديدًا ، أو ملكًا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشـغله ملك سـواه ، أو وزيرًا سـاس أمته بسـياسـة جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل ، أو قائدًا ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء .

تلك هي العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هذا شـأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومعترك أنظارهم وأفهامهم ، ومثار الخلف والشقاق بينهم في ا ستكناء أمره ، وتقدير منزلته فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد ، حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وســكناته ، والإغراق في حبه ، والمشــايعة له ، والســير بعجائبه وغرائبه في كل صقع وناد فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعًا غير جميل ،

فلا يجدون له بدًا من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضــه ، على قاعدة المشـــادة والمعاندة . وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصــاره وخصــومه ، فيهاجمه هؤلاء يحاولون اســتلاب عظمته منه ، ويناضــل عنه أولئك يريدون اسـتبقاءها في يده ، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئًا مغتبطًا ، لا يحزن ولا يبتئس ، لأنه يعلم أن جميع هذه الأصـوات الصـارخة الصـاخبة حوله إنما هي أبواق شـهرته وعظمته .

لا أريد أن أقول إن الرجل العظيم مصـيب في كل ما يرى وما يفعل ، وما ينتهج لنفســه وللناس من المناهج والخطط ، فربما كان من هو أضعف منه قوة ، وأخمل ذكرًا ، أسدّ منه رأيًا ، وأصدق نظرًا ، وإنما أريد أن أقول أن أحدًا من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب ، وعقول المفكرين وألسنة الناطقين ، وقلوب المحبين والمبغضين ، إلا الرجل العظيم .

حب عليًا قوم حتى كفروا بحبه ؛ وأبغضــه آخرون حتى كفروا ببغضــه . وسـمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين ، وأنكر بعضهم صحبتهما ، وإخلاصهما . وعاش محيي الدين بن العربي بين فئة تراه قطب الأولياء ، وأخرى تراه شيخ الملحدين . واغتبط فريق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الإسـلام ، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصـاقًا في المسـجد الجامع . وسـمى قوم صـاحب كتاب الإحياء حجة الإ سلام . ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح ، وعاش المعري بين ر ضا الرا ضين عنه ونقمة الناقمين عليه يلثم الأولون مواطئ نعاله . ويســحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة . وشرب سـقراط كأس السـم بين أفواه باسـمة شـماتة به ، وعيون دامعة حزنًا عليه . وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارة فإذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فإذا هو أكبر المتكلفين ، ورفع قوم شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنسـاني فقالوا نابغة الدهر ، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسـة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب . وافتتن المفتتنون بنابليون الأول فعلوا به إلى رتبة الأنبياء وتنكر له خصـومه وأعداؤه فسـلكوه في سـلك الحمقى والمغرورين ، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير ونيتشـــه وتولســـتوي كأسي الحب والبغض في حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما ، وما انقســم الناس في هذا البلد في هذا العصرـ في شـأن رجل من الرجال انقسـامهم في شـأن جمال الدين ومحمد عبده وسـعد زغلول ومصـطفى كامل وعلي يوسف وقاسم أمين .

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه إليها المغرقون في حبه ، أو ينزل به إليها الغالون في بغضه ، ولكنهم كانوا قومًا عظماء فانقسم الناس في شأنهم ، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم ، إلا في شأن الرجل العظيم .

ليس معنى الوجود في الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقًا يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحده ثم ينزلق فيه انزلاقًا من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الأرض ، وإنما الوجود قرع السماع ، واجتذاب الأنظار ، وتحريك أوتار القلوب ، واستثارة الألسنة الصامتة ، وتحريك الأقلام الراقدة ، وتأريث نار الحب في نفوس الأخيار ، وجمرة البغض في قلوب الأشرار ، فعظماء الرجال أطول الناس أعمارًا وإن قصرت حياتهم ، وأعظمهم حظًا في الوجود وإن قلَّت على ظهر الأرض أيامهم .

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها ، ويحمل أحجار هيكلها على رؤوسهم هادموها وبناتها ، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء ، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد ، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعًا .

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتًا في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانهما ، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما .

لا يعجبنك أن يتفق الناس جميعًا على حبك لأنهم لا يتفقون إلى على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ، ثم يقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل ، يضربونه فيصطبر لهم ، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلبًا لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب ، ويزجرونه فيزدجر .

ولا يعجبك أن يتفقوا على بغضك ، لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحدًا من الناس فلا يحبهم من الناس أحد .

وليعجبك أن يتخلفوا في شأنك ، وينقسموا في أمرك ، ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فتلك آية العظمة ، وذلك شأن الرجل العظيم .

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعاد عليه ، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم .

كن الناطق الذي تحمل الريح صـوته إلى مشـارق الأرض ومغاربها ، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها ، ولا يعرفون لها يدها .

كن النبتة النضرـة التي تعتلج ذرات الأرض في سـبيل نضرـتها ونمائها ، ولا تكن الذرة التي تطؤها الأقدام وتدوسها الحوافر والأخفاف .

كن زعيم الناس إن استطعت ، فإن عجزت فكن زعيم نفسك ، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء ، والتلصـق بهم ، أو مناصـبتهم العداء والوقوف في وجههم ، فإن فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء والأعزاء .

■ ■ ■

## الانتقاد

سـألني بعض الأصـدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده ؛ وآدابه وواجباته ؛ ورأيي فيه ألَّا شروط له ولا حدود ؛ ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في انتقاد ما يشـاء من الكلام مصـيبًا كان أم مخطئًا محقًّا أم مبطلاً ، صـادقًا أم كاذبًا ، مخلصًـا أم غير مخلص ؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاسـتحسـان والاستهجان . وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع ، إلى أنة النزع ، وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس ، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضـع الخطإ فيه ؛ ويرشـده إلى مكان الصـواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصـواب والخطأ ، حتى يستقيم له الصواب كله .

فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفؤًا في علمه ومخلصًا في عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس ، فقد أبينا عليه أن يخط سـطرًا واحدًا في الانتقاد ؛ وقضـينا على ذهنه بالجمود والموت ، لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدودًا معينة واضحة ، فكل منتقد يزعمها لنفسه ، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منهما ، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله ، فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أن المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيبًا في بعض ما يقول لأنه لم يأخذ على نفسه عهدًا أن يختلق جميع المآخذ التي أخذها ؛ وألا يكتب إلا الباطل والمحال ، وإنما هو رجل عياب بالحق وبالباطل ، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فليلجأ إلى السيئات المختلفة .

ولقد كتب أول انتقاد في التاريخ بمداد الضـغينة والحقد ؛ فقد كانت توجد في عصـور اليونان القديمة طائفة من الشـعراء يجوبون البلاد ، ويتغنون بالقصـائد الحماسـية والأناشـيد الوطنية في الأسـواق والمجتمعات ، وبين أيدي الأمراء والعظماء ، فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيمًا ، ويجزلون لهم العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك العظماء حظوتهم ، فأخذوا يعيبونهم ؛ ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم وأصـواتهم ، ومعاني أشـعارهم ، وأسـاليبهم ، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد ، والفضـل في ذلك للضغينة والحقد ، فلرذيلة الحقد الفضل الأول في وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة .

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في اسـتحسـان الكلام واسـتهجانه رأيًا صـائبًا . لا ، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه - متى رزق حظًا من سلامة الذوق واستقامة الفهم - أصح من رأي الأديب

المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملاً ، ويتعمق تعمقًا كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما ، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامي عفوًا أنفع للأديب حين يراهما ، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه ؛ من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره .

وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها ، أو خاصتها أو عامتها ، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلمًا كان أو جاهلاً ، أن يدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه ، واستهجان من يستهجن منه .

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد ، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة ، والمكانة التي نالوها بين عامتهم ودهمائها؟

وبعد ، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعًا إلا الغبي الأبله الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم ، ويزعجه كل الانزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم ، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها ، أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم ، ويفرق من رؤية الأشباح ، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صوابًا فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه ، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم ، يأمرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون ، ولئن استطاع أحد أن يخدع أحدًا في كل شأن من الشؤون فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه ، ولو أن الأصمعي وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والفالي وقدامة وابن قتيبة والآمدي وأبا هلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلاً لما كرهوها ، أو يمحدوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها ، فهي تختفي حينًا ، أو تتنكر ، أو تتراءى في ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تنمحي ولا تزول .

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت ، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت فلقد حرمنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا ، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير .

## يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان أن امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار ، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله ، فابتهجت بمرآه ابتهاجًا عظيمًا ، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار ، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد ، كما وعدته ، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغالاة شديدة حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه ، وأنها لا تستطيع العودة بدونه ، فساقتها الضرورة التي لا يقدرها إلا من حمل بين جنبيه قلبًا كقلب الأم ، وفؤادًا مستطارًا كفؤادها ، إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها ، ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها .

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشركة فجاء منه بجنديين للقبض عليها ، وصعدوا جميعًا إلى الغرفة التي تسكنها ففاجأوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظمى ، لا على التمثال الذي انتزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين يديه ، وكانت كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل : رحماك بأمي يا مولاي ، وظل يبكي بكاءً شديدًا .

جمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق إطراقًا طويلاً ، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة ، وصعب عليه أن يترك هذه السرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعًا ، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما : أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة ، فإني لا أبيع هذا النوع من التماثيل ، فانصرفا لشأنهما . والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه ، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته ، فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفض عرقًا حياء من فعلتها ، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان .

***

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان ، نجم سعود ونجم نحوس أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتماثيل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون في فراشهم أنينًا يتصدع له القلب ، ويذوب له الصخر ، حزنًا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم : ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها .

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل .

إن رجلاً لا يؤمن بالله ورسله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه قلبًا يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء ، ولا قلبه من الخفقان عندما يرى في العيد ، في طريقه إلى معبده ، أو منصرفه من زياراته ، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن ، فلا يجد بدًّا من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها ، وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها .

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة أو مرتين .

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الأبناء أن شبابكم أعظم قوة ونشاطًا ، وأبعد همة ، وأقوى عزيمة ، من شيخوختنا ، وأن أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة ، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة وحرارة ، وأبعد غورًا وعمقًا ، من آرائنا وتصوراتنا ، ولكن الذي ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا ، واحتقاركم لنا ، ورميكم إيانا بالجمود مرة ، والخرف أخرى ، كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون ، كما أننا ننعى عليكم كبراءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيل إليكم معه أن هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم ، ووقف عليكم ، لم تمر بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول في ابتكارها وافتراغ عذرتها ، ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية والأناة ، وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضي - وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه - لعلمتم أن هذا العهد الذي يمر بكم اليوم ، والذي تفاخروننا به وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه ؛ وتصوراته وخيالاته مر بنا مثله في زماننا ، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون ، ونردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والأفكار التي ترددونها اليوم ، حتى انطوى ذلك العهد ، وزالت معالمه ، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتأمل ، والخبرة والتجربة فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا ، ونثوب إلى رشدنا ، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والأفكار ، والأحلام والآمال ، بإمعان وتدقيق ، فا ستطعنا أن نميز صالحها من فا سدها ، و صادقها من كاذبها ومعقولها من موهومها ، وأن نقلب الأشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ، ونوازن بين هذه وتلك ، فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته ، وأطرحنا ما زادت سيئاته على حسناته فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون ألكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعًا ، وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة ، وأخص صفاته قصر النظر ، وسرعة الحكم ، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع أن يتصور تصورًا ثابتًا متينًا أن الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق إلا من مطلعه ،

ولا ينبت إلا في تربته ، وأن المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب إليه من أن يتصور أن في استطاعته أن يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه و سمائه ، ثم يخلقه خلقًا جديدًا على الصورة التي يريدها ويتصورها ، وأن في إمكانه أن يحيل الترب أمواهًا ، والأمواه تربًا ، وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته ، وأن يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه ، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته ، وتفتر حدته ، ثم لا يلبث أن يسقط جاثيًا بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفًا بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفًا : إن للكون إلهًا لا أستطيع محادته ، وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها .

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثًا ألذ ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا لشدة إعجابنا بها ، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها ، والوقوع من نفسها موقعًا جميلاً ندافع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها ، ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها ، فتتبرج كما تشاء وتسفر كما تريد وتجلس إلى الرجل جنبًا لجنب في المجتمعات العامة والخاصة ، دون أن يعارضها معارض ، أو يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها إلى أكثر من ذلك فكنا نغتفر لها سيئاتها الأدبية ، ونسميها سقطات ، أي هفوات فردية لا أهمية لها ، ونغريها بمحاسبة زوجها حسابًا شديدًا على خيانته لها ومقابلة فعلاته بمثلها لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ، ونقول لها : ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا ، صادرة من أعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها ، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه .

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ، وننفر من كل قديم كما تنفرون ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره ، لا لأننا وازنا بينهما ، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمن الطفولة ، والطفل سريع الملل كثير السآمة ، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم ثم يملها فيكسرها ويستبدل منها .

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفلم» صوره ، كأن فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها .

وكان العارف منه بلغة أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتانًا شديدًا ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في أحاديثه واستشهاداته ، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم ، بل لأنه كان بسيطًا غريرًا يحتقر كل ما في يده ، ويستعظم كل ما في يد غيره .

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار ، وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل أشباحًا وصورًا تتراءى في حياتنا ، فتعجب بها ، ونستطير فرحًا وسرورًا بجمال منظرها وبهجة ألوانها فأصبحنا معتدلين في آرائنا متئدين في أحكامنا ، نحب حرية المرأة ولكنا نكره فسقها وفجورها ، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة ولكنا لا نقلدها ، ونحن نحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم ، ولكنا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا .

نحن لا نطلب منكم معشر الأبناء وأنتم في ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين متئدين في أحكامكم وتصوراتكم ، أو هادئين في مطامعكم وآمالكم ، فليس من الرأي أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عن أنفسنا ، ولكن أمرًا واحدًا كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص هو الذي إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا ، وتضنوا به ضنا .

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا ، وأوسع منهم علمًا وأقوى إدراكًا ، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون ، أو متأخرون أو جامدون ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التي تلقبوننا بها ؛ ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم ، وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق إذ كان مسيحيًا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يبني له بيعة في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شأنًا من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه .

**ذلك ما نضرع إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا ، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم ، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم - وأساتذتكم آباؤكم - أن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود ، وما هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون .**

■ ■ ■

## الموتى

« مترجمة »

دقت أجراس المســـاء تنعى اليوم الراحل وتندب جماله الزائل وأخذت قطعان الماشـــية تعود من مراعيها إلى حظائرها ، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليهم بعصيهم ، لا يريدون بها شرًا ولا أذى لأنهم يحبونها ويرحمونها ، بل يخافون عليها الضـــلال ، فهم يهدونها الطريق ؛ ومد الظلام رواقه الأســـود على جســـم الطبيعة المنبسـطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر ، فهو يقيها برد الليل وغائلته ، وسـاد سـكون رهيب في تلك الأنحاء ، فلا يسـمع إلا صـوت البلبل يشـكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشـعة متلألئة ؛ ونعيب البوم يمد صـوته بالشـكوى إلى الله تعالى في سـمائه ، وما شـكاته إلا أن بني آدم يطأون أرضـه ، وينتهكون حرمة خرباته المقدسة ، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدة طويلة بل أكثر من طويلة ، لأنها لا نهاية لها فلا نسـمات الصباح الباردة ، ولا تغريد الطيور الصادحة ولا صياح الديكة ، ولا رنين الأجراس ولا هتاف الرعاة ؛ يوقظهم من رقدتهم هذا .

أسـفي عليهم لقد أمســوا ولا نيران توقد في أكواخهم ، ولا زوجات صـالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم ، ولا صبية صغارًا يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم . أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشـداء أقوياء تمد السـنابل أعناقها خاضـعة لمناجلهم . ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم وترعد جذوع الأشجار الضخمة فرقًا من ضربات فؤوسهم .

أولئك الوجوم الصــامتون كانوا بالأمس فرحين مســتبشرــين يرقصــون ويغنون ويجدون الســعادة والبهجة في كل ما يحيط بهم فيطربون لوقع حوافر ماشــيتهم على الحصــباء ، كأنما يســمعون قيثارة مطربة ، ويجدون في ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الراحة التي يجدها أصحاب الأسرة فوق مهادهم الوثير ، ويشــعرون في تناولهم ألوان الطعام الشــهي على موائدهم ، ويغترفون بأكفهم المياه من الأنهر والخلجان فيلتذون بارتشافها كأنما يتناولون صافية الصهباء في كؤوس البلور والذهب .

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصــب لهم التماثيل ، ولم ترفع فوق قبورهم القباب . كانوا في حياتهم شرفاء عظماء ، لأنهم كانوا متحابين متآخين ، لا يحســـد فقيرهم غنيهم ، ولا يبغي قويهم على ضعيفهم ولا يحقدون ولا يغدرون ولا يخافون شيئًا حتى الموت ولا يعبدون إلهًا إلا الله .

كذلك كانوا بالأمس ، واليوم طواهم الرمس ، فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض ، وبعدما أصبحوا في بطنها .

فليجث فوق رمال هذه القبور المبعثرة ، وبين أحجارها المتهدمة المتساقطة ، أرباب المطامع في الحياة وطلاب المجد والعظمة خاشعين مستكينين ، خافضي رؤوسهم إجلالاً وإعظامًا ، وليمسكوا قليلاً الإدلال بعزهم وجاههم ، والمكاثرة بفضتهم وذهبهم وليخفوا في أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة عن شفاههم ، وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التي يسيرون فيها ، وإن كانت مخضرة جميلة ، مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار ، فإنها تؤدي في نهايتها إلى هذا المصير الذي صار إليه هؤلاء المقبورون .

أيها الناعمون في عيشهم ، المدلون بعزهم وجاههم ، المفتخرون بقوتهم وحمالهم لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعثة بالية ، وقبابهم متهدمة خاوية ولم تروا أسماءهم منقوشة بجمل الألوان وأزهارها على صفائح قبورهم ، واصغوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران ، والحقول والمروج ، والطيور المغردة فوق أعالي الأشجار والسوائم الحائمة على ضفاف الأنهار ، فهم أصحاب اليد التي رصعت التاج للملك وصنعت السيف للقائد ونسجت المسوح للراهب ، وبنت القصور للأمراء ، وصاغت الحلى للأميرات ، وغرست العشب للسائمة ، ووضعت الحب للطائر وهيأت للأحياء جميعهم - ناطقهم وصامتهم - طعامهم وشرابهم ، ودثارهم ومهادهم .

أيها العظماء : لا تخلد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحيتها ، ولا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي يخطها التاريخ في صفحاته ، ولا تسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة في أناشيد الرثاء .

رب يد تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ في حياتها لكانت يد العازف الذي يشنف الآذان ، أو يد البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان أو يد الشاعر الذي يثير الأشجان ويبعث إلى القلوب السرور أو الأحزان ، ورب قلب في هذه الحفائر المظلمة لو عاش في جو غير هذا الجو ، وعالم غير هذا العالم ، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال العظام ، والأماني الجسام أو قلب زعيم جريء يحاسب الظالمين على ظلمهم ، ويذود النوم عن أجفانهم ، أو قلب نائب كبير يستهوي ببلاغته القلوب ، ويسترعي الأسماع فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب .

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين صـــدفتيها! وكم من زهرة أريجة لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فأذبلتها! وكم من ما سة و ضاءة عجز المعدنون عن ا ستخراجها من معدنها فانطفأ نورها في منجم الفحم المظلم! وكم من قريحة وقادة لم تصـــقلها العلوم والتجاريب فعاشــت مغفلة مهملة حتى انطفأت شـعلتها ولو أنها صـقلتها لغيرت وجه الكون ، وبدلت الأرض غير الأرض! نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن) إلا أن التاريخ لا يعرفه ، ومن كان له لسان كلسان (ملتن) إلا أنه لم ينصب له تمثال ، ومن كانت له همة كهمة (كرومويل) إلا أنه لم يقد الجيوش ، ولكنهم عاشـــوا في هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضـــارة فدفن الجهل مواهبهم وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم فمروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد ، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد .

هنيئًا لهم جهلهم وخمولهم ، فلو أنهم كانوا عظماء لقضــوا أيام حياتهم يســفكون الدماء ، ويمزقون الأشـلاء ، ويغتالون حقوق الضـعفاء سـعيًا وراء أغراضـهم ومطامعهم ، لا بل إنهم كانوا عظماء ولكنهم بريئون من آثار العظمة وجرائمها .

رحمة الله عليهم ، لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم ســـوى حجر قديم ملقى في طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر :

« أيها المار في هذا المكان احترم تربته ، ولا تطأ بقدميك رفات الموتى » .

هذا كل ما طمعوا فيه من شـؤون الحياة بعد موتهم . لم يطلبون تمثالاً يقام لهم ، ولا قبة ترفع فوق أضرحتهم ولا صــفحة خاصــة من صــفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم ، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم ، ولا قطرة غيث تبل ثراهم فما كان أقنعهم وأزهدهم!

■ ■ ■

## الزهرة الذابلة

ورد إلي من صاحب التوقيع الكتاب الآتي :

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح ، غير أني عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذي ضعضعني وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني «الصمم» الكامل فضاعت بذلك آمالي وأظلمت الأرض في وجهي فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدي إلي جميلاً بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام .

٦ يناير سنة ١٩١٤ .

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بني ، فهو فوق ما يحتمل المحتمل ، ويطيق الجلد الصبور ولو حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكان شأني معك شأن أولئك الخادعين من المعزين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقولوا للثاكل «لقد قدمت بين يديك شفيعًا يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك » وللباكي أباه «ما مات من خلف مثلك» وللباكي أخاه «إن في الباقي عزاء عن الماضي» وللباكية زوجها «الشباب غض والرجال كثير» وللفاقد بصره «حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك» وللمحتضر المشرف «إن في لقاء ربك عوضًا من لقاء الدنيا» ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك «لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء» وكأنما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه ، هان عليه هذا لذاك ، واغتفر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون أن الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب أو نفثة من نفثات الود ، ولا دخل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك ، وأن أقسى الآباء قلبًا ، وأصلبهم فؤادًا ، لو ساومه مساوم في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء لكان رأيه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله :

وما سرني أن بعته بثوابه  ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وإن الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من أولادها ، والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه في كل محلة يحل بها ، والزوجة تبكي زوجها وإن كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها ، وإن البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكًا وبؤسًا يضن بحياته الضن كله إذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السموات والأرض ،

فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدوائهم ، وتصغير شأنها في أعينهم ، ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوبًا تحس بحساسها وتشعر بشعورها ، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها .

وأعوذ بالله أن أكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك ، أو الغاشين لك فيها ، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت ، وكيف يستطيع أن يُعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزي نفسه عن مصابه فيك ، فقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرت كأني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك ، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعًا من سبب وصلة ، فأصبحت وأنت في دار الأنس والاجتماع ، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها ، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها أحد ، ولا ترى بين يديك إلا نصبًا مائلة ، وتماثيل جامدة .

تحسب العين أنهم جد أحياء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء ، ولا رنة حداء ، ولا خرير نهر ، ولا تغريد طير ، ولا حفيف شجر ، ولا زفيف ريح ، ولا ثغاء شاة ، ولا نقيق ضفدع ، ولا صرير جندب ، سواء لديك ليلك ونهارك : وصبحك ومساؤك ، ويقظتك ومنامك ، فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست إلى الناس ساعة تتفرج فيها مما بك ، لا تسمع شيئًا مما يقولون ولا يعنيهم أن يسمعوا شيئًا مما تقول ، فإن قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفًا من حروفهم ، أو تتفهم حركة من حركات شفاههم ، أو إشارة من إشارات أيديهم ، أنكروا عليك نظراتك ، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم ، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم ورموا بها في وجهك من حيث لا تعلم ، فإن رأوا منك أنك تقتضب الأحاديث اقتضابًا ، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم ، وأنك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم ، فتعلو به عليها ، أو تنزل به دونها وأنك تبتسم في موضع التقطيب . وتقطب في موضع الابتسام أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التي ينظرون بها إلى الأطفال الصغار والبله الأغرار فإن ألمت بسر نظرتهم هذه إليك ألم بك من الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله ، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه إليك ، وكل ابتسامة تتراءى لك ، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس إليك من أصدقائك وعشرائك ، بل من أبويك وأهليك فلا يكاد يسلم لك صديق ، أو يصفو لك حميم .

فإذا فررت من الناس نجاةً بنفسك من لؤمهم وقسوتهم إلى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك ، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في أيامك الأولى ، وما انتهى إليه أمرك في أيامك الأخرى فلا تنفعك خلوة ولا يؤنسك اجتماع .

وأخوف ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن - ولا أسأل الله لك دوامه - وظللت تنطق ولا تسمع ، وتقول ولا تفهم ما يقال أن تصبح في يوم من أيامك لا سامعًا ولا ناطقًا ، فالسماع مادة النطق التي يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير .

وكثير عليك يا بني وأنت زهرة يانعة في روض الشباب وابتسامة لامعة في ثغر الآمال ، وفجر مشرق في سماء الحياة أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة ، فلا تلبث إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلاً حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء .

فوا رحمتاه لك يا بني مما بك اليوم ، ومما يستقبلك به الدهر غدًا ، فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك أو يمنحك عينًا ثرة من الدمع لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته ، وتفتأ لوعته ، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الأرض ولا في سبيل من سبل السماء ناصرًا ولا معينًا ، والسلام عليك - من الراثي لك ، الباكي عليك - ورحمة الله .

■ ■ ■

الوجهاء

جرى بيني وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتي :

الكاتب - ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء ، من السحب السوداء؟

الوجيه - إن بين جنبي همًا يعتلج ، وكمدًا يذهب باللب ويطير بشظايا القلب ، ونارًا من الحزن متأججة متطربة دخانها هذا الذي تراه .

الكاتب - أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه ، قصر غمدان ، وخورنق النعمان ، وحور وولدان ، وظل ظليل ، ونسيم عليل ، وخزائن تموج بالذهب ، موج التنور باللهب ، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس! وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة ، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك ؟

الوجيه - أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر ، والشقاء المقبل في السعد المدبر ، وإني لأرى في السماء غمامة دكناء توشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى والكارثة العظمى .

الكاتب - ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهدًا مكتوبًا بتلك الأحرف الذهبية ، ألا يسدد سهمه إليك ، ولا يدور بدورته عليك .

الوجيه - متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه ، فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي ، يديرها فترى الأسود في مكان الأبيض ، والأبيض في موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها ، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد .

الكاتب - هل لك أن تحدثني من أي منفذ نفذ الدهر إليك وما عهدتك شاربًا ولا عاهرًا ، ولا مقامرًا ولا مستهترًا؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه إلى خزائن الأغنياء غير هذا المدخل .

الوجيه - أين يذهب بك أيها الصديق ، وهل يؤتى الأغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة ؛ وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم ، إلا الشغف بنظرة الأمير ، ولفتة الوزير ، وزورة المدير ، وأنت تعلم أن رجلاً مثلي لا يمكن أن يكون له مطمع في المجد الصحيح ، فلست بصاحب علم فأفخر به ، ولا صاحب قلم فأمت بما يمتّ به أصحاب الأقلام من خدمة

المجتمع الإنســاني وتهذيبه ، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ولا ســبيل إليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز روكفلر ، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة ، في بناء القصــور نزلاً للحكام ، وغرس البســاتين منازه لهم ؛ وإعداد الفرش والآنية لمآربهم وولائمهم ؛ فلما نضــب معين الذهب ، وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر لجأت إلى مصرف من المصارف المالية فأثقلني بالديون ، وأرهقني بالطلب ففزعت منه إلى آخر ، ثم إلى آخر فكنت كناقس الشوكة بالشــوكة ، أو غاســل الدم ولو كشــف لك من أمري ما كشــف لي منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ، ودور وقصــور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام الســوداء المســطورة في جرائد الصــيارف ، وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين : قضاء الأرض وقضاء السماء .

ذلك كل ما يســتفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتي به ، فلا تحســد الوجيه على مظهره الكاذب ، وزخرفة الباطل ولا تنفس عليه بؤسه الكامن ، وشقاءه الخفي ، فهو أتعس خلق الله ، وأكثرهم همًا وأثقلهم مئونة ، وأخسرهم حاضرًا ومستقبلاً ، يكون عنده من الضياع أو العمائر جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهًا ، والوجاهة كلمة صــغيرة معناها في نظر الناس كبير ، كأنما هي عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه في اصــطلاحهم هو الرجل الذي يمدّ لكل غريب نزل بلده مائدة ، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيه ، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وإن كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، ويبتاع تذاكر حفلات الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشــكالها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها ، ويشــترك في جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالإنســان ، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها وإن كانت في علم الأرتناطيقي أو علم المنطق وكان هو عمدة أو شــيخ بلد ، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشــاريعها من بناء المســتشــفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في ســالف الأزمان ، والتي لا فرق بينهما وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأملاك .

الكاتب - إنها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام ، فالحكومة لا تشــهر عليكم ســلاحًا ، ولا تعد لكم سجنًا ، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيها ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة .

الوجيه - لا أزال أكرر القول : إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون ، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد ، مجبور باطنًا مختار ظاهرًا ، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه ، وأما الباطن فهو أن الوجيه منا - كما علمت - مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم ، فمنا من يزوره المدير أو المفتش لأنه وهاب الآلاف ، أو المأمور لأنه من أصحاب المئات ، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل ، ولا يشيعه إذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعًا ، ولا يكتب رقمًا في قائمة اكتتاب ، فلا يلبث أن يسلس قياده ، ويصحب عناده ، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحًا ، أو تعد لهم سجنًا ، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و« والوير كور » ، و«البطانطا» والعوائد الشخصية في عدة أعوام ، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام - عام الأزمة والجدب - فوجدت أني دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية .

الكاتب - هب أن الأمر صحيح كما تقول ، فالحكومة لا تودع هذا المال خزانتها ، ولا تقضي به غرضًا من أغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها ، وتقدمها وارتقائها .

الوجيه - ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من أموال الأمة لهذه الأغراض التي تذكرها ، ولكنها تضن بمال هي في حاجة إليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصًا الأجانب منهم وإقرار عيون السياح الأوربيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة ، فلا ترى لها بدًا من حمل تلك الحمالات على أعناقها بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما تتكبده في هذا السبيل مما يذيب الشحم ، ويعرق العظم ، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيها فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها ، فقد حكي عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة أنهم ضاقوا به ذرعًا فأحضره في مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل ، ثم أمر أن تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم ، فقال له هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية ، متفرقًا تحتمله ، لا مجتمعًا تتألم له .

الكاتب - حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال في سبيله ، وللآخرة خير وأبقى .

الوجيه - من أين يأتيني الثواب والأجر ، وهل يثاب المرء إلا على قدر نيته وإخلاصه في عمله؟ وإني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من أحوالهم ، ومارست من طباعهم ، أننا لا نريد من بذل ما نبذل إلا رضا الحاكم ، والتودد إليه ، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة ، وقضاء المآرب والحاجات أخرى ، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى أن أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره البائس الفقير إلا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهد فينا الفقراء ، ولوت المساكين وجوهها عن أنفسنا وجفانا ذوو الرحم والأقرباء ، وأصبحت قصورنا في نظرهم قبورًا يستدرون لها الرحمات ، لا مناهل يرجون منها الصدقات . وأقفرت «مضايفنا» إلا من عربدة المطربشين ورطانة المبرنطين فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله !؟

الكاتب - أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟

الوجيه - قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل .

الكاتب - عجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتنكر له كأنك لا تعرفه ، وتمد يدك إلى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه ، فقد زعمت أن مجد القربى من أولياء الأمر باطل ، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به ، وما نهوضك إليه ، وما لك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه ، و سوء مغبته ، ولقد كان طريق مختصر إلى المجد الصحيح والشرف الصميم ، لو كنت أكبر منك همة ، وأصح رأيًا ، وأقوى عزيمة ، فمجد الكرم ليس بأقل شأنًا من مجد السيف والقلم ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب وما كان يصيبك في الأول من الشقاء ما أصابك في الثاني ، فالكريم معان على أمره ، ومبارك له في عيشه ، متى صح له معنى الكرم ، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء ، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرًا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر ، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى ، ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجنتموها من دونها ، وأبت لكم همتكم الضعيفة أن يكون لكم كما كان لأمثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات تسمى بأسمائكم ، وتسجل في صحيفة أعمالكم فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولكم ، ويلعب بأموالكم ، ويرغمكم على الإحسان إرغامًا ، من حيث يكون له الغنم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكرًا حصلتم ، ولا مالاً حفظتم! وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون .

## جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسـان بعد موته ، ولا أين مكانها الذي تسـتقر فيه بعد فراق جسـدها ، ولا ما هي الصـلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها ، فإن كان صـحيحًا ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذًا يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل ، وثناء عاطر ، وسيرة صالحة ومجد باق ، فإن نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار ، وصالح الأعمال أوفر الأنصبة وأجزلها .

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة ، ولا أغلى جوهرًا ، ولا أحسـن أثرًا من نعمة اليقين بالجزاء الصـالح على العمل الطيب ، فهو يعتقد أنه مجزى على عمله ، مكافأ به ، مؤمنًا كان أم ملحدًا ، معترفًا بنعيم الآخرة أم منكرًا له ، فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وإن كان الثاني سـاقه إليه شـغفه بالذكر الجميل ، والسـيرة الصـالحة ، والحياة الباقية في ألسـنة الأجيال وبطون التواريخ ولولا هاتان الجنتان ، جنة المؤمنين وجنة الملحدين ، ما جدّ في هذه الحياة جاد ، ولا عمل فيها عامل .

إن ميدان الحياة أضـيق من أن يسـع بين غايتيه العمل الصـالح والجزاء عليه معًا ؛ وكيف يسـعهما والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته ؛ وتحترق فحمة شبابه ؛ حيث تموت في قلبه لذة العظمة ، وتنضب في فؤاده شهوة المجد ، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه ، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء ، فلابد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة ، إما حياة الأجر ؛ أو حياة الذكر .

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعًا ؛ أما هو فيبتسـم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهاها ، لأنه يعلم أن هذه الدموع التي نرسـلها وراء نعشـه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هي ألسـنة ناطقة بحبه وإعظامه ، والاعتراف بفضـله ، والثناء على عمله ، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتب به في صـحيفة تاريخه البيضـاء آيات مجده الخالد ، وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون .

مات جورجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاءه ، وبكاه جاره لأنه كان يجد في جواره لذة الأنس وجمال العشرة ، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله ، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه ، وبكاه قارئ كتبه لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة ، وجمال الأسلوب ، وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها ، وبكاه قارئ رواياته لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها ، عونًا له على هموم الحياة وآلامها ، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله .

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها ساكنها ومتحركها ، جامدها وسائلها ، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها ، أو صورتها التي تتشكل بها وتأخذ منها الأغراس نماءها ، والأزهار ألوانها ، والنار حرارتها ، والأجسام الحية قوتها ، والأجسام الجامدة صورتها ، والأجواء طهارتها ونقاءها ، والآفاق جمالها وبهاءها وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد .

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل ، والهمة والنشاط ، يكتب أحسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب ، وينشئ أجمل الروايات ويناقش ويناضل ، ويبحث وينقب ، ويستنتج ويستنبط ، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آن واحد ، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره . ولا يشكو مللاً ولا ضجرًا ، ولا يستشعر خورًا ولا فتورًا ، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه أن قليلاً من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير ، والعمل القليل .

ولو شئت أن أقول لقلت : إن جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييراً كليًا ، وغرست في صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل ، والشجاعة والإقدام ، والهمة والاستقلال ، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون ، وينشئون الجرائد والمجلات ، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية ، وحياة أمتهم الأدبية ، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها ، ويسألونهم أن يتخذوهم عبيدًا لهم يخدمونهم على موائد عزهم و سعادتهم التي يجلسون عليها فإما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد ، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية .

وكان شريف النفس بعيد الهمة ، متجملاً بصـــفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشـــيع ولا يتحيز . ولا يداهن ولا يجامل ، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ، فكتب وهو المسيحي الأرثوذكسيـــ تاريخ الإســـلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحســـنة إذا رآها ولا يشـــمت بالســـيئة إذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه في مجالس علمه من أبناء الأمة الإســـلامية خاصـــتها وعامتها ، عربها وعجمها ، جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر ، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الأوربيين الذين لا يثقون في خبر من أخباره ، ولا في بحث من أبحاثه ، بحديث شيعته وأبنائه ، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين ، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه ، وميول نفسه ، وخواطر قلبه أمام الأمانة والعلم ، والوفاء بحقه .

وكان مستقيمًا في عمله ، أمينًا في علائقه ، لا يكذب ، ولا يتلون ولا يخيس بعهده ، ولا ينكث وعده ، ولا يكســـو بضـــاعته لونًا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم ، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطًا من شروط الربح ، ولا سببًا من أسباب النجاح .

وكان واســـع الصـــدر ، فســـيح رقعة الحلم ، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون ، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين ، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشـتموه ، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصـموه ، وقالوا إنه شـوه وجه التاريخ الإسـلامي ، وعبث بحقائقه ، ولم يسألوه من أين نقل ، ولا كيف استند؟ بل سألوه لِم لم يكتبه كما كتبوا؟ ويستنتج منه مثل ما اسـتنتجوا؟ كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسـيحيًا متسـامحًا حتى أرادوا منه أن يكون مســـلمًا متعصـــبًا ، يكتب التاريخ بلســـان الدين كما يكتبون : وينهج فيه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله ، وخبث النية في مذهبه ، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الجامحة على أن يقولوا : إن الرجل باحث مســـتنتج ، يخطئ مرة ويصـــيب أخرى ، أو يقولوا أن له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك ، وما أحسب أن أحدًا منهم كان يعتقد شيئًا مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى ، وأن سلعته ملك لهم ، ووقف عليهم ، لا يجب أن تعرض في حانوت غير حانوتهم؟ وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها ، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه ، واستثقلوا ظله ، وقالوا مرة : إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه ، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة

موسى أو إنجيل عيسى ، وقالوا أخرى : إنه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقًا أو متجرًا ، فما هو بمخلص ولا بأمين ، وفاتهم - عفا الله عنهم - أنه إن كان ضيفًا فليس من أدب الضيافة ، ولا من خلال المروءة والكرم : أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده ، وأن يعد عليه لقيماته التي يطعمها على مائدته ، وإن كان تاجرًا فقد باعهم بهذا النذر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها وجوهر عقله ، وينبوع ذكائه ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الرابحين .

ووالله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الإيطالي والفاجر الأرمني أن يفتح كل منهم في كل موطئ قدم من مدنهم وقراهم حانًا يسلب فيه عقولهم ، أو مقمرًا يسرق فيه أموالهم ، أو ماخورًا يهتك فيه أعراضهم ، فلا يطاردونه ولا يحاربونه ، ولا يسمونه دخيلاً ولا واغلاً؟ ثم يضيقون ذرعًا بالعالم السوري أو العراقي أو المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم ، ويهذب نفوس أبنائهم ، ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والإقدام .

ذلك هو شقاء الأمم ، وهذا هو جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها .

لم يضق الرجل ذرعًا بهذا كله ، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم ولا يشمتهم ، وينبههم إلى أدب المناظرة وواجباتها ، ولا يؤنبهم ، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ، ولا يمكر بهم ، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم ، وإن كان مخطئًا ، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل ، وسوء الخلق ، وضيق العطن ، وإن كانوا مصيبين .

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في بناء الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة ، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعوا أن يتناظروا ولا يتشاتموا ، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف ، فإن تم لهذه الأمة في مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شؤونها وأغراضها فلنتذكر دائمًا أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة ، دولة الآداب والأخلاق .

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات ، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون ، وإنما الذي يعوزنا روح عالية تخفق في سماء هذه الأمة خفوق النجم الزاهر في سمائه ، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها فتبعث العزيمة في قلب العاجز ، والشجاعة في فؤاد الجبان ، وتقوم من الأخلاق

معوجها وتصلح من الآداب فاسدها ، وتثبت من العقول مضطربها ، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف : أن قيمة المرء في حياته أداء واجبه للإنسانية أولاً ولأمته ثانيًا ، ولنفسه أخيرًا ، وأن الحب سعادة الإنسان ، والبغض شقاؤه وبلاؤه وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه ، وأن الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه وأن الله تعالى أوسع رحمة ، وأعلى حكمة ، من أن يسدّ في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار ، وأن هذه الأحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهابًا لا تؤججها في صدورهم الأديان نفسها ، بل رؤ ساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها في أ سواق الغباوة والجهل ، وأن الذين يقدسون الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءً من ماهية الدين ، ومقومًا من مقوماته ، إنما يقولون منم حيث لا يشعرون : أن الإلحاد في العالم ، والفوضى الدينية فيه ، وعبادة الشمس والقمر ، والترب والحجر ، أنفع للمجتمع وأحسن عليه عائدة من عبادة الله المعبود .

ولقد كان جرجي زيدان روحًا من تلك الأرواح العالية تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلاً ثم فقدناها أحوج ما كنا إليها ، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه .

***

الكاتب كالمصور ، كلاهما ناقل ، وكلاهما حاك ، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس ، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس .

وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس ، خيال المكنون في النفس .

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائمًا إلى الكتابة والكتّاب ، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم ؛ كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته ، فأتخيله مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام .

وقليلاً ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه لأن الكاتب إن استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه ، أو براعة معناه ، أو سعة خياله ، أو قوة حجته ، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين .

كنت أرى عذوبة نفســه في عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه في طهارة لســانه ، وصــفاء ذهنه في وضــوح أغراضــه ومراميه ، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واســتنتاجاته ، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجازاة المتكبرين من الكتّاب في كبريائهم . ونزوله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون لأنه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الألفاظ ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون .

وإن كان الرجل هو الأسـلوب كما يقولون ، فلا أعلم أن أحدًا في هذه البلد كان أولى بوصـف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان ، فوارحمتاه له ، ووا أسفًا عليه .

■ ■ ■

## احترام المرأة

نعم إن الرجال قوامون على النســـاء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز ، ولكن المرأة عماد الرجل ، وملاك أمره ، وسر حياته ، من صرخة الوضع إلى أنة النزع .

لا يســـتطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصـــغير عواطف الأم ، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها ، وتبسـط عليه جناح رحمتها ورأفتها ، وتســكب قلبها في قلبه حتى يسـتحيلا إلى قلب واحد ، يخفق خفوقًا واحدًا ويشعر بشعور واحد ، وهي التي تسهر عليه ليلها ، وتكلؤه نهارها ، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في ســبيله ، غير شــاكية ولا متبرمة ، بل تزداد شــغفًا به ، وإيثارًا له ، وضــنًا بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته ، ولو شئت أن أقول لقلت إن سر الحياة الإنسانية ، وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة هي « قلب الأم » .

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلاً حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة ، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه ، وتســتظل بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد في شــؤون حياتها عليه ، حتى يشــعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذًا حتى يتم له ما يريد ، وما نصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شؤون حياته ، وسلوك الجادة في سيره ، ولا هداه إلى التدبير ومزاياه ، والاقتصـــاد وفوائده ، والســـعي وثمراته ، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة ؛ والدأب والمثابرة ، مثل دموع الزوجة المنهملة ، ويدها الضارعة المبسوطة .

ولا يســتطيع الشــيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف ، والحب والإيثار ، ما يجد في قلب ابنته الفتاة ، فهي التي تمنحه يدها عكازًا لشيخوخته ، وقلبها مستودعًا لأسراره ، وهواجس نفسه ، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه ، وتصغى إلى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ، ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعًا الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظمى لا يهونها عليها ولا يخفف من لوعتها في نفســها ، أنه قد ترك من بعده ميراثًا عظيمًا ، وكثيرًا ما ســمع الســامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ، ويشتجرون في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات .

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة ، لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسرات أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل ، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها .

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول إن الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنيًا بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم ، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك .

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها إلينا وجازيناها بها خيرًا ؟

لا .. لا ، لأننا إن منحناها شيئًا من عواطف قلوبنا وخوالج نفوسنا فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود ، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والإجلال ، وهي إلى نهلة واحدة من نهلات الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من الحب والغرام .

قد نحنو عليها ونرحمها ، ولكنها رحمة السيد بالعبد ، لا رحمة الصديق بالصديق وقد نصفها بالعفة والطهارة ، ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء ، لا عفة النفس والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق في الوصول إلى ذروة الإنسان التي تريدها ، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ؛ بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة ؛ أو لنتخذ منها ملهاةً لأنفسنا ، ونديمًا لسمرنا ومؤنسا لوحشتنا ؛ أي أننا ننظر إليها بالعين التي ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة لا نسدي إليها من النعم ، ولا نخلع عليها من الحلل ، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسرورًا .

إنها لا تريد شيئًا من ذلك ، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته ، ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته .

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه .

إنها لم تخلق من أجل الرجل ، بل من أجل نفسها ، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه .

يجب أن ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كيانًا مستقلاً ، وحياةً ذاتية وأنها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها ، لا أمام الرجل .

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح وتستروح رائحته الأريجة ، ليستيقظ ضميرها الذي أخمده السجن والاعتقال ، من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ، ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطانًا ، وأقوى يدًا من جميع الوازعين المسيطرين .

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات .

لا يمكن أن تكون العبودية مصدرًا للفضيلة ، ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكريمة ، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدرًا للنور ، والموت علة للحياة ، والعدم سلمًا إلى الوجود .

كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهتر ، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم ، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها ، كذلك لا أحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل ، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها ، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير .

وبعد ؛ فإما أن تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه أو أقل منه . فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق ، والنظير للنظير ، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده ، أي أنه يعلمها ويدربها ، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذي هو فيه ، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم . والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله ، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه .

■ ■ ■

## الانتقام

« مترجمة »

-١-

قضى المسيو « كابريني » برهة طويلة من أيام حياته سعيدًا مغتبطًا بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه إلى الناس جميعًا ، ثم نكبه الدهر نكبة عظمى ذهبت بماله وبزوجته ، فبكاهما ما شاء الله أن يفعل ثم بلى حزنه كما تبلى جميع الأحزان في قلوب الناس ، ولم يجد بدًا من أن يعيش لابنته « إلين » ليتولى تربيتها وإسعادها ، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل ، ثم لم يزل يجد ويجتهد في خدمة العلم الذي وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلاً لذلك المصرف ، فكان يعمل فيه سحابة نهاره ثم يعود ليلاً إلى منزله فيرى ابنته منهوكة مضعضعة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة شؤونه فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها ففعل وكان سيئ الحظ في اختياره ، فتزوج من امرأة فاسدة خليعة لا هم لها في حياتها سوى ترفيه عيشها ، وتدليلها نفسها ، والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائذها ، فلم ينتفع منها بشيء ، بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه ، ولكن ماذا يعمل وقد وضعت السلة في عنقه وانتهى الأمر ، وأصبحت ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها ، وأميرة نفسها ، أسيرة في يد امرأة قاسية داهية تسومها أنواع الخسف ، وألوان العذاب ، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد ، وكانت تكتمه أباها كتمانًا شديًدا ضنًا براحته و سكونه ، بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها ، رحمة به وإشفاقًا عليه .

وكثيرًا ما كان يعود إلى منزله في بعض لياليه حاملاً بعض دفاتر المصرف في يده ليتمم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن إتمامه هناك ، فيجلس إلى مكتبه ساهرًا ليله ، مكبًا على عمله ، ذائدًا النوم عن عينيه حتى يغلبه على أمره فينام في مكانه والقلم معلق بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وعشرائها في بعض الملاعب أو الحانات راقصة لاهية عابثة بجميع الفضائل الإنسانية ، فإذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت إليه برفق وهدوء ، وجلست على كرسي أمامه واجتذبت إليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعة ثم توقظه بعد ذلك لينام في فراشه فيشكر لها يدها ومعونتها ثم يسألها سؤال الممتعض المتمرمر : ألم تعد فلانة حتى الآن ؟ فتجيبه أن لا ، فيذهب إلى سريره حاملاً بين جنبيه من الهم والألم ما الله به عليم

وجملة القول أنه كان شقيًا منحوسًا ، يسير من شؤون حياته في ظلمة داجية ، لا ينتهي بصره فيها إلى مدى ، ولا يرى في سمائها نجمًا يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلمح من حين إلى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة فيتنفس أمامه تنفس الراحة ويأذن لفمه أن يبتسم في ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور .

فإنه لجالس ذات يوم في غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه إليه مديره وأعطاه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها في دفاتر المصرف فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته ووضعها في مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له إن فتاة من هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهي تكتم اسمها وتأبى الدخول إلى هنا فاضطرب اضطرابًا شديدًا ومر بخاطره أنها ابنته ، وأن حادثًا عظيمًا حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه في المصرف وما حضرت إليه فيه قبل اليوم ، فترك كل شيء في مكانه وخرج مسرعًا ليراها ، فإذا هي بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء والخجل ، وإذا بيدها كتاب تحمله من زوجته فاختطفه منها وقرأه فإذا هي تقول له فيه : إنها تريد أن يرسل إليها في هذه الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حلية جميلة رأتها في بعض المخازن وأنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غدًا فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم وأخذ ابنته ناحية وقال لها : بلغياها أنني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غدًا ، ولا أستطيع ذلك العام كله ، ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها إليه في المصرف وكان لا يحب ذلك منها ، فأطرقت برأسها ولم تقل شيئًا لأنها لا تستطيع أن تقول له إن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك ، فتزيد همومه همًا جديدًا ثم عادت أدراجها .

وكان بين عمال المصرف عامل سيئ الأخلاق ، فاسد النفس والضمير ، ما زال منذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله ، عله يتوصل إلى اختلاس شيء من المال ، فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم إليه بعض الأوراق فلم يجده ، ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب ، فحدثته نفسه باختلاسها ، فدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها في جيبه ، وخرج متسللاً لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه وما هي إلا لحظة حتى عاد المسيو « كابريني » وفي يده الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته فمزقه وألقى به في السلة ثم ألقى نظرة إلى المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها ، فذعر ذعرًا شديدًا ، وأخذ يفتش عنها في كل مكان فلم يجدها ، فاشتد حزنه وهمه ، وأخذ يسأل العمال والخدم عمن دخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد ، فظل يصرخ صرخات عظمى تقيم المصرف وتقعده فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث ، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئًا إلا أنه لم يشأ أن يخبره بموضع الرسالة التي جاءت فيها ابنته ضنًا بأسراره البيتية أن يعلمها أحد غيره ، فارتاب به

الرجل ، وما كان يعتد عليه بسيئة قبل اليوم ، ولا يعرف له ماضيًا مريبًا ولكنه كان يعلم أنه فقير مقل ، فظن به الظنون ، وقديمًا كان الفقر ينبوع التهم ، ومنار الشكوك والريب ، وتركه مكانه وخرج إلى العمال والخدم يحادثهم في هذا الشأن عله يصل إلى معرفة الحقيقة ، فأخبره البواب أن الفتاة التي حضرت إليه كانت تحمل في يدها كتابًا وأنه أخذها جانبًا وأسر إليها حديثًا لم يسمع منه شيئًا ، فازداد شكه وارتيابه وعاد إليه فوجده واقفًا مكانه مذهولاً يقلب كفيه ، فلم يقل له شيئًا ، وأخذ يدور بعينيه في أنحاء الغرفة فألقى نظرة إلى السلة فرأى تلك المزق الصغيرة فجمعها فإذا هي الكتاب الذي يريده ، فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له : إني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلية الجميلة التي أعجبتها فدهش الرجل دهشة عظيمة ، ورد عليه ما طار بلبه ، وأخذ عليه أنفاسه فصمت لحظة ، وبعد لأي ما استطاع أن يقول له : نعم إنها أرسلت إلى هذا الكتاب ولكني لم أحفل به ولم أرسل إليها شيئًا ، بل رددتها ردًا قبيحًا لأنني رجل فقير لا أملك هذا المقدار ، ولأنني رجل شريف لا أختلسه ، ولم يحفل المسيو « لورين » بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ولم يلبث أن رفع أمره إلى القضاء فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل في السجن وكانت ابنته المسكينة في حال الهم والحزن تستثير الأشجان وتستذرف العبرات ، أما زوجته فلم يكن يهمها في تلك الساعة شيء سوى السعي للحصول على ثمن الحلية الجميلة من طريق غير هذا الطريق .

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه ، ولا دفاع ابنته عنه ، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه ؛ لأن القضاة لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلاً عظيمًا ثريًا مثل المسيو « لورين » صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق ؛ أو يخطئ في فراسته وتقديره ، وأن رجلاً فقيرًا مقلاً مثل المسيو كابرين يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل إلى ذلك وكثيرًا ما ساقت أمثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم وعلى أهليهم القضاء الأخير ؛ كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ؛ فإن قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه وأحاله إلى محكمة الجنايات .

فاستطير عقل « إيلين » وجن جنونها فلم تجد بدًا من أن تذهب إلى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها ، وتضرع إليه أن يساعدها على خلاصه ، فذهبت إليه في منزله فاستأذنت عليه فأذن لها فدخلت ، فدهش دهشة عظمى حين رأى أماه فتاة جميلة بارعة ، بل آية من آيات الحسن والجمال ، لا عيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلى الجمال

فافتتن بها حين رآها إلا أنه أخطأ في الحكم عليها ، كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها ، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها فأخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من أجله ، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين ، لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم فأخذ وجهها يربد شيئًا فشيئًا ؛ ثم انتفض انتفاضة الليث في غيله وألقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصعق في مكانه ، ولكنه كان رجلاً وقاحًا متلبدًا فلم يحفل بنظراتها ، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها ، فدافعت عن نفسها دفاعًا شديدًا حتى عجزت ، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها ، فدارت بنظرها في أنحاء الغرفة تتلمس سبيلاً إلى الخلاص ، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته فاختطفته لتهدده به ، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته في ذراعه ، فصرخ صرخة عظمى ، وما هي إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها و سيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو « لورين » في منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدًا كانت تخفيه في طي ردائها وأطلقته فلم تصبه إلا في ذراعه .

وقد كان في استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التي يعرفها حق المعرفة فلم يفعل ، ولو فعل لما ضره ذلك شيئًا وما هي إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين .

-٢-

دخلت « إيلين » سجن النساء لتقضي فيه المدة المقدرة لها ووضعت في غرفة واحدة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءً عظيمًا من حياتها في هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته وجمدت نفسها عليه ، فلم تعد تحفل بشيء في هذا العالم ولا تفكر إلا في الساعة التي يقدم فيها الطعام فتلتهمه التهامًا وهي تضحك وتغني كأنما هي سعيدة هانئة وكأنها أبعد الناس عن الهموم والأحزان ، فذعرت إيلين حين رأتها ذعرًا شديدًا وتسللت إلى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها ، وا ستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع في عينيها إلا ذرفتها ، وأبت أن تتناول الطعام الذي قدمه إليها السجان ، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فعمدت إلى كتاب صغير من كتب الأخلاق كانت لا تزال تحمله في جيبها ما تفارقه ، فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة « العفو أ شد أنواع الانتقام » فانتفضت عند قراءتها انتفاضًا شديدًا وعلق نظرها بها ما ينتقل عنها ، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها ، وتستعرضها واحدة بعد أخرى ، وتفكر في المظالم التي

نالتها ونالت أباها ، وما اقترفا ذنبًا ، ولا جنيا على أحد حتى أوردتهما هذا المورد من الشـقاء ، فشـعرت بدبيب الشر في نفسها للمرة الأولى في حياتها ، وظلت تقول في نفسها : إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات إنما كانوا يعيشون في عصر غير هذا العصر ، وبين ناس غير هؤلاء الناس ، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهليه رأي غير هذا الرأي ، ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار في كتبهم لأن العفو لا يكون انتقامًا إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التي تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات أما الضـمائر القاسـية المتحجرة التي لا تعبأ بشيء ، ولا تخجل من شيء ، فلا يزيدها العفو والصـفح إلا تمردًا وطغيانًا .

وإنها لذاهبة هذه المذاهب الغريبة في تصـوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى إليها اختلاسًـا حتى وقفت وراءها ونظرت في الصـفحة التي تنظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التي تنعم النظر فيها فقهقهت ضـاحكة بصـوت عال غريب فارتعدت «إيلين» والتفتت وراءها صـارخة : ماذا تريدين يا سيدتي؟ قالت : لا تخافي يا بنيتي ولا تراعي ، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار ، ولكنني رأيتك مسـتغرقة في هذا الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك : دعي الكتب وشـأنها ولا تحلفي بها ، ولا تعولي على شيء فيها ، فإن أصـحابها الذين وضـعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شؤونه شيئًا إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان المريخ ، بل هم قوم معتوهون ممرورون ، قضوا أيام حياتهم في معتزلاتهم الخاصـة المظلمة التي لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه ، فملوا وسئموا ، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم وتلهوا بما يسري عنهم مللهم وسآمتهم ، فأخذوا يدونون هذه المبادئ التي انتزعوها من جوانب أدمغتهم ، لا من طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم ، ويقرون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها ، لا التي تتفق مع طبيعة الكون وخصائصه فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه ، ثم يخيل إليهم أنه قد أفلح ونزع ، فيطلبون إلى من أجرم إليه أن يعفو عنه ، قائلين له : «إن العفو أشـد أنواع الانتقام» كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الأساسية للنفوس ، وكأن الإجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها لا يلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظمة والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم ، وما أقصر أنظارهم ، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة ، وطبائع النفوس ، دعي الكتب يا بنيتي لا تنظري فيها ، وانزعي عنك همومك وأحزانك وكلي الطعام الذي يقدم إليك هانئة مغتبطة لا تلوين على شيء مما وراءك . فسـيأتي قريبًا أو بعيدًا ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا الباب الموصـد دونك فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذي أسـاء إليك وسـاقك إلى هذا المكان وتنالين منه فوق ما نال منك ، كما سـأفعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي سـاءني وأفسد علي حياتي ، فليس العفو أشد أنواع الانتقام - كما يقولون - بل الانتقام أعظم ملاذ الحياة .

فهدأت نفس إيلين قليلاً ، وا ستطاعت أن تتناول شيئًا من الطعام الذي قدم إليها ، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباها في منامها يقاسي أنواع العذاب و صنوف الآلام في سجنه ؛ فتصبح باكية نادبة لا يهون عليها آلامها بعض التهوين إلا ثرثرة تلك العجوز وهذ يانها ، حتى نامت ليلة فرأته ميتًا على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مضيئتان ، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكي وتنتحب ، وما هي إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن فذهبت إليه فأبلغها أن أباها توفي الليلة في المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها ، ثم استفاقت فإذا هي في غرفة سجنها ، وإذا هي أشد عباد الله بؤسًا ، وأعظمهم شقاء .

-٣-

قضت « إيلين » سنواتها الخمس في سجنها ثم خرجت فمشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها : لا تنسى يا بنيتي أن تنتقمي من عدوك الذي أساء إليك ، وتنكلي به تنكيلا عظيمًا ، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوي مثلك . وهل لمثلي ومثلك في هذه الحياة الشقية البائسة عزاء غير عزاء الانتقام .

فودعتها وانصرفت ، لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك بل لا تعلم أين تجد قوت يومها ، أو المضجع الذي تأوي إليه سواد ليلتها ، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبيها وطبع على جبينها اسم « المجرمة » الذي خرجت به من سجنها .

ولم تزل سائرة عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب وأحست بالجوع يعبث بأحشائها ، فحدثتها نفسها بالانتحار فرارًا من الألم ، وزهدًا في الحياة ، وظلت تترجح ساعة بين الأنس بهذا الخاطر ؛ والنفور منه حتى غلبها على أمرها فأخذت طريقها إلى النهر ، وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها ؛ وتهطل غيومها ، وتدمدم رعودها ؛ وتعصف رياحها ، فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبة مقبلة نحوها من بعد يمزق نور مصباحيها المشتعلتين أحشاء الظلمات فتريثت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة فإذا المسيو « لورين » جالسًا بين بضع فتيات خليعات يعابثهن ويداعبهن ، ويقهقه قهقهة عالية ترن في أجواز الفضاء ، فاختبأت وراء بعض الأشجار حتى مر ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول ها هو ذا المجرم سعيد في حياته ، مغتبط بحظه ، يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغض عليه عيشه منغض ولا يكدر حياته مكدر ، وها أنا ذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حياتي بجريمة ، ولم أقترف بيني وبين ضميري إثمًا أهيم في هذا

الوادي الفسيح على وجهي ، لا أعرف لي ملجأ ، ولا مأوى ، ولا أعرف سبيلاً للعيش ولا مذهبًا ، ولو عرفت لما استطعت أن أنتفع بمعرفتي ، لأنني عند الناس مجرمة قاتلة ، ومن ذا الذي يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم !

لا ... لا ، لا بد أن أعيش ، ولا بد أن أنتقم ، وما دامت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم .

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة ، وقد ودعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء نفسها طول حياتها ، وخلعت ذلك الثوب الجميل الملألئ الذي لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم - ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب - واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس سائرة أخرى غيرها لا صلة لها بها ، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المريبين هادئة ساكنة ، باسمة متطلقة لم يبق في وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئًا فشيئًا إلى لون البياض لتلحق بأخواتها .

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك الهوة التي حفرها المجتمع الإنساني لأمثالها من الفتيات البائسات ، فظلت تنتقل من يد إلى يد ، ومن مضجع إلى مضجع ، وكأن الحظ الذي فارقها وتجهم لها في حياة الطهارة والعفة ، أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط والفساد ، فما هي إلا أيام قلائل حتى طلعت في سماء باريس نجمًا ساطعًا متلألئًا تنير كل أفق تشرق فيه ، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها وتعبث بألباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار .

فإنها لجالسة ذات ليلة في مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المفتتنين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو « لورين » جالسًا في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته ، فانتفضت حين رأته ، وثارت في نفسها ثائرة الغيظ والحنق ، وظلت تردد النظر في وجهه طويلاً ، فلمحها وهي تنظر إليه ، فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها ، فقد تغير كل شيء فيها حتى ملامحها و شمائلها ، فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعًا وذهب يرود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه في دهليز المقاصير فسأله عنها ، فأخبره أنها السيدة «لوسي» المارسيلية الحسناء أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام ، فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل ؛ فأحسنت ملتقاه وقد أضمرت له في نفسها شر ما يضمر عدو لعدوه وأقبلت عليه تحدثه ، وتتلطف به ؛

وتمد له الحبالة التي اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله ، فما لبثت أن وقعت من نفســه ، وملكت عليه جميع مشاعره ، ثم رفع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته ، وقد حلت من قلبه محلاً لم يحله أحد قبلها .

-٤-

وفي صباح اليوم الثاني أرسل إليها مع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقدًا بديعًا من اللؤلؤ الثمين ، فابتهجت به حين رأته ، لا لأنها في حاجة إلى العقود والدمالج بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذي تقوده به إلى الهلاك ، ثم زارها على الأثر وخر جاثيًا تحت قدميها مقدمًا لها قلبه وحياته ، وكل ما تملك يده أي أنه جثا تحت قدمي تلك الفتاة البائسة المسكينة التي جثت تحت قدميه منذ سنوات تسأله أن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه ، وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه ، إن كان يعتقد أنه مذنب ، فلم يفعل ؛ ولو أنه فعل لابتاع بثمن قليل لا يوازي ربع ثمن العقد الذي قدمه الآن إليها قلبًا طاهرًا نقيًا ، لم تلوثه الذنوب والآثام ، ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش عيشًا طاهرًا شريفًا مع خير الزوجات وأفضلهن خلقًا وخلقًا ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة ، حتى إذا لوثتها الذنوب والآثام ، وأصبحت نهبًا مقسمًا في أيدي الشهوات بذلوا في سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم حتى شرفهم وحياتهم ، فقد ابتاع المسيو «لورين» لخليلته الجديدة قصرًا جميلاً أثثه أثاثًا حسنًا ، ونزل على حكمها في كل ما تريد وتشتهي ، حتى أنفق عليها في عام واحد كل ما تملك يمينه ، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس المودعة في مصرفه ، فمشى في ذلك المزلق المنحدر مدى بعيدًا أشرف منه على الخطر العظيم .

ثم حدث بعد ذلك أن فتحت سوق للإحسان في باريس وكانت «لوسي» إحدى النساء اللواتي وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الإطلاق ، فجلست في حانوتها المعد لها ، وقد أمسكت بيدها زهرة تعرضها للبيع ، وتعد من يبتاعها أن يتناولها بفمه من فمها . فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون في ثمن تلك الزهرة ، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت «مارسيال» فعرض فيها خمسماية فرنك ، فقالت لا أبيعها إلا بألف فرنك فأمسك الكونت ، وأمسك الناس جميعًا وإنهم لكذلك إذا بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء و سكون وفي يده ورقة بألف فرنك فوضعها بين يدي لوسي وقال لها : لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتي أحد سواي ، فوضعتها بين ثناياها ، فتناولها منها فمه بأسلوب رقيق

حسده عليه مزاحموه جميعًا وخاصة الكونت مارسيال ، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول : ما رأيت في حياتي صاحب مصرف يذهب في حياته هذا المذهب من البذخ والإسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل وما أحسب أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا ، فلابد أن يكون لصًا دنيئًا يسرق ودائع الناس ويبددها ، فويل للمساهمين في مصرفه ورحمة الله على أموالهم جميعًا وكان يتكلم بصوت عال يسمعه الناس جميعهم ، وليس بين الأحاديث أسير ولا أذيع من حديث السوء ، فمشت كلماته في المجتمعات العامة والخاصة ، فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطرابًا عظيمًا ، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف فهالهم الأمر وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الأراجيف ، فيسقط سقطة لا قيام له من بعدها ، فقرروا الاجتماع في يوم معين لمراجعة حسابه ، وتفقد أمواله فلما علم ذلك المسيو «لورين» أخذ يزور في الصكوك ، ويعبث بدفاتر الحساب ، طلبًا للخلاص من التبعة ، فلم يجده ذلك شيئًا ، فقد فهم مجلس الإدارة كل شيء ، فلم ير بدًا من أن يرفع الأمر إلى القضاء ، ففعل ، والمسيو مستغرق في شهواته ولذاته ، جاث ليله ونهاره تحت قدمي خليلته ، لا يشعر بشيء مما يجري حوله ، لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على الخبر فزاره في منزله ليخبره به فلم يجده ، فذهب إلى منزل «لوسي» فوجده فأخبره أن الأمر قد صدر بالقبض عليه وأنه إن لم يبادر بالسفر في الحال فقد هلك إلى الأبد ، فأشار إلى «لوسي» أن تعد له حقيبة ملابسه وأن تهيئ نفسها للسفر معه ، وهو أعظم الناس ثقة بها ، وبحبها وإخلاصها فتظاهرت بالإذعان لأمره ، والرثاء له ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة «التليفون» وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب ، وأشارت عليه بإرسال من يقبض عليه في الحال ثم أمرت الخدم بإغلاق الأبواب ، والوقوف في وجهه إن أراد الفرار ثم عادت إليه ، فسألها : هل أعددت كل شيء؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ، ثم انفرجت ضاحكة بصوت عال ، فدهش وسألها ما بالها؟ قالت : لا شيء سوى أنك ستبقى سجينًا هنا حتى يأتي رئيس الشرطة للقبض عليك ، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة ، فعجب لأمرها ولم يعلم أمازحة هي ، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون؟ ووثب من مكانه مسرعًا ودنا منها وقال لها : ماذا عرض لك يا لوسي ، فقد طلبت إليك أن تهيئي نفسك للسفر معي فهل فعلت؟ فقد دنت الساعة ، ولسنا الآن في موقف مزاح ، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة ، فضحكت ضحكة أخرى ، وقالت : قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم عل السفر وأشرت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك ، وأمرت الخدم بإغلاق الأبواب حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم ، فجن جنونه ، وقد بدأ الريب يدب في نفسه ، وإن لم يفهم لما يرى سببًا ، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه ، فوجده مغلقًا ، فأمرها أن تفتحه فأبت ، فهجم عليها هجمة شديدة وهو

يصـــيح : أين المفتاح أيتها العاهرة؟ فقالت : أتريد أن تقتلني كما قتلت أبي بالأمس؟ فلم يفهم معنى كلمتها ؛ ووقف في مكانه ذاهلاً يقول لها : لم أفهم من أمرك شـيئًا ، ماذا تريدين؟ وما هو رأيك؟ قالت : هو المسيو «كابريني» - وكيل مصرفك بالأمس - الذي اتهمته ظلمًا وعدوانًا بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مسـتقيم لو علم أن شرب الماء يفسـد مروءته ما شربه فكانت نهاية أمره أن مات في سـجنه ميتة الأشـقياء البؤســاء ، لا يعوده من أهله عائد ، ولا يحتضــنه إلى صــدره في ســاعة نزعه محتضــن ؛ ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الأخيرة .

فا صفر وجه لورين ، وظل جـسمه يرتعد ارتعادًا شديدًا وأخذ يحدق النظر في وجهها ، ويتراجع شيئًا فشــيئًا ، ويقول بصــوت مضــطرب متقطع إذن أنت لســت ... فقاطعته وقالت : نعم لســت حبيبتك «لوسي» كما تعتقد ، بل عدوتك «إيلين» التي تريد أن تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفســـها ؛ أنا إيلين التي جاءت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تـسألك أن ترحم أباها وترحمها فأبيت إلا أن تـساومها في عرضـها ، فلما ضـنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذبًا وافتراء كما صـنعت بأبيها من قبلها ، فصـدق القضـاة الأغبياء دعواك ، فحكموا عليها بالسـجن خمس سـنوات ، كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع أن يحتمله بشر : ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها ، وكل ما تملك يدها من القوت الذي تقيم به صـلبها بياض يومها و سواد ليلتها ، وكان لابد لها من المغامرة بنفـسها في إحدى الهوتين ، إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها أو هوة الفســاد لتنتقم لنفســها من عدوها الذي نكبها ، وأفســد عليها حياتها فآثرت الانتقام على الموت ، لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد ا ستحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبني ســعادته على أنقاض شــقائها ، وأن يفلت من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام وها هي ذي قد انتقمت لنفسها ، وروحت عنها همومها وآلامها .

فنكس رأســه مليًا ثم رفعه وقال : إذن ما أحببتني قط يا لوسي؟ قالت : نعم بل ما اتصــلت بك إلا لأسـوقك إلى هذا المصـير الذي صرت إليه اليوم ، أنت الآن متألم جدًا . بل لا يوجد في العالم كله ألم مثل الألم الذي يعتلج في أعماق نفسك ، لأنك فقدت في يوم واحد شرفك وكرامتك ، ومالك وحريتك ؛ وموضع حبك ووجهة آمالك في حياتك ، وهذا ما كنت أريده وأرجوه ، وهذه هي السـاعة الوحيدة التي شـعرت بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتي .

فنظر إليها نظرة منكسرة دامعة وقال لها : ما كنت لأحفل بخسران شيء في الحياة لو أنني ربحتك يا لوسي ، أما وقد أصبحت يدي صفرًا منك فلا خير في العيش من بعدك ، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكيًا ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه ، حتى حضر الجند فاعتقلوه ، وساقوه إلى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ، ولا يلتفت وراءه ، وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره .

-٥-

نعم إن الانتقام لذيذ جدًا كما يقولون ، ولكنها اللذة التي يعقبها الندم والأسف وتأتي على أثرها الحسرات والآلام ، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها ، والفرق بينهما أن القاضي يصدر في رأيه عن نفس هادئة مطمئنة قادرة على الرؤية والأناة والمقارنة والمقابلة والوزن والتقدير ، والمنتقم يصدر في عمله عن روح هائجة محتدمة لا هم لها إلا أن تلتهم وتستأصل ، وتأتي على كل ما تستطيع الإتيان عليه ، فهو يقضي قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه ، بل ليجرح نفسه ويؤلمها ، وينال منها أقصى ما يرى أنه كاف لشفاء حقده ، وإطفاء غلته ، فيجازي على الشتم بالضرب ، وعلى الضرب بالقتل ، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ولا يأبى أن يأخذ البريء بذنب المجرم ؛ والجار بذنب الجار ، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه والدافع له ، وكل جريمة تترك في نفس صاحبها نصيبًا من الألم والحسرة بمقدارها ، ما من ذلك بد ، ولقد صدق الذي يقول : إن العفو مرارة ساعة ثم النعيم إلى الأبد وإن الانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى .

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب «لورين» وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية ؛ وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بدبيب السآمة والملل في نفسها ، وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة تافهة مملولة لا طعم لها ، ولا لذة فيها ، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئًا فشيئًا ، وأخذت تسائل نفسها هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت؟ وهل كان خيرًا لها أن تلقي بنفسها في عباب الماء عندما فكرت في ذلك يوم خروجها من سجنها؟ أم تعيش لتضحي بعرضها وكرامتها في سبيل انتقامها؟ وهل خرجت من المعركة التي خاضتها ظافرة تمام الظفر ، أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذي انتصرته؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جوابًا يرضيها ، حتى مضى الليل إلا أقله ، فحاولت أن تأوي إلى مضجعها فلم تستطع ؛ وأن تسري عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت ، فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها ، وأنها لم تسيئ إلى الرجل الذي أرادت منه بقدر ما أساءت إلى نفسها ؛ فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها ، حتى يوافيها أجلها .

-٦-

دخلت إلى المستشفى وأخلصت إلى الله في عملها ، فسهرت على المرضى ، وأحسنت مواساتهم وبذلت في ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه ؛ حتى أصبحت مضرب المثل في صلاحها وتقواها ، ورحمتها ، وإحسانها .

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو «لورين» بالسجن عامين ، فلقي في سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله فسقط مريضًا لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس ، حتى اشتد به المرض وأشرف على الهلاك فنقلوه إلى المستشفى الذي كانت تعمل فيه «إيلين» فعرفته حين رأته رغم تغير صورته ، واستحالة حالته ، فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء ، وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وظلت على ذلك عدة أيام وهو ذاهب مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله ، حتى استفاق في ليلة من الليالي فرآها واقفة بجانب سريره تمد إليه يدها بالدواء ، فظل يحدق النظر في وجهها طويلاً حتى عرفها فتناهض من مكانه وأكب على يدها يقبلها ؛ ويسألها العفو عن ذنبه إليها ، فازداد نحيبها وبكاؤها ، وقالت له : إنني أنا التي أسأت إليك ، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح ، وكأن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها ، فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة ، وأصبحت سريرتها بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان ، ولا تنطوي إلا على حب الإنسانية وحب الله .

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمر مثله الأم لواحدها ، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها وما تهدأ ولا تفتر ، ولكن الداء كان قد تمكن منه فلم يغن عنه العلاج شيئًا ، وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه ؛ وتلقي في روعه أن الله غفر له جميع سيئاته في حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام ، والهموم والآلام ؛ وأن جوار الله في دار جزائه خير له من جواهر هذه الحياة الباطلة الفانية ؛ حتى أسلم روحه بين ذراعيها .

وفي صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرة بهدوء وسكون في طريق الدير ؛ وقد لبست مسوحها وسوادها وعلقت صليبها على صدرها حتى بلغته ؛ ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله إلى الأبد ، فدخلته وكان هذا آخر عهدها بالعالم وما فيه .

■ ■ ■

## الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ، ويصفر أخرى ، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه : ما له لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب!؟ فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه ، وهو غير ملوم إن جزع .

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة ، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه ، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط ، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأحرجها ، وأذهبها بالعقول والألباب فما أشبه هذا البطل الباكي ، بذلك البطل الجازع .

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء ، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها إلا الله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل .

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم ، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين ، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح أو نباهة المؤرخ ، أو بلاغة الشاعر ، أو إبداع المبدع في معانيه ، أو إحسان المحسن في إلقائه ، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعًا لبكائه كبارًا وصغارًا ؛ شيوخًا وشبانًا ، وكان مشهدًا مؤثرًا لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم ، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال .

ليس الذي يبكي صديقًا كان يأنس بحديثه ، أو عالمًا كان ينتفع بعلمه ، أو كريمًا كان يستظل بظلال مروءته وكرمه ، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه .

## اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي أولئك الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى ، ويصفون كلاً منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر . فيقولون : ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاء ، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء ، فتارة يكون خمرًا ، وتارة يكون خلاً ؛ ويكون حينًا صافيًا وأخرى كدرًا ، والوعاء باق على صورته لا يتغير ، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها ، والخمر بنشوتها ؛ فكما لا يجوز أن نقول : ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال ، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك ، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل ، ولا حيز خاص ، فجماله جمال معناه ، وقبحه قبحه ، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون .

لا يضطرب اللفظ إلا لأن معناه مضطرب في نفس صاحبه ، ولا يغمض إلا لأن معناه غامض في نفسه ، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام ؛ ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع عن الإقناع ، وما البيان إلا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس ، فحيث تكون جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو قبيح ، أو مضيئة فهو مضيء ، أو مظلمة فهو مظلم ، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها ، استطعنا أن نتصور بيانًا يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه .

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها ، بل هو رأس المعاني وسيدها ، والغاية الأخيرة منها ، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينيه ، فقد أتى بأجمل المعاني في أجمل الأساليب .

وإن وصفًا قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

لخير ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة ، والخواطر المبتكرة لا تمثل الحقيقة ، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها ، كقصيدة المتنبي التي مطلعها :

* أيطمع في الخيمة العذل *

ويقولون أيضًا عن هذا البيت :

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ، وهم واهمون فيما يقولون ، فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت بل المعنى خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه ، فألصقوه به إلصاقًا ، وتوهموه له توهمًا ، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقًا ، وهذا شأن جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق ، أو كلمة غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين ، أولى من أن تكون معاني القائلين .

إذا سمعت بيتًا من الشعر فأطربك ، أو أحزنك ، أو أقنعك ، أو أرضاك ، أو هاجك وأنت ثائر ، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك ، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها ، فاعلم أنه من بيوت المعاني ، وأن هذا الذي تركه في نفسك من الأثر إنما هو روحه ومعناه ، وإن مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه ، وثقل عليك ظله ، و شعرت بجمود نفسك أمامه ، وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها ، فاعلم أنه لا معنى له ، ولا حياة فيه ، فإن وجدت صاحبه واقفًا بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نورًا متوهجًا يكمن في طياتها ، فكذبه ، وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فرارًا لا عودة لك من بعده .

هذا هو الميزان الذي يجب أن تزن به الكلام ، ونصيحتي إليك ألا تصدق تعريفًا واحدًا من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة ، ويزعمون أنها للشعر عامة ، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع ، فكما أنك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ، ولا تلجأ إلى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، وكذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام ، واستهجان ما تستهجن منه ، إلا على شعور نفسك وإلهام حسك .

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء . ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير ، وتمثيل الحقيقة ، واكتناه أسرار الكون ، وتحليل مشاعر النفس وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد ، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها والروح السارية فيها ، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة ، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها ، وحججها وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برنانه ونغماته ، وأهازيجه ونبراته .

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى إلى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه إلا البيت الموسيقي الرنان لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده ، وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر .

■ ■ ■

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشـــبان المصـــيين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام واتخذوا لأنفســـهم في حياتهم العامة طريقًا غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه ، فأصـبحوا مبتذلين في شـهواتهم مسـتهترين في ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمات الأعراض ما شـاءوا وشـاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبة ولا يخشى عارًا وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارســهن ، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن ، وينصـبون لهن صـنوف الحبائل وأنواع الأشراك لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار ، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلاً؟!

أصـحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسـون أنكم تتخذون صـلة العلم التي هي أشرف الصـلات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات وأن الحبالة التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي حبالة القلم الذي هو أفضل أداة للخير ، وأعظم وسيلة للفضيلة ، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصــحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم ، وتهدون إليهن صــوركم ليهدين إليكم مثلها ، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ور سائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان ، وتعرضونها في كل معرض ، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه ، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصــحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل ســبيل ، وتضــايقونهن في مغداهن ومراحهن ، وحيث ذهبن إلى عمل ، أو خرجن لزيارة ، أو برزن في مجتمع ، فإذا عجزتم عنهن في الطرق أرســلتم وراءهم الرســل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن ، وربما توســلتم إليهم بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصـحيح أنكم تقضـون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسـائل الغرام وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنظرون خدمها الذين ا صطنعتموهم ليحملوا ر سائلكم إلى ساكنيها ، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها علَّها تنفرج لكم عما تحبون؟

أ صحيح أنكم أ صبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلاً موقعًا عليه بتوقيعاتهن ، مستشهدًا عليهن بصورهن وخطوطهن ، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم ، والحياة بعيدًا

عنكم في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ، عذارى أو متزوجات؟

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن ، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها ، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران المواخير؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء ، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن ، وأصبح الرجل منكم لا هم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه ، ويتكسر في مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور ، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهدًا شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم ، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب ؟

إن كان حقًا ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين ، و سلام على الفضيلة والشرف ، سلام من لا يرجو عودة ولا ينتظر إيابًا .

إن هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها ، وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أم أولادكم ، وعماد منازلكم ، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم ، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غدًا ، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها .

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم! وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الأجواء جميعها وملأتموها سمومًا وأكدارًا .

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها ، بل في عهد شبابها ، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك ، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة ، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج ، وخير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل .

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غدًا زوجة طاهرة شريفة في منازلكم ، بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات .

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صـالحات شريفات يحفظن لكم أعراضـكم ، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم فتلك جناية أنفسكم عليكم ، وثمرة ما غرست أيديكم ، ولو أنكم حفظتم لهن ماضـيهن لحفظن لكم حاضركم ومسـتقبلكم ، ولكنكم أفسـدتموهن ، وقتلتم نفوسـهن ، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن .

إنني لا أفزع في أمركم إلى القانون ، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي ، ولا إلى الحكومة ، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها : ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم ، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم ، فقد عجزوا عنكم ، وأصـبحوا يبكون مع الباكين عليكم ، بل أفزع في أمركم إلى ضـمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فأصـغوا إلى صـوتها سـاعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم ، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم .

أصـغوا إليه تسـمعون يقول لكم : إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تسـتحيون أن تمدوا إليهن أعينكم وأيديكم إنما هن أخواتكم الحميمات يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهي البلد ، وشرف الأخوة وهو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن .

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها . لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصـها ذكرى الماضي ، ولا تختلط في مخيلتها الصـور والألوان ، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف .

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى التي أهدت إليه حبيبته رسـمها موقعًا عليه بتوقيعها ؛ فلما تزوجت - وكان لا يحب ذلك منها - أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة ، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها ، فما لبثت أن خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها .

وحدثني من أثق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على نفسهن عهدًا أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج ، أي بعد أن يصـبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها ، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت إليهم ، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار .

نحن في حاجة إلى أن نعلم بناتنا ، لأننا لا نريد أن يعشـــن جاهلات متأخرات ، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفد سون ليستطعن أن يختلفن إلى مدار سهن آمنات مطمئنات على نفو سهن وأعرا ضهن ؛ ولا تزعجوهن بفضـولكم وإسـفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السـبيل ليفسـدن شرفهن وعفتهن ، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة .

أفســحوا الطريق لهن ، وأفســحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها ، والأرمل المســترزقة لبنيها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها ، والذاهبة لصلة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حجر عثرة في ســبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضــطرابها في مذاهب الأرض ســعيًا وراء رزقها ، وقضاء مصالحها ، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين : إما الجهل الدائم ، أو السقوط العظيم .

الفضـيلة الفضـيلة أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسـكينة عن جميع آلامها ومصـائبها ، والأمل الباقي لها إن ضاعت - لا قدّر الله - جميع آمالها وأمانيها ، والشرف فربما جاء يوم نذير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئًا سواه .

■ ■ ■

سرني منظر ذلك الرجل العظيم ، والداعي الكريم ، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخوم ، ويتخطى البلدان ، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء يقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ، ونفس كبيرة وقلب مشيع ، وفؤاد في الأفئدة كالنسر في الطيور ، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه .

سرني منظره ، وإن لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى ، إلا أن تلك عربية تدعو الأعجمية ، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى .

هنا ذكرت الإسلام ومجده ، والإسلام وجنده ، والإسلام ودولته ، والإسلام و صولته ، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول : والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه ، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحًا أسود يرفعه الآل ويخفضه ، ويطويه الأديم وينشره ، حتى اقترب منه فتبينه فإذا هو أعرابي قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والأعرابي راكب لا يعرفه ويسأل ما فعل الله بسعد وجنده ، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن ، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره ، وتراث مرازبته ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سرورًا بما سمع ، وفرحًا بما تم . وذكرت صلاح الدين ، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم ، إلى حيث يستنقذ الثغور ، ويستخلص الأمصار ويخوض جمرة الحرب المتأججة ليفتدي بنفسه أجسامًا إن لم تلتهمها النيران فكأنه قد من صخر ، وذكرت محمدًا الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبي بكرته ، ويخترق بسفائن البحر رمال القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء ، وسجد في معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوروبا ، وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالي وحكمته ، وابن رشد وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبد الملك وكياسته ، وذكرت مدارس بغداد وبخارى والإسكندرية والقاهرة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة ، وذكرت مترجمي كتب أقليدس وبطليموس وأرسطو ، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء ، وذكرت مخترعي البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعًا شديدًا ، وسموها شيطانًا رجيمًا أو آلة سحرية أو مكيدة عربية إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية .

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه بضرباته ، ورماه بنكباته فأصبح أثرًا من الآثار ، وخبراً من الأخبار ، وعليلاً حار فيه أطباؤه ، وملّه عواده وظل مترجحًا بين داهيتين ، ومضطربًا بين غايتين إما أن يموت موتة أبدية - وبالله العياذ - أو يحيا حياة مادية ، لا حياة أدبية ، وينهض جامعة تجارية ، لا جامعة دينية ؛ ما دامت قاعدة الحكومات ، وما دامت الحكومات عدوة الأديان ، وما دامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا في فضاء من الحرية لا ينتهي البصر فيه إلى مدى ، لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه على رسائل الحب ، وأناشيد الغرام ، ولأمضني ما يمض العاشق المفارق ، إذا مر بالآثار وأطلال الديار ، فرأى النؤى والأحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الذيول ، فذكر ما كان ناسيًا ، وهاج من وجده ما كان كامنًا ، فبكى واستعبر .

وود بجدع الأنف لو عاد عهدها وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى ، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه .

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى ، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار ، والأحياء والأموات ، والأبواب ، والكوي ، والقواعد والأساطين : تبركًا ، أو تقربًا ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظًا متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه .

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوبًا ، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتًا ، بل آحادًا وأفرادًا ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الأخ وأخيه ، والأب وبنيه .

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوتار ، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات ، وكان أفظع ما في جرائمهم وأد البنات ، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار ، وكان بعضهم يبغي على بعض بسرقة ماله ، أو استياق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا ، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق وتحريف الصكوك ، وتقليد الأختام ، والبراعة في النصب والاحتيال ، يكاد يستوي في ذلك العالم والجاهل ، والشريف الهاشمي ، والفلاح القروي .

وليتنا إذا أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها ، ولكنا أسأنا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم ، وغيرتهم وحميتهم وعزتهم ومنعتهم ، فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئني عن الإســلام أين مقره ومكانه؟ وأين مســلكه ومضــطربه؟ وفي أي موطن من المواطن حل ، ومعهد من المعاهد نزل ؟

أفي الحانات والمواخير التي يغص فيها الفضاء ، وتئن منها الأرض والسماء والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما هم يشربون الماء الزلال ، ويغشـون البضـع الحلال ، ولقد هان عليهم أمر أنفسـهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله أو الاحتشـام في أمره ، سـموه جبانًا جامدًا ، أو متكلفًا باردًا ، كل ذلك على مرأى ومســمع من الحكومة الإســلامية ، والمعاهد الدينية ، والقضاءين الشرعي والنظامي ؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضــح ، والغبن الفاحش ، مزخرفًا بالأقوال الكاذبة ، والأيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر الســلطان الأكبر على ســلطان العدو وســلطان الذمة وســلطان الشرـائع ، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها (العدل أســاس الملك) ، أو (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل؟) .

أم في المسـاجد حيث يعتقد المصـلون أنه لو كان بين الصـلاة والصـلاة مائة عام ، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسـد والمظالم لكفت تلك الحركات التي يسـمونها صـلوات ويحســبونها حسنات ، لغفران تلك السيئات؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جســمًا بلا روح ، وعلمًا بلا عمل ، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة ، أو أحد الأديان الغابرة ، وحيث يلتقون كشكولاً عجيبًا وخلقًا غريبًا من الأكاذيب ، والترهات ، فلا تكاد تســمع من أفواههم إلا حديثًا موضـوعًا ، أو قولاً مصــنوعًا ، أو خرافة تاريخية ، أو بدعة دينية ، وحيث يقضــون حياتهم في المناظرات والمجادلات ، والتحاســد والتباغض والتقاطع والتدابر ، وهي بعينها الأخلاق والرذائل التي ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها ، والقضــاء عليها ، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية ، والحركات البهلوانية ، والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصـلحون لأنفسـهم نجاحًا ، وللإسـلام صـلاحًا فليبدأوا علمهم بتهذيب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث تربية إسـلامية ، لا تربية مادية ، أي أنهم يدخلون إلى الإصـلاح من باب الدين لا من باب الفلسـفة ، حتى يجمعوا للمسـلمين بين صـلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ، والإسـلام وإن كان دين العقل والفطرة ، والإصـلاح ، إلا أن الخطر كل الخطر على المسـلمين أن يكون في نظرهم تابعًا للعقل ، وأن يكون العقل الحكم بينهم وبينه ، والخير كل الخير في أن يكون الدين حاكمًا والعقل مفسرًا ومبينًا ، فإذا تم ذلك للمصـلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شيء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين : الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك في المعهد الأول من هذا الباب نفسه ، وفي هذه الجادة المستقيمة ، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعاته في الجاهلية الأولى ، وهل يستطيعون أن يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين ، لا تأخذهم فيه هوادة ولا عنه سنة ، وأن لا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلاً إلا بالإيمان والتقوى ، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر ، ويحتمل الكريهة ، ولا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً ، ولا للهوان على نفسه سلطانًا ؟

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين؟ « لست أدري ولا المنجم يدري؟ » .

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

■ ■ ■

## في أكواخ الفقراء

### « مترجمة »

مضى اللیل إلا قلیلاً والظلام مخیم على الكون بأجمعه ، والكواكب متلفعة بأردیة السحب ، ما یستشف منها الناظر بصیصًا ولا قبسًا ، والفضاء بحر خضم مترامي الأرجاء إلا أنه ساكن الصفحة هادئ النأمة یقصر فیه قاب العین ، وتضل في تیهه أشعة النظر حتى عن نفسها ، والغیوث منهلة متواصلة ، تهمي بقوة واحدة ، وقوام واحد ، ولا تغزر ولا ترق ، ولا تضطرب خیوطها ، ولا تختلف نغمتها كأنما هي شباك ممتدة بین السماء والأرض ، وكوخ السماك « فیلیب » جاثم في مجثمه بین الأكواخ المحیطة به ، لا یرى فیه الداخل غیر مصباح ضئیل تجاهد ذبالته جهادًا شدیدًا في تمزیق قطع الظلام المتكاثفة حولها ، وغیر مجمرة هامدة قد خبت نارها إلا بقایا جمرات شاحبات قد التفت بأكفانها البیضاء ، وأخذت طریقها في مدرج الفناء وقد یرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئیل بضع شبكات معلقة بالجدار كأنها الأشباح الماثلة ، ومنضدة عاریة قد نشرت فوقها بضعة آنیة نحاسیة تلمع لمعانًا ضعیفًا في ذلك الحندس كأنها عیون الجنادب ، فإذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشیة مبسوطة على الأرض قد اضجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقین آخذ بعضهم بأعناق بعض ، كما تأخذ الأفراخ في أعشاشها وكما یضم الخوف الضلوع بعضها إلى بعض ، وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جاثیة على ركبتیها تصلي وتبتهل وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن یرد لها زوجها سالمًا وكان قد خرج كعادته لصید السمك من البحر فلم یعد حتى الساعة .

وإنها لكذلك إذ هبت الزوبعة هبوبًا عظیمًا ، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازًا شدیدًا ، وكان لوقعها ارتعاد الأطفال في لفائفهم . فطار قلبها فزعًا ورعبًا ، وخیل إلیها أن هدیر الأمواج ، ودمدمة الرعود ، وزفیف الریاح ، وقعقعة السقوف والجدران إنما هي نذر السوء تنذرها بمصیر زوجها المسكین في أعماق ذلك الأوقیانوس العظیم ، فظلت تردد بینها وبین نفسها : رب إني بائسة مسكینة لا سند لي ولا عضد ، وإن هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا یستطیعوا أن یقوتوا أنفسهم ؛ ولا أن یعتمدوا على حولهم وحیلتهم في شؤون حیاتهم فاحفظ لي ولهم حیاة ذلك الرجل المسكین الذي أسلم أمره إلیك ، وأودع حیاته بین یدیك ، وخرج في طلب الرزق من ساحتك لیعود به على هذه الأسرة الفقیرة المعدمة فلم یعد حتى الساعة ولا ندري ما فعلت به الأقدار .

ما أعظم بؤسنا وشقائنا نساء الصيادين وأولادهم !

إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الأكواخ الموحشــة ، ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه المائي العظيم الذي لا نهاية لعمقه ، ولا حد لاتســاعه ولا عاصــم من مخاطره ، ويحاولون انتزاع أرزاقهم من بين ماضــغي تلك الأمواج الثائرة الفاغرة أفواهها كالذئاب الجائعة ؛ تحاول التهام كل من يدنو منها ، ولعل القدر الذي نخشــاه عليهم في هذه الســاعة قد نزل بهم ؛ فلم تغن عنهم شــيئًا تلك الرقائق الخشــبية المتلاصقة التي يسمونها زوارق ؛ ولعلهم لبثوا ساعات طوالاً يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم ، فداروا بأعينهم حولهم ليفتشـوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها إلا بقاياها المتطايرة في مهاب الرياح ، فحاولوا أن يســبحوا إليها فأفلتت من أيديهم ؛ فنال منهم العياء ؛ فهووا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعامًا للأسماك التي كانوا يظنون منذ ساعة أنها ستصبح طعامًا لهم .

هنالك يأتينا نعيهم فنبكي ونندب ، ونهرع إلى الشاطئ والهين مدلهين ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رد إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا ، وأفلاذ أكبادنا ، أو تكشف عن نفسك قليلاً علنا نرى جثثهم في قاعك العميق ، فلا نسمع ملبيًا ولا مجيبًا .

وهنا هدأت الزوبعة قليلاً ، وخفتت أصــوات الرياح ، فســكن بعض ما بها ونهضــت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها في السماء لترى كم بقى بينها وبين الصباح ، وكان الظلام لم يزل حالكًا والمطر لم يزل منهلاً ، فمدت يدها بالمصــباح أمامها لترى هل من مقبل يتقدم ، أو شــبح يتحرك فلم يقع نوره إلا على كوخ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة ، فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الأرملة المســكينة « جانيت » التي مات زوجها غريقًا منذ بضـعة شـهور وخلف لها أطفالاً صغارًا تقاسي الآلام الشداد والأهوال العظام في تدبير عيشهم ، وتقويم أودهم ، فمر بخاطرها أن تزورها وتتعرف حالها ، لأنها كانت تعلم أنها مريضــة مدنفة ، وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناءً عظيمًا ، وأقرب ما تكون النفوس إذا جمعتها في صـعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتى بلغته ، فوقفت على بابه وقرعته مرارًا فلم يرد عليها أحد فدفعته ففتح فدخلت رافعة مصباحها أمامها فأنار لها ما حولها فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها ، واستوقف دقات قلبها ؛ وأمسك الدم عن جريانه في عروقها .

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوحة ، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الأخرق فتبلل كل شيء فيه . ورأت فراشًا قذرًا من القش قد رقت فوقه الأرملة «جانيت» رقدة ساكنة جامدة لا حس فيها ولا حركة فدنت منها ولمستها بيدها فإذا هي ميتة ، وإذا قطرات من الماء تنحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالي الممزق ، فوقفت أمام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت :

هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض ، وهذا مصيرهم الذين يصيرون إليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمنًا طويلاً ، إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم .

ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير أولادي غدًا هذا المصير الذي أراه الآن وقد لا تدخل عليّ في تلك الساعة جارة من جاراتي تراني وترثى لحالي كما أرثى لحال هؤلاء المساكين .

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة ؛ ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهًا لوجه ، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة كأن شبح الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما ، ولا يزعج سكونهما . ورأت رداء أمهما وكانت ، تعرفه قبل اليوم ، مسبلاً عليهما فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين ، والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما ، فتشفق عليهما ، وترثى لهما ، حتى ضاقت بها ساحة الصبر ، فخلعت عنها رداءها وهي أحوج ما تكون إليه ، وألقته عليهما ؛ ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها .

وقفت ماري أمام هذه المناظر المؤلمة ، والريح تئن أنين الوالهين المتسلبين والموج يعج عجيج أجراس الموت ، وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها ، وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ويرسل بعض أشعته في جوانب الكوخ ، فأطفأت ماري المصباح الذي بيدها ووضعته جانبًا ثم جثت بجانب الميتة وصلَّت لها ما شاء الله أن تفعل ، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحلمتهما برفق وسكون ومشت بهما حتى بلغت كوجها فأضجعتهما بجانب طفليها ، وأسبلت عليهم جميعًا رداءً واحدًا .

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها : لا أدري أأصبت فيما فعلت أم أخطأت وإنما أدري أن المرأة التي أودع الله قلبها شعور الأمومة وإحساسها لا تستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما في كوخ عار من كل شيء إلا من جثة أمهما فتتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك .

إن المنظر الذي رأيته ما كان يسمح لي بالتفكير في نتيجة العمل الذي أعمله فإن تبين لي بعد ذلك أنني مخطئة فليس معنى هذا أني كنت أستطيع تجنب الوقوع في هذا الخطأ لأن قلبي من لحم ودم ، لا من فولاذ وصوان .

نعم إن زوجي فقير ، وإن طفليّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز ، وإن عناءنا في تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا في تربية طفلين ولكن لا يجوز لنا ضنًا براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان - على مرأى منا ومسمع - بردًا وجوعًا .

ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه ، وما أحسبه قاسيًا ولا متوحشًا فينكر عليّ فعلتي هذه ، ويأمرني بإلقائهما خارج الباب .

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه فارتعدت ، ثم علمت أنها الريح ، فأطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب فبكت وضحكت ، وغضبت ورضيت وأملت ويئست ، ورحمت وقست ، وحمدت فعلتها وندمت عليها ، وأحسنت الظن بزوجها ، وأساءته به ، وظل فؤادها نهبًا مقسمًا في يد الهموم والأفكار حتى شعرت بسواد يتقدم نحوها ، فاستطير قلبها خوفًا ورعبًا وانتبهت فإذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها ، فنهضت إليه وعانقته ثم ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضعه كما أنكر ذلك منها حين رآها ، وسألته كيف كان حظه الليلة ، وماذا كان شأنه مع العاصفة ، فألقى بشباكه وقصبه على الأرض وظل يقول لها : أما الليلة فكانت مزعجة جدًا لم أر في حياتي مثلها وأما الصيد فها هي يدي صفر منه كما ترين ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت وما أنا بآسف على شيء ما دمت أراكم بخير وكيف حال الولدين ؟ فارتعشت وقالت : هما بخير ، قال : مالي أراك شاحبة صفراء . وكيف قضيت ليلتك ، فأطرقت برأسها وقالت : قضيتها في خياطة قميصين للولدين ، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت عليك ، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله ، ثم نظرت إليه وبين شفتيها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع ، ثم استنصرت جلدها وقوتها وقالت : وشيء آخر أحزنني جدًا ، قال : ما هو ؟ قالت : قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليل أن جارتنا « جانيت » قد لبت دعوة ربها وأن ولديها الصغيرين قد أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما .

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة ، ونهض من مكانه وتمشى قليلاً ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره وظل يعبث بشعر رأسه ، فيشده حينًا ، ويمسحه أخرى ، وهي تتبعه بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه ، ثم جلس على المائدة القائمة في وسط الكوخ ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج :

رب إني وإن كنت رجلاً جاهلاً فدمًا لا أستطيع أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما ، إلا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لا أنكرها ، ولا بد أن الذين يعلمون أكثر مما أعلم ، يفهمون من شؤونك وتصرفاتك فوق ما أفهم !

نعم إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات وربما مرت عليَّ وعلى أولادي أيام لم نجد فيها ما نأتدم به ، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هاتين اليتيمتين الصغيرتين أكثر مما يألم من الجوع والسغب ؟

ثم التفت إلى زوجته وقال لها : إنني متألم جدًا يا ماري ، ويخيل إلى أن روح تلك المرأة المسكينة واقفة الآن أمام هذا الباب تقرعه وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا ، ونكفلهما من بعدها ، ولكن كيف العمل يا إلهي ؟ فقالت : إني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يا فيليب وإن ألمي عظيم كألمك ، فصمت هنيهة ثم انتفض انتفاضة شديدة ودنا منها وقال لها : ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين يا ماري ؟ قالت : بلى ، قال : ما نصنع لو أنهما بقيا حيين حتى اليوم ؟ قالت : لا شيء سوى أننا نفزع إلى الله في أمرهما ، قال : فلنفزع إلى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين ، وكأن ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم ، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما .

اذهبي إليهما يا ماري وأحضريهما ، فربما استيقظا بعد هنيهة من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفًا ورعبًا .

اذهبي إليهما واحمليهما برفق وهدوء دون أن توقيظهما وأضــجعيهما على فراش ولدينا فســيكون منظرهم جميعًا جميلاً جدًا حينما يســتيقظون من نومهم وينظر بعضــهم في وجوه بعض وحرام عليَّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأســتطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التي أصــبحت ســيدها وعائلها ، اذهبي يا ماري وثقي أن الله سيملأ علينا بيتنا خبزًا وفحمًا ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين .

فتهلل وجهها بِشرًا وسرورًا ، ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال فرفعت عنهم الغطاء ، ونظرت إلى زوجها صامتة لا تقول شيئًا ، فما وقع نظر « فيليب » على هذا المنظر الغريب حتى استطير فرحًا وسرورًا وهرع إلى زوجته واحتضنها إلى صدره وقال لها : ما أشرف قلبك يا ماري !

يا سكان القصور : ليتكم من سكان الأكواخ ، لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين .

■ ■ ■

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي ؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل .

لذلك لا أسمى الكريم كريمًا حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية ، ولا العفيف عفيفًا حتى يعف في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف ، ولا الصادق صادقًا حتى يصدق في أفعاله صدقة في أقواله ، ولا الرحيم رحيمًا حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه ، ولا المتواضع متواضعًا حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه .

التخلق غير الخلق ، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة ، لا فاضلون ، لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس ، أو خوفًا منهم أو طمعًا فيهم ، فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعًا في الجنة التي أعداها الله للمحسنين ، أو خوفًا من النار التي أعدها الله للمسيئين .

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة ، أو يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجودًا ، أو لا نعرف له مكانًا .

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار ، لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب أنه يمشي في طريق الفضيلة ، أو خوفه من القانون ، لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب ، أو خوفه من الناس ، لأن الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضر بهم ، رذائل كان أم فضائل ، وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته .

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى عنها ، وتوالت قيادتها العادات والمصطلحات ، والقواعد والأنظمة ، ففسد أمرها ، وا ضطرب حبلها ، وا ستحالت إلى صور ور سوم وأكاذيب وألاعيب ، فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسيم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد أن يسلبه إياها ، والأمير الذي يتقرب إلى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله ألف بيت من بيوت المسلمين ، والفقيه الذي تورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن ، ولا تورع عن مخالفة القرآن من فاتحته إلى خاتمته ، والغني الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع فلايرق له ولا يحفل به ، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريح من أضرحة الأولياء ،

ووضع صندوق النذور بدرة من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها والمومس التي تتصدق بنفسها في كل عام على روح بعض الأولياء وعندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام .

إلى كثير من أمثال هذه النقائص التي يزعم أصـــحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الأخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة .

الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس ، أو مشهد من مشاهد الشقاء .

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفينه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجًا ، أو أساء إلى ضعيف مسكين .

هو الحمرة التي تلبس وجه الحي خجلاً من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده ولا يستطيع مد يد المعونة إليه .

هو اللجلجة التي تعتري لســان الشريـف حينما تحدثه نفســه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة .

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيدي إلى العبث بعرضه أو بكرامته .

هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه ، أو ممالأة عدوه .

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم ، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة ، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء ، ومن أي طريق أراد فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها الأذهان ، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب ، والأريج عن الزهر .

■ ■ ■

كنت لا أســـأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها ، وبلوغها في المدنية مبلغًا يؤهلها لمجاراة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها ، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها .

أصـبحت أعتقد أن مفاسـد الأخلاق والمدنية الغربية شـيئان متلازمان وتوأمان متلاصـقان ، لا افتراق لأحدهما عن صـــاحبه إلا إذا افترقت نشـــوة الخمر عن مرارتها . فكيف أتمناها لأمة هي أعز عليّ من نفسي التي بين جنبي ؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب ، فقلت قوم قد ضـعفت قلوبهم عن احتمال حوداث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقل ، ففروا من الحرب وميادين الجهاد !

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تســـتل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من أن العرض إناء إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح ، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف .

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات شوقًا إلى لثمة من خد ير شح صديده ، أو ر شفة من ثغر يتناثر دوده حتى إنه ليروقهم من منظر السـاكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصـورات في الخيام . فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم ، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم ، ومواقف عشـــقهم وهيامهم ، رأوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالاً لما فاتهم الإلمام بهم حقيقة ، فأنشـــاوا لأنفســـهم في باطن الأرض قاعة كبرى كسـوا جدرانها بالأسـتار السـوداء ، ووضـعوا في وسـطها صـندوقًا من صـناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تت صنع الموت با صفرار لونها ، وإ سبال جفونها ، و سكون أنفا سها ، فإذا لج بأحدهم ال شوق إلى الإلمام بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السـوداء وعالج مخيلته على أن يتصـورها قبراً مظلمًا موحشًـا يضـم بين أقطاره فتاة ميتة لا حراك بها فيلم بها وهو يســـمع نغمات الأحزان من قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال .

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان ، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا ، فقلت لا عجب في ذلك . وهل هو إلاّ فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلاً ؟

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإني لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأسًا ولا يجدون فيه متلومًا .

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي :

يوم الأحد : دروس استعدادية .

يوم الاثنين : الغزل .

يوم الثلاثاء : المطارحة .

يوم الأربعاء : صناعة التقبيل والتخميش .

يوم الخميس : فلسفة الدلال والتصبي .

يوم الجمعة : اختيار مواعيد اللقاء .

يوم السبت : الامتحان .

هذه هي المدرسة الغرامية ، وهذا نظامها ، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها أنها زهرة المدنية الحديثة ، وتاجها المرصع .

لماذا نسمى الزنوج قبائل متوحشة ، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى مخالطة النساء ، فيأخذونهم جميعًا إلى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها ترابًا معبدًا ، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه ، كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى حيطة وحذرًا ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات ، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدنة ، وها هي ذي تفتح

المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها ، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها !!

إذا كان توحش الأولين لإغراقهم في صون الأعراض ، والحيطة لها فالآخرون أكثر منهم توحشًا لإغراقهم في هتكها وابتذالها ، والإغراق في الخير ، خير من الإغراق في الشر .

فيأيها الزنجي المسـكين ، لقد ظلمك من سـماك متوحشًـا ، ويأيها الأمريكي المتوحش لقد كذبك من سماك متمدينًا .

أيها الزنجي الأسـود : إن كنت أسـود اللون ، فالفضـيلة أعلى قدرًا من أن تتنزل لاعتبار السـواد ذنبًا تنفر منه ، وجريمة لا تغتفرها ! وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفننًا لا أحسبك تحن إليه ، أو تتقطع نفسك حسرات عليه ؟ وإن كنت عاريًا فربما لبسـت من الفضـيلة ثوبًا يحسـدك عليه - لو يعقل - ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجة ودمقسة وحريره .

ولـو بـتـما عـنـد قـدريـكـما     لـبـت وأعـلا كـما الأسـفـل

■ ■ ■

## أمس واليوم

مثلنا ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده كمثل رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب ، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح ، فانقلب جوهرًا بعد إذ هو عرض ، فأصبح كأنما هو فحل سائل ، أو مداد جامد ، فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد ، وتخفضـــه الوهاد لا يرى علمًا فيهتدي به ، ولا يتنور نجمًا فيعتمد في سراه عليه .

وإنه لكذلك وقد استوت في نظره الجهات الست ، فسماؤه أرض ، وأرضه سماء ووراءه أمام ، وأمامه وراء ، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق ، وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أ شعته المتلألئة فعشى بعد أن كان بصيرًا فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئًا ، ومازال في ضلاله القديم ، إلا أن ذاك ضلال الظلام ، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلالين ، وأقتل الداءين فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء ، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء .

لــو بــغــير المــاء حــلــقــي شرق　　　كنت كالغصـــان بالماء اعتصـــاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة التي همى ســـيلها على هذا العالم الإنساني فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ورأى الشرق تربة طيبة صامته متحجرة قد نجم فيها كثير من الأعشاب الضعيفة ، والجذور الفاسدة ، فأما ما تحجر منها ، فلم تغن عنه السقيا شيئًا ، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فا سدًا كأ صله وكان خيرًا له لو ذهب ذلك الفيضان به وبجذوره .

أي أن المدنية الحديثة تمشـــت في صـــدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضـــطرب ، ثم وضـعت يدها في أيدي الغربيين فصـعدت بهم إلى ســمائها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصـغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتونا ، فبلغوا ما أرادوا وهوينا إلى أعمق مما كنا ، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو ، فإذا ارتد ارتد إلى حفرة يدفن نفسه فيها .

أي أن الغربيين أحسوا ، فنهضوا ، فجدّوا ، فأثروا ، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات ووثبنا إلى الغاية وثبًا فسقطنا .

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة ، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً وأهنأ عيشًا ، وأسدّ خطوات في سبل الحياة ؛ وكانت المعيشة فيهم اجتماعية ؛ أكثر منها فردية ؛ فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالمملكة الدستورية المنتظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخلاق والعادات ؛ تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساعة المنتزه ، يحبون الله ، لا يختلفون إلا في الطريق إلى رضاه ؛ ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية ، ويفرون من العادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من السد ؛ مخافة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم ، فتهدأ حميتهم وتجمد نفوسهم ، فإذا هم ميتون ثم لا يبعثون .

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه ، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب ، حتى إذا أصبح الصغير كبيرًا وجد من صغيره ما وجد منه كبيره ، فلا تزال سلسلة التوارث في الأسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث ، وتكبو دونه عاديات الليالي .

ويرحم الصغير الكبير فلا يألوه نصحًا في حاضرة ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو ، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئًا .

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي ألكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها ، ومخترعاتها الخالية ، وزخارفها اللامعة الباطلة ، فانقلبت المعيشة البيتية اجتماعية فردية مخضة فالأخوان متناكران ، والزوجان متنافران ، والولد شقي بأبيه ، والأب شقي بولده ، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب ، لا ترى فيها غير وجوه مقطبة ، ونفوس منقبضة ، وأشلاء فوق أشلاء ، ودماء إثر دماء ، وشقاء ليس يعدله شقاء .

ومن كان في شك من هذه الحقائق فإني أكله إلى جداول القضايا في المحاكم فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها - خصوصًا المدنية منها - واقعة بين الأقارب وذوي الرحم فله حكمه ما شاء .

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشرت آباءه أجيال متعددة ؛ فما كانت تضيق بهم ، وما كانوا يضيقون بها ، وكان له ثلاثة أولاد و « امرأة جديدة » متعلمة تعرف كل شيء إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها ، وليتها جهلت كل

شيء إلا هذا فتكون قد علمت كل شيء ، وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسـدة حبًا ملك عليها مشـاعرها وخوالجها فربما عرض لها المهم من الأمر فلا تخف له قبل فراغها من الفصـل الذي تطالعه ، وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشـاهدته ، ونهارها في سرد وقائعه ومشـاهده على صـواحبها وأترابها ، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى (روميو) فتكون له (جولييت) وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور ، فيومها نصفان : نصف للخروج ، ونصف للتهيؤ له ، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس إلى مغربها ، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الأولى فلم يغتبط بها غير عام واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم أشد ناكلاً منها .

أما أولاده فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة : الإنكليزية والفرنسـية والألمانية ، ثم تخرجوا ، هذا انكليزي بفظاظته وخشـونته ، وهذا فرنسي بخلاعته واسـتهتارة ، وذاك ألماني بخيلائه وكبريائه وجميعهم متفرنجون مشربًا ومذهبًا ومطعمًا وملبسًا ومسـكنًا ، وما فيهم من تفرنج همة وعملاً .

خرجوا من المدارس بلا يدن ولا وطن ، أما الدين فلأن أكثر مدار سنا حتى الأهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها والدين خلق شأنه كبقية الأخلاق ، لا يرسخ في النفس إلا بتكرار الصور الدينية وتداولها عليه ، فإن بعد عهدها به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شـأن هؤلاء الأولاد المسـاكين فقست قلوبهم ؛ وجمدت نفوسهم ، وفقدوا بفقد دينهم أطيب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب ، الحافلة بالكوارث والهموم .

والإنسان مهما طال حوله وكثر طوله ، واتسعت مذاهب قوته ، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد ، لولا زهرة الأمل التي يتعهدها الدين بالسـقيا في قلب المؤمن ، فيسـتروح منها ما يروح عن قلبه ، ويسري عن نفسه ، ولولا يقينه أن هناك حولاً أكبر من حوله ، وطولاً أعظم من طوله ، وإلهًا قادرًا يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه ، وعيت عنه قوته .

وأما الوطن ، فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيد أجنبية تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم .

فكنت ترى منزل الرجل كأنما مجمع من مجامع السـفراء تركي متمسـك بتركيته وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزية سـيدة البحار ، وأن الشـمس لا تغيب عن أملاكها ، وفرنسي يعبد فرنسـا ويسـبح بحمدها ، ويصـفها بأنها أمة العدل والرحمة ، وأن أسـعد المسـتعمرات مسـتعمراتها ، وألماني يستظهر خطب الأمبراطور ، ويتكهن أن المستقبل لألمانيا يوم يمحى اسم انكلترا وفرنسا من مصورات

الجغرافيا ، وكثيرًا ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاع الطويل في شأن الألزاس واللورين ، وبين المتألمن والمتكلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلو ، وأي القائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتون ؟ ولا يتفقون إلا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم ، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبسونها ورجالها قديمًا وحديثًا أثواب المراقع المضحكة ، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس ، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من ناحية يختلفون ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون .

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل ، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيما تفريق وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون في منتزه ولا يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون في سمر ، ولا يتفقون في شان من شؤونهم البيتية ، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه .

فأنى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة ، وأنى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه ؟

وأي شأن لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم ، وهل أفادوا بها إلا هذرًا في المنطق ، وثرثرة في اللسان ، وشغلاً للأذهان ، لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلاً ؟

ولو عقلوا أن ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلاً وهمجية ، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به ، وننعى عليهم تاريخهم من أجله لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا .

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض ، وأن مصر في شمال إفريقيا وسوريا في غرب آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون أن وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم ، وأن أبناء وطنهم إخوة لهم يسعدون معًا ويشقون معًا وأن سعادتهم في ا ستقلالهم ، و شقاءهم في امتداد اليد الأجنبية إليهم ، وكانوا يعتقدون كثيرًا من الخرافات والأوهام ، وأن هناك أروحًا خيرية وشرية تنفع وتضر وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ، ويطأطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحنثًا وتعبدًا ، وعندي أن دينًا خرافيًا خير من لا دين ، لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطانًا قاهرًا يقاوم أهواء الشر فيها ، ويطهرها من كثير من الرذائل التي تعبأ بها القوانين الشرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب ، والحقد والحسد ، وسفك الدماء ، واغتيال الأموال ، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التي لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجرً ، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجردًا عن روح التربية وصبغة الأخلاق .

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صـــدق ألسنتهم ، ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ، ولا شهادة شاهد ، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت ، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه ، أو أنكر شهوده وكثيراً ما يفعلون .

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم ، ولكن لم يجن عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا ، وكانوا محرومين أكثر مما ننعم به اليوم من مســاكن فاخرة ، ومراكب فارهة ، وملابس زاهية ، وفرش وثيرة ، وآنية صقيلة ، وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة ، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئًا من هذا كله لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضا بحالتينا ، إلاّ أن معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل ، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء وها هي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم إلى حاجيات ، فبنوا القصــور ، وشــادوا الدور ، وما شادوا لا يعلمون إلا قبورًا دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم فإن هؤلاء الأولاد المســاكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا أن لا يبقوا في قوس الحرية منزعًا فأطلقوا لأنفســهم العنان في سـبيل الشـهوات واللذائذ ، فكانوا يسـهرون الليل بين رنين الكؤوس وضرب الدفوف ؛ ثم ينامون النهار بين التمطي والثوباء ، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم ، فأبعدتهم عنها ، فأصبحوا كلاّ على أبيهم وعلى الناس ، لم ينفعهم علمهم ، ولم تغن عنهم شـــهادتهم ، بعد أن نفخت الكبرياء في صـــدروهم فأبوا أن ينزلوا للاحتراف بما يقوم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم في طريق تقليدهم ، وباعوا في سوق التشبة بهم كل ما تملك أيمانهم وقلوبهم ، وبعد أن ملكت الشـهوات قيادهم فما وجدوا في أنفسـهم قد قلصـوا ظلالها أولاً بنفقات دراستهم وثانيًا باتباع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوروبية ، التي تفني خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول إلى إشباع بطون تجارها ، فنضب معينها ولم يبق منها حتى الذماء فتبدل ذلك النعيم شقاء ، وتلك السعادة والرفاهية فقرًا وعدمًا ، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف ، والمخترعات والمستحدثات ، وأما الأولاد فاغتالت أحدهم يد الزهري وكانت لأمثاله من المغتالين واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب ، وافترش الثالث تراب السجن على إثر جناية دفعة إليها العوز

والحاجة ، وفرت « المرأة الجديدة » إلى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشـقاء بثمن بخس وهو فيها من الزاهدين :

كأن لم يكن بين المجون إلى الصــفا  أنيس ولم يســـمر بمكـة ســـــامر

هذه قصــة منزل من منازلنا ، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله ، فلو أن باكيًا بكى على ما آلت إليه حالة هذه الأسرة الشقية فهو إنما يبكي أسرًا متعددة ، وأمة كاملة :

لقـد لامني عنـد القبور على البكـا  رفيقي لتذارف الدموع الســـوافك
فقلـت لـه إن الأسى يبعـث الأسى  دعـوني فـهـذا كـلـه قـبر مـالـك

وجملة القول إن للحاضر سـيئات فوق سـيئات الماضي ، فلا خير في العصرـين ، ولكن ويلاً أخف من ويلين ، والأمم لم تسـعد بمعرفة الخير والشرـ فالخير والشرـ معروفان حتى لأمة النمل ، وإنما سـعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرـين ، ولئن دام هذا الحال ، وأطرد المقياس ، فالغد شر من اليوم ، كما كان اليوم شرًا من الأمس .

■ ■ ■

## المرقص

حدث أحد الأصـــدقاء قال : ذهبت ذات ليلة إلى مرقص من مراقص الأزبكية ولم أكن زرته ولا زرت غيره من قبل ، فرأيت على بابه جنديًا يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة ، فذعرت لمرآه ، وتراجعت قليلاً قليلاً ، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق إلى المرقص ، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يحرســها حاجبها ، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضــطراب ، والذل والانكســار ، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمنظلمين .

وقفت ســاعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامس فالتفت ورائي فإذا صـــديق من أصدقائي يسألني : ما وقوفك ههنا ؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره : أراك تشـــاركني في الفعل وتفردني بالعجب ، قال : أنا أفتش عن ابن عمي ، قلت : وأنا أفتش عنك ، فابتسم وقال : هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث مالا نهاية له ، وأمسك بيدي حتى جاز بي باب المرقص ، فســألته ما هذا الجندي الواقف أمام الباب ؟ قال : كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد أصـبحت اليوم حكومة مدنية لا أدبية ، فتسـاوت في نظرها « المصـالح » والمراقص ، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضــاء ، ومعاهد البغاء ، فأصــبح الجندي يحمي أبواب العاهرات كما يحمي أبواب الوزارات ، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات .

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سـحًا وتذارفًا كلما أبصرـت هذا الجندي الظريف واقفًا هذه الموقف الذليل يســمع قراع الدفوف لا قراع الســيوف ، ويرى حمرة الصــهباء لا حمرة الدماء ، ويحمي الفســق والفجور ، لا القلاع والثغور ، وما أعجب لشيــء عجبي لهذه الحكومة التي تضــن بجنديها أن يشــتمه شاتم ، أو يلمسه لامس ؛ فتغضب له غضبة مضرية فتراءى فيها الشامة والحمية ، والعزة والنخوة ثم لا تضـــن به أن توجره نائحة في الجنائز ، أو قوادًا في المراقص ، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاته ، وينوب عنها في غدواته وروحاته .

هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي إلى قاعة المرقص حتى وصلت إليها ، فماذا رأيت ؟

إن كنت لم تسمع في حياتك أن فدانًا واحدًا من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات ، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه ؛ أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون .

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس ، والعقول جامدة في الرؤوس ، والحبائل منصوبة لا ستلاب الجيوب ، والسهام مسددة لاصطياد القلوب ، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلاً ، وأذكاهم قلبًا ، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالاً وإكبارًا ، واقعًا في حبالة بغي تقيمه وتقعده ، وتطويه وتنشره ، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها ؛ وهو في غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخارًا وكسرى فارس أنفة واستكبارًا .

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلاً يخترق أشعة حجب الغيب ، وعلمًا تتساوى أمامه المادة وما وراءها ، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر :

وعلمت حتى ما أسائل واحدًا عن حرف واحدة لكي أزدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية التي يشترك في فهمها الأذكياء ، والأغبياء والعلماء والجهلاء .

رأيته يجلس في المرقص فتمر به البغي فما هي إلا لمحة طرف ، أو غمزة كف . حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها ، ملأ فراغ قلبها ، فيدعوها إليه فتجلس بجانبه ، فما هي إلا ابتسامة خالية ، أو كلمة كاذبة ، حتى يقسم بكل محرجة من الأيمان ، أن نفسه صادقة فيما حدثته ، وأن الفتاة قد علقت به علوقًا لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون .

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله ، ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه ، وابتسامات تجود بها عليه .

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل فها هي المرأة بجانبك فهل ترى فيها منظرًا رائعًا ، أو جمالاً ساطعًا ، يأسر أقسى النساء قلبًا ، وأعصاهن عنانًا .

إن الفتاة التي أسمعتك كلمة الحب قد أسمعتها قبلك وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك ، وعقل مثل عقلك .

وإن كنت في شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها ، وموقعك من قلبها ، فإن لم تمطر عليك سحائب اللعنات ، وتجعلك غرضًا لسهام التهكمات ، فأنت أصدق الصادقين ، وأنا أكذب الكاذبين .

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظارًا يكبر المنظورات ، ويضاعف المسموعات ، تغني المغنية بصوت مضطرب النغمات ، بارد الترجيعات ، ثقيل الحركات والسكنات ، فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات ، وتدوي فيها الصيحات المزعجات ، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجه مغضن وجفن مقرح ، وسن بارز ، وخد غائر ، فتطير حولها القلوب ، وتتحلب لها الأفواه ، وتترامى تحت أقدامها الوجوه ، فقلت في نفسي . أهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة ، وتذبل فيه الرياض الزاهرة ؟ .

أهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار ، تدفق الأنهار في البحار ، وتقبر فيه نفوس الكرام ، قبل أن تقبر تحت الرجام ، والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله وأساطيله وقنابله ، ولا الأرض بزلازلها وبراكينها ، ما يبلغ منا المرقص ببغاياه .

قال المحدث . والحق أقول إني دخلت المرقص وأنا أحسب أني أنفس عن نفسي كربة ، فرأيت ما زاد نفسي همًا ، وملأ قلبي غيظًا ، فقلت لصاحبي : هل لك في القيام ؟ فقام وقمت وأنا أقول : والله ما أدري ما ترك هذا المكان ، للمارستان ؟

■ ■ ■

عندي أن الفضـــيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة ، فكما أن الجمال في أمة قد يكون قبحًا في أمة أخرى كذلك الفضـيلة في عصر ، قد تكون رذيلة في عصر آخر .

ليسـت الفضـائل والرذائل أسـماءً توفيقية كأسـماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، وليسـت الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة في الحياة ، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها ، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة ، وإن كانت صفة الكرم .

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم إلي اليوم أن ينشرـــوا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رســـالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان ، يكتبون على رأس أحدهما عنوان «الفضائل» وتحته كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ، وعلى رأس ثانيهما عنوان «الرذائل» وتحته كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقســـوة ، وأرى أنهم قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم في الأمس ، وأن أســـاليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية ، وان كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها ، ويسـتثقلون منها قد أصـبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري ، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلمًا نظاميًا ، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم .

كان الكرم فضـيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصـاحبه ، ويعرفون له يده التي أسـداها إليهم ، فإذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحســـن إليهم أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه - من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه ، أو يرفه عليه ، أما اليوم وقد نكر الناس الجميل ، واســـتثقلوا حمله على عواتقهم ، بل أصـــبحوا يشـــمتون بصـــاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه ، فليس الكرم فضيلة ، وليس من الرأي الدعاء له ، والحض عليه .

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس ، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد ، أما اليوم وقد ذلت النفوس ، وسفلت المروءات ، فلبس ثوب الفقر غير الفقير ، وانتحل البؤس غير البائس ، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشف البالي ، فالرحمة هي الفقر العاجل ، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها ، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد ، أما اليوم وقد فترت همم الناس ، ووهت عزائمهم ، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير ، ووكل كل أمره إلى صاحبه ، فإن رأوه قائمًا بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضي فيها ، وقفوا عن كثب ينظرون ماذا يفعل فإن ظفر هتفوا له ، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها ، وإن فشل خذلوه ، وتنكروا له ، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء .

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم ، ويوم كان الفقر مفخرة للشريف إذا عقدت يده ، وعزفت نفسه . والغنى معرة للدنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه ، أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم إلا المجد المالي ، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم ، فالقناعة ذل الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها الطويل .

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها ويطأطئون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها ، أما وقد أصبح الناس أشرارًا يحملون شرورهم على كواهلهم ، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأسًا يصبونها عليه ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك الذي لا يحسن الذياد عن نفسه ، فلا خير في الحلم ، والخير كل الخير في الغضب .

الحياة معترك أبطاله الأشرار ، وأسلحتهم الرذائل ، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى .

يجب أن يكون الناس جميعًا إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم ، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض ، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة ، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاهما فليس لذلك إلا معنى واحد : هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم ، في سبيل أدنيائهم وأنذالهم .

إن الدعاء إلى البر والإحسان ، والرحمة والشفقة ، والعدل والإنصاف ، والصدق والإخلاص ، في هذا العصر ، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها ، فيستأثروا بها من دونهم ، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه ، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء ، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها ، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه .

كلنا يكذب ، فلم يعيب بعضنا بعضًا بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبتسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة ، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفظع الطمع والجشع ، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق ؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين ، الدين في الأعصر الماضية .

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب ، وأن قصص الفضائل التي يقرأونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار ، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها ، حتى لا يصبح ناقمًا على العالم يوم ينكشف له وجهه ، ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات .

وليت الذين يعرفون من شؤون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناشئ كتابًا مدرسيًا على نمط كتاب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر ، ويغش الصانع ؛ ويلفق المحامي ، ويدجل الطبيب ؛ ويختلس المرابي ، ويرائي الفقيه ، ويصانع السياسي ، ويتقلب الصحافي ، ثم يقولون له : هذه هي الحياة ، وهذا هو ما يجري فيها ، فإن أردتها على علاتها فذاك أو لا ، فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيدًا بعيدًا عن العالم وما فيه ، وكل مما تأكل حشرات الأرض ، واشرب مما تشرب منه ، حتى يوافيك أجلك .

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم . وحامل السيف لا يغمده في غمده إلا أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سدًا يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفًا ، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبيًا ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعًا في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحًا واحدًا ، من نوع واحد .

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فيسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش ، في عصر مثل هذا العصر ، وناس مثل هذه الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل السبيل .

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها ، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، ووا أسفًا على أيامها وعهودها .

■ ■ ■

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق أن وقع نطره على تلك الفتاة عرضًا فشغف بها حبًا وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعًا من أن يزوجوها منه على تقدم سنه ، وإدبار أمره لأنه أكثر من ابنه مالاً ، وأوسع جاهًا وسلطانًا ، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها ، لأنه كان يحب الفتاة حبًا جمًا ، وأصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازمًا لها حتى اليوم ، وأصبح الشيخ حزينًا بائسًا لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد .

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيرًا . ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليها لتوازن بين الحادثتين كما وازنت وتستنتج منهما ما استنتجت :

فجعت سيده اسمها «مارجريت بونفيل» بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها . وكان امرأة بارعة الجمال ، رائعة الحسن ، لا يراها الرائي حتى يخيل إليه أنها الكوكب المشبوب رونقًا وبهاء ، وأنها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشًا شديدًا وبدأت تختلف إلى بعض الأندية العامة علها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه . فأحبته وافتتنت به وأضمرت في نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وإن كان أصغر منها سنًا بنحو عشر سنين . فلم تزل تتودد إليه ، وتستدني قلبه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها ، وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يردد على لسانها كثيرًا ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفى ، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها ، حتى زارها في منزلها يومًا من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الأطفال ويطربون لها ، فلما وقع نظر مارجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت : ما هذا الذي تحمل؟ قال : إنها هدية لماري أريد أن أقدمها إليها وأين هي؟ فأرادت العبث به وقالت له : إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول ، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسه .

فذهب حيث أشارت ، فراعه أنه لم يجد أمامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعبًا رائعة الجمال في السادسة عشرة فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول ، حتى رنت من ورائه ضحكة مارجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فارفض جبينه عرقًا ، وتقدمت مارجريت نحو ابنتها وقالت لها : أقدم لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصانًا خشبيًا جميلاً ، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة ، فأثر في نفسها خجل جورج وارتباكه فمشت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له : أشكر لك هديتك يا سيدي ، وأتقبلها منك باغتباط وسرور ، وأعدك أني سأحفظها لك عندي تذكارًا دائمًا لا أنساه ، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعًا يتحدثون ويسمرون ، ومر لهم أطيب يوم مر لأحد حتى أظلهم الليل فاستأذن جورج وعاد إلى منزله .

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مارجريت لا من أجل الأم وحدها ، بل من أجل الأم والبنت ، حتى حضر صباح أحد الأيام ، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها ، فوجد ماري وحدها ، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل ، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية فوجدها ، وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيها أول ما رآها ، فجلسا معًا يتحدثان طويلاً ذهبا فيه مذاهب مختلفة ، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب ، فورداه ، فإذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب ، وإنهما لمضطجعان وجهًا لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعة يتمنى المصور أن يراها فيرسمها فيرسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعًا فلا يجدونها ، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران فرابها منظرهما ، وخيل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها ، فأصغت إليهما ، فألمت بطرف من حديثهما ، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها عبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شيء فأملست من مكانها إملاسًا ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرآة أمامها ، وإذا شعرات بيض سانحات في رأسها تهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد ، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك ، فأخلي مكانك لابنتك ، فهي أولى به منك ، وحسبك من السعادة أن تفرحي لفرحها ، وتهنئي لهنائها ، واعلمي أن للطبيعة حكمًا قاسيًا لا يختلف عليه مختلف ، ولا يتمرد عليه متمرد إلا هلك ، ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكًا وكان يميل بها

الميزان نحو نفســـها مرة ، فتثور ثائرتها ، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها ، ونحو ابنتها أخرى ، فتلين عريكتها ، ويسلس قيادها ، وتقول في نفسها : إنها أولى به مني ، لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشرـــ ، فخرجت من غرفتها باســـمة متطلقة حتى وصلت إلى مكانهما ، فرأتهما مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيء مما حولهما ، فصاحت بهما : أأنتما هنا يا ولديّ؟ فاضـطربا إذ رأياها ، فابتســمت لهما ووضـعت يدها في أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها ، وجلســت تتحدث إليهما حديثًا طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما ، وما هي إلا أشــهر قلائل حتى زفت إليه ، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهداه أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها .

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم في أعماق قلب مرغريت لم تزل تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى رن في أذنها يومًا من الأيام صوت حفيدتها تدعوها «جدتي» فكان هذا آخر عهدها بها .

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها .

ذلك ما فعل الرجل في الســـبعين من عمره ، وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيثة ، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصـف لا إلى الشـيخوخة ولا إلى الشـباب فجوزي هو على تمرده على الطبيعة ، وخروجه عن سنتها شر الجزاء ، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها ، وتأدبها بأدب الحياة ، حسن الجزاء .

■ ■ ■

القاعدة المطردة في هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يومًا من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر ، إلى سماء الثروة والغنى ، بنى بينه وبين ماضيه سدًا محكمًا لا تنال منه المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي ، زيه وهيأته ، ولغته ولهجته ، ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقه ، وأصحابه وعشراءه ؛ وجميع صلاته وعلائقه ، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له : صورته واسمه لفعل .

يريد أنه قد أصبح إنسانًا غير ذلك الإنسان الأول ، لا صلة له به ؛ ولا شأن له معه ، وأنه قد خلق خلقًا جديدًا .

إنها لخلة رديئة جدًا ما رأيت في الخلال أقبح منها .

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب «وعار» ، والفقر ليس بعيب ولا عار ، فإن كان لابد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضًا ، لأنه قضى عصر شبابه ، والشبابُ هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها ، في الفقر والخصاصة ، والعَدم والإقلال .

ولا أدري ماذا يكون شأنه غدًا إذا استرد الدهر هبته منه ، وكثيرًا ما يسترد الدهر هباته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبة ، أو يمنح منحة حتى يستردها .

عذرته في ثوبه الذي خلعه ، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها ، وفي داره التي هجرها ، وقلت لابد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق ، وفي لهجته التي غيرها ؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم ، وفي خده الذي صعَّره ، و صدره الذي أبرزه ، وأنفه الذي شمخ به ، لأن للثروة طغيانًا كطغيان الشراب ، لا سبيل إلى دفعه والخلاص منه ، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها .

إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرَّائه وضرَّائه ، ويسره وعسره و شبعه وجوعه وريه وظمئه ، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسرًا ، وضيقه سعة ، وشدته رخاء ، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته .

إنها شاركته في شدته ن فيجب أن تـشاركه في رخائه ، واحتملته والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه ، وأقرضـته الصـبر على عشرـته ، فيجب أن يوفيها الصـبر على عشرـتها ، إن كان يرى أنها عبء ثقيل عليه .

أيريد أن يتمنى النســـاء جميعًا لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يســـتبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنهن يتمنين ذلك فعلاً ، بل يـسعين له سعيهن ؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفـسهن في ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى ، فيا للفظاعة والهول ، ويا للمعيشـــة النكدة المريرة! ويا للشـــقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء!

حدثني من أثق به أنه دعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائســـة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم : إنها سـيدة هذا البيت بالأمس ، وأن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصـغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى ، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله ، فكفاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء ، بل تركها في قريتها وحيدة منقطعة ، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير ، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سـوى أنه أصـبح ذا زوجة جديدة ، وولد جديد ؛ وقالت إنها تحاول منذ سـاعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم .

إنه لموقف مؤلم جدًا أن تقف امرأة على باب البيت الذي كانت ســـيدته بالأمس موقف الســـائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين .

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع ، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ ، ولا لذة السـعادة إلا إذا تمثل أمام عينيه عهد الشـــقاء ، فما أحوجه - إذا انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى - إلى أصـــدقاء عهده الأول وعشرـائه ، ليجلس إليهم من حين إلى حين ، ويتحدث معهم عن ماضـيه وحاضره ، فيشـعر بلذة الانتقال من حال إلى حال ، وما أحوجه إلى زوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته ، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيمًا .

وتعجبني كثيراً قصــة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلاً أعجميًا من قرية من قرى فارس اســمها «بوشـــنج» وفد إلى بغداد وحظي عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصــب العظيم ، وقف الناس له صـفوفًا على جانبي الطريق ، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور ، وهو مطرق واجم ، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه : ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال : نعم أراهن ولكنني كنت أفضل أن أرى بدلاً منهن عجائز «بوشنج» .

أي أنه كان يتمنى أن العيون التي رأته بالأمس وهو وضيع ، تراه اليوم وهو رفيع .

■ ■ ■

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر ، وسالت لها دموع الفضيلة حزنًا وأسى ، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتًا عيش البؤس والفاقة ، أعجب لهن ولأمرهن ، وأقول في نفسي : ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن ، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن ، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن ، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته ، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الأرض حيث شئن ، يطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق ، والأجواء الحرة المطلقة كثيرة ، وأسباب العيش فيها متنوعة ، وما على وجه الأرض جو أسوأ من جوهن الذي يعشن فيه فيخفن أن يصرن إليه ، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقًا من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه ، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها أو أنه وضع في أعناقهن أغلالاً من الديون وليس في وسعهن أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فإن من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس ، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت .

***

توفيت زوج إحدى الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزنًا شديدًا لأنها كانت أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئمها ، فمر بخاطره يومًا من الأيام أن يزور حي «مونمارتر» وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها ، فظل سائرًا بمركبته يستطرق من زقاق إلى زقاق ومن معبر إلى معبر حتى وقف بباب خان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه ، فانحدر إليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين ، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين ، ولابط الأرض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه ، وراقص يوقع حركات قدميه على نغمة شبابة ينفخ فيها آخر ، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء ألحان سحبًا متكاثفة يرى الرائي من خلالها بعد لأي ما مائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب إلا قليلاً ، وتنثر على الناس نثارات من الورق

الرقيق الملون ، والناس من حولها طائرون بها فرحًا ، يداورونها ، ويعابثونها ، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد أحدًا ، وربما مد بعضـــهم إليها يده فيجذبها من ثوبها جذبًا شـــديدًا حتى يكاد يزلفها من مكانها ، أو يدفعها في صــدرها بعصــاه فآلمها ، وهي تبتســم مرة ، وتقطب أخرى ، فلم يدر الرجل أهو في مارســتان من مارســتانات المجانين ، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضــارية ، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريبًا لم ير مثله قط فأعجبه وســكن إليه ، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفســـه عادية الملل ، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ في الحال مكانًا قصيًا ، وجلس إلى مائدة منفردة ، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فإذا هي رائعة الجمال ، إلا أنه جمال مبعثر مذال ، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة فلا يزال ناظرًا إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها ، ونزلت تدور بعينيها علها تجد من يدعوها إلى لقمة تسد جوعتها أو كأس تبل بها غلتها ، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاســتطيرت فرحًا وسرورًا لأنها لم تر قبل اليوم زائرًا مثله في فخامة هيئته ، وجلال منظره ، وأخذ يتحدث إليها ويســائلها عن نفســها ، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد امرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء ، وقد سمع في صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع في نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤ سها و شقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحسانًا عظيمًا ، فسألها : ألها بأحد من الناس صــلة من زواج أو مخالة؟ فأطرقت برأســها وأجابت : أن لا ، فعرض عليه رأيه الذي رآه لها ، فاســتطارت به فرحًا وسرورًا ، وما هي إلا ســاعة أو بعض ســاعات حتى كانت بجانبه في مركبته فســار بها إلى منزله .

وهناك تغير من شــأنها كل شيء ، فأصــبحت تلك الفتاة البائســة المســكينة الضــاوية الصــفراء ذات الأسمال البالية ، والقبعة القذرة والحذاء المرقع سيدة فخمة يتلألأ وجهها بنور العزة والكرامة ، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشـــأن في الحياة ، وأن الدوق يوشك أن يتزوج منها .

وكان الدوق يعيش وحده في قصره ولا يعاشر إلا خدمه ، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من وحين إلى حين لأنه كان منقطعًا لا زوج له ولا ولد ، ولا قريب ولا نسيب فكانت «مارسيل» ملهاته التي يتلهى به في وحدته ، وأنسه الذي يأنس به في وحشته وكانت هي سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه لاينازعها في ذلك منازع ، وظل الأمر بينهما على ذلك شهورًا عدة وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما إلى ضاحية المدينة يرتاضــان في غاباتها وبســاتينها ســاعة أو ســاعتين ثم يعودان ، فإنهما لعائدين ليلة من الليالي من منتزههما إذا مرت بهما المركبة على مقربة من حي «مونمارتر» فاقترحت عليه «مارسيل» أن يمرا بذلك الحي

ليلهوا بمناظره الغريبة ، ومشـــاهده العجيبة فأذعن لرغبتها ، وظلا يخترقان شـــوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه فطلبت إليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصـحابه وزائريه من بعدها ، فلم ير في ذلك بأسًـا ، ودخل معها ، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها ، واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسـا إليها ، فما وقع نظر الناس على مارسـيل حتى هاجوا هياجًا عظيمًا ، وهتفوا لها هتافًا شـديدًا ، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها وهي تبتسم لهم ، وتعطف عليهم وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة ، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها ، وأصعدوها إلى المائدة لترقص لهم ، فكأنما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم ، فرقصت وافتتنت في رقصها ما شاءت . حتى أتمت دورها ، ثم نزلت وودعتهم وداعًا لطيفًا وانصرفت هي والدوق .

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق ، حتى أصبح يخيل إليها أن هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سـجن ، وأن هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها ، وأن هذا السكون الذي يحيط بها إنما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور ، فكانت إذا خلت بنفسـها تراءى لها في فضـاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه ، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الأشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها ، ويشدون يدها ، ويصبون عليها فضلات كؤوسهم ، فتطرب لتلك الحياة الهائجة الثائرة ، وتحن إليها حنين العا شق المفارق ، ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئًا فشيئًا حتى أخذت مكانها من قلبها ، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة إلى عيشتها الأولى ، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادئ قد هجع كل من فيه فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد ، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بها ، وكانت لا تزال ملقاة في بعض الغرف ، وتسـللت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها ، وأخذت سبيلها إلى حي مونمارتر .

وهكذا قضي عليها أن تشقى ، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها .

ولقد كان أسـف الرجل عظيمًا جدًا حينما تفقدها في صـباح اليوم الثاني فلم يجدها خصـوصًـا عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفســها ، فبكاها كثيرًا وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل .

ومر على ذلك عام أو بعض عام وبينما هو مقبل على قصره في ليلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسـكينة تئن وتتوجع ، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا تسـتطيع ، فدنا منها ليتبينها فإذا هي مارسيل ، أو هي شبح متهافت باق منها ، فلما أحست به حدت ذارعيها ليه وقالت له بصوت خافت ضعيف : اغفر لي ذنبي يا مولاي ، فدهش لمنظرها دهشـــة شـــديدة ، ورق لحالتها فأمر الخدم بحملها إلى القصرـــ فحملوها إلى غرفتها التي كانت تنام فيها ، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد ، وتستذرف الدموع ، ثم جلس إليها يسائلها عن شأنها . فقالت إنها مريضة مدنفة منذ شهور عدة ، وأنها قد عجزت عن أن تجد سـبيلاً إلى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها ، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صـدرها تمزيقًا ، فلم تجد بدًا من أن تأتي إليه لتستغفره من ذنبها ، وتسأله أن يعينها على أمرها ، لأنها لا تعرف في الدنيا لها راحمًا سـواه ، فسـألها لم فرت من قصرـه؟ وما الذي كانت تنقمه منه؟ فقالت لا أعلم ، وإنما هو قدر قدره الله ولا حيلة لأمري فيما قدره وقضاه ، فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها؟ قالت في المكان الذي أنقذتني منه فأبيت لشقوتي وبلائي إلا أن أعود إليه لتنفذ فيَّ إرادة الله ، فرثى لحالها ، وأمر با ستدعاء الطبيب لينظر في أمرها فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئًا ، لأنه جاء بعد الأوان ، وما أ صبح الصباح حتى صعدت روحها إلى خالقها ، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته ، فلم ينتفع بحياته طويلاً بعد ذلك .

***

لكل جو من الأجواء رائحة خاصـــة به يألفها أصـــحابه ويســـتنيمون إليها ، فحولوا أيها الرجال بين نسـائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة ، ولا تقولوا إنهن سـيجزعن منها ويهجرنها حين يسـتنشـقن رائحتها ، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها .

■ ■ ■

كتاب في التقاضي :

أنا إن سألتك حاجتي ، أعزك الله ، وبسطت إليك يد رجائي ، فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزمًا ، ونادرة الوجود كرمًا وفضلاً ، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقت إلى منكم أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت ، أيدك الله ، بين أن استشفع إليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى لديك وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية بك أحرى ، وبفضلك أجدر والسلام .

كتاب مقاطعة :

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك ، وصحوت من رقدة طال علي الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني روائعك ولا أجدى عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى معن بصري ، فجفت الدموع التي طالما أذلتها بين يديك وقرت العين التي كنت أساهر بها الكواكب شوقًا إليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب ، ثم يغذوها بمائه وهوائه ن فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترف ظلالها ، وترن أطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ولقد عالجت هذا القلب والشموس في الرجوع إلى سالف عهدك ، و سابق ودك ، فجمح جموح المهر الأرن وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في أوبته وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأسأت عشرته وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به في سبلك أخشن مركب ، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل فما هو إلا أن أمكنته العزة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ويبلي الجديدان .

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم ت- - كد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

كتاب تهكم :

علمت أن ساسانيًا طرق بابك بالأمس ، وما زال يكيد لك ويماحلك ، ويتغلغل في مواضع الضعف من قبلك ، حتى خدعك من نفسك ، واقتطف زهرة من روضه ، وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع سن نادم ، فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقه ، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته ، ومتى أقامك آدم و صيًا على أولاده من بعده ، تكسو عاريهم وتشبع جائعهم ، على أن الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بين الدرهم الذي أعطيت ، والدراهم الذي أبقيت ، إلا حرف واحد؟ فليت شعري من أين ذهبت ، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك ، وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فإن كانت هي فالخطب عظيم ، والبلاء جسيم ، فإنك حيثما ذهبت وأنى حللت ، لا تقع عينك إلا على يد شلاء ، ورجل بتراء ، وعين عمياء وصورة شوهاء ، وثوب مخرق ، وشلو ممزق ، وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فإن لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين وتسولت مع المتسولين ، ثم لا تجد لك راحمًا ولا معينًا . فارحم نفسك قبل أ، ترحم سواك ، ولا تنس أن تردد في صباحك ومسائك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي أعقاب صلواتك ، كلمة ابن الزيات : «الرحمة خور في الطبيعة» .

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لك فوك ، ورقصت لها أشداقك ، فطرت إليها ، ثم وقعت على خبزها و شوائها ، وفاكهتها وحلوائها ؛ مثلج الصدر ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ، ومرارة العمر ، وشبع اليوم ، وجوع الأبد ، وأنك إنما طعمت ما في الحبالة من الحب ، تأكله اليوم ليأكلك غدًا . فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يومًا يتقاضاك دينه ، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمرآه لبك ، وتمشى له قلبك في صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر إن منحت ، والعار إن منعت وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه ، فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب جرب ، ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك وزيتك ، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك ، حيث لا تزور ولا تزار ، منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك ، وأقضت مضجعك ، وأقعدتك مثل روق الظبي خيفة وحذارًا ؛ فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك ويسود عيشك ؛ والسلام .

كتاب يأس :

كتابي إلى سيدي ومولاي ، والنفس بين جنة الأمل تغن أ شجارها ، وترن أطيارها ، وتشتجر أغصانها ، وتعتنق غدرانها ؛ وهاجرة من اليأس تتلظى نارها ، ويعتلج أوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضـــها ، والجنوب ومضــاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشىـ بين الضــالع مشــية الطائر الحذر ، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره ، وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ، وسرور وحزن ، وقبض وبسـط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمته وإحسـانه ، ورأفته وحنانه ، فيشرـق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، وثغرها البارق ، وجمالها الســاطع ، وبشرــها الضــاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحتوفه ، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيها عن عثرات في الخطوات ، ونكبات في الغدوات والروحيات ، وما أخذته من العهد على نفســـها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانيها ، فألمس صـدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضـالعي ، ثم أنثني على كبدي من خشـية أن تصـــدعا ، فليت الله يصـــنع لي فيمطر على قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحســـانه أبل بها غلتي ، وأطفي بها لوعتي ، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحري ونحري نشوبًا لا يستقي بعده عرقًا نابضًا ، ولا نفسًا مترددًا ، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف ، لا هو حي فيرجى ، ولا ميت فيبكى .

يقولن «ما أضــيق العيش لولا فســحة الأمل ، وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضــاء ، وصــاعقة العذاب ، وطاغية الطوفان ، والزلزال الأكبر ، والموت الأحمر ، والخوف من الجوع ، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغية ، ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذارًا ، فوق أرض تعزف جناتها وتحوم عقبانها ، وتزأر ســباعها ، وتعوي ذئابها ، وتحت ســماء تتهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، بأســوإ في نفسه أثرًا من رجاء كاذب يرتدد بين جنبيه ، تردد الغصة بين لحييه لا هي نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها .

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية ، وقنن الجبال ، أن أراها ساربة في مساربها ، سارحة في مسارحها ، تتناول رزقها رغدًا من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعنيها الأســـف على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق ، قد قنت من الماء بالكدر ، ومن العيش بالجشب فتساوى لديها شحمها ولحمها ، وشيحها وقيصومها ، وسعدها ونحسها ونعيمها وبؤسها ، فما تحفل بنوازل القضاء ، ولا رجوم السماء ، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها؟

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي منه كمثل رجل زلت به قدمه فسقط في جوف بئر بعيد غورها ، ناء مكانها ، فما زال يتخبط ويضطرب ، ويهب ويثب حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها . ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها ، حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى ، فسقط ، فخاف الغرق فعاد إلى نفسه ، فعاد إلى سقوطه ، فلا هو بالغ راس البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء .

ارم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعًا صرعه أمله؟ أو قتيلاً قتله رجاؤه؟ أو صديقًا يشكو غدر صديق كان يعدّه لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه ، أو باكيًا يبكي وليدًا كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيه ، أو ساعيًا دائبًا وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها ، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده ، أو ساهرًا متململاً لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكيًا باكيًا ، داعيًا مناجيًا لا تراه إلا عين السماء ، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء .

هذه حالتي ، وذلك همي ، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعًا ، وأفارق عشيرتي وصحبتي ، ويراعي ومحبرتي ، علني جد في البعد عن مثارات الأماني ، ومباعث الآمال ، راحة اليأس ، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء .

فها أنا ذا قابع في كسر بيتي ولا مؤنس لي إلا وحشتي ، ولا أنيس إلا وحدتي أتخيل البيت قبراً ، والثوب كفنًا ، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم لأعالج نفسي على نسيان الحياة ، وأمانيها الباطلة ، ومطالعها الكاذبة ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك ، والسلام .

■ ■ ■

الجرائد :

لا أرى الصــحف في مصرــ إلا ناديًا من أندية القمار ، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبين ، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة «البليار» ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها ، فيكسبها في الصباح «زيد» ويخسرها في المساء «عمرو» وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعًا ، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي .

عبد الحميد :

حضرـت منذ أشـهر قلائل تمثيل رواية في مسرـح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشـيد للسـلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان ، ويدعو له بسلامة عرشه وطوله بقائه ن فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافًا يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقًا كاد يضم أضلاع المسرح بعضـها إلى بعض ، وحضرـت ليلة أمس منظرًا من مناظر الصـور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السـلطان بعينه رجلاً ظالمًا سفاحًا ، ضعيف الهمة ، ساقط النفس ، زَمِن المروءة ، جبانًا مستطارًا ، ورأيتهم عمدوا إلى صــورته فجعلوها مواطئ أقدامهم ، ومضــارب ســيوفهم ، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم ، وابتهجوا لمرآة ابتهاجًا ملأ فضاء صدورهم ، فتمشى في أعصاب أدمغتهم حتى وصل إلى أعصاب أيديهم ، فصفقوا له تصفيقًا شديدًا بتلك الأكف التي رايتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل .

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالمًا أو عادلاً ، كريمًا أو لئيمًا ، شريفًا أو ضــيعًا ، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم ، كتابهم وشعراؤهم ، علماؤهم وجهلاؤهم ، هم الناس الذين يقول فيهم القائل :

والنــاس من يلق خيراً قــائلون لــه ... مـا يشــتهي ، ولأم المخطئ الهبـل

الشهرة :

لا يمكن أن تكون الشـهرة بحال من الأحوال ميزانًا للفضـل في مصرـ ، خصـوصًـا في عالم الأدب ، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد إلا إذا سلم السابق من كيد العابث ، وخدعة الأريب وأنى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصابًا ، ويلصقها بنفسه إلصاقًا . وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته ، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه ن وإمتاع وجدانه فلا

يترنم بقصائده في المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الأسماء والألقاب ، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره ، ولا يتمم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره فترى للأول في هذا البلد الساذج دويًا كدوي الرعد ، وترى الآخر مطرحًا مجفوًا لا يؤبه له ، والدرَّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدرًا من جميع ما على وجه الأرض من ألواح البلور . وإن كان ملء العيون حسنًا وبهاء ، ورونقًا وماء .

فكاهة :

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسي أمام المرآة وأمسك بالموس وأنشأ يحلق له رأسه حلقًا غريبًا لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أن الحلاق قد أصابه مس من الجنون ، فارتعد بين يديه وخالف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تحمد عقباه ، واعتقل لسانه فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله .

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية ، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثًا سابقًا بينه وبينهم : لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس «الزبون» هنا طوكيو ، وهنا بور أرثر ، وهنا انكسرت كروباتكين ، وهنا انتصر أوياما وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي ، وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان ، وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم . ثم أردفه كلامه بقوله «وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية» وضرب بجمع يده أم رأس الزبون فقام صارخًا يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين والروس واليابانيين ، والناس أجمعين .

لا أعلم إن كان المحدّث هازلاً ، أو مجدًا ، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل!

الأقسام :

لا أعرف فرقًا بين حنث الحانث في يمينه ، وكذب الكاذب في حديثه كلاهما ضعيف المُنة ، وكلاهما ساقط الهمة ، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقًا ، كذلك لا يستطيع الحانث أن يكون بارًا وناقض العهد أن يكون وفيًّا فخداع من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن في مواقف الأقسام ما ليس لها

في غير تلك المواقف ، وأنه يتحرّج في الحنث ، ما لا يتحرج في الكذب ، فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرمًا .

الدين :

أيها النا شئ : إن من الناس قومًا قد ضعفت نفو سهم عن احتمال ثقل الدين ، و سلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه ، ونبذوا طاعته ، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده ا ستثقالاً وتبرمًا ، لا تقلدًا وتمذهبًا ، وما هم بمنكريه . فاعلم أن الله سيبتليك بهم ، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة ، وأن تنال الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها ، إلا إذا تنكرت لدينك . وتسلَّبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئًا إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته ، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وأنواع الآلام ، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة ، ولا يئل من عثرة إلا إلى عثرة ، لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته ، وتداركت عثراته . ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب .

الحقيقة :

قال لي بعض الناس : إن قومًا يغرقون في مدحك فهلا زجرتهم فقلت له : إن آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أ صنع سيئًا ، فدع الأكاذيب ودع بعضها بعضًا فربما ا ستطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها .

الانتقاد :

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان : أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان ، أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا ينتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أي أنه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في كتابه ، وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول فهو أن للانتقاد هناك أثرًا ظاهرًا في الكتاب من رواجه وكساده وشهرته وخموله ، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرًا فلا يبقى من

آثاره فيها إلا أثر واحد ، وهو أن الكتاب جليل القدر ، سـني القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يتوسل إلى بعض الناقدين أن ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الأمر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول ، أولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم في نفوسـنا ، أما الذين يغضبهم الانتقاد ويجرح صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئًا .

الحزم :

إن الدرهم الذي تمنحه من لا يستحقه ، قد خرج من يدك فلا سبيل بك إلى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقه ، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كأسًا يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفًا يسد به جوعة أولاده .

الألم :

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف أن الإنسان غافل بطبيعته عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها ، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة هي نذر تأتيه من عالم الغيب لتحذوه من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة .

الغفران :

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للإنسان ، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم ، ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لأن الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم ، فلو لا نغتفر ذنوب أولئك الذين ما أذنبوا إلا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على أثرها صرعى لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا؟

الدعوى :

إن أردت أن تكون في الأمة الجاهلة كل شيء فادع لنفسك كل شيء ، تنل بقولك في الزمن القصير ، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل فإن الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه .

الدين والوطن :

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه ، لأنه إن كان ينقضه عهد الوطنية غادرًا فاجرًا ، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحرى به إلا يحرص على وطن السقوف والجدران .

الحلم :

إذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك في موقفك هذا بين اثنتين إما أن يكون الرجل صادقًا فيما يقول أو كاذبًا ، فإن كانت الأولى فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من أرشدك إلى عيبك ، وكشف لك عن خبيئة نفسك ، وإن كانت الأخرى فاربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون أن في استطاعة الأكاذيب أن تبقى زمنًا طويلاً على ظهر الأرض .

الأدب :

لا تكافئ السفيه على سفهه بمثله ن فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك ، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم أنك تنقمها منه ، فإن كنت لا بد منتقمًا فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس إذا جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جعلاً على أن يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحًا محرجًا والأحنف ساكت لا يقول شيئًا حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب إلى قومه باكيًا نادبًا يأكل أصبعه أكلاً ويقول : والله ما سكت عني إلا لهواني عليه .

الأخلاق :

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعترض الرائح ، وتصد سبيل الغادي ، فلا الناس بظلها يستظلون ، ولا هم من شرها ناجون .

الاعتدال :

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام ، وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة ، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة ، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل ، وأعلم أنك لا تزال كريمًا حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت مسرف ، وأنك لا تزال حليمًا حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول ،

وأنك لا تزال جبانًا حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فإذا أنت شجاع ، وإن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها ، إما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء .

**البر :**

ربما كان لك من أبويك أو من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو عصور نشأته على أن ينال حظًا من العلم والمعرفة مثل ما نلت ، فإياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيهه أو السخرية به أو الإدلال بنفسك عليه فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها ، وموارد الأمور ومصادرها ، ما يبهر علمك الذي تعتد به ، وتدل بمكانك منه عليه ، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقًا بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر .

**الشقاء :**

السبب في شقاء الإنسان أنه دائمًا يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده ، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقيًا في حاضره وماضيه .

■ ■ ■

## الفتاة والبيت

«الكلمة التي قرّظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت» .

حضرة صديقي الكاتب الفاضل أنطون أفندي الجميل .

أهديتَ إلي كتابك : الفتاة والبيت فأهديته إلى ابنتي ، لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات ، وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعًا على فهم مزيته ، وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت إلي تقول إنني لم أهد إليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب .

سامحها الله ، فقد كان فيما أهديت إليها كتاب «النظرات» فقد فضلته على كتاب أبيها ، ولكن ما لها وللنظرات ، وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة ، فهي فتاة على باب المستقبل يهمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر أن تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها ، لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرهما لاصقًا بهما حتى اليوم ، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوبًا يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال ، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به ، إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه أن قدر لها حظ المكثرين ، وكيف تكون شمسًا مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها إلى خادمتها ، فتسعد بهم ويسعدون بها ، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخدعها الخدم عن مالها ، إن كانت ذات خدم ، أو تستغني عن معونتهم ، إن عجزت عن اتخاذهم ، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ، في اليوم الذي تفقد فيه عائلتها ومعينها ، قطرات من الرزق تقيم بها أَوَدَها ، وتصون بها ماء وجهها ؟

وكتابك - يا سيدي - هو الجواب عن جميع ما تطلبه ، وتسائل نفسها عنه ، فلا غرو إن أعجبها وأطربها ، ولا عجب إن فضلته على كل كتاب حتى كتاب أبيها .

أشكر لك ، يا أنطون ، تلك اليد البيضاء التي أسديتها إلي وإلى أمتك ، وانصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم ، وأن يأخذوهنّ بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها ، فما أحرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب «الفتاة والبيت» .

## البعث

«هي قصة خيالية» الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة ، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية .

## اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلة لهمّ نزل بي ، والهم رسول من رسل الشر ينزل أهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا ، فلما تضـــقى الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام وســـكونه فقلت من الطارق؟ قال : غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريمًا يعتمد عليه ، ومضجعًا يأوي إليه ، وقد أعد لمن يســـدي إليه تلك النعمة ، ذخيرة صـــالحة من شـــكر لا يبلى ودعاء لا يخيب ، فأعجبت بعابر سبيل يمر وبعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيي على جهد المتكلفين ، وتزويق المزورين ، وقلت في نفسي : ما لهذا الرجل بد من شأن وفتحت الباب فإذا شيخ كنتي من حملة أعباء الدهر ، قصير القامة ، ناحل الجسم ، زري الهيئة ، قد نيف على الثمانين من عمره ، فخيل إليّ أن ظهره المحدودب قوس ، وأن عصاه التي يعتمد عليها وترٌ قد شدّ إلى تلك القوس ، وأنه قد أعدّ من هذه وتلك سلاحًا يذود به عن نفسه عادية المنون فلما شعر بمكاني رفع رأسه إلي ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمي فرأيت وجهًا اسمر اللون قد انتثرت في أكنافه حفائر الجدري وأســـارير تنطوي تارة على عبر القرون ، وحوادث الدهور ، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى ، ولحية بيضاء إلا أنها شعثاء ، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالاً وإعظامًا ، وســـحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم و سودائها ، واحسب أن لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها فمشيت إليه مشية الهائب الوجل وقلت : على الرحب والسعة يا سيدي ، لقد حللت بمنزل أنت صاحبه وولي الأمر فيه ثم قدمت إليه يدي فمشى معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة :

ما أوسع الموت يستريح به الجسم المعنى ويخفت اللجب .

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف فأعاد النظر إليّ وقال : اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسي ، فتركته وذهبت إلى غرفة منامي وقد أخذ منظر الرجل مكنًا من قلبي وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي فلم أزل أقلب النظر في حاله وأذهب المذاهب في ا ستبطان سره حتى أخذ عيني نوم ثقيل لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل .

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه فهبطت إليه في خلوته أهيب ما أكون له فرأيته جالسًا إلى قبلته يقلب وجهه في السماء ، ويكرر هذا الدعاء :

اللهم لا راد لقضائك ، ولا سخط على بلائك ، أمرت فأطعنا ، وابتليت فرضينا ، فأمطرنا غيث إحسانك ، وأذقنا برد رحمتك ، ولهمنا جميل صـــبرك ، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون إلا بك ، ولا ملجأ إلا إليك ، إنك أرحم الراحمين ، وأعدل الحاكمين .

ثم أطرق بعد ذلك طويلاً خلت أنه وصـل فيه إلى مقام التجريد وأن الذي أراه بين يدي جسـد هامد قد أسرى بروحه إلى الملإ الأعلى فجعلت أختلس الخطا إليه حتى صاقبته ، فرفع رأ سه إلي ذاهلاً ، وقال : أنت هنا؟ قلت : نعم ، قال : في أي ســنة نحن من تاريخ الهجرة؟ فعجبت لســؤاله وقلت : في الســنة التاسـعة والعشرــين بعد الثلثمائة والألف ، قال : ما اســم هذا المصرــ الذي تعمرونه؟ قلت : القاهرة المعزية : قال : أفي هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت : لم أفهم ما تريد يا سـيدي ، قال : لقد اسـتفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم أجد من ورائها إلا ضـعيفًا لا يلبث أن يراني حتى يرعد مني فرقًا فيوصـد بابه في وجهي أو ضنينًا يرى بؤسي و شكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني ، أو أعجميًا لا يفهم ما أقول ، ولا أفهم ما يقول : قلت : ما في هذه الحالة أعجمي ، قال : إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه وإن شـــئت أعدته عليك كما سمعته ، ثم أخذ يسرد علي الكلمات التي سمعها من الناس في طريقه إلي سردًا متواصلاً كما تسرـد الببغاء كلماتها ، فقلت : إنك قد عدت يا ســيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري ، فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميًا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه فما سمع كلمتي هذه حتى اضـطرب جسـمه وانكفأ لونه ورأرأ بمقلتيه وزحف إلي حتى اضـطكت ركبتانا ، فعجبت لأمره ، وما رأيت من اســـتحالة حاله . ثم قال لي : من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ، قلت : رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب

ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب ، قال : وما ظنكم به؟ قلت : إن الناس في أمره مختلفون ، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له قال : ومن أيهم أنت؟ قلت : ممن يتشيع له ، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه ، قال : أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه؟ قلت : ما أعدل بهذه الأمنية غيرها ، قال : قد بلغك الله طلبتك ، قلت لم أفهم يا سيدي شيئًا مما تقول ن قال : أكاتم أنت علي سرّي قلت : نعم ، قال : أتقسم؟ قلت : إن للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهمًا نفسي لأقسمت ، قال : الآن عرفتك ، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري ، فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى اسقط في يدي وعلمت أني قد هلكت ، وكان أول ما كان مني أن التفت ناحية لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب أن عرض لي من هذا الجنون عارض سوء ، وكأنه ألمّ بما في نفسي فقال : لا ألومك على ما ظننت فقد قدرت قبل أن ألقي إليك كلمتي هذه أنها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله؟ قلت : نعم ، قال : وتؤمن بالبعث ، قلت : نعم ، قال : وما يريبك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته؟ قلت : ذلك يوم يبعثون ، قال : هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه.﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ وبعد فوالله يا بني ما كفرت منذ آمنت ، ولا كذبت منذ عرفت أن الصدق منجاة من النار ، ولا أسترد الله مني نعمة العقل بعدما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتك فقد أسلفت إلي من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبة أتنفق بها عليك ، أو أزدلف بها إليك ، وإني قاص عليك قصتي فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك ، فسرى عني قليلاً ما كان ألم بنفسي من القلق فأقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول :

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي ، فقد حوسبت حسابًا غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللمحة وكل ما وجدته حاضرًا بين يدي في صحائفي ، فكادت حسناتي تكافئ في الميزان سيئاتي ولولا تلك الكلمات التي كنت أرددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان لابد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعًا بها لا أريد القضاء ولكن أريد اللطيف فيه ، فتعلق محمد ﷺ بقوائم العرش الإلهي وقال :

اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهًا لها متبرمًا بها متسخطًا عليها حابسًا نفسه في كسر بيته فرارًا من أهلها يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه أن

تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل فأسألك بقلمك النوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت ، أن تقي جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب النار وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه ، وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخر ما لقي فيها أولاً ، إنك بعبادك لطيف خبير .

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضي فيها من الأيام بعدما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى أني كنت في العهد الأول أحمده على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فرد إليّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام التي سأقضيها في داركم هذه ، فاكتم علي أمري حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها ، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك وعلمت أن الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثمًا وتقبيلاً وعلمت أني أحرزت في بيتي كنزًا لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها ، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي إلا خوف انقضائه .

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غدًا .

## اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات ربلات كنت أعددتهن للضيفان من قبل فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرة وإلي أخرى ثم قال : ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إلي؟ قلت : إنهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهم والقيام عليهم والحدب بهن ، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن واستدرن للذبح ، وقد كنت أبقي عليهن كلما طرقني طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صدرها حزنًا على أترابها الصغيرات ، أما اليوم فلم أر من ذلك بدًا فذبحتهن إكرامًا لك ، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائها .

فوجم الشـــيخ ثم أطرق إطراقًا طويلاً ســـمعته يهينم فيه بهذه الكلمات ، وارحمتاه ، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه ، ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق ، وأخرس لا يبين وبما كان زقاء الديك ، وقوقأة الدجاجة ، وصرصرة البازي ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصـــفور ، وثغاء الشـــاة ، ومواء الهرة ، وخوار الثور ، وحنين النيب بكاء بغير دموع ، و شكوى بغير لسان وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخور عيونًا .

ثم رفع إلي وقال : أما ســـمعت الدجاجات يقلن لك شـــيئًا عندما أردت ذبحهن قلت : لا يا مولاي ومتى قلن للناس شيئًا فيقلن لي؟ فنظر إلي نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال : أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما نحه من نور البصر لسمعها تقول له : مهلاً رويدًا أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمدد يدك إلي فلا شأن لك معي ولا ترة لك عندي .

أنا صـــاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد أن أموت ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي أفراخًا صـــغارًا هن إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي ، وليس من الرأي أن أوكل أمرهن إليك من بعدي لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك .

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة فلا تملك أن تسلبني إياها .

كل ما تســـتطيع أن تمن به علي أن تطعمني وتســـقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلا فتات مائدتك ولا تســـقيني إلا غســـالة يديك ، وأنك ما كنت تصـــنع ذلك رحمة بي ولا إحســـانًا إلي بل لتهيئ لنفسك ما يسد شهوتك ويطفيئ لوعتها وهل تعلم أنك أنت الذي سجنتني في أقفاصك ، وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يســـاومني فيه مســـاوم ولا يحاســـبني عليه محاسب؟!

أمن أجل الخشـــارة القذرة والجريمة الكدرة تســـلبني حياتي وتفجع بي فراخي ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض وهوامها ورسل الفجر المنير إليك .

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن ، فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفري الأوداج بمداك ، لا بل إن جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت على ذلك من القادرين .

استضعفتني فبرزت إلي فهلا برزت لشبل السد ، أو ديسم الدب ، أو فرعل الضب ، أو حرش الحية ، أو هيثم النسر ، أو ناهض العقاب؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزًا ، وما أظلمك قادرًا ، وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك!

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرة كالبصائر ، ولكن الناس لا يعلمون .

هيه يا صاحب الدجاجات ! حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي ، وأنت تعلم أنني رجل سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيفًا وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه ، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعامًا والبلس حلوى لأني كنت أعلم أن طعامي الذي لا يلاءمني غيره ولا يشبعني سواه ، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة ، والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود المزأبرة والأعضاء المتوثبة ، والهامات الضخمة ، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترونها إلى طباعهم اجترارًا لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف والتقديد والشي والقلي ، ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والأقزاح مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات ، حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم ، كأنما يطلبون شقاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له .

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون علي رأيي في ترك ذلك الطعام ويمنعون في مسألتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه ويلحون في ذلك إلحاحًا شديدًا حتى ظننت أنهم قاتلي من دونه كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا ألا يقيم لهم يوم القيامة وزنًا ولا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً إلا إذا قدموا عليه ببطون بجر مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب

لتفتح لهم أبواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بإعرا ضهم عنه حرامًا ، كما ترك النبي ﷺ صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها با ستمراره عليها فريضة .

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل ، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرمًا بها أو تمردًا عليها ، ولكنني كنت امرءً جزوعًا يزعجني منظر الشرـائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وســكينه ، وكنت فقيراً لا أملك في كل عام من الرزق إلا نيفًا وعشرين دينارًا لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين . وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين ، وقد علم الله من شأني أنني رجل لو علمت أني إن أذللت ما صـان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء علي ذهبًا ، واستحالت الحصباء تحت قدمي درًا ما فعلت ضنًا بنفسي على هذا الموقف المستوبل وإيثارًا للرضا بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده .

فلم أر خيراً من ترك طعام لو ا شتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما ا شتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل .

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامســته والدنو منه جزعهم من اجتراح الســيئات ، وانتهاك الحركات ، فقد كان النبي ﷺ يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة ب تقول : إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعًا وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول : يا عائشــة إخواني من أولي العزم من الرســل قد صـبروا على ما هو أشــد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم ، وكان يقول : شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة وعلا عمر ط ولده عبد الله بن عمر بالدرة إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء . وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في ال شمس ثم يأكله قائلاً : ك سرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة ال شواء ، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجواذب والكباب ولا بالخل والزيت .

فهل كان واحد من هؤلاء بطرًا بنعمة الله أو محرمًا ما حلل الله؟ لا ، فما كل من ابغض حلالاً حرمه ، ولا كل من أحب حرامًا حلله ن فقد اعتقد صـــاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال : لو قطعت إربًا إربًا ما حرمته ولو قطعت إربًا ما شربته وعلم النبي ﷺ بحل الطلاق ثم قال : أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرـائع الدينية مصـادرة النفوس في ميولها وشهواتها ، والنفوس لا تنفر إلا مما حل لها ولا تشتهي إلا ما حرم عليها .

فويل لي من هؤلاء الناس ، شركتهم في دنياهم فقالوا شره طعام ، وصـــدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فتفصد جبينه عرقًا واستسر حديثه يبين ، فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام ، فلبثنا نأكل صـامتين حتى فرغنا فأردت أن أرفه عليه ما ألم به من الهم فقلت له : يا مولاي إ، للحيوان اليوم شـأنًا غير ذلك الشـأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسـان إليه ، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسـنين يأخذون أنفسـهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل أو يسوطها سوطًا عنيفًا رفعوا إلى الحاكم أمره ، أو رأوا حيوانًا هزيلاً أو مهيضًـا حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً وإلا قتلوه رحمة به وإشفاقًا عليه .

قال : أحسـنوا في الأولى وأسـاءوا في الأخرى ، ومن لهم بعلم ما اسـتتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال ، وها نحن نرى في كل يوم مريضًـا يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله ، وصحيحًا يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر إليه .

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا مرائين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس ، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسـان ، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرعًا إلى البدرة حرامًا .

يا بني آدم ، دعو النوق في مراحها ، والشاء في دروبها ، والوحش في كناسه ، والضب في حجره ، والذئب في وجاره ، والقطا في أفاحيصه ، ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها ، ولا الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الأسماك عن مسارحها ، وجنبوها فخاخكم وشباككم ، وقتركم وزباكم ، ومداكم وشفاركم ، فإن لها نفوسًا كنفوسكم ، ووجدانًا كوجدانكم ، ورجاء في الحياة كرجائكم ، واعلموا أن الله تعالى ما أغوى بعضكم ببعض ، ولا سلط قويكم على ضعيفكم ، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضريتم بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم إلى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر ، فارحموها ترحموا أنفسكم ، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون .

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب ، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه ، فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت في عينيه ، فانسللت من بين يديه ، وتركته في مضجعه على أن ألقاه غدًا .

## اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فغذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها ، وتوسد أعشابها وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ويبسم للعصافير تنتقل بين أنجمها وأشجارها ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى واد أفيح يهتز بصنوف الأشجار ، وأفانين الأزهار ويتراءى في ألوان من النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجميم ، وكروم وأعناب ، وسنابل وأعشاب وتفيض أرجاؤها بالجداول والغدران ، والقني والخلجان ، مطردات ومنعطفات ، ومجتمعات ومفترقات ، يفضي أولاها إلى أُخراها ، ويتصل أقصاها بأدناها ، ويعطف كبيرها على صغيرها ، وقويها على ضعيفها ؛ فكأنها صلال رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته ، ومصاعده ومنحدراته ، فهي تنقبض وتنبسط وتنساب وتتمعج وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتتوائب وتتراجع وتتواصل ثم تتقاطع ؛ وكأن حفيف أوراقه ، وخرير مائه ، وتغريد أطياره ، وضجيج نواعيره ، وعجيج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل إليه أنه هابط من أبواب السماء أو أ، سكان الألمب فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم يسمعون .

وهنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده و سكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول :

| | |
|---|---|
| للمليك المذكرات عبيد | وكذاك المؤنثات إماء |
| فالهلال المنيف والبدر والفر | قد والصبح والثرى والماء |
| والثريا والشمس والنار والنثرة | والأرض والضحى والسماء |
| هذه كلها لربك ماعا | بك في قول ذلك الحكماء |

ثم التفت إلي وقال : كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ ، والمؤرخون يصانعون ويداهنون ، أو من أفواه الفقهاء ، والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، أو من خطرات عقولهم ، وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون ، والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق إليها ، قلت وأين نجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء ، بين الظل والماء .

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة ، فإذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع ، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث أن تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقًا تملأ الأرض خيرًا بجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء والأسماك السابحة في الماء ، والأجواء المملوءة بالهواء والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، فيمتلئ قلبه يقينًا صافيًا راثقًا لا تعبث به المناظرات ، ولا تشوه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي إليه سواه .

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب ، والعشب يأكل التراب ، والتراب يأكل السائمة ، فيستحيل الجماد نباتًا ، والنبات حيوانًا ، والحيوان جمادًا . فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتشكل جواهرها ، ويعلم أن هذا الإنسان الفاخر بنفسه ، والمدل بعظمته واقتداره ، وربما كان بالأمس صفيحة ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة نعل .

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور ، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصــف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تســتقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون ، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون .

هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها ، مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تطير إليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغســل عن جرمها الأبيض المشرــق ما ألم به من تلك الأدران والأوحال ، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويربد شيئًا فشيئًا ، حتى يسود غضــبًا على هذا المجتمع البشرــي فيما يقترفه تحت ســتاره من المفاســد والشرــور ، ولا يزال مادًا يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مســتقره حتى يســتجيب له ويداوله بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ســتر الظلام ، ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقًا وانفتاحًا مخافة أن يصــيبها ســهم نافذ من ســهام الأشرار ، التي تتطاير يمنه ويسرــة وصــعودًا وهبوطًا فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه .

هنا يرى الإنســان الحقيقة في هذا العالم عارية الجســم ويســمع صــوتها واضــح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ، ولا صياح المؤذنين .

فقلت حسبك يا مولاي ، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلاً أحسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا إليه عله ييسرــ لنا ظلة نفيء إليها وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصــارة ، فمشــينا إليه حتى بلغناه فرأيناه مكبًا على تربته يفلحها ويقلب عاليها ســافلها ، وقد شرســت يده وشثنت قدماه وزأبر صدره ، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقًا ، حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تســيل على جوانب القدر المضــطرم ، فحييناه بتحية حيانا بأحســن منها ، وأفضــينا إليه بطلبتنا ، فأشــار بيده إلى كوه ، وكان منه على بعد كثب ، فإذا عريش من عيدان القصب مسجج ، قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الأشجار ، واعتمد على أسيطينة من اللبن الأسود ، وامتدت أمامه صفة مستطيلة ، واستدار به نؤى يمنع عنه مسيل الماء ؛ فدخلناه فلم نر فيه إلا رثة من

المتاع لا تكاد تزيد على جوالق الخبز اليبيس ، وخلقان من القمص والأبراد ، وقدر وأثفية ، وجرة مملوءة ماء ، وحشية مفككة تضطرب في جوفها حشوة من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل ، فشربنا حتى ارتوينا ، وأخذنا من تلك الحشية مضجعًا ، وما زلنا على حالنا تلك سكوتًا لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل في مشيته ، ويحمل فأسه على عاتقه ، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة ، فجلس وجلس ولداه بين يديه ، وأنشأ يلقي إلينا معاذيره ، ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب ، فعذرناه . ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي - وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان - :

الشيخ - من يملك هذه الأرض ؟

الفلاح - هي لسيدي ومولاي - أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته - صاحب هذا القصر الذي تراه - وأشار إلى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء رفرفة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء .

الشيخ - أراك تدعو له ، وتتمنى له الخير والسعادة ، فلعلك سعيد بجواره ، مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه ، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانه بحمده والثناء عليه .

الفلاح - حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين ، ممتطيًا فرسه الدهماء ، في ركب من أصحابه وحاشيته ، مارًا بهذه الاجمالات الملتفة ، يتنزه ويتروح ، ويطارد الثعالب والذئاب ، مطاردة الشجاع المستقتل ، ثم يعود إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصبحه وممساه .

الشيخ - إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك ، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته .

الفلاح - وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها ، نعمة أجل قدرًا وأسنى قيمة من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد ، رفيع الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطأطئ بين يديه رؤوس العظماء ، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء ؟

الشيخ - أيها الرجل : ما عن هذا أسألك ، إنما أسألك هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر ببابك أو يخلو بك أحيانًا ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك؟

الفلاح - الحق أقول يا سـيدي إني ما سـمعت في حياتي بأعجب من سـؤالك هذا ، ومتى كان السـيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر ، أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتهذيب ، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشـوشـب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسيـ من الحزن والألم ما لي - حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته - عصـيًا غلاظًا يتعهدني بها من حين إلى حين كلما نسيت أمرًا من أوامره أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كله لأني أعلم أني منه على ذكر وأني قد نزلت من نفسـه منزلة من لا يهون عليه إغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه .

الشيخ - وأين أم هذين الولدين؟

الفلاح - ماتت رحمها الله في سـبيل خدمة سـيدها ، فقد كنا يومًا نمتح على حافة بئر فزلقت أقدامنا وأنبت بنا الحبل فسـقطنا ، أما هي فاسـتأثر الله بها وأما أنا فانكسرـت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسـفت على أن لم أكن قد لحقت بها فأكون قد هلكت في سـبيل خدمة سـيدي كما هلكت ليترحم علي كما ترحم عليها ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها .

الشـيخ - ربما كنت قانعًا من إحسـان سـيدك إليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسـك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها؟

الفلاح - لا والله يا سيدي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيز بر ، أو حفنة تمر ، إلا أن تسـقط بين يدي تمرة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسـمة بيني وبين ولدي أو أحتطب من أطراف الوادي بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه .

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه فأشرت إليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل ، وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال : ما نغص علي يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر سنة و سقوط همته وذلة جانبه . وما أحسب إلا أن الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها و سلبها حسها ووجدانها فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده فهو لا يفرح إلا لفرحه ، ولا يغتبط إلا باغتباطه ، ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه وتعبده له ، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه ، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين .

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات :

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

■ ■ ■

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة ، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام ، أو أعثر في طريقي عبرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًا .

سلام عليك أيها الماضي الجميل ، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للآمال والأحلام وكنا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء ، لا نشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ، ولا نسأم ، بل نعتقد أن في العالم هموما وآلامًا ، وكان كل شيء في نظرنا جميلاً حتى الحاجة والفاقة ، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها ، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوبًا قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض ، فأصبح فتنة الأنظار ، وشرك الألباب !

وكان يخيل إلينا أن هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطردًا مندفعًا لا يعترضه معترض . ولا يلوي به عن طريقه لاوٍ إلى ما لا نهاية لاطراده وتدفعه .

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم ، أن يكون لنا مأربان من مآرب الحياة ، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر أو غرضان من أغراضها ، فنصل إلى القريب ، ونبيت دون البعيد .

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيب أو طلعة رقيب أو أرق ليلة أو ضجر ساعة ، أو نظرة شرر يلقيها بغيض ، أو نفثة شر يرمينا بها حقود ، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقذار والأكدار بين يده وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص .

سلام عليك أيها الشاب الذاهب ، سلام على دوحتك الفينانة الغناء ، التي كنا نمرح في ظلالها ، مرح الظباء العفر في رملتها الوعثاء ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مغدى ومراح لنا ، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا ، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شئنا .

أبكيك يا عهد الشباب ، لا لأنني تمتعت فيك براح أو غزَل ، ولا لأني ركبت مطيتك إلى لهو أو لعب ، ولا لأني ذقتُ فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى .

أبكيك لأني كنت أرى في سـمائك نجم الأمل لامعًا متلألئًا يؤنسـني منظره ويطربني لألاؤه وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب فلما ذهبت ذهب بذهابك فأصبح منظر تلك السـماء منظر فلاة موحشة مظلمة لا يضيئها كوكب ، ولا يلمع فيها شعاع .

أجل ، لم أتمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من الملاذ ، ولا نلتُ في عهدك مأربًا من مآرب المجد أو الجاه ، ولكني كنت أؤمل وأرجو ، وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم .

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل شيء ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعدَّ عدّتي لتلك الساعة الرهيبة التي أنحدر فيها إلى قبري .

مضى عهد الشـباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة طبيب العيون ، وطبيب المعدة ، وطبيب الأسـنان ، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلاً ، وباعي ذراعًا ، ونعى الناعون إلي كثيرًا من أصحابي وأترابي أي أنهم نعوا إلي نفسي. ورأيت أصدقائي الذي نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم واغبرارَ وجوههم ، واحمرار خدودهم ، وابيضاض شعورهم ، فعلمت أنني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء ، وحسن الختام ، أي أن قوتي في هبوط ، ونشاطي في اضمحلال وسلامتي في خطر وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها ، ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح والسرور فخيل إلي أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم ، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وانتقلت من النظر في شأن نفسي ، وشأن مستقبلي إلى النظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم ن لأن مستقبلي أصبح ماضيًا ، وغدًا أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد ، وسـمعت كلمة «الجدّ» يهتف بها أحفادي الصـغار ، فلم أنكرها ولم أبتئس كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها ، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير ابقاءً على مصلحة أولادي الفقراء ، كأنهم يقولون لي إنك موشك أن ترحل فأعد لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك ، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها ، فأصبحت سمحًا كريمًا ، عفوًا غفورًا ، لا أبغض أحدًا ، ولا أحقد على أحد ، ولا أقابل ذنبًا بعقوبة ، ولا إساءة بمثلها ، كأنني أقول في نفسي : مالي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكًا ، إن لم يكن اليوم فغدًا ، وأخذت تحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر ، لا لأن الأول أجمل من الثاني بل لأن الشـبيبة أجمل من الشـيخوخة ، وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء فبكيتها

ورثيتها ولم تنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدبًا وفضلاً ومجدًا وشرفًا ، لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة ، أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة ، وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة ، فكنت ، أجد في نفسي غبطة عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة ، أو سيرة سيف بن ذي يزن ، أو حروب عنترة ، أو وقائع أبي زيد أو أساطير الجن والشياطين ، وحين آوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بديعة يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه ، وحين اختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم فأشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء ، والآن وقد حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل وأن الرؤى والأحلام هوس وجنون ، وأن الأولياء والصالحين أحياءً كانوا أو أمواتًا في شاغل بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعًا ولا ضرًا؟ أي أنني شقيت حين علمت ، وكنت سعيدًا قبل أن أعلم ، وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتًا جميلاً عيش فيه عيش السعداء الآمنين في مدينة الأحياء ، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبني لي قبرًا بسيطًا يضم رفاتي في مدينة الأموات ، وكنت أدهش لبلاغة البليغ ، وذلاقة الخطيب ، وبراعة الشاعر وقدرة الكاتب الصائغ ونبوغ المبتكر ، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما أسمع ، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أعجب من شيء لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم ، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها .

ما أنا بآسف على الموت يوم يأتيني ، فالموت غاية كل حي ، ولكني أرى أمامي عالمًا مجهولاً لا أعلم ما يكون حظي منه وأترك ورائي أطفالاً صغارًا لا أعلم كيف يعيشون من بعدي ولولا ما أمامي ومن ورائي ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت علي؟!

لكن ما أراده الله ، أما ما أمامي فالله يعلم أني ما ألممت في حياتي بمعصية إلا ترددت فيها قبل الإلمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يومًا من الأيام في آيات الله وكتبه ، ولا في ملائكته ورسله ، ولا في قضائه وقدره ، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولا لعظمة غير عظمته ، وما أحسب أنه يحاسبني حسابًا عسيرًا على ما فرطت في جنبه بعد ذلك ، وأما من ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها ، والقطاة في أفحوصها والعصفور في عشه ، والفرخ في وكره ، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه .

وداعًا يا عهد الشباب ، فقد ودعت بوداعك الحياة ، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر ، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء ، وانقضى كل شيء!

أيا عهد الشباب وكنت تندى      على أفياء سرحتك السلام

■ ■ ■

# العبرات
## وهي مجموعة روايات قصيرة ،
## بعضُها موضوع وبعضها مُترجم

◆◆◆

# الإهداء

الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئًا من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أســـكب بين أيديهم هذه العبرات ، علهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى .

**مصطفى لطفي المنفلوطي**

# اليتيم

« موضوعة »

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره ، وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كثب من بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى شاحبًا نحيلاً منقبضًا جالسًا إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درسًا لم أكن أحفل بشيء من أمره ، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك أمام مصباحه ، وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنيه سنة من النوم فأعجلته من الذهاب إلى فراشه وسقطت به مكانه ؛ فما رمت مكاني حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيه .

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفردًا بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكوا همًا من هموم الحياة أو رزءًا من أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسيًا ولا معينًا ، وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوبًا فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض ، فلم أزل واقفًا مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم أزل بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكيًا ، أو مطرقًا أو ضاربًا برأسه على صدره ، أو منطويًا على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى ، أو هائمًا في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكيًا منتحبًا ، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة الصديق لصديقه وأستبثه ذات نفسه وأشركه في همه لولا ، أنني كرهت أن أفاجئه بما لا يحب ،

وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صـــدره ، وأن يكاتمه الناس جميعًا حتى أشرفت عليه ليلة أمس به هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ســاكنة فظننت أنه خرج لبعض شــأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل إلى ، وهي صادرة من أعماق نفســه ، كأنني أســمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشـأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لي من المصـير إليه ، فتقدمت إلى خادمي أن يتقدمني بمصـباح حتى بلغت منزله و صعدت إلى باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبط ليودع ساكنه الوادع الأخير ، ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقًا ، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحًا ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصًا إلى هنيهة لا ينطق ولا يطرف فاقتربت من فراشــه وجلســت بجانبه ، وقلت أن جارك القاطن هذا المنزل ؛ وقد ســمعتك الســاعة تعالج نفســك علاجًا شــديدًا وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة فعناني أمرك فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عونًا على شأنك ، فهل أنت مريضًا ؟ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعت يدي حيث وضعها فشعرت برأسه يلتهب التهابًا فعلمت أنه محموم ، ثم أمررت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه موجًا ، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بضـع قطرات فاسـتفاق قليلاً ونظر إلى نظرة عذبة صافية وقال شكرًا لك ، فقلت ما شكاتك أيها الأخ ؟ قال : لا أشكو شيئًا ؛ فقلت : فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال : لا أعلم ؛ قلت : أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟ فتنهد طويلاً ونظر على نظرة دامعة وقال : إنما يبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ، ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واســتغراقه ، فلم أجد بدًا من دعاء الطبيب رضي أم أبى ، فدعوته فجاء متأفقًا متذمرًا يشـكو - من حيث يعلم أني أسـمع شـكواه - إزعاجه من مرقده وتجشـيمه خوض الأزقة المظلمة في الليالي الياردة ؛ فلم أحفل بتعريضــه لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً : إن عليلك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيرًا إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصـيادلة أن يتقاضـوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ثم انصرـف لشـأنه بعدما اعتذرت إليك ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه ، فاحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر ؛ فاستفاق وادر بعينيه حول

فراشـــه حتى رآني فقال : أنت هنا ؟ قلت : نعم ، وأرجو أن تكون أحســـن حالاً من ذي قبل ، قال : أرجو أن أكون كذلك قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أ سألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهرًا أو همًا باطنًا ؟ قال : أشكوهما معًا ، قلت : فهل لك أن تحدثني بشأنك وتفضي إلى بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنيًا بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال : هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة ، وبإمضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال : قد وثقت بوعدك ، فإن من يحمل في صدره قلبًا شريفًا مثل قلبك ، لا يكون كاذبًا ولا غادرًا .

أنا فلان ابن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في الســادســة من عمري فقيرًا معدمًا لا أملك من متاع الدنيا شيئًا ، فكفلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأو سعهم برًا وإحسانًا وأكثرهم عطفًا وحنانًا فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحدًا من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً ، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخًا بعدما تمنى على الله ذلك زمنًا طويلاً فلم يدرك أمنيته فعنى بي عنايته بها وأدخلنا المدرســة في يوم واحد فأنســت بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبًا شــديدًا ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهبت بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين إلى حين ، فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرســة أو عائدين منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتا ضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت في دراستي ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدًا لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور الســعادة إلا في فجر ابتســاماتها ، ولا أؤثر على ســاعة أقضــيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرــات الحياة ، وما كنت أشــاء أن أرى خصــلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدتها فيها .

وإني أســـتطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النوارنية البيض من السعادة التي كانت تظللنا معًا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها ، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرـــح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء مائها ولمعان حصــبائها ، وأفانين أشــجارها ، وألوان أزهارها ، وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار فنجتمع على حديث نتجاذبه أو طاقة تؤلف بين أزهارها أو كتاب نقلب صــفحاته ، أو رســم نتبارى في إتقانه ، وتلك الخمائل الخضرــاء التي كنا تلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فتشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها ، وتلك الحفائر

الصـغيرة التي نحتقرها ببعض العواد على شـاطئ الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصـطاد أسـماكها التي ألقيانا فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأنا قد ظفرنا بغنم عظيم ، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصـافيرنا وطيرونا ، ثم نقضي السـاعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضر ، وهي تحسـو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسـمائها التي سميناها بها ، فإذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبي نداءنا ، ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي ودًا وإخاء ، أو حبًا وغرامًا ، ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يومًا إني أحبها لأني كنت أضن بها - وهي ابنة عمي ورفيقة صباي أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها ، ولا قدرت في نفسي يومًا من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي ، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط منها ما يطمع في مثله المحبون المتسـقطون ، لني كنت أجلها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك ، ولا فكرت يومًا أن استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها ، أمنزلة الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فأسـتعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صـورة العذراء الماثلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يتطلع إليها .

ولم يزل هذا شـأني وشـأنها حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تنشـب أن ذهبت به إلى جوار به ، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظنًا : « لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أمًا كما كنت له أبًا وأوصيك أن لا يفقد منى بعد موتي إلا شخصي » فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوهًا غير الوجوه ونظرات غير النظرات ، وحالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل فتداخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصـبحت في هذا المنزل غريبًا ، وفي هذا العالم طريدًا .

فإني لجالس في غرفتي صـبيحة يوم إذ دخلت على الخادم ، وكانت امرأة من النسـاء الصـالحات المخلصـات فتقدمت نحوي خجلة متعثرة ، وقالت : قد أمرتني سـديتي أن أقول لك يا سـيدي أنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذا السـن التي بلغتماها ربما يريبها عند خطيبها ، وأنها تريد أن تتخذ للزوجين مسـكنًا هذا الجناح الذي تسـكنه من القصر فهل تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسـك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .

فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمت به كبدي ، إلا أنني تماسكت قليلاً ريثما قلت لها : سأفعل إن شاء الله ولا أحب إلى من ذلك . فانصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت لنفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده » .

ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها .

لعمرك ما فراقت بغداد عن قلى　　لو أنا وجدنا من فراق لها بدا

كفى حزنًا أن رحت لم أستطع لها　　وداعًا ولم أحدث بساكنها عهدا

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريدًا حائرًا ملتاعًا قد اصطلحت على الهموم والأحزان ، فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا سداد لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيًا ، ولا معينًا .

وكانت معي صبابة من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه المنطقة العليا مسكنًا فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد فضاء الله ومنفسح فاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع على الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

فقنعت بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفردًا كمجتمع وغائبًا كحاضر وبعيدًا كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه ، وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب موطنه ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ن ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها منج فني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري .

لبثت على ذلك برهة من الزمان حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبة أو موشكة ، وكنت مأخوذًا بأن أهيئ لنفسي عيشًا مستقلاً ، وأن أؤدي للمدرسة قسطًا من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الأمة مرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون فأهمتني نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة ، فعمدت إلى كتبي فا ستبقيت منها مالا غنى عنه وحلمت سائرها إلى سوق الوارقين فعرضته عناك يومًا كاملاً فلم أجد من يبلغ به المساومة ربه ثمنه فعدت به حزينًا منكسرًا وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فنائه امرأة تسائل أهل البيت عني فتبينتها فإذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي ، فقلت : فلانة ؟ قالت : نعم ، قلت : ماذا تريدين ؟ قالت لي إليك كلمة فائذن لي ، فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت هات ، قالت : مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس ، فقلت : ما بكاؤك ؟ قالت : أما تعلم شيئًا من أخبار بيت عمك ؟ قلت : لا ، فما أخباره ؟ فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه كتابًا مغلقًا فتناولته منها ففضضت غلافه فإذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقتني ولو تودعني فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغفر لك ألا تأتي إلى لتودعني الوادع الأخير » .

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعًا فتعلقت الخادم بثوبي ، وقال : أين تريد يا سيدي ؟ قلت : إنها مريضة ولابد لي من المصير إليها ، فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء إليها .

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكانًا ؛ ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين ؛ ففحت عيني فإذا لليل قد أظلّني وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ قالت : نعم . قلت : قصّي على كل شيء فأنشأت تقول :

إن ابنة عملك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئًا » ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر كأنما كانت تعالج في نفسها ألمًا ممضًا ، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل يومًا حتى تنتكس أيامًا فراغ أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيبًا ولا عائدًا إلا فزعت إليه أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدًا رويدًا فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها فدنوت منها فأشارت إلى أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت : في أي ساعة نحن من الليل ؟ قلت : في الهزيع الأخير منه ، قالت : أأنت وحدك هنا ؟ قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعًا ، قالت : ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت : بلى يا سيدتي أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئًا ، ولكني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فيقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط اجلها ، فقالت : ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ قلت : لا أحب إلى ذلك يا سيدتي .. فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادرين والرائحين علني أراك وأرى من يهديني إليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس من مغربها فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر الليل فلم بلغته حتى سمعت الناعية فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكيًا .

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أن كل ما كنت ترجوه في الساعة الخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كامتة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك .

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت .. فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئًا فشيئًا حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .

***

وما وصـــل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضـــت وأن هذه أفلاذها . فدنوت منه وقلت : ما بك يا سيدي ؟ قال بي أني اطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها .

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه فإذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا ســـند لي فيها ولا عضـــد ، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي وأني عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقًا فلم يبق فيه حتى الذماء وأني أستحييك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكاني وألقي بها في وجهك ساخطًا ناقمًا ، فتول أنت أمرها بيدك واســـترد وديعتك إليك وأنقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك »

ثم أمسـك رأسـه بيده كأنما يحاول أن يحبسـه عن الفرار وقال بصـوت ضـعيف خافت أشـعر برأسي يحترق احتراقًا وقلبي يذوب ذوبًا ، ولا أحســـبني باقيًا على هذا ، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ قلت : نعم ، وأسأل الله لك السلامة ، قال : الآن أموت طيب النفس عن كل شيء .

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها .

***

لقد هون وجدي على هذا البائس المسكين أنى استطعت إمضاء وصيته كما أراد فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرســـالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حيًا فلباها ميتًا .

وهكذا اجتمع ، تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

« مترجمة »

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصبابة من المال تترشف الرزق منها ترشفًا مصانعة للدهر فيها .

أما الصبابة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ولا عضدًا .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش مالا يستطيع أن يحتمله بشر فخاطت الملابس حتى عشى بصرها ، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت في المنازل حتى ذلك ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مذل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أي سلبها السعادة وي سلبها العزاء عنها معًا ، فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأ عزاء وصبراً ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

دارت الأيام دورتها فاكتهلت الأم وشب الولد وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بد له أن يعيش ، وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه فمشى يتصفح وجوه الرزق وجهًا وجهًا ، ويرد مناهلة منهلاً منهلاً ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، ومازال يعطيها من نفسه وجده حتى مهر فيها ، والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملاً مغمورًا لا تدر له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفينة بعد الفينة فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن خلتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها حنت إلييه حنين النيب إلى فصالها وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عامًا ، ولم تر منه كتابًا منذ عشرة أعوام حتى اليوم ، فلا تجد لها بدًا كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذي يفزع إليه جميع البائسين والمحزونين في بأسائهم وضرائهم ، خلوتها ودموعها ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باسمه كأن لم تكن باكية قبل ذلك .

دخل عليها ولدها يومًا في خلوتها فرآها تبكي ورأى في يدها صـورة فتبينها فإذا هي صـورة خاله فألم بسريرة نفسها وأمسك بين أهداب عينيه دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يد على عاتقها ، وقال : رفّهي عن نفسك يا أماه فتعلمين خبر غائبك عما قليل ، فتطلق وجهها وأ ضاء ، وقالت : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : قد علمت أن معرضًا سيقام للرسم في واشنطن حاضرة أمريكا بعد بضعة شـهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صـغرى وكبرى ، وقد وعدني بعض أصـدقائي أن يسـاعدني على الشـخوص إليه علني أسـتطيع أن أنال ما أقيم به وجهي وأنقذ به نفسيـ ونفسـك من هذا الشـقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره ، فا ستسر بشرها الذي كان متلألئًا وقالت : لا تفعل يا بني فما أنا بشقية ما رأيتك بجانبي ، وما أنت بشقي ما قنعت بما قسم الله كل ، ولئن فعلت لا تكونن امرأة على وده الأرض أعظم منى لوعة ولا أشـقى ، ولئن بكيت لفراق أخي مرة فسـأبكي لفراقك ألف مرة ، وإني كلما ذكرته وجدت في وجهك العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معًا .

فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها في رحلته الأماني العذاب حتى أسلست وهدأت وأسلمت إلى الله أمرها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فإذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب في أمريكا لا يعرف له سندًا ، ولا عضدًا .

وصـل الفتى إلى معرض الرسـم فعرض رسـمه هناك ، وكان يمثل فيه موقف الوداع الذي جرى بينه وبين أمه على شاطئ البحر يوم رحيله وكان موقفًا محزنًا فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر في نفوسهم منظره فقضوا له بالجائزة التي كان يمني نفسه بها فما حصلت في يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهل الأرض طرًا وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ، وأنه ما ذاق قبل السـاعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء ! .

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث ، ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه وملأ قلبه غيظًا وحنقًا أطلع له في تلك السماء المظلمة المدلهمة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته راضيًا مغتبطًا كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به .

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضًا ، وكتب إليها أنه لن يبرح هذه الأرض حتى يفي لها بما عاهدها عليه ، ومشى في طريقه يفتش عن خاله في أنحاء البلاد ويسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين حتى حدثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك . فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة موحشة مقفرة ، وكانت لا تزال تغشى سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور الأولى فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء بعض الجبال المنقطعة ، فما رأوه حتى هاجت في صدروهم أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض حتى للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ؛ فداروا به دورة سقط من بعدها أسيرًا في أيديهم فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام » .

***

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم المعرض إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبه وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذي آده وأثقله أن هناك إنسانًا آخر كريمًا عليه يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى المحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشانه ؛ فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه شيئًا ، فلم يعمل هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل فانحدر إليه ثقب صغير في حائط المحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه فأنس به أنس الغريب بالغريب وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته ، واستمر بصره عالقًا به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل حتى رآه يتقبض شيئًا فشيئًا . ويتراجع قليلا قليلاً ، ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها ، فحزن لفراقه حزن العشير لفراق عشيره ودار بعينيه حول نفسه فإذا قطعٌ سود مظلمة تتدجّى وتتكاثف من حوله ويملّس بعضها

في أحشــاء بعض . وإذا هو نفســه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر في ظلمات القبور فما كاد يعرف ما كان منها ، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسًا حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه فوجدها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكيًا منتحبًا .

وكذلك انقطع هذا المسـكين عن العالم كله خيره وشره ولم يبق بينه وبينه من صـلة إلا ذلك الشـعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حله تلك سنة واحدة حتى نسى نفسه ، ونسى أمه ونسى العامل الذي كان يعيش فيه ، والعامل الذي انتقل إليه ، ونسىـ الليل والنهار والظلمة والنور ، والسـعادة والشـقاء ، وأصـبح في منزله بين منزلتي الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل ، ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جســد يتحرك ، أو خيال يسرــي ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام .

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه فأصبح من يراها في طريقها يرى عجوزًا حدباء وإلهة متسـلبة مذهوبًا بها ، قد توكأت على عصـا ما تزال تضـطرب في يدها ، وأسلبت فوق جسمها الناحل المحقوقف أهدامًا خلقانًا يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهدابًا متلاصــقة أو مزقًا متطايرة ، تقف صــدر النهار بأبواب المعابد والكنائس تســأل الله أن يرحمها ، والناس أن يطعموها ، حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سمتها إلى شاطئ البحر وجلست فوق بعض صخوره تناجي أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجم كوكبه في أفق السماء ، فإذا سرت إليها نســمة وجدت ريح ولدها فيها ، وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رســول منه إليها ، وإذا تراءت لها سفينة ماخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله ، فلا يزال بصرها عالقًا بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ فتقف في طريق ركبانها تتصفح الوجوه وتتفرس الشمائل وتهتف باسم ولدها صارخة معولة وتقول : عباد الله ، من يدلني على ولدي أو ينشد ه لي في معالم الأرض ومجاهلها فقد أضللته منذ عهد بعيد فحار بي الدهر من بعده فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلاً فاحتسبوها يدًا عند الله وحدثوني عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم ليأتي على أثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس فظنها امرأة ملتاثة فرثى لها أو سائلة فتصدق عليها .

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن ولم يبق على شاطئ البحر من غاد ولا رائح سواها ، فتتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمته مدفنًا لولدها فتظل تبكي وتقول :

في أي بطن من بطون الأرض مضجعك يا بني ، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك ، وفي أي قاع من قيعان البحر مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك ؟

لو يعلم الطير الذي مزق جثتك ، أو الوحش الذي ولغ دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك في جوفه ، أن وراءك أمًا مسكينه تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي ؟

عد على يا بني فقيراً أو مقعدًا أو كفيفًا فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التي أفارق فيها الحياة لأقبلك قبلة الوادع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخف بزورتك عني ضمة القبر ، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة .

ما أ سعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أ شقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت دبيبًا وهي لا تعلم هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها ستجده أمامها ؟

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره ، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً .

***

دخل السجان على الفتى عشية ليلة في محبسه فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته المثبتة في الجدار فانتزعها من مكانها فلم يقل شيئًا ولم يسائل نفسه هل ساعة نجاته أو ساعة حمامة ، ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى ، ففتح عينيه فرأى مكانًا غير مكانه ، ومنظرًا غير منظره ، وسماء وأرضًا غير سمائة وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئًا فشيئًا ، حتى استفاق فتذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنا تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وظلمته ، والقيد ووطأته ، ثم طار بخياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعهد ، وحنينها ، ويأسها من لقائه ، فذرفت عيناه دمعة كانت هي أول دمعة أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل العبرة إذ العبرة لا يهدأ ولا يستفيق حتى مضى شطر من الليل وهدأ الناس جميعًا في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فإنه لكذلك وقد رنقت في عينيه سنة من النوم إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه فخيل إليه أن ملكًا نورانيًا نزل إليه من علياء السماء لينقذه من شقائه فتبينه فإذا فتاة جميلة بيضاء ما التفت الأزر على مثلها حسنًا وبهاء ، تتمشى في بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرهو الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار فسألها : من أنت ؟ قالت : أنا فتاة من فتيات هذا الحي وقد ألممت بشيء من أمرك فعلمت أنك شقي فرحمتك مما أنت فيه فجئتك أطلق وثاقك لتذهب حيث تشاء ، فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب ، فعجب لزنجية بيضاء ووثنية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنبيها قلبًا يعطف على البؤساء والمنكوبين ، وقال في نفسه : ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه ، وأنساه كل شأن في الحياة إلا شأنها فلبث صامتًا واجمًا لا ينطق وقال لها : اذهبي لشأنك يا سيدتي فإنني لا أريد النجاة فعلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلاً ، وانج بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل فإذا أنت فلذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك فإن شديدًا على جدًا أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد الذابح ، أو مضغة في فم الآكل ، قال : إنك لا تستطيعين نجاتي . قالت : لا أفهم ما تقول فإني ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع ، قال : قد كنت قبل اليوم موثقًا بوثاق واحد فأصبحت موثقًا بوثاقين فإن استطعت أن تحلي وثاق قدمي فإنك لا تستطيعين أن تحلي وثاق قلبي ، فألمت بسريره نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة فرفع رأسه إليها ولبث شاخصًا إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تمثالة البديع حتى شعر بدمعة حارة حتى سقطت من جفنها على وجهه ، فجرت في مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنة دمعة مثلها فالتفت بدمعتها فامتزجتا معًا ، فمد يده إلى ردائها فاجتذبها إليه وقال : قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبي نتحدث قليلاً ، فجلست على

مقربة منه فقال لها : إن امتزاج دمعي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياءً و أمواتًا ، فإن كنت تريدين لي النجاة فإنني لا أنجو إلا بك ، قالت : ليتني أستطيع ذلك يا سيدي ، قال : وما يمنعك منه ؟ فنظرت إليه نظرة دامعة وقالت : أخاف أن أحبك . قال : ولم تخافين ؟ قالت : لا أعلم ، قال : أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار ، ولكني أسالك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل بي ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك ، أما اليوم فحسبي عزاء عما ألقيه من غصصه وآلامه نظرة رحمة تلقينها على في مصرعي ، ودمعة حزن تسكبينها من بعد على تربتي .. فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهي سلكه فانتثر ، ثم مدت إلى قيد فعالجته حتى انصدع ، وقالت : إني ذاهبة معك وليقض الله في وفيك قضاءه .

مشيا يطويان القفار ، ويعبران الأنهار ويضحيان مرة ويخصران أخرى ، ويردان آجن المياه و صفوها ويقتاتان يابس الثمار ورطبها ، فإذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبل أويا فاستراحا بجانبه قليلاً ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزل تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وإذا مضجعهما من تربة وأحجاره نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليبًا صغيراً فقبلته ، ثم أنشأت تهمتهم بكلام خفي كأنها تناجي به شخصًا غائبًا عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة وتطلب معونته على أمره لا تعرف مصيره ، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها ، وكان لكما سألها عن شأنها التوت عليه ودافعته عنها حتى تلوم أن يعاودها فتركها وشانها ، وقد أصبح يحمل في صدره من الهم فوق ما تحلم من هم نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يومًا على سواء العمران فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء .

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقة يتحدثان ، وهي أول مرة جلسا فيها للحديث فقال لها : ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة الطويلة في هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادة لا أحسب أنه قد أعد خيراً منها لعباده المتقين في جنات النعيم ، قالت : ومتى كانت هذه الحياة موطنًا للسعادة أو مستقرًا لها ؟ ومتى سعد أبناؤها بها فنسعد مثلهم كما سعدوا ؟ وإن كان لابد من سعادة في هذه الحياة فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقدًا أن لا سعدوا له فيها ليستطيع ن يقضي أيامه المقدرة له على ظهرها هادئ القلب ساكن النفس لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب . قال : إن السعادة حاضرة بين أيدينا ، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نطوي هذه المرحلة الباقية من هذا القفر فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله فنجثوا أمام مذبحه ساعة نخرج من بدعها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ، ولا يكدر صفونا مكدر ن فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها . فقال : ما بكاؤك يا سيدتي ؟ فقالت : أتذكر ليلة النجاة إذ دعوتني إلى الفرار معك ، فقلت لك أن أخاف إن فررت معك أن احبك ؟ قال : نعم . قالت : واأسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف .. ثم صرخت صرخة عالية وقالت : ماذا يا أماه .. و سقطت مكبّة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى في أعضائها فعلم أنها البرداء وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ومشى يفتش عن الناس في كوخ كان يتراءى له على البعد حتى بلغه فوجد على بابه كاهنًا شيخًا جليل المنظر فدنا منه وحياه تحية حيى بأحسن منها وقال له : ما شانك يا بني ؟ قال : إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائي تشكو البرد فهل أجد عندك جذوة نار أعودا بها إليها لتصطلي بها ؟ فمكنه من طلبته ، وقال له : « كتب الله ولعليلتك السلامة يا بني فاذهب فإني على أثرك » فعدا الفتى عدوًا شديدًا حتى بلغ النهر فأدهشه أن أرى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو بردًا ولا أرمًا ، فأقبل عليها متهللاً وقال لها : لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام ، قالت : ما كان يخالط نفسي من ذلك شيء فاجلس أحدثك حديثي فقد آن أن أفضي به إليك ، فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه وتقول :

أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلى مع الأيام دفينه ، فقد ولدتني أمي على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عاماً فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولداني وعشنا جميعًا حقبة من الدهر عيش السعداء الآمنين وكان رجال قبيلة أمي لا

يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلة من ليالي الظلام فاقتادونا جميعًا إلى أرضـهم ، وكنت إذ ذاك لم أسـلخ العاشرة من عمري فقتلوا أبي أمامي وأمام أمي قتلة لا يزال منظرها حاضرًا بين يدي حتى السـاعة لا يفارقني ، فحزنت أمي عليه شـديدًا ما زال يدنو بها من القبر شيئًا فشيئًا حتى جاءت ساعتها فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فدعتني إليها أماه وقالت لي : يا بنية إن أمي قد ولدتني للشـقاء في هذا العالم وأحسـب أني قد ولتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكوني سببًا في شقاء أحد بعدك وانذري نفسك للعذراء نذرًا لا يحله إلا الموت . فأذعنت لأمرها وأشـهدت الكاهن على نذري فتلألأ وجهها بشرًا وسرورًا ، ثم نظرت في السـماء وقالت : ها أنذا على أثرك يا رافائيل ، ثم فاضت روحها .

فاضـطرب الفتى عند سـماع هذا الاسـم وقال لها : هل تعرفين وطن أبيك وأسرته ؟ قالت نعم ، وسمتهما له فاستطير فرحًا وسرورًا وقال : أحمدك اللهم قد وجدت ضالتي فعجبت لأمره ، وقالت : وأي ضـالة تريد ؟ قال : أتذكرين ليلة اللقاء إذا امتزجت دمعتانا معًا فقلت لك إنها صـلة بيني وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ قالت نعم . قال : قد كنت أمت إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها فأصـبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالي معًا فقالت بصـوت خافت : أحمد الله فقد وجدت لي في هذه الساعة العصيبة أخًا ، وأخذ جسمها يضطرب اضطرابًا شديدًا ، ووجهها يربدّ شيئًا فشـيئًا ، فذعر الفتى وارتاع وحنا عليها وقال : ماذا أرى ؟ قالت : لا ترع فأصـغ إلى فإن لحديثي بقية لم تسمعها ، إنني منذ حفظت وصية أمي ووهبت العذراء نفسي ، كان لا بد لي أن أتخذ لي ملجأ أفزع إليه في اليوم الذي أخاف أن يغلبني فيه هواي على ديني ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى جاء اليوم الذي خفته فلجأت إليها فنجوت واستودعك الله . فنظر الفتى حيث أشارت فرأى قارورة مطرحة وراءها فتناولها فإذا هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شيء .

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه ، وكأن طائرًا قد نفض جناحيه ، ثم طار عن رأسـه إلى جو السـماء فصـعق في مكانه لم يشـعر بعدها بشيء مما حوله فلم يسـتفق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة بارة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفًا أمامه يحمل على كفه طعامًا كان قد جاء به إليهم ويقلب نظره حائرًا لا يفهم مما يرى شـيئًا ، فوثب الفتى إليه حتى صـار أمامه وجهًا لوجه ونظر إليه نظرة شـزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط في عقله فأخذ يهذي ويقول :

أتدري أيها الرجل لم ماتت هذه ؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض ، ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرمًا لا يقبل أخذًا ، ولا ردًا ؟

إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه والمرء وقلبه ؟

إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاءون ؟ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خافقة .

أتظنون أيها القوم أننا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر ؟ بئست الحياة حياتنا إذن وبئس الخلق حلقنا ، إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ولا نعرف لنا مجلًا نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

هذه الطيور التي تغرد في أفنانها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سمائها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسوائم في مراتعها ، والسوارب في أحجارها .. وإنما تعيش جميعًا بنعمة الحب فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت أيها القساة المستبودن أرفع شأنًا من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة ! ؟

فهنيئًا لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ، فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم .

إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نســـمع أصـــواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ، فإنا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

إن وراءنا نسـاء ضـعاف القلوب ورجالاً ضـعاف العقول ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم .. فلا بد أن نقف في وجوهكم ونعترض ســـبيلكم لنذودكم عنهم حتى لا تصـــلوا إليهم فتفســـدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

إنا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرـك به غيره ، وفي اســـتطاعتنا أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

كتاب الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آياتكم ، وأنا شيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغماتكم .. هذا الجمال المترقرق في سماء الكون وأرضه ، وناطقة وصامته ومتحركه وساكنه ، إنما هو مرآة نقية صـافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرـقًا متلألأً فنخر بين يديه سـاجدين ، ثم نصـغي إليه لنســتمع وحيه فنســمعه يقول لنا : « أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتم حياة للجمال فأحيوه » .

ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمرًا سواه » .

***

وما وصل إلى حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، ووهنت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط في مكانه يزفر زفيرًا شـديدًا ، ويئن أنينًا محزنًا ، فاقترب منه الشـيخ ووضـع يده على رأســه وقال له : ارفق بنفســـك يا بني فما أنت بأول ثاكل على وجه الأرض ، ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء للمحسنين ، فأهوى الفتى على يده وأخذ يقلبها ويقول : اغفر لي ذنبي يا أبت ، فقد كنت من الظالمين ، قال : غفر الله لك يا بني فما دون رحمة الله باب موصد ولا رتاج معترض ، قال له : يا أبت إن هذه غريبة عن هذه الأرض وليس لها فيها أحد ســـواي ، وقد ماتت من أجلي وفي سبيلي ، فهل تأذن لي أن أدنو منها لأقبلها قبلة الوداع في آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ظ قال : افعل يا بني ، فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضـمها غليه ضـمة شـديدة وأهوى بفمه على فمها فقبلها لأول مرة في حياته قبلة فاضت روحه فيها .

***

في الساعة التي دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطئ ذلك النهر الجاري مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها الزيارة من حين إلى حين فنظرت إلى مكانها الذي اعتادت أن تتخذه من حافة القبر المفتوح فرأته خاليًا فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها معفرة بترابها لا حراك بها ، فملأت بالتراب الذي كان مجتمعًا حول الحفرة تلك الأشـــبار الخمســـة التي هي مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أبلت فوق تربتها دمعة كانت هي كل نصيبها من الدنيا .

## الحجاب

« موضوعة »

ذهب فلان إلى أوربا وما ننكر من أمره شيئًا ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقى مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ؛ وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ؛ وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابه نزاعة لا ترى شيئًا فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ؛ وذهب برأس مملوءة حكمًا ورأيًا ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد ؛ وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغًا لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذاراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدنية الغريبة من نفوسهم مكان الوجه من المرآة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها فلم أ شأ أن أفارق ذلك الـ صديق ولبـ سته على علاته وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقة ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الداهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرايته واجمًا مكتئبًا فحييته فأومأ إلي بالتحية إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت : وأي امرأة تريد؟ قال : تلك التي يـسميها الناس زوجتي ، وأ سميها الـصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي . قلت : إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تتحدث؟ قال : ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحمها فلا أرى برقعًا على وجه امرأة في هذا البلد ، قلت : ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه ، قال : إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون

أول هادم لذها البناء العادي القديم الذي وقف سدًا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرًا طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياءً منهن وخجلاً ، ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجًا ينتهي بإحدى الحسنين إما بكسره أو بشفائه .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي هـمًا وحزنًا ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول؟ قال : نعم أقول الحقيقة التي أعتقها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعًا حيث وقعت ، قلت : هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يومًا من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه؟ قال : ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد؟ قلت : أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك ، قال : إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع ، فتداخلني ما لم أملك معه وقلت له : تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيًا رائقًا حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما ثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال : أتنكر وجود العفة بين الناس؟ قلت : لا أنكرها ني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟

أفي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة : لم لمْ يتزوج؟ فأجاب : نساء البلد جميعًا نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه خجلاً إن خلت محفظته يومًا من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام؟

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادمًا ذليلاً ، ويخرج منه صهرًا كريمًا؟

وبعد : فما هذا الولع بقصـــة المرأة ، والتمطق ، بحديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وســـفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفســـكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصدًا ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيمًا وشقاء طويلاً .

أروني رجلاً واحدًا منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفســـكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرـــونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

ما شـــكت المرأة إليكم ظلمًا ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها وقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأو صدت من دونها بابها ، وأ سبلت أ ستارها ، تبرمًا بكم وفرارًا من فضولكم ، فواعجبًا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها!

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجًا وســـفورًا ويتدفق خلاعة واســـتهتارًا ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء من الحجاب موكوء فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقبًا والعفة تسـلل منه قطرة قطرة حتى تقبض ، وتكرش ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة .

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السـعادة كل السـعادة في واجب تؤديه لنفسـها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضـوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضـاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النسـاء أن الحب أسـاس الزواج رأت هي أن الزواج أسـاس الحب ؛ فقلتم لها إن هؤلاء الذين يسـتبدون بأمرك من أهلك ليسـوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضـل رأيًا ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسـك فلا حق لهم في هذا السـلطان الذي يزعمونه لأنفسـهم عليك ، فازدرت أباها ؛ وتمردت على زوجها وأصـبح البيت الذي كان بالأمس عرسًا من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لابد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسـها أسـوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سـعادتها على يوم وليلة ثم الشـقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها : إن الحب أسـاس الزواج ما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصـعدة مصـوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه .

وقلتم لها : إن سـعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشـيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزواج غير العشـيق . فأصـبحت تطلب في كل يوم زوجًا جديدًا يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديمًا استبقت ولا جديدًا أفادت .

وقلتم لها : لابد أن تتعلمي لتحسـني تربية ولدك ، والقيام على شـؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شؤون بيتها .

وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا ، فرأت أن لابد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضًا ، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم بها ، وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعًا ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعًا وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها !

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم ن فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفًا عليها من الذئاب فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتًا ينبت فيها ، ولكل نبات زمنًا ينمو فيه!

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء .

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانهم فاشتعلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغني عنه .

ورأيتم الرجل الأوروبي حرًا مطلقًا يفعل ما يشـاء ويعيش كما يريد لأنه يسـتطيع أن يملك نفسـه وخطواته في السـاعة التي يعلم فيها أنه قد وصـل إلى حدود الحرية التي رسـمها لنفسـه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسـها رجلاً ضـعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها .

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشـونة نفسـه وحرشـتها يسـتطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ؛ فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهي أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسـها وكرامتها فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها!

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

إنا نضرع إليكم باسـم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نسـاء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسـكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صـدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتسـتطيعوا أن تعيشـوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .

***

فما زاد الفتى على أن ابتسـم في وجهي ابتسـامة الهزء والسـخرية ، وقال : تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها ، فقلت له : لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشـاء ، وائذن لي أن أقول لك إني لا أسـتطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ، لأني أعلم أن السـاعة التي ينفرج لي فيها جانب سـتر من أسـتار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلني حياءً وخجلاً . ثم انصرفت . وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانًا هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشيًا لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طرقه إلا قليلاً فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر ثم انطلق في سبيل .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجًا من منزله يمشي مشية الذاهل الحاشر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال : لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببًا ، وما أنا بالرجل المذنب ، ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك ، ومشيت معه صامتًا لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئًا ، ثم شعرت كأنه يزور في نفسه كلامًا يريد أن يفضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له : ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سببًا؟ فنظر إلي نظرة حائرة ، وقال : إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت : أما كان يصاحبها أحد؟ قال : لا قلت ، ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟ قال : لا، قلت : ومم تخاف عليها ؟ قال : لا أخاف شيئًا سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوؤني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ، في حال غير صالحة فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذِنَّا لها بالانصراف معك إكرامًا لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا ، ثم سقط في مكانه مغشيًا عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا

له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهرًا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثى لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصًا إلي هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئًا فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له : هل من حاجة يا سيدي؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي أن لا يدخل علي من الناس أحد ، قلت : لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع ، فقلت : ما بكاؤك يا سيدي؟ قال : أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت : وماذا تريد منها؟ قال : لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها ، قلت : إنها في بيت أبيها ، قال : وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجادًا فألبستهم مذ عرفوني ثوبًا من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعًا أنني مريض مشرف ، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي ، قبل أن يسبق إلي أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه ؟

نعم إنها قتلتني! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي .

البيت بيتي ، والزوجة زوجتي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي ، فلم يذنب إلي أحد سواي .

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا ، حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عيني! وما أضيق الدنيا في وجهي! في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسرورًا وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعًا : إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبلع إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين .

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله ، والغباوة في وجوه الأغبياء !

ولعل الذين كانوا يتوددون إلي ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي؟ ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قوادًا ويسمون زوجتي مومسًا ، وبيتي ماخورًا وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم!

فوارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالهفا على زاوية منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي .

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح : أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ن سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه؟ لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثرًا خالدًا ورائي بعد مماتي ؛ وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئًا فشيئًا فأنصت إليه واستعبر باكيًا وصاح : أرجعوه إلي ؛ فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبو حسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حيًا أو ميتًا! ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئًا فشيئًا حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأسًا وحزنًا .

ثم بدأ ينزع نزعًا شـديدًا ويئن أنينًا مؤلمًا فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضـت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يـسبل أ ستاره الـسود على سريره وإذا امرأة مؤتزرة بإزار أ سود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت عليده الموضوعة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واســأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باســمة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

***

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صــديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشــباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلســت لكتابة هذه الســطور ، وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا يهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيدًا فنجت بهلاكه .

■ ■ ■

## الذكرى

**« مترجمة »**

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة بعد انســـكاره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابيلا على شاطئ الخليج الرومي تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر فألقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاء مرًا وينشج نشيجًا محزنًا حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصـــبح شـــاطئ البحر كأنه مناحة قائمة تتردد فيها الزفرات ، ويســـتبق العبرات ، فإنه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفًا يهتف باسمه بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

نعم .. لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال .

إنك ضحكت بالأمس كثيراً ، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القائم .

لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصـدمة من صـدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضـاء ، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة ، لهان أمره عليك ، أما وقد أضـعته بيدك ، وأســلمته إلى عدوك باختيارك ، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

لا يظلم الله عبدًا من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شـــأن من الشـــؤون شرًا ولا ضـــيراً ، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضـعيفة فتزل بهم أقدامه ، ويمشـــوا تحت الصـخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

لم تقنع بما قســم الله لك من الرزق فأبيت إلا الملك والســلطان فنازعت عمك الأمر واســتعنت عليه بعدوك وعدوه فتناول رأسيكما معًا وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قليب من الدم فغرقتما فيه معًا .

لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملك ملكًا يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ، لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء .

اتخذ بعضكم بعضًا عدوًا ، وأصبح كل واحد منكم حربًا على صاحبه فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يتربص بكم الدوائر ويرى أن كلاً منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رآكم تتهافتون على أنفسكم ضعفًا ووهنًا فاقتحمكم فما هي إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم معًا .

ستقفون غدًا بين يدي الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألكم عن الإسلام الذي أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام . وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، عن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذمارها ، فلم تحركوا في شأنها ساكنًا حتى غلبكم عداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غدًا ؟

ها هي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان ، وها هي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يفر بدينه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكناف الهضاب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدي شعيرة من شعائر دينه إلا في غار كهذا الغار الذي أعيش فيه!

ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد ، فقد كان ذلك خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعًا غلاً واحدًا يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذودًا عن أنفسهم . وما تفعل الفوضى بأمة ما يفعل بها الاستبداد .

يسألكم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعًا أحوج ما كنت إليهم ، وسقتوهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالاً لا شرف فيه ولا فخار حتى ماتوا جميعًا موت الأذلاء الأدنياء فلا أنتم تركتموهم بجانبي آنس بهم في وحشتي وألجأ إلى معونتهم في شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم ووطنهم .

فها أنذا عائش من بعدهم وحدي في هذا الغار الموحش فوق هذه الصخرة المنقطة أبكي عليهم ، وأسأل الله أن يلحقني بهم فمتى يستجيب الله دعائي؟

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشي بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فنالت كلماته من نفس الأمير ما لم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه ، فصاح : ما هذا بشرًا إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي ، فليصنع الله بي ما يشاء فعدل منه كل ما صنع .

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقًا فسجل التاريخ في تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعدما عمروها ثمانمائة عام .

***

بعد مرور أربعة وعشرين عامًا على تلك الحوادث لم يبق في إفريقية حي من بني الأحمر إلا فتى في العشرين من عمره اسمه «سعيد» لم ير غرناطة ولا قصر الحمراء ولا المرج ولا جنة العريف ولا نهر شنيل ولا عين الدمع ولا جبل الثلج ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ، ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع ، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تشتثير عبرته ، وتهيج أشجانه ، فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على التلف .

فكان لا يتمنى على الله منم كل ما يتمنى امرؤ على ربه في حياته إلا أن يرى غرناطة ساعة من زمان يشفي بها غلة نفسه ، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزًا من أهله مريضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سبتة إلى شاطئ ملقة ، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكرًا في ثوب طبيب عربي من أطباء الأعشاب يتقبل في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل ، فوقف على هضبة من هضاب جبل الثلج فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون كأنها فوق سطحه اللامع المتلألئ قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حيات بيض مذعورة تنبعث ههنا وههنا لا هم لها إلا النجاة من يد مطاردها حتى عثر بجدول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العقيقة الحمر وقبابها العالية الشم ، ومآذنها الذاهبة في جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع وضم إحدى يديه إلى الأخرى ووضعها على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والحرجات يقول :

هذا ميراث آبائي وأجدادي لم يبق لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي والآثار الدوارس .

هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ؛ وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات .

هذه قصورهم تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى تدعو الله أن يعيد إليها بناتها وحماتها فلا يستجاب لها دعاء .

في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يقيلون ؛ وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون ، واليوم لا غاد منهم ولا رائح ، ولا سانح تحت هذه السماء ولا بارح .. ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبددها بين يديه تبديدًا فتهافت على نفسه ، وهو يقول :

هكذا تدول الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة .

ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء فلم يستفق حتى مضت دولة الليل فمشى إلى نهر جار في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوي إليه فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ نهر شنيل فمشي على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها .

وإنه لكذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خمارًا أسود شفافًا وأرسلت على صدرها صليبًا ذهبيًا صغيراً ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته في مكانه فأدهشـها موقفه فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها فإذا الشـمس طالعة حسنًا وبهاء ، وقالت له بلسان عربي تخالطه بعض العجمة : أغريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى؟ قال : نعم لقد نزلت به الســاعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوي إليه الغرباء ، ولم أجد في طريقي من يدلني عليه ، فسمعت في صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيته بابتسامة عذبة ، وقالت له : لا تنسَ أن تزورني أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة .. ثم سارت في طريق كنيستها .

***

كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها وتمر بها الشهب فتلمع في أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوؤها ضوء جميع تلك النيرات ؛ كذلك القلب الإنساني لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشـــتات الأهواء مجتمعة ومفترقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شـــمس الحب غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصـــبح الأمير ينظر إلى غرناطة منذ الســـاعة بعين غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن ثائره وبردت جوانحه ، وهدأت في نفسه ثورة الغضب التي كانت لا تزال تعتلج بين اضلاعه ، فكان إذا مر بمسجد من تلك المســاجد التي اســتحال إلى كنائس اســتطاع أن يقف أمامه هنيهة عله يرى الفتاة الإســبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه ، وإذا رأى الصــليب مشرـفًا على رأس مئذنة ذكر الصـــليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أجواء الفضاء ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها ، فأنس به و سكنت نفسه إليه .

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا هم له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر «شنيل» يقلب نظره في أبواب القصــور المشرــفة على ذلك النهر عله يعرف قصرــ الفتاة فلا يعرفه ن وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات عله يراها بينهن فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعًا إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعًا غزارًا ، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة!

***

نكب الدهر «فلورندا» منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية «العصابة المقدسة» التي قامت في وجه الحكومة أعوامًا طوالاً تطالبها بالحرية الدينية والشخصية ، لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيا رجال الحكومة أمرها ، فدسوا لرئيسها من قتلة غيلة تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على أثره حزنًا شديدًا ما كان يفارقها في جميع غدواتها وروحاتها ، فأصبحت وهي لم تسلخ الثامنة من عمرها تعيش في قصرها عيش الزاهدات المتبتلات ، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماضية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة «الراهبة الجميلة» .

فإنها لسائرة يومًا بجانب مقبرة بني الأحمر إذ لمحت على البعد فتى عربيًا مكبًا على أحد القبور كأنما يقبل صفائحه ويبل تربته بدموعه ، فرثت لحاله ومشت نحوه حتى دانته فأحس بها فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له : إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى فابكهم كثيراً فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم . قال : أترثين لهم يا سيدتي؟ قالت : نعم ، لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين ، من العظماء الساقطين . قال : شكرًا لك يا سيدتي فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب في صدري مذ وطَئت قدماي أرضكم هذه ، قالت : هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار ؟ فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه فإذا دمعة تترجج في مقلتيه وقال : لا يا سيدتي ، لقد حاولت الدنو منها فطردني عنها الموكلون بأبوابها كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحباء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها مني ، قالت : أتمت إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم؟ قال : لا يا سيدتي ولكني عبدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم فلا أنسى ولاءهم ما حييت ، قالت : إن رأيتك غدًا في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها : قال : لئن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك مني ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خانه بين صبابة تُقيمه وتقعده ، وأمل يميته ويحييه .

وفت «فلورندا» لصديقها العربي بما وعدته به فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضًا آخر منها ، وهكذا ، ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما شيئًا؟ فقد كانوا إذا رأوهما معًا : إن الراهبة الجميلة

تحاول أن تهدي الفتى العربي إلى دينها القويم ، حتى اســتحال العطف الذي كانت تضــمره له في نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف دائمًا طريق الحب أو هو الحب نفسه لابسًا ثوبًا غير ثوبه . إلا أن أحدًا منهما لم يجرؤ أن يكاشف صاحبه بما أضمره له في نفسه حتى جاء اليوم الذي عزم فيه على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

***

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء ، وطودًا يناطح الجوزاء ، وهضبة تشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبلاً تحسر عن قمته العيون ، وتضل في جوانبه الظنون ، وحصــنًا تتقاصر عنه يد الأيام ، وتتهافت من حوله الســنون والأعوام . ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير ، وقباب تفضي غليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء ، كأنها الرياض الزهر ، وجدران صقيلة مُلْس تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرآة وجه الحســناء ، وكأن كل جدار منها لجة متلاطمة الأمواج يحســبها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتنغم في نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مستعبرًا ... معتبرًا أندب أشتاتا
فقلت يا حمراء هل رجعة ... قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي على رسمها ... هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضوا ... نوادب يندبن أمواتا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صحنًا مفروشًا ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النحاف الطوال ، وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته فهاجت في نفسه الذكرى وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزنًا ووجدًا ، وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكي أمام «فلورندا» فتركها في مكانها لاهية عنه بالنظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها فكان أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها فما قرأه حتى صاح صيحة شديدة قائلاً : «وا أبتاه» وسقط مغشيًا عليه ، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر «فلورندا» ووجد في عينيها آثار البكاء ، فقالت له : لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكاتمني شــيئًا من أسرار نفســك ، والآن عرفت أنك لست عبد بني الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكنك أحد أمرائهم ، وأنك الساعة في قصر

جدك وأمام حجرة أبيك . فما أسوأ حظكم يا بني الأحمر وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين . فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته ، وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها : فلورندا؟ إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غدًا قالت : وأي شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه؟ فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال : إنني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقًا لا لقاء من بعده ، قالت : أتحبني أيها الأمير؟ قال : نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهاطلة ، قالت : وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك؟ قال : نعم لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التي أحبها فأحببتك لها ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدين قالت : وهل تستطيع أن تحب بلا أمل؟ قال : ولم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التي نجد فيها السعادة إن ظفرنا بها؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟

وكان الليل قد أظلهما فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت «فلورندا» يدها في يده وقال له : «سأحبك كما أحببتني أيها الأمير ، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبك . ولقد فرق الدين بين جسدينا ، فليجمع الحب بين قلبينا» وتركته وانصرفت .

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيا في حياتهما الماضية من شقاء وعناء فاصبحا فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائرين جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وتترقرق صفحة الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير ، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما ولا ينفس عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التي ابتاعاها بكثير من دموعهما وآلامهما والتي لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسرا كل شيء!

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما «الدون رودريك» ابن حاكم مدينة غرناطة ، فرآها في مجسلهما هذا من حيث لا يريانه وكان قد رأى «فلورندا» قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أيامًا يتحبب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبت أن تصغي إليه وقالت له : إنني لا أتزوج ابن قاتل أبي . فانصرف بلوعة لا تزال كامنة في نفسه حتى اليوم ؛ فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحته من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها ، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضي إليها بما وقع في نفسه ، فأبت أن تقابله ، فخرج غاضبًا يحدث نفسه بأفظع أنواع الانتقام .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبي عبد الله سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسي مجدها وعظمتها ، وبناة قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهانًا إلى محكمة التفتيش متهمًا بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأنكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له : لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ، فطار الغضب في دماغه ، وصرخ صرخة دوت بها أرجاء القاعة وقال :

في أي كتاب من كتبكم ، وفي أي عهد من عهود أنبيائهم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم؟

من أي عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقًا ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر؟

أين العهد الذي اتخذتموه عن أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحرارًا في عقائدنا ومذاهبنا وأن لا تؤذونا في عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا في شعيرة من شعائر ديننا؟

أهذا الذي تصنعون اليوم ، والذي صنعتم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعي للذمم؟

نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ، فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالي بعهد ولا وفاء .

إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيف قاطع في يد الأولين ، وغل ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عثرة البلهاء ولا أقر عيون الأغبياء .

أنتم أقوياء ونحن ضعفاء فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة ، فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذي خولتكم إياه قوتكم .

ا سفكوا من دمائنا ما شئتم ، وا سلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء ، فلابد أن ينالنا ما ينال الضعفاء .

ثم حاول الاستمرار في حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة الموت التي هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقًا ، فسيق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساء ، وما جرد الجلاد سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هي إلا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل .

***

يرى المار اليوم بجانب مقبرة بني الأحمر في ظاهر غرناطة قبرًا جميلاً مزخرفًا هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافي قد نحتت في سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر فيهوي إليها الطير في أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بني الأحمر »

« من صديقته الوفية بعهده حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

■ ■ ■

## الهاوية

« موضوعة »

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها؟!

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامًا واحدًا مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ما شيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت «فلانًا» منذ ثماني عشرة عامًا فعرفت امرءًا ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه ، فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عرض إلي من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري فهجرت القاهرة إلى مسقط راسي غير أسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزنًا شديدًا وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشرًا وسرورًا ، ثم زرته اليوم فخيل إلي أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شبح ولا يلمح في أرجائها مصباح ، فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده أو أنني بين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نورًا ضعيفًا فمشيت إلى الباب فطرقته فلم يجبني أحد فطرقته أخرى فلمحت من خصاصه نورًا مقبلاً ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحًا ضئيلاً فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إلي بالدخول ومشى أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مغبرة بالية المقاعد والأستار ، ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد - ما

عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً ، ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركني ومضىــ وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي : إن والدته تريد أن تحدثني حديثًا يتعلق بأبيه ، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف وأحسـسـت بشرـ لا أعرف مأتاه ، ثم التفت فغذا امرأة ملتفة برداء أسـود واقفة على عتبة الباب فحيتني فحييتها ثم قالت لي هل علمت ما صـنع الدهر بفلان من بعدك؟ قلت : لا ، فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعدما فارقته سـبعة أعوام . قالت : ليتك لم تفارقه ن فقد كنت ع صمته التي يعتـ صم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقته حتى أطاحت به زمرة من زمر الشـيطان ، وكان فتى كما تعلمه غريرًا سـاذجًا فما زالت تغريه بالشرـ وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان حتى سقط فيه فسقطنا جميعًا في هذا الشقاء الذي تراه ، قلت : وأي شر تريدين يا سيدتي؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟ قالت : سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول :

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسـه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فاسـتحال من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأ صبح منقطعًا عن أهله وأولاده لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي ؛ ولقد اغتبطت في مبدإ الأمر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ورجوت له من ورائها خيرًا كثيرًا مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولادي حتى عاد في ليلة من الليالي شـاكيًا متألمًا يكابد غصصًا شديدة وآلامًا جسامًا فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شيء .

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرءوسـيه في الخير إن سـلك طريق الخير ، والشرـ إن سـلك طريق الشر ن قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وأنه ما كان يتخذه صديقًا كما زعم ، بل نديمًا على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيدًا بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئًا ، ثم علمت بعد ذلك ن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ، لأني أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف على رأسها لابد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون - سكيرًا مقامرًا مستهترًا لا يحتشم ، ولا يتلوم ولا يتقي عارًا ولا مأثمًا ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضن بأولاده أن

يعلق بهم الذر ، وبزوجه أن يتجهم لها وجه السماء ، أبًا قاسيًا وزوجًا سليطًا ، يضرب أولاده كلما دنو منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجوا ويرقصوا ويملأوا الجو صراخًا وهتافًا ثم يعتادوا بعضهم وراء بعض في الأبهاء والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي وربما حدق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي ومسمع فلا يقول شيئًا ، ولا يستنكر أمرًا فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي فأقضي عندهم بقية الليل .

وهنا تغيرت نغمة صوتها فمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لابد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ، لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين .

هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وبأولادي ، فقد مر على آخر حلية بعتها من حلاي عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنين ملأى بملابسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال يعود علي من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستله من أشداق عياله لهلكت وهلك أولادي جوعًا .

فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عونًا لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح وأحسب أنك تقدر منه - وللمنزلة التي تنزلها من نفسه - على ما عجز عنه الناس جميعًا ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يدك فيه حتى الموت .

ثم حيتني ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم؟

***

الآن عرفت أن الوجوه مرايا النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كل منبت شعرة ف وجهه فمًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقيًا منكوبًا قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، استشرف عاتقاه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحدب ، فكان أول ما قلت له : لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك! وكأنما ألم بما في نفسي وعرف أني قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئًا ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له :

والله ما أدري ماذا أقول لك؟ أأعظك ، وقد كنت واعظي بالأمس ، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي؟ أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك؟ ولا أعرف شيئًا أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء!

إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي إنما يلجأ إليها الهمل العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد منهم!

إنك تمشي ـ يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج البائس المنتحر! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنيًا فأصبحت فقيراً ، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا ، وشريفًا فأصبحت وضيعًا ؛ فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء .

إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ، فأطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

حسبنا يا صديقي من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم إليه شقاء جديدًا نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ، فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن أولاء قد التقينا فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له : ما لك لا تمد يدك إلي ؟ فاستعبر باكيًا وقال : لأنني لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حانثًا . قلت : وما يمنعك من الوفاء؟ قال : يمنعني منه أنني رجل شقي ، لا حظ لي في سعادة السعداء ، قلت : قد استطعت أن تكون شقيًا ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيدًا؟ قال : لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلابد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله ، قلت : ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين ، قال : إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوبًا على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأسًا في البكاء على الساقطين المذنبين .

ثم انفجر باكيًا بصوت عالٍ وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

***

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمنًا طويلاً فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له ثم عزله عن وظيفته استنكارًا لعلمه ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهبًا إلى الحانة أو عائدًا منها ، فإن رأيته ذاهبًا زويت وجهي عنه ، أو عائدًا دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلمًا من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حينًا بعد حين فيدور بعينه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الرقاع والخروق ، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدوًا بغيضًا وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعًا لينًا غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاها أن ترى ولداها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بدًا من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها ، فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلّما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف إليها من حين إلى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسنًا وبهاء ، ثم تذكر كيف أصبح السيد مسودًا ، والمخدوم خادمًا ، والعزيز الكريم ذليلاً مهينًا ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام . فتبكي بكاء الوله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقدًا لذلك الإنسان الذي كان سببًا في شقائها وشقاء ولديها ، لا حدثتها نفسها يومًا من الأيام بمغاضبته أو هجرانه ، لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر

بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضًا ، وتأسو جراحه إن عاد جريحًا ، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانة حينما لا يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب طلبًا شديدًا فلا يجد بدًا من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال حتى أضاف إليها ثقلاً جديدًا ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحمتك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة . وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضًا شديدًا فلم تجد طبيبًا يتصدق عليها بعلاجها ، لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويدًا رويدًا حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيدًا عنها وأخذ يحركها تحريكًا شديدًا فلم يشعر بحركة ، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه فبدأ صوابه يعود إليه شيئًا فشيئًا ، فأكبّ عليه يحدق في وجهها تحديقًا شديدًا ويزحف نحوها رويدًا رويدًا حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفًا وذعرًا فوطئ في تراجعه صدر ابنته فأنّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة ، وقال : وا شقاءاه وا شقاءاه؟ وخرج هائمًا على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : ابنتي! زوجتي ، هلموا إلي؟ أدركوني! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله سفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سببًا في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيدًا مغلولاً في قاعة من قاعات البيمار ستان ، فوارحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء .

## الجزاء

### « مترجمة »

جلسـت على ضـفة البحيرة لتملأ جرّتها ، وكان الماء سـاكنًا هادئًا كأنما قد امتدت فوق سـطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرآة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها فلمحت في صـفحتها وجهًا أبيض رائقًا إليها نظرًا عذبًا فاترًا ، فابتسـمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل .

أنسـت بهذا المنظر سـاعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبينته فغذا به خيال رجل فذعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فملأت جرتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : هل تأذنين لي يا سـيدتي أن أعينك على حمل جرتك؟ فالتفت فإذا فتى حضريـي غريب حسـن الصـورة والبزة لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فرابها أمره واتقد وجهها حياءً وخجلاً ، ولم تقل شيئًا ، واستقلت جرتها ومضت في سبيلها .

***

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد فرضعت معه وليدة ، ولعبت معه طفلة ، وأحبته فتاة ، ومرت بهما في جميع تلك الأدوار سـعادة لم يسـتمداها من القصـور والبسـاتين والأرائك والأسرة ، والجياد والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع واللؤلؤ السـاطع ، والأثواب المطرزة والغلائل المرصـعة ، لأنهما كانا قرويين فقيرين ، بل اسـتمداها من مطلع الشـمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلألؤ السـماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة على الأعشـاب الناعمة تحت ظلال الأشـجار الوارفة ، ومن سـماع أناشـيد الحياة وأغاني الرعاة وضـوضـاء السـائمة في غدوها ورواحها وبكاء النواعير في مسـائها وصـباحها ، ومن الحب الطاهر الشريـف الذي يشرـف على القلوب الحزينة فيسـعدها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسـيرة فيريشها ، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنهما حتى كان يوم البحيرة .

***

لا تعرف المرأة لها وجودًا إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضـلوع من خوافق القلوب ، لأصـبح الوجود والعدم في نظرها سـواء ، ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت في كوكب من كواكب السـماء نظرة حب ، أو سـمعت في زاوية من زوايا الأرض أنه وجد لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملأ قلبها غبطة وسرورًا .

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوة مختالة ، لا لأن حبًا جديدًا حلّ في قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت في طريقها برهانًا جديدًا على جمالها فأعجبها فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فترى ذلك السيد الحضري في غدوها أو رواحها يحييها أو يبتسم لها ، أو يسائلها عن طريق ، أو يسـتسـقيها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقي في أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صخرة منفردة فكانت هذه اللحظة آخر عهدها بحياتها القديمة ، وأول عهدها بحياتها الجديدة .

***

هبط المركيز جوسـتاف روسـتان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فيقضي في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته «نيس» ، حتى رأى بهذه المرة هذه الفتاة في بعض غدواته إلى ضـفاف البحيرة فاسـتلهاه حسـنها ، وما زال بها يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سـحره ، وعلى جيدها ومعصـميها من لآلئه وجواهره ، ويصـور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صـورها وأبهاها ، ويمنيها الأماني الكبار في حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

استيقظ الفتى جابرت في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقالها ، ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها في سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسـأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضـاء بعض الشـؤون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتًا طويلاً فلم تعد ، فرابه الأمر وأعاد البقرة إلى معتلفها وخرج يفتش عنها في كل مكان ويسائل عنها الناس جميعًا غاديهم ورائحهم فلم يجد من يدله عليها

حتى أظله الليل فعاد حزينًا مكتئبًا لا يرى أن أحدًا على وجه الأرض أعظم لوعة منه ، ولا أشـــقى ، فرأى أمه قابعة في كسرـ البيت مطرقة برأسـها تفلي التراب بعود في يدها فدنا منها فرفعت رأسـها إليه وقالت له : أين كنت يا جلبرت؟ قال : فتشـت عن سـوزان في كل مكان فلم أجدها ، فألقت عليه نظرة مملوءة حزنًا ودموعًا وقالت : خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم . فانتفض انتفاضـة شـديدة وقال : لماذا؟ قالت : قد دخلت علي الســاعة جارتنا فلانة فحدثتني أنها ما زالت تراها منذ ليالي تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضري غريب عن هذه المدرة أحسبه المركيز «جو ستاف رو ستان» صاحب هذه المزارع التي تلينا والقصر الأحمر الذي يليها وقالت لي : إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشـهب يعدو بها في طريق القصرـ الأحمر ، ولابد أنها فرت معه ، فصرـخ جلبرت صرخة جادت لها نفســه أو كادت ، وخر في مكانه صـعقًا ، فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله تبكي عليه مرة وتمسح جبينه بالماء أخرى حتى استفاق في مطلع الفجر فنظر حوله نظرة حائرة فرأى أمه مكبة على وجهها تبكي وتنتحب ، فذكر كل ذلك فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأســه ووضـع يده على عاتقها وسـألها : ما بكاؤك يا أماه؟ قالت : أبكي عليك يا بني وعليها ، قال : إن كنت باكية فابك على غيري ، أما أنا فلسـت بحزين ، ولا باك ، فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد اسـتحال قلبي الآن إلى صـــخرة عاتية لا ينال منها شيء فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ، ثم مســح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

***

لقد كذبت المسكين نفسه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ، ولكنها الغضبة التي يغضبها المحب المهجور تخيل إليه أنه قد نفض يده عن المحب أشد ما يكون بهه عالقًا ، فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاها حتى رأى كوكب الشمس يتناهض منم مطلعه قليلاً قليلاً ويرسل أشـــعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات فتنير ظلامها ، وتجلو صـــفحتها وتترقرق ما بين خضرـــائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتلألئة بين يدي هذا الكوكب المنير ودار بنظره في الفضـــاء من مشرـقه إلى مغربه فلمح في الأفق الغربي بارقًا يخطف البصرـ بلألائه ، فخيل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمسًا كتلك التي أطلعها المشرق حتى تبينه فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابثه أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماعًا شديدًا ، فاسترد بصره إليه سريعًا ووضع يده على يسرى أضالعه كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ، لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبته فيما حدثته ، وأن تلك البارقة التي كانت تضيء ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضمًا ، وتمشي في نفسه مشي الموت في الحياة ، فأطلق لعبرته سبيلها وأنشأ يئن أنينًا محزنًا تردده الرياح في جوها ، والأمواج في بحرها ، والأعشاب في مغارسها ، والسائمة في مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة فكفكف عبارته ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مذاهبه حتى نال منه ما لم ينل كر الغداة ومر العشي فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلاً بائسًا منكوبًا مشرد العقل ، مشترك اللب ، مذهوبًا به كل مذهب يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحرجات ، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحوش أنس العشير بعشيره ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الظباء واليعافير ، ثم يصدر إذا صدرت معها ، وربما ترامى به السير أحيانًا إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعر ذعرًا شديدًا وصاح صيحة عظيمة ، وانكفأ راجعًا إلى قريته لا يلوي على شيء ، وكثيرًا ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تفتش عنه في كل مكان حتى تراه ملقى بين الأحجار على ضفة نهر أو في سفح جبل فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشعة تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أدراجها .

***

مضى الليل إلا أقله وسوزان جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلتفت إلى سرير ابنتها مرة وتقلب وجهها في السماء أخرى ، وكان القمر في ليلة تمه ، فظلت تناجيه وتقول :

أيها القمر الساري في كبد السماء ها أنذا أراك في ليلة تمك وحدي للمرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إلي خطيبي «جوستاف» فينظر إليك معي كما كان يفعل من قبل؟

لقد كنت لي أيها الكوكب المنير نعم المعين في لياليّ الموحشة على همومي وأحزاني ، فهل تستطيع أن تحدثني عن «جوستاف» أين مكانه ومتى يعود؟ وهل نلتقي قريبًا فتتم بذلك يدك عندي ؟

حدثني عنه .. هل يذكرني كما أذكره ، وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده؟ وهل يجلس إليك حينًا فيسائلك عني كما أسألك عنه؟ فإن فعل ، فقل له : إن ابنته جميلة جدًا جمال الابتسامة الحائرة في فم الحسناء ، وبيضاء بياض القطرة الصافية في الزنبقة الناصعة تحت الأشعة الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتف باسم غير اسمه ، ولا تبتسم لرسم غير رسمه ن وإنه إن رآها أغنته رؤيتها عن المرآة المجلوة ، لأنه يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدميتان المصبوبتان في قالب واحد .

ولم تزل تناجي القمر بمثل هذا النجاء حتى رأته ينحدر إلى مغربه فودعته وداعًا جميلاً ، وقالت : إلى الغد يا صديقي العزيز .. ثم قامت إلى سرير ابنتها فحنت عليها برفق وقبلتها في جبينها قبلة المساء ، وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عبثت بجفنها السنة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانيها وآمالها ، فرأت كأن «جوستاف» قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابنتها على باب القصر ، فنزل من مركبته وضمهما معًا إلى صدره ضمًا شديدًا ، وظل يقبلهما ويبكي فرحًا وسرورًا .

فإنها لمستغرقة في حلمها هذا إذ شعرت بيد تحركها فانتبهت فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة متطلقة تقول لها : بشراك يا سيدتي فقد حضر سيدي ، فاستطيرت فرحًا وسرورًا وقالت : أحمدك اللهم فقد صدقت أحلامي ، وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ، ثم دخلت عليه في غرفته باسمة متهللة تحمل ابنتها على يدها ، فرأته واقفًا في وسط الغرفة متكئًا على كرسي بين يديه ، فهرعت إليه ، ولكنها ما دنت منه حتى تراجعت حائرة مدهوشة لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، لا بل هو بعينه ، ولكنها رأت وجهًا صامتًا متحجرًا لا تلمع فيه بارقة ابتسام ولا تجري فيه نظرة بشاشة فأنكرته ؛ إلا أنها تماسكت قليلاً ومدت إليه يدها تحييه فمد إليها يده بتثاقل وفتور كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ولم يلق على وجه الطفلة وكانت تبتسم إليه وتمد نحوه ذراعيها نظرة واحدة ، وكانت أول كلمة قالها لها : أباقية أنت في القصر حتى اليوم؟ فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد وقالت له : وأين كنت تريد أن تراني يا سيدي؟ قال : في هذا القصر ، كما تركتك ولكن أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم . قالت : لماذا؟ قال : لأن زوجتي قادمة إليه اليوم وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعجه وجودها .

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في عروقها من الدم تراجع كله دفعة واحدة إلى قلبها ، فأصبح وحده الواجب الخفاق من دون أعضائها وأوصالها جميعًا ، ولكن المصيبة إذا عظمت خلت عن البكاء والأنين ، فلم تصح ولم تضطرب ، بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى ابنتها وقالت له :

وما ترى في ابنتك هذه؟ قال ليس لي ابنة أيتها الســيدة ولا ولد لي ، لأني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام فخذي ابنتك معك وعيشيـ معها حيث تشـاءين ، وقد تركت لك هذا الكيس على المنضــدة فخذيه واستعيني به على عيشك ، وتركها ومضى .

لم تلق على المنضـدة نظرة واحدة ومشـت تتحامل على نفســها حتى وصـلت إلى غرفتها ، وهنالك انفجرت باكية ، وقالت : واسـوأتاه! إنه يعطيني ثمن عرضي ، وسـقطت مغشـيًا عليها ، فلم تسـتفق حتى أظلها الليل ففتحت عينيها فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي الخادمة وإذا الخادمة تبكي لبكائها ن فضـمتها إلى صـدرها سـاعة ، ثم قامت إلى غرفة ملابســها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام ، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً فخلعت أثوابها ولبستها ولم تبق في معصـميها ولا في جيدها لؤلؤة ولا ماسـة إلا ألقت بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح في مشيتها كأنما تمشي على رملة ميثاء .

وما جاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في حملها هي وابنتها منذ ساعات تنظر خطيبها حتى لمحت على البعد مركبة فخمة مقبلة على القصرـ تحمل المركيز وامرأة بجانبه! فأغمضت عينيها وتسللت تحت جدار القصر ، ومضت في سبيلها .

***

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسـكينة بين جنبيها في تلك السـاعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصرـ التي كانت تظن منذ سـاعات أنها صـاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصـبح مسـتحيلاً عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا إليها كثيراً وأحباها حبًا جمًا فأساءت إليها وغدرت بهما فقد سدت دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها في الأرض ، ولا في السماء .

ذلك ما كانت تحدث نفسها به ، وهي سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهبًا ولا مضطربًا ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر فأضجعتها فوق عشبها وأسبلت عليها رداءها وجلست بجانبها تفكر في مصيرها .

فإنها جالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواء الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرقة على صفحات الماء إذ شعرت كأنها تسمح بالقرب منها هاتفًا يهتف باسمها بصوت ضعيف فالتفتت حيث سمعت الصوت فإذا شبح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتاعت وفزعت ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويدًا رويدًا حتى دانته ، فإذا هو إنسان في زي المساكين مستلق على ظهره شاخص ببصره إلى جدار القصر فذهبت بنظرها حيث يذهب فإذا عينه عالقة بنافذة غرفتها التي كانت تجلس إليها كل ليلة ، فعجبت لذلك كل العجب وخفق قلبها خفقًا متداركًا ورأته يضم إلى صدره هنة بيضاء أشبه بالرقعة ضمًا شديدًا فأكبت عليه لتتبينه وترى ما يضم إلى صدره فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو «جلبرت» يجود بنفسه ، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذبين في أعماق القبور : الوداع يا سوزان!! الوداع يا سوزان! ففهمت كل شيء ، فصرخت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت : آه .. لقد قتلتك يا ابن عمي ، ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها وتقول : ها أنذا يا «جلبرت» جاثية تحت قدميك ، فارحمني واغفر لي ذنبي فقد أصبحت امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني ، وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلاً ، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمعة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة وقضى .

ولما دنا مني السياق تعرضت ... إلي ودوني من تعرضها شغل
أتت وحياض الموت بيني وبينها ... وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

***

جثت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيرها الذي أحبها حبًا لم يحبه أحد من قبله أحدًا حتى مات حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها ، وأنها تركتها على تلك الربوة نائمة وحدها فعادت إليه مسرعة ، وقد قررت في نفسها أمرًا .

***

لا أعرف أحدًا من الناس أوصـــيه بك يا بنيتي ، لأن أباك أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذي كان يحبني في هذا العالم ذهب لسبيله ولكني أعلم أن لهذا الكون إلهًا رحيمًا يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة الحزن في أفئدة المحزونين ولاعج الشـقاء بين جوانح الأشـقياء فأنا أكل أمرك ليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء . لا أستطيع أن أعيش لك يا بنيتي ، فإذا أحدًا من الناس لا يغتفر لي الذنب الذي أذنبته حتى الذي أغراني به وشاركني فيه ، فأنا ذاهبة إلى ذلك العالم العلوي المملوء عدلاً ورحمة لعلي أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنت بريئة ، ويرحمني إن كنت مذنبة .

لا أحب أن تكون حياتي يا بنية شؤمًا على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس بذنبي كلما رأوك بجانبي فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعل راحمًا من الناس يمر بك فيعطف معليك ويضـــمك إليه من حيث لا يعلم شــيئًا من أمرك فتعيشــين في بيته ســعيدة هانئة لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمك فتؤلمك ذكراها .

اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضــعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها ويكفل أمرها ، وأنني قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرعاها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يد لها في الذي أذنبه أبواها فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك وإحسانك وهيئ لها صدرًا حنونًا ، ومهدًا لينًا ، وعيشًا رغيدًا .

ثم بدأت تسر ـ ثيابها عن جســمها وتغطي بها جســم ابنتها وقاية لها من برد الليل حتى لم يبق على دجســدها إلا قميص واحد تركته ليكون ســترًا لعورتها عند انتشــال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق فلثمتها في جبينها لثمة أودعتها كل ما في صـــدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة : الوداع يا ماري ، سنلتقي عما قليل يا جلبرت . المغفرة يا كاترين . وألقت بنفسها في الماء .

***

قضى ـ المركيز الليلة الأولى من ليالي شــهر العســل مع عروســه في شرفة القصر ـ يســمران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ويرشــفان من كل كأس من تلك الكؤوس رشــفة تكثرًا بما عندهما منها حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما فلم يسفيقا حتى سمعا دوي الريح في أبراج القصر ، وفي ذوائب الشجار ؛ فعلما أنها الزوبعة فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإنهما لواقفان موقفهما هذا إذ لمحت المركيزة في وجه المركيز دهشة واضطرابًا ورأته يلتفت التفاتًا شديدًا كأنما يتسمع لصوت غريب فسألته ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر فرأى كما رأت هي على نور القمر طفلة واقفة على الضفة تصيح وتعول ، وتشير بيدها نحو الماء وتقول : أماه! أماه! حيث تشير فإذا امرأة عارية إلا قليلاً تتخبط في لجج الماء تخبط الغرقى ؛ فترك المركيز مكانه ونزل يعدو إلى النهر ، وهو يقول : والهفتاه إن كانت هي . وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا . حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر وأمر الباقين أن يسبحوا وراء الغريقة ، ثم سقط في مكانه واهنًا متهالكًا ، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً و سناءً ، فسبح بعضهم وراء السابحين ووقف الباقون حول المركيز ينتظرون رحمة الله وإحسانه .

انتشر السابحون في كل مكان ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم ، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها عظم عندهم الأمل فندفعوا وراءها مستبسلين مستقتلين يغالبون جبال الأمواج المعترضة في طريقهم ، حتى إذا دنو من المكان الذي لمحوها فيه لا يجدون أمامهم شيئًا ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئًا فشيئًا حتى غابت عن الأعين ولم تظهر ، فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة يرسبون ويطفون ثم ظهروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحيّة أم ميتة؟ وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن في الضفتين فتردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضفة فألقوها على الأرض فإذا هي ميتة .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مأتمًا قائمًا يبكي فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

***

لم ينتفع المركيز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضًا شديدًا فلم تلبث أن لحقت بأمها بعد ثلاث ليال ، واستحال الحب الذي كانت تضمره له زوجته إلى بغض واحتقار ؛ فهجرته وسافرت إلى «نيس» ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه من شرفة القصر ــ ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره ، فكان كلما مشي ــ في طريق توهم أن أمامه نهرًا هائجًا تتخبط سوزان في لجته وتصيح ماري على ضفته ، فيصرخ قائلاً : لبيك يا سوزان ، ويندفع إلى الأمام كأنما يريد أن يلقي بنفسه في النهر الذي توهمه لينجي الغريقة التي تخيلها فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب ، فيسقط حسيرًا طريحًا . وكان يهيم على وجهه أحيانًا حتى يصل إلى ضاحية قرية «ليني» فيرى امرأة عجوز مكبّة على قبر بين يديها تبكي وتنتحب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن القبر قبر قتلاه ، فيتراجع خائفًا مذعورًا ، ويصرخ قائلاً : الرحمة الرحمة! العفو العفو! وكثيرًا ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطًا في بعض الأماكن التي كن يرين فيها جلبرت فيقلن : لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة ، وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه ، لولا أن يتداركه من يراه من المارة .

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان ؛ فعلموا أنها نهاية الجزاء .

***

مرّت على هذه الحادثة أعوام طوال ولا يزال عجائز قرية «ليني» والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم ويبكين كلما ذكرنها ، ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بهن طائف من شرور الرجال .

■ ■ ■

## العقاب

### « موضوعة »

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات فرأيت أجناسًا من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيل إلي أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه ، فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا ، فسألت بعض الواقفين : ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالسًا على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلألؤ الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه رجل يلبس مسوحًا وعلى يساره آخر يلبس طيلسانًا ، فسألت عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيته ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤت بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيرًا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخًا هرمًا تكاد تسلمه قوائمه ضعفًا ووهنًا ، فسأل الأمير : ما جريمته؟ فقال الكاهن : إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غرارة من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين . فضج الناس ضجيجًا عاليًا وصاحوا : ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله؟ ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدين ، فتسار الأمير مع الكاهن هنيهة ثم صاح : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعامًا للطير الغادي والوحش الساغب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه . فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه . ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفًا وفرقًا حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : ما جريمته؟ فقال : إنه قاتل ، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقح في إبائه ، فانتهره القائد فاحتدم

غيظًا وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته . فصاح الناس : يا للفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه ؛ ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ، فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه وقال : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ؛ وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنًا وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها ، فقال الأمير : ما جريمتها؟ فقال القاضي : إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : القتل القتل . الرجم الرجم!! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . فقال الأمير : أين شاهدها؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها. فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلّل الناس وكبروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه ، وإكبارًا لسطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزينًا مكتئبًا أفكر هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم! وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلمًا ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضاة مثل قضاتهم؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعًا عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم .

ألم يسقط إلى يد الكاهن يومًا من الأيام دينار من غير حله ، فتخف لوعة أسفه على الغرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك؟

ألم تزلّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته فتهدأ ثورة غضـــبه على الســـاقطين والساقطات ؟

من هم هؤلاء الجالســـون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشـــاؤون؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون؟

إنهم ليســـوا بأنبياء معصـــومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهدًا من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصـبتهم بينهم ، فبأي حق يجلســون هذه الجلســة على هذه الصورة؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعًا؟

من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالة المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلمًا يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟

من هو الكاهن؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة؟

من هو القاضي؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق؟

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخيارًا صالحين وأبرارًا طاهرين؟

عجيب جدًا أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأمير القاتل ســميّ عادلاً ، وأن يسرـق الســارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيســمى لصًــا . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به ســمي حازمًا . وأن تســقط المرأة ســقطة ربما ســاقتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشــيطان فيســتنكر الناس أمرها ، ويســتبشــعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها .

كما أن النار لا تطفئ النار ، و شارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحى الشقاء في هذا الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدّث نفسيـ بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بســاحة مظلمة موحشــة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية رائحة ، فاخترقها حتى بلغت أبعد بقاعها ؛ فرأيت منظرًا هائلاً لا يزال أثره عالقًا بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشـــيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأســـه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات . ورأيت الفتى مشـدودًا إلى شـجرة فرعاء كأنه بعض أغصـانها ، وقد سـال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصـبح شـبحًا ماثلاً ، أو خيالاً سـاريًا . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يســتبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضــبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المســـاكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلاً حتى غاب عن نظري كل شيء فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويدًا رويدًا ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ســـاق الشـــجرة فاختبأت وراءه ؛ فما زال يتقدم حتى صـار بجانبي فأشـعل مصـباحًا صـغيرًا كان في يده فتبينته على نوره فإذا عجوز شـمطاء في زي المسـاكين وسحنتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشــت إلى رأســه وأطرافه فجمعتها وضــمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت سـاق الشـجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : «في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشـهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسـدك ، وجسـد ضـمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجًا وأبًا وأطهرهم لسانًا ويدًا وأشرفهم قلبًا ونفسًا ؛ فاذهب إلى ربك لتلقى جزاءك عنده واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني بك وشيكًا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك ، فأبكاني بكاؤها وأحزنني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت لمرآي عند النظرة الأولى ، ثم كسـتت كأنما ذكرت ن لا قيمة لمصـائب الحياة بعد مصـابها الذي نزل بها ، فابتدرتها بقولي : لا تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئًا ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر تفجعك على ساكنه فرثيت لك لبكائك وتمنيت لو أفضـيت إلي بذات نفســك علّني أســتطيع أن أكون لك عونًا على همك ، فاســتعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول :

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصًا ولا سارقًا ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجدًا لا يفتر ساعة وحيده عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان وحيده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعد ما كان يستقبل بحمله من الهم ، وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل فأصبح عاجزًا عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة ، وأصبحنا جميعًا في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ، ولا ما نعللهم به تعليلاً ، فأسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعًا إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده فلم أر بدًا من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندي ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلي بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك ، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل ركوتهم فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهلم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهدًا يتضاغون جوعًا ، ورأيت الشيخ جالسًا بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل؟ فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفيء ملوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جمله حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسئول سائلاً ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخاءك من المحسنين إليه فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كئيبًا محزونًا لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل أو أفحوص القطاة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها

وا ستمر سائرًا في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش ، ثم مشى إليها فاحتملها حتى ظهره ومشى بها جاهدًا مترجحًا ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء تحت جدران البيت يتضورون جوعًا فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلو ، وأن ما كان باقيًا في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئًا مما حوله ، وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فانحدرت على رساله فسقط في مكانه مغشيًا عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتى مر به العسس فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة! الغرارة! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفاه عليه لقد مات شهيدًا مظلومًا ، ووارحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده!

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف ردائها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : «الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء! الوداع حتى يجمع الله بيني وبيك في دار جزائه» ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام حتى رأيت شبحًا آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاسًا فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت حتى احتملته على يدها واضجعته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة : واشقيقاه! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيرًا متداركًا كأنما

تنفث أفلاذ كبدها نفًا ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها ، فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ؛ فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت : على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ قلت : أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت : نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرمًا ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة إليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . قلت : هل لك أن تقصي عليّ قصته يا سيدتي؟ قالت : نعم .

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إلي نظرة مريبة طار لها قلبي رعبًا وفرقًا ثم سألني عن أخي فأرشدته إلى مكان فسأله عن المال فاستنسأه إياه أيامًا قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء . وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا ، فإن كان لابد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك ، فقال له لابد لي من المال أو الرهينة ولابد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها ، فغضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له «فلتكن حياتي فداء لشرفي» ثم جرد سيفه وشربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غله الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته ، فلئن بكيته أنا أبكي فتى الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة ، وإباء وأفضل الإخوة رحمة وحنانًا .

ثم قالت : هل لك أن تعينني يا سـيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصـبحت واهية متضـعضـعة لا أقوى على شيء ، فقمت إلى الشـجرة فاحتفرت حولها سـاقها حفرة بجانب حفرة الشـيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه سـاعة مطرقة سـاكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها؟ فرأيت تربة القبر مخضـلة بدموعها ثم مدت يدها إلي وقالت : شكرًا لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معينًا ، ومضت لسبيلها .

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها فهاجني منظرها وقلت في نفسيـ : إنني لا أدخر لنفسيـ عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسـانه يوم جزائه ، أفضـل من مواراة هذه المسـكينة التراب ، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها ، فإني لأجثوا عليها التراب إذ شـعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سـوداء لا يسـتبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : من صـاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سـيدي؟ قلت : فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه ، فقال : إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شـأنًا ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها؟ قلت : نعم شـأنك وما تريد ؛ وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها ، حتى ا شتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى وارها ، ثم التفت إلي وقال : لقد شـكر الله لك يا سـيدي هذه اليد التي أسـديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أ ضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها ، وأراد الرجوع فا ستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إلي نظرة هادئة مطمئنة وقال : نعم يا سيدي؟ ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفًا على حافة قبرها أندبها .

أنا الرجل الذي اتهموها به ، وأسـتطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعًا إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ، وأنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتني كذلك ثم شببنا و شب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني راضيًا مسرورًا حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لابد لنا من الانتظار بأنفسـنا عامًا كاملاً ، ففعلنا ، حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعتها نفسـه فأرسـل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحرًا من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحًا وسرورًا ، ولم يتردد في إجابة طلبه ، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أسـتطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبل بقولها وقال لها : سـتتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسـك إنما الخيار لي في أمرك وحدي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسـموا يومًا لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحليه ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضـهم جالسـة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه تعدوا عدوًا سريعًا ، وكنت عائدًا في تلك السـاعة إلى منزلي ، فرأتني فألقت نفسـها علي وقالت : إنهم يتبعوني ، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني ، فارحمني يرحمك الله ؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلبًا شديدًا ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات بابًا بابًا حتى ظفر بها فصـاح : ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صـاحبها ، فأقسـمت له بكل محرجة من الإيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصـغ إليّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشيًا علي ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي فأعود إلى ذهولي واسـتغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال واسـتطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائســات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضـــاء ظلمة وســكون ، وإذا الســاحة وحشــة وانقباض ، فصـعدت على ربوة عالية مشرـفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائي وألقيت رأسي على بعض الصخور وأنشأت أحدّث نفيس وأقول :

ليت شــعري! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء؟

أجرم الزعيم الديني لأنه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ، فاضـطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرـقة ، فعوقب الســارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

وأجرم الأمير لأنه أر سل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها فا ضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجرام .

وإجرام القاضي لأنه أراد أن يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المجرم بريئًا ، والبريء مجرمًا ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته

فهل تســـقط الســـماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها .

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في الســـماء يتلألأ فوق صـــفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويدًا رويدًا ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميلاً أو بعض ميل ؛ إذا به ينتفض انتفاضًــا شـديدًا ، وإذا هو على صـورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرـر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطًا حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور

الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول : «ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شرورًا وفسادًا حتى لم تبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحدارًا ، فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

ها هم الفقراء يموتون جوعًا ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمدًا ، فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفًا غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى يناولوا منها ما يريدون .

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترسل أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاءون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد . ثم يضنّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

ها هم الناس جميعًا قد أصبحوا أعوانًا للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعًا نقمة الله ملوكًا ومملوكين رؤساء ومرؤسين .

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وما انتهى من دعوته تلك حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئًا فشيئًا حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظيمة

فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

## الضحية

« مترجمة »

نشأت «مرغريت جوتييه» فقيرة لا تملك مالاً تشتري به زوجًا ، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسه بلا مال أو يحسن إليها بما يسد خلتها ، ويستر عورتها ، وكان لابد لها أن تعيش فلم تجد بين يديها سوى عرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان ، فباعته إياه كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شــؤمًا عليها ، فلو أنها كانت شــوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكن الجمال ســلعة من الســلع النافقة . لا يســتطيع صــاحبه أن ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيراً معوزًا ، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نقمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعًا ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها الذي هو مطمع أنظارهم وقبلة آمالهم : آلة انتقام تنتقم بها منهم لعرضها وشرفها .

ولقد برت بيمينها برّ الوفي بعهده ، فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم في أموالهم ، وفي أنفسهم ، ولم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور ، وهي تقول :

ويح لكم يا معشر الرجال ، ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفًا واحدًا لغدائي وآخر لعشائي فأبيتموهما علي طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تملك أيديكم من مال ونشب ، بذلتموه لي طائعين مختارين ، فما اصغر نفوسكم وأخس أقداركم!

ولقد كان في اســتطاعة أصــغركم شــأنًا ، وأهونكم على نفســه وعلى الناس جميعًا ، أن يشــتري مني جسمي وقلبي وحياتي بلا ثمن سوى سد خلتي وصيانة عرضي فلم تفعلوا ، فها هم أُولاء اليوم عظماؤكم وأشرافكم يجثون تحت قدمي جثي الكلب الذليل تحت مائدة ســيدة ، فلا يناولون مني أكثر مما ينال منها .

أحببتم المال حبًا جمًا فأبيتم إلا أن تتزوجوا ذات مال ، لتضــموا طارفها إلى تليدكم فابذلوا اليوم لامرأة مومس لا تمنحكم مالاً ولا حبًا جميع ما في أيديكم من فضــة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد .

***

ظهرت مرغريت في سماء باريس كوكبًا متلألئًا يبعث الأنوار ويبهر الأنظار ، ويملأ أجواء الفضاء بهجة وضياء ، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر ، وسال النضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أ شعة الأ صيل ، وعنت لها الوجوه الكريمة ، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة وأ صبحت أعناق الرجال في يدها كأنما قد سـلكتهم جميعًا في سـلك واحد ، ثم أمسـكت بطرف السـلك تحركه فيتحركون ، وتمسك عنه فيمسكون ، وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه ، لا يشبعه فيستغني عنه ، ولا يجيعه فييأس منه ، فكانت تملأ نفس عاشـقها أملاً ورجاء حتى إذا ظن أن قد دنا به حظه ، وأن ليس بينه وبين أمله إلا أن يمد إليه يده فيناله ، ذادته عنه ذود الظامئ الهيمان عن ورده أدنى ما يكون إلى فمه ، فإذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه ، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له ؛ بعثت وراءه شعاعًا من أشعة ابتساماتها العذبة الخلابة فاستردته إليها صاغرًا مستسلمًا .

وكذلك أصـبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تعوزها بالأمس اللقمة ، وتعييها الخرقة ؛ سيدة باريس وصاحبة عرشها ، ومالكة أزمة رجالها ، وفاجعة قلوب نسائها ، والنجم الخالق الذي تبتهل إليه العيون ، والسر الغامض الذي تحار فيه الظنون .

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ؛ أما ما تعلمه من أمر نفسـها فهي ترى أن جميع ما يبذله لها الناس من فضـة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصـور ودور ، وجياد ومركبات ، لا يسـاوي دمعة واحدة من تلك الدموع التي سكبتها على نفسها يوم باعت عرضها ، وأن جميع هذه اللآلئ والجواهر والأردية والتيجان التي يهبونها إنما يهبونها أنفسهم ليتمتعوا بمنظرها فوق جسمها كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القلادة في عنق كلبه ، وما له من ذلك شيء ، فكأنما باعت عرضها بلا ثمن ولا جزاء .

وكانت تخلو بنفسها حينًا فتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وأنها إن حرمت هذا الجمال ساعة واحدة انفض الناس جميعًأ من حولها ، وأصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا يعطف عليها قلب ولا تبكي عليها عين ، فتبكي بكاء الأشـقياء على أنفسـهم ، بل ترى أنها شقية مثلهم ، لأنها تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها إلا حبًا كاذبًا .

وربما مرت في بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس قصرـها وهو جالس بين زوجه وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ؛ فتتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجًا وأولادًا كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئًا .

وما رآها الناس في يوم من أيامها اسـتقبلت في قصرهـا رجلاً متزوجًا أو خاطبًا ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشـقها خالصًـا لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها وألموا بسريرة نفسـها ، لعلموا أنها امرأة حزينة منكوبة ، قد فجعها الدهر في سعادة الزوجية فعرفت قيمتها فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .

لقد تحدث بعض الذين ألموا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو ثلاثًا بعض الفتيات الفقيرات مهورًا يستعنّ بها على الزواج ممن يردن ؛ فلم يصدق هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهبًا ، وإن ينبوع الخير لا يمكن ينفجر في قلوب النسـاء الفاجرات؟ ولكن الحقيقة أنها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب «مرغريت» وهذه هي سريرة نفسها : فهي فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ؛ وسـاقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات سـاقطات مثلها ، ولو كان في اسـتطاعة المرأة السـاقطة أن تسـترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها في قلوب الناس وأن تمحو بصـلاحها ما سـلف من فسـادها لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذي أسقطها وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذي كانت ترتديه ، يأبى عليها أن يعيد إليها رداءها إن طلبته ؛ فلابد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة ، وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على «مرغريت» في حياتها هذه أكثر من بضـعة أعوام حتى نزل بها مرض حجبها في بيتها عدة أيام ثم اشـتد عليها ، فأشـار عليها الأطباء أن تذهب إلى حمامات «البانيير» للاسـتشـفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان في ذلك المصطاف في هذا العام شيخ من الأثرياء اسمه «الدوق موهان» حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر ليستشفى لها من دائها فلم يُجْدها العلاج وماتت بين يديه فدفنها هناك ولبث بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويبكيها بكاء شـديدًا ؛ فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه «مرغريت» سـائرة وحدها وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى البانيير ، فدهش لمنظرها دهشة عظمى وخيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها ، أو أرسل إليه خيالها ليعزيه عنها لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها فتقدم نحوها ذاهلاً مشدوهًا وأمسك بطرف ردائها وظل يحدق في وجهها تحديقًا طويلاً ، فعجبت لشأنه وسألته : ما باله؟ فقال لها : هلى تأذنين لي يا سـيدتي أن أقبل يدك؟ فمدت إليه يدها وهي لا تعلم ماذا يريد ولا ما الذي أصابه فلثمها ثم اعتذر إليها عن جرأته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة

مصابه في ابنته وما راعه من الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه واستهلت دمعة رآها الشيخ من خلال أهداب عينيها المبتلة بالدموع فسقط على يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدمعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه ، ولم يزل سائرًا معها حتى وصلا إلى النزل فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من حين إلى حين فأذنته وصعدت إلى غرفتها ، فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي اختطفها الموت من يد أبيها في زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائد رد دعاية القضاء عنها ، ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به وأنها ربما ماتت موتتها فلا تجد بجانبها أبًا كهذا الأب يندبها ويبكي عليها . فثر في نفسها هذا الخاطر تأثيراً شديدًا ، وبكت له بكاءً طويلاً ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تفارقها .

وظل «الدوق» يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد من الأنس بها ، والاغتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شبّها الوجد في صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لذ لها أن يرى ذلك الشيخ الثاكل المنكوب في وجهها سلوته وعزاءه ، فمنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحدًا من قبله ، وأنست به أنسًا لم تأنسه بإنسان سواه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى أبلت من مرضها بعض الإبلال وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع ابتسامه وافتراره ، فلذ لها المقام في البانيير أيامًا طوالاً حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء فأزمعت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها في ذلك المزدحم العظيم الحافل بخلانها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في البانيير ؛ فخلى بها ليلة السفر سعة وحادثها حديثًا طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى حياة المخالّة والمعاشرة وتعيش في منزل يهيؤه لها ويقوم بنفاقتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني إلى باريس .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هيأه لها الدوق عيشًا بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً . ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ومشت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منتزه «الشانزلزيه» فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على

قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها ؛ فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ، فتقضي فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهافتين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقعها حتى تنتهي .

فلم تمض عليها أيام كثيرة ، حتى علم الناس جميعًا أن «مرغريت» قد استحالت حالها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها فقصرت عنها أطماعهم وانقطعت منها آمالهم وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها ، فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها وهي أن تلك الحادثة المحزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيهتها في صورتها ومرضها قد أثرت في نفسها تأثيرًا شديدًا صورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس لأنها تعيش من مال الدوق في نعمة لا يطمع طامع في أكثر منها ، وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتي ينعمن بنعمة الشرف في ظلال آبائهن ؛ فأعجبها هذا الخيال ولذ لها ؛ وكثيرًا ما بكت ذلك الشرف قبل اليوم وحنت إليه .

***

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء بردًا وقرًا ؛ فثار ما كان كامنًا من داء «مرغريت» ؛ وعاد إليها نفثها وسعالها ؛ فظلت تكابد من مرضها آلامًا جسامًا ؛ لا تفارقها يومًا حتى تعاودها أيامًا ؛ فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن روحت عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقي ؛ وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج ما هي فيه فتخلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين ؛ ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت إلى الملعب فتى في زي أبناء الأشراف و شمائلهم لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه ويغضي عنها إن نظرت إليه ؛ ولا يلتقي نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه حمرة ويرفض جبينه عرقًا ؛ كأنما جنى جناية لا مقيل له منها ؛ فلم تحفل به كثيرًا لأنها لم تر في أمره شيئًا جديدًا ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ، وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه ، وكان أكثر ما يدهشها منه أو

يعجبها أنه الفتى الوحيد الذي كان يبكي في ذلك المجتمع لمنظر المشـــاهد المحزنة التي تمثل على مسرح التمثيل ، لأنها تعلم أن الفتيان الفرحين المغتبطين بشبابهم و صحتهم لا يجفلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفلوا بتمثيلها .

فإنها لخالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو باردًا مقشعرًا إذ فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيرًا حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفًا ووهنًا فشعرت بيد تمسك يدها فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفاف إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها . فشعرت بالراحة قليلاً فالتفتت لتشكر صاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحدًا ورأت على بعد خطوات منها إنسانًا منصرفًا فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته تخيلاً ؛ فعجبت لأمره ومضت في طريقها ؛ فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمى تتمشى في أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبلت قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التي تركها الفتيان الذين زاروها في أثناء مرضها تجملاً وتلومًا ، فلم تقرأ واحدة منها ، ثم حدثتها الخادم أن فتى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان ينقبض انقباضًا شديدًا كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفتها إياه فوصفته لها فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب وتمنت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر الذي لا عهد لها به في أحد من الناس ، وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة في شرفة المنزل المطلة على الطريق فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطرابًا شديدًا حتى كاد يرفضها ، ثم شعر بمكان مرغريت من الشرفة فتلوم ومشى وراء الخادمة حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فتركته وانصرفت ، فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرقًا ولسانه لا يكاد يبين ، فمدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبلة طويلة عرفت مرغريت سر ما أودعها من عواطف قلبه ، وهي العالمة بأسرار القبلات ، ثم آذنته بالجلوس ، فجلس ، فأنشأت تسائله عن نفسه وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتبتسم له فيما بين ذلك ابتسامات تلاطفه بها وتمسح عن فؤاده ما ألم به من الروع ، فحدثها أنه غريب عن باريس ، وأنه وفد إليها منذ عشرين يومًا من بلدته «نيس» ليقضي فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلبًا لتغيير الهواء وترويح النفس ، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه ، فسألته : هل وجد المقام حميدًا هنا؟ فصمت هنيهة ثم نظر إليها نظرة منكسرة وقال : لا يا سيدتي ، قالت : لماذا؟ فحارت بين

شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها فعاد إلى صمته وإطراقه ، فأعادت عليه سؤالها . فقال لها : هل تأذنين لي يا سيدتي أن ترك لك كل ما في نفسي . فشعرت بما في نفسه قبل أن يقوله ، وقالت له : قل ما تشاء إلا أن تطارحني حبك وغرامك ، فإنني امرأة مريضة لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لا مؤونة فيها ، فأحرى أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام ، فاصفر وجهه اصفرارًا شديدًا ومد يده إلى دمعة تترقرق في عينيه فمسحها ثم قال لها : ذلك ما يحزنني يا سيدتي ويبكيني وينغص علي عيشي منذ هبطت باريس حتى اليوم ، فإنني رأيتك فأحببتك للنظرة الأولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء ، وعلمت أنك تعيشين منذ شهور عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لآمل ، فانقطع أملي منك ، إلا أن حبي إياك لم ينقطع ، ثم رأيتك بعد ذلك في ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسجته يد المرض على وجهك الجميل فاستحال حبي إياك رحمة و شفقة ، وأصبحت أبكي لمرضك أكثر مما أبكي لحبك ، وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئة ناعمة ، موفورًا لك حظك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحبون المغرمون ؛ فأنا أقف الساعة بين يديك لا لأطارحك الحب والغرام ؛ بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على بابك كلما جئته أسأل خادمتك عنك ، ثم أمضي لسبيلي من حيث لا ترين وجهي ، ولا تشعرين بمكاني ، فسرت في أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحمى وخيل إليها أنها تسمع نغمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعها من قبل اليوم من أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى . ثم قالت له : إني آذن لك بذلك يا سيدي ، وأشكره لك شكرًا جزيلاً ، بل آذنك أن تزورني كلما شئت على أن تفد إلي صديقًا مساعدًا ، لا محبًا مغرمًا ، فإني إلى الأصدقاء المخلصين أحوج إلى المحبين المغرمين ، ومدت إليه يدها ، فعلم أنها قد أذنته بالانصراف ، فقبلها وانصرف مسرورًا مغتبطًا ، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها ، فسقطت على وسادة بجانبها وقالت : رحمتك اللهم فإني أخشى أن أحبه .

لقد أحبته من حيث لا يدري ؛ فإن الخوف من الحب هو الحب نفسه ، بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها ، وتأنس به وبحديثه أنسًا كثيرًا . وتفضي إليه بذات نفسها إفضاء الصديق إلي صديقه ، وتقص عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئًا ولا تكتم عنه أمرًا ، ثم ترامى بها الأمر حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته بعض دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عرض له لم يتمكن من إخبارها به . فحزنت لانقطاعه حزنًا عظيمًا وذهبت بها الوساوس والظنون كل مذهب ، ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم . فقلقت لذلك قلقًا شديدًا ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ،

وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ولم يبق إلا أن تتردى فيها فســهرت ليلة طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وخوالجها ما عالجت حتى أصبح الصباح وقد أضمرت في نفسها أمرًا .

جاء «أرمان» في صباح اليوم الرابع فوجدها طريحة فراشـها وفي عينيها حمرة البكاء والسـهر؟ فارتاع لمنظرها وقال لها لعلك سـهرت بالأمس كثيراً يا سـيدتي أو بكيت ، فإني أرى في عينيك أثرًا واحدًا منهما؟ قالت : هما معًا يا أرمان قال : وهل حدث شيء جديد؟ قالت : اجلس بجانبي قليلاً أيها الصديق أحدثك حديثًا قصــيراً وربما كان آخر حديث بيني وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراني ، فذعر ذعرًا شــديدًا وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه ، فلم يستطع أن يقول شيئًا وسقط بجانبها واهيًا متضعضعًا ، وظل ينظر إلى وجهها نظر المتهم إلى وجه قاضيه ساعة نطقه بالحكم ، فأقبلت عليه تحدثه وتقول :

عرفتك يا «أرمان» فعرفت فيك الرجل الكريم الذي أحبني لنفسي أكثر مما أحبني لنفسه ، والصديق الوفي الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان فآوى إلى مريضـة حينما جفاني الناس لمرضي ، وعاش معي بلا أمل حينما انقطع الناس عني لانقطاع أملهم مني ؛ فأضمرت لك في قلبي الحب والاحترام ما لم أضـمره لأحد سـواك ، وسـعدت بك سـعادة لم أشـعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، ولكن الله الذي كتب لي الشــقاء في لوح مقاديره من ضـجعة المهد إلى رقدة اللحد ، لم يشـأ أن يمتعني طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن يسلبنيها وشيكًا ، فقد أصبحت منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التي كنت أســتمد منها ســعادتي وهنائي قد أخذت تســتحيل في أعماق قلبي إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسي، ولا أرى إلا أنها سـتكون سـبب شـقائي وبلائي ؛ فخادعت نفسي عنها حينًا ، أكذبها مرة وأصـدقها أخرى ، حتى كان ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة ، فشـعرت لغيابك بحزن أقلقني وأمضـني ، وملك على جميع عواطفي ومشـاعري ، ولو شـئت أن أقول لقلت إنه أبكاني كثيراً ، وأسـهرني طويلاً ، فعلمت واأسفاه أنني قد أصبحت عاشقة وأن هذا الذي يختلج في قلبي ويقيمني ويقعدني ، إنما هو الحب والغرام ، فقضــيت ليلة الأمس كلها أفكر في طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التي نزلت بي فلم أجد أحدًا يخلصني منها سواك ، فأنا أسألك يا «أرمان» باسم الصداقة والود الذي تعاقدنا عليه بالأمس ، بل باســم الدموع التي طالما كنت تسـكبها رحمة بي وإشـفاقًا علي ، أن تنقطع عن زيارتي منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت ، ثم لا تعد إلي بعد ذلك ، فأحمل نفسي على الصبر عنك حتى يمنّ الله علي براحة اليأس منك .

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد مصــفر كأن وجهه وجه تمثال منحوت وإذا عيناه شاخصتان إليها شخوص العين القائمة التي تنظر إلى الشيء ولا تراه وبعد لأي ما استطاع أن يحرك شفتيه ويقول لها بصــوت خافت كصــوت الضــمير : وما يخيفك من الحب يا مرغريت؟ قالت : يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي ، فقد كتب الله لنا معشر‌ــ الســـناء الســـاقطات في لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ، ونبتليهم بصـــنوف العذاب وأنواع الآلام ، حتى يغضـــب الله لهم ويغار عليهم ، فيبتلينا بحب نحمل فيه العذاب جميع ما حملناه من قبل ، ونشـقى فيه شـقاء لا ينتهي إلا بانتهاء حياتنا فنموت بين يدي أنفسـنا مهملات مغفلات لا ينعانا ناع ولا يبكي علينا باك ، فهذا الذي أخافه وأخشـــاه ، وأحب أن يســـبق إلي أجلي قبل أن أراه .

أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا « أرمان » فأنت أجل من ذلك عندي ، ولكني أعلم أنك باق في هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى‌ـ الأجل سـافرت إلى أهلك سـفرًا لا تملك بعده العودة إليّ فإن أبيت إلا البقاء بجانبي حال أهلك بينك وبين ذلك لأنهم قوم شرفاء يضنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارها وشنارها ، فلا تجد لك بدًا من الخضوع لهم والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة أطلب الســبيل إليك فلا أجدك ، والســلو عنك فلا أسـتطيعه ، وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنف ذلك الشـيخ الكريم الذي أحســن إليّ إحسـانًا كبيرًا فطردني من بين يديه عقابًا لي على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجد لي بدًا من الرجوع إلى حياتي الأولى - حياة الشر‌ــور والآثام ، والهموم والآلام - التي أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

إني أعلم يا «أرمان» أنك تحبني حبًا جمًا ، وأنك ستكابد في ابتعادك عني عذابًا كثيرًا ، ولكني أعلم أن قلبًا شريفًا يحتمل العذاب في ســبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلي فإنك أقدر مني على احتمال الآلام والأوجاع ، و سأدعو الله تعالى ليلي ونهاري أن يمنحني الصبر عنك ، ويرزقني راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحني ؛ فلعله يرحمنا جميعًا .

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سـوى أن نهض من مكانه متضـعضـعًا متهالكًا ومشى‌ـ إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقًا حتى بلغه ، فوقف على عتبته والتفت إلى مرغريت وألقى عليها تلك النظرة التي يلقيها المحتضر‌ــ على أهله في آخر لحظات حياته وقال لها : الوداع يا مرغريت! ومضى‌ــ ، فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمة مختبلة ، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به ، ثم

تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ؛ فأدركها رشـــدها وأناتها ، فعادت إلى فراشـــها تبكي وتنتحب وتعول إعوالاً شـــديدًا ، وتدور في أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة ، وهي تصـــيح : أرجعوه إلي . لا أســتطيع فراقه ، سـأموت من بعده ، وإنها لكذلك إذا سـمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة ،فخرجت تعدو إلى حيث سـمعت الصـوت حتى بلغت باب المنزل فرأت «أرمان» سـاقطًا تحت عتبته مغشيًا عليه ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله ، ثم ألقت نفسها عليه ولثمت ثغره لثمة هي أول لثمة ذاقت فيها لذة العيش في حياتها ، فشـعر بها «أرمان» فاسـتفاق وضـمها إلى صـدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من نعيم الدنيا وهنائها .

***

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء «مرغريت» وعناؤها ، فقد أبلت من مرضها وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك الســـعادة نهايتها ، فاقترحت على أرمان أن يتركا باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية فقبل مقترحها وسـافرا معًا يفتشـان عن المكان الذي يريدان حتى بلغا قرية «بوجيفال» ، وهي ضـاحية من ضـواحي باريس على بعد ساعتين منها فوجدا في بعض أرباضها منزلاً صغيرًا منفردًا واقعًا على رأس هضبة عالية في ســـفح جبل مخضرـــ تجري من تحته بحيرة صـــافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما ، فاكترياه ، ونقلت «مرغريت» إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع ، ثم عاشـــا فيه بعد ذلك عيشًا ناعمًا هنيئًا لا تضطرب في سمائه غيمة ، ولا تمر بصفحته غبرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء ووساوسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو منحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقًا صغيرًا يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوبًا ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهما من لفحات الهجير وتضـمهما إليها كما تضـم ثمارها ، أو مضـطجعين على بسـاط من العشـب الممتد في تلك البطحاء الفســـيحة يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال الماثل في الشـــاطئ ، والأمواه والأخاديد والوديان والغابات والحرجات ، والكهوف والأغوار ، والغيوم والسـحب والأضـواء في تشـكلها وتلونها ، والظلال في نحولها وانتقالها ، وفي رؤوس الجبال اللاصـــقة بجلدة الســـماء كأنها بعض ســـحبها ، وفي قطع الصـــخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفي تلك المعركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشيـ الأنوار والظلمات فينتصرـ في صـدر النهار أولهما ، ثم يدال في آخره لثانيهما ، حتى إذا جاء الليل عادا إلى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه ورشـفا من كل ثغر من ثغور السـعادة رشـفة تسريـ حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمه . مر بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يختلساه من

يد الدهر في غفلته ، ثم انتبه لهما بعد ذلك - وويل للسعداء من انتباهه بعد إغفائه - فقد نضب أو أوشـك أن ينضـب ما كان في يد «أرمان» من المال ، وكان في يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يسـتعين على البقاء في باريس مدة أخرى ، زاعمًا أنه لا يزال مريضًـا متألمًا لا يسـتطيع السـفر ، وكذلك كان يفعل من حين إلى حين . فلم يأته الرد ، فأقلقه ذلك قلقًا شـديدًا وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم يسـأل في فندق «تورين» الذي كان ينزل به قبل اتصـاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده ، فيعود حزينًا منقبضًـا ، حتى إذا وصـل إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه تطلق وتبسـم كأنه لا يضـمر في نفسـه همًا قاتلاً ، ولكن عين مرغريت أقدر من أن يعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه فاكتنهت سره فكاشفته به وقالت : لا يحزنك شأن المال يا أرمان ، فإن عندي منه ما يكفينا العيش معًا سـنين طوالاً . ولم تكن صـادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رفده مذ عرف قصـتها مع «أرمان» ، وعلم أنها خانته وخانت بعده ، بل كانت مدينة بمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ، بل أصـبح دائنوها يتقاضـونها ديونهم بعد ما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها ، ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة لم تفكر في عاقبتها ، فأكبر «أرمان» ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شـديدة ، وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسـافر إلى «نيس» ليأتي منها بالمال الذي يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجًا شديدًا وخافت عاقبته ، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه ، وتبذل في ضراعتها ، ورجائها في سبيل بقائه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ورضي بالتي لم يكن يرضى بمثلها لولا لهفة الحب وضراعة الدموع ؛ وقد أضـمر في نفسـه أن يتنازل لها عن نصـيبه في الميراث الذي ورثه عن أمه مكافأة لها ووفاء بحقها ، فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأنشأت تبيع القطعة بعد القطعة ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم «أرمان» وا ستمرا على ذلك بضـعة أشـهر حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في سـاعات أنسـهما وصـفائهما خادم فندق «توري» الذي كان ينزل به «أرمان» في باريس وقال له : إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

***

قال دوفال لولده : لقد كذبت علي كثيراً «أرمان» ؛ وما كنت قبل اليوم كذابًا ؛ ولا خادعًا ؛ ورضـيت لنفسـك بحياة كنت أضـن الناس بنفسـك على مثلها من قبل ؛ ومزقت بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذي لا يزال مسبلاً على وجهك ، وأصبت تتبذل في العيش مع امرأة عاهرة ، كل ما لها من الشأن عند نفسها ، وعند الناس جميعًا أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ؛ وفتات

المائدة العامة التي يجلس عليها الناس جميعًا صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معي إلى «نيس» فلست بتاركك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة .

فرفع «أرمان» رأسه إلى أبيه ؛ وقال له بصوت هادئ مطمئن : لا أستطيع يا أبتاه!

فنظر إليه أبوه نظرة شزراء وقال له : وتلك سيئة أخرى فقد أصبحت لا تعبأ بي ؛ ولا تبالي بمخالفة أمري من أجل امرأة ساقطة لا شأن لها معك إلا أن تعبث بعقلك ؛ وتسلبك مالك وشرفك ؛ وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك .

قال : لا يا أبتاه ، إنها ليست بعابثة ولا خادعة ، ولكنها تحبني حبًا جمًا لم يحبه أحد من قبلها أحدًا ، وأحسب أني إن فارقتها قتلتها ، وجنيت عليها جناية لا يفارقني الندم عليها حتى الموت .

قال : ذلك ما يخدع به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها ، بل لهن ألسن يختلن بها الرجال ويسلبنها حجبًا بين بعضهم وبعض! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الحظوة لديها ، من دون أصحابه جميعًا .

قال : ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهي لا تحب أحدًا غيري ، بل لا تعرف أحدًا سواي ، فهي تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن ، لأن الخليلة التي تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التي تخون زوجها ، وأخشى إن فارقتها أن تثور في نفسها ثورة من ثورات اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى حياة الشر والفساد ، والشقاء والعذاب ، بعدما استنفذت نفسها .

قال : وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء الفاسدات؟

قال : ذلك خير له من أن تكون وظيفته إفسادهن ، فإن الأشراف في هذا العصر يفخرون بإفساد النساء الصالحات ، واستدراجهن إلى مواطن الفسق والفجور ، وإصلاح المرأة الفاسدة ، أدنى إلى الشرف من إفساد المرأة الصالحة .

قال : لقد أصبحت كثير الرحمة يا أرمان .

قال : لم لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها في الناس من يعولها من ذي قرابة أو ذي رحم؟ وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلل عنها ، إلا أن يهدأ عنها حينًا ويستيقظ أحيانًا ، فهي

تكابد الألم مرة ، والخوف من الألم أخرى ، ولا عزاء لها في حالتيها إلا هذه السـعادة التي تتوهمها في الحب ، وترى أنها ناعمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شيء في الحياة وعظم حزنها وبؤسـها وثقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتي على البقية الباقية من حياتها ، فدعني معها يا أبتاه عامًا آخر أو عامين أهون عليها فيهما شقاءها ، فربما كان ذلك آخر ما قدر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب سـاكن الضـمير ، راضـيًا عن نفسي ـ وعن عملي ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويهون وجدي عليها كلما ذكرتها أنني لم أخنها ، ولم أغدر بعهدها .

فأطرق دوفال هنيهة كأنما يعالج في نفسـه همًا معتلجًا ، ثم رفع رأسـه ونظر إلى ولده نظرة تشـبه نظرة العطف والرحمة وقال له : لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أختك ورائي تندبك وتبكي عليك صـباحها ومسـاءها ، وتحنّ إلى لقائك حنين الظامئ إلى الورود ، واعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك في هذا الشأن لا يغني عنك ولا عني شيئًا يوم يقول الناس كلمتهم التي لابد أن يقولها غدًا وربما قال كثير منهم قبل اليوم : إن أرمان دوفال سـلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس في بيت واحد ، فعد إلى نفسك يا بني وا ستلهم الله الر شد يلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على عقلك . ودع هذه الحياة الساقطة التي يحياها من ليست له همة مثل همتك ، ولا مجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك ، وإني تاركك الآن وحدك وذاهب عنك لبعض شـأني لتخلو بنفسـك سـاعة تسـترد فيها ما عزب عنك من صـوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لسـمع منك الكلمة التي أرجو أنتكون شفاء نفسي وراء غلتي .

ثم تركه ونزل فمشى ـ إلى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتابًا خاصًـا . ثم طاف ببعض أصـدقائه الذين يعرفهم في باريس فزارهم زيارة طويلة ؛ فلم يعد إلى الفندق حتى أظل الليل فرأى أرمان لا يزال في مكانه . فسـأله : ماذا رأى؟ فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تحدر القطر على أوراق الزهر ، وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه ، ويكشف له من خبيئة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول : والله يا أبت لو علمت أني أسـتطيع الحياة بدونها لفارقتها برًا بك وإيثارًا لطاعتك ، ولكني أعلم أني إن فعلت فقد وضـعت أمري في موضـع الغرر وخاطرت بعقلي أو بحياتي مخاطرة لا أعلم ماذا يكون حظي فيها . ولا أحسـبه إلا أسـوأ الحظين ، وأنحس النجمين ، ولو أن أحدًا من قبلي اسـتطاع أن يدفع هواه عن قلبه أو يمحو ما قدر له في صحيفة قضائه من شقاء الحب وبلائه لسلكت سبيله التي سـلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لي ، فلا رأي لي في رده ، ولا حيلة لي في اتقائه ، وقد نزلت هذه الفتاة من نفسي منزلة هي منزلة الحياة من الجسم ، والغيث من التربة القاحلة ، فإن كنت لابد آخذي

فخذ معك جسمًا هامدًا لا حراك به . ونبتة ذاوية لا حياة فيها ن فوضع أبوه يده على عاتقه وقال له : قم الآن يا بني واذهب لشأنك وعد إلي صباح الغد لأتمم حديثي معك ، وأرجو أن تكون في غدك خيراً منك في أمسك ، فخرج محزونًا مكتئبًا يمشي مشية الذاهل المشدوه لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربة فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد هدأة من الليل ، فلم ير مرغريت في شرفة البيت تنتظره كعادتها ؛ فدخل عليها غرفتها فرآها مكبة على منضـــدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة . فخيل إليه عند نهوضها أنه لمح في يدها رسالة تضم عليها أصابعها ، فظنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها إليها المركيز «جان فيليب» من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها في عهدها الأول حبًا شـديدًا ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمنيها الأماني الحسان في عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها ، فلم يحفل أرمان بذلك ومشى إليها فقبلها ، فقالت له : ماذا جرى يا أرمان؟ قال : أرادني أبي على السفر معه فأبيت وبكيت بين يديه كثيراً فلم أنل منه منالاً ، وقد مرني بالعودة إليه غدًا ولا أريد أن أفعل لأني لا أجد حظي منه في الغد خيراً منه اليوم ، وقد أصبحت نفسي تحدثني بعصيانه ، والبقاء هنا على الرغم منه ، لأني أعلم أني قد تجاوزت الســن التي يحتاج فيها الأبناء إلى إرشـــاد الآباء ولأني لا أعرف أحدًا بين الناس يستطيع أن يرسم لي خطة سعادتي كما أرسمها لنفسي ، ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ، ونظر إليها فإذا هي مطرقة صامتة وإذا وجهها أصفر مربد كأنما قد نفض الموت عليه غباره . فقال : ما بالك يا مرغريت؟ قالت : أ شعر بألم شديد في رأسي ، وأريد الذهاب إلى مخدعي . فأخذ بيدها إليه ، وجرعها بضـع قطرات من الدواء فاسـتفاقت قليلاً ، ثم نامت في مخدعها نومًا مشرـدًا مذعورًا تتخلله أنات طويلة وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح فقالت له أرى لك يا أرمان أن تعود إلى أبيك كما أمرك وأن تعاود اسـترحامه واسـتعطافه لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت منه بالأمس ، إني لا أكون راضـية عن نفسيـــ ، ولا هانئة بحياتي ، إن لم يكن أبوك راضـــيًا عنك ... ولم تزل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها . ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة كأنما يضن بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزع ، ثم قبلها وقال لها : إلى المساء يا مرغريت فلم ترد عليه تحيته حتى أبعد عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : أرجو أن يكون كذلك .. وتهافتت على كرسي بين يديها باكية منتحبة .

ولم يزل أرمان سائرًا في سبيله حتى وصل إلى باريس فذهب إلى فندق «تورين» فلم يجد أباه هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتًا طويلاً حتى عاد بعد منتصف النهار ، وقد رقت قليلاً تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس ، فتقدم نحوه أرمان ، فحيّاه ، فقال له : لقد فكرت ليلة أمس في أمرك كثيرًا يا بني فرأيت أني قد قسوت عليك وغلوت في أمرك غلوًا كبيرًا ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان يجب علي أن أنظر إليها فإن للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة ، وحالاً خاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا يختلف فيه سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما تريد ، على أن تعدني بالعودة إلي في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها انقطاع حياة أو موت ، فإني إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها من النساء . فاستطير أرمان فرحًا وسرورًا ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويبللها بدموعه ويقول : أعدك بذلك يا أبتاه وعدًا لا أخالفه ، ولا أخيس به ، ولك حكمك ما تشاء إن رأيتني بعد اليوم كاذبًا أو حانثًا .

ثم نهض يريد الذهاب فقال له : أين تريد قال : أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها ما ألم به من الروع منذ الأمس ، فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمعة كانت تترقرق في عينيه ، ثم التفت إليه ، وقال : ابقى معي اليوم يا بني فربما سافرت غدًا ، ولا أعلم بعد ذلك متى أراك . فبقي معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فاستأذنه في الذهاب إلى بوحيفال فأذن له فحيّاه وخرج ؛ فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ؛ فانحدرت من جفنه تلك الدمعة التي كان يحبسها من قبل ، وقال : وارحمتاه لك أيها الولد المسكين!

***

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التي يرجوانها في مستقبل حياتهما ، وطار بها إليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال فأدهشه أن رأى البيت مظلمًا ساكنًا لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يتراءى فيه ظل ؛ فمشي إلى الباب فرآه مرتجًا ، فوضع أذنه على خصاصه ، فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعًا شديدًا ، ويهتف باسم «مرغريت» مرة واسم «برودنس» أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال في نفسه : لعلها ذهبت إلى بيتها في باريس لبعض شأنها واستصحبت خادمتها ، ولابد أن تعود الآن ، فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها واستصحبت خادمتها ، ولابد أن تعود الآن ، فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هدأة من الليل فلم تعد ، فحدثته نفسه بالعودة إلى باريس للبحث

عنها في مظان وجودها ، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقًا غير الطريق التي تسلكها في عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حينًا ويتمشى أحيانًا ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القلق الرتاع إلا حديث خيانتها وغدرها ، ولم يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تدب في فحمة الظلام ، فساء ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في نفسه : ما لمرغريت بد من شأن ، ولابد لي من المصير إليها ، والنظر في الشأن الذي شغلها! وكان القلق والسهر قد أخذا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ؛ فمشي في طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار ؛ فرأى حارس المنزل قد استيقظ ممن نومه ووقف بفاسه على شجرة من أشجار الحديقة يشذب أغصانها ، فسأله عن مرغريت ، فقال : إنها حضرت هنا بالأمس في منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوبًا من أثواب الولائم ، فأعطتني كتابًا ، وقالت لي إذا جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عني فأعطه إياه ، ثم ركبت عربتها هي وخادمتها وانصرفت ، قال : ألا تعلم أين ذهبت؟ قال : أحسب أني سمعتها تقول للحوذي عند ركوبها «إلى منزل المركيز جان فيليب» ، فجمد أرمان في مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ، ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يدها بعد عودته إليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته وعاد إليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرّ نظره عليه إمرارًا فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعادًا شديدًا ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته فإذا هو مشتمل على هذه الكلمات :

«هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمان ؛ فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلا أني هكذا أردت لنفسي .. والسلام » .

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفًا ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشذب أغصانها ويتغنى في صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامي يعجبه لحنها ، وإن كان لا يفهم معناه ، فإنه لكذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفاسه وهرع إلى ناحية الصوت فرأى أرمان صريعًا معفرًا تحت عتبة الباب ، ففزع فزعًا شديدًا وظنها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقي من دقات قلبه ، فاطمأن قلبًا وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجهه ويدلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالسًا بجانبه ورأى الكتاب لا يزال في يده ، فدار بعينيه

حول نفسه فمرت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عينه منذ خمسة عشر شهرًا يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ورسمت على ثغره أول قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : ما أبعد اليوم من الأمس! وأنشأ يبكي بكاء الطفل الذي حيل بينه وبين ثدي أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزيه عن مصابه ، ويهونه عليه حتى هدأ قليلاً ؛ فأمره أن يستدعي له عربة ففعل . فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب ، وقال للسائق إلى «فندق تورين» فاستر به العربة إليه : حتى إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق الخاطف ، تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى : ثم راجع صورتهما في خياله فإذا هما : «جان فيليب ومرغريت» ، وكانت مركبته قد وصلت به إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائمًا مختبلاً ، فقال : ما دهاك يا بني؟! قال : ، وكانت مركبته قد وصلت به إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائمًا مختبلاً ، فقال : ما دهاك يا بني؟! قال : «قد خانتني يا أبتاه» . قال : ذلك ما أنذرتك به من قبل يا بني .

ثم انقضى النهار ، وجاء الليل فقضاه أرمان ساهرًا في مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض في نفسه جميع أطوارها وشؤونها فلم تبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل في مراجعته إلى الأمس واليوم الذي قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كعادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المركيز في يدها عندما دخل عليها غرفتها وضنها به ضنًا شديدًا ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضها عن التبسط معه في الحديث بعدما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائرة لا تستطيع البقاء معه . وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثاني إلحاحًا شديدًا في العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضيًا عنه ، فاستنتج من هذا كله : أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال وأن أباه إما أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتر عليه الرزق تقتيراً ، ملته واجتوته ، وفكرت في سبيل الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المركيز فكانهو طريق خلاصها .

ولم يزل هائمًا ما شاء الله أن يهيم في تصوراته وأوهامه حتى غلبته عيناه فهجع قليلاً : ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه وقال له : لي عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها وريد أن أبتاعها منك بخضوعي لك ونزولي على حكمك أبد الدهر فيما سرني أو ساءني : فهل لك أن تبلغنها؟ قال : وما هي؟

قال : أريد أن تعطيني الساعة خمسة عشر ألف فرنك : قال : وما تريد منها؟ قال : أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسي من دون الناس جميعًا حتى من دونك ؛ فنظر إليه أبوه نظرة الملم بما دار في نفسه ولم يعاوده ، وأعطاه صكوكًا بالمال الذي أراد . فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتابًا طويلاً ختمه بهذه الكلمة : «أما وقد عرفت أنني كنت أعيش مع امرأة عاهر ساقطة لا عهد لها ولا ذمام ، فها هي ذي أجرة لياليك الماضية مرسلة إليك» .

ثم خرج ليعد نفسه للسفر ، فقضى اليوم كله خارج الفندق ثم عاد إليه دبر النهار فوجد فيه كتابًا باسمه ففض ختامه فإذا الأوراق التي أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فمنعه أبوه من ذلك وقال له : قد وعدتني ألا تخالفني في أمر فلابد لك من الإذعان .. فأذعن ثم سافرا معًا تلك الليلة إلى نيس .

وكذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الوفيان والعاشقان المخلصان ، فعاد الفتى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التي كانت تأباها الإباء كله ، وتخافها الخوف الشديد ، وفي نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والحسرة عليه ما لا تليه الأيام ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام .

***

الأشقياء في الدنيا كثير ، وأعظمهم شقاء ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك ، ثم يغلق دونها بابًا من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس باش الوجه باسم الثغر متطلقًا متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًا : ولا كمدًا!

ذلك كان شأن «مرغريت» بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ، تضيء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها مخدعها وخلا لها وجه الليل مرت أيام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب أرمان . ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيس بين أقوام لا تعرفهم ، ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بدًا من مماذقتهم والتحبب إليهم والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبل الأفواه التي لا تشتهيها وتعتنق القامات التي لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق

أوصالها وتضحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتنشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق ، فكأنها في يد الناس والعود في يد المغني يقطع أوتاره ضربًا ليطرب لنغماته أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصرًا لينعم بشذاها ، فتهيجها ذكرى ذلك الماضي السعيد ، وهذا الحاضر الشقي ، فتطلق السبيل لزفراتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتفي نفسها ، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين سحرها ونحرها ، ثم تأوي إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تزل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها . ما لا طاقة لمثلها باحتمال مثله ، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حينًا من الدهر ، فهزل جسمها و شحب لونها وغاض ماء ابتساماتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأن نفسها عن شأن المركيز ، فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها ، ثم اختلف عليها من بعده الأخلاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها فكسدت سلعتها في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطئ أقدامها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأعوزها المال إعوازًا شديدًا فمدت يدها إلى ما كان باقيًا عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يف بدينها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضيين فأرسل إليها قليل منهم القليل منها ، فلم يغن عنها شيئًا ، واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعتهم عنها حينًا ثم عجزت ، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها ، وأثاث بيتها ورياشه . ولؤموا في مقاضاتها لؤمًا ضاعف حزنها ومرضها ، وقضى على بقية ما كانت تضمره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها ، فنسيت العالم خيره وشره والحياة سعادتها و شقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعد به ليلها ونهارها ، وهو أ، ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة مذ فارقها ولا كتب إليها ؛ فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

«تعال إلي يا أرمان راضيًا كنت أو غاضبًا ، فإنني مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتي ، لأفضي لك بسر الذنب الذي أذنبته إليك فيما مضى ، والذي لا تزال واجدًا علي بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تعفو عني في ساعتي الأخيرة فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبري . واذكر يا أرمان أن أول عاطفة جمعت بيني وبينك وألفت بين قلبي وقلبك ، كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هي

الفتاة المريضة المسكينة التي رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها . وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذي كتبته إلي قبل سفرك فقد اغتفرت لك كل ما فيه حتى قولك إنني كنت كاذبة في حبك ، طامعة في مالك ، لأني أعلم أن المرأة التي تكذب الناس في حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع» .

ثم لبثت تنتظر حضوره أيامًا طوالاً فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزنًا شديدًا ، وساء ظنها به ، ووقع في نفسها أنه قد سلاها وأطرحها ، وأصبح لا يعبأ بها ، ولا يبالي بحياتها أو موتها ، و سعادتها أو شقائها ، وكانت مخطئة فيما ظنت ، فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذي أرسلته إليه مذ فارقها في العام الماضي وسافر إلى نيس ولم يستطع البقاء فيها إلا أيامًا قلائل ثم ملكه الضجر وأحاطت به الوحشة ، وضاقت في وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحًا عن نفسه وتفريجًا من كربته ، فأذن له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها وأخذ ينتقل في أنحاء البلاد لم ينزل ببلدة حتى يطير به الضجر إلى غيره ، فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده ، فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها في نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه؟ ومرغريت لا تعلم بشيء من ذلك ؛ فحزنت لخيبة أملها حزنًا شديدًا ، ودب اليأس في قلبها دبيب الموت في الحياة ووقع في نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من هذه الأمنية التي بقيت في يدها من بين جميع آمالها الضائعة ، فتنكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه خيرًا ولا شرًا ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شيء تنكره ولا تعرفه ؛ فربما دخل عليها طبيبها وهي في أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألمًا ، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم في فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون! وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى بوجيفال فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الذاهبة ، وكان لا يزال باقيًا على الصورة التي تركتها عليها يوم فارقته ومرت بغرفه وقاعاته ، وجلست في كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبلت جميع آثاره وبقاياه ، ولثمت الكأس التي كان يشرب بها ، والزهرة التي كان يحبها ، والقلم الذي كان يكتب به ، والكتاب الذي كان يقرأ فيه ، فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها . فربما طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته في نيس ، أو يبثها ما يضمره لها في نفسه من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ

وتستشعر في نفسها لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون في جنات النعيم ، ثم تفتح عينيها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تعود إلى بيتها في باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي أرمان في مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسه كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعها !

## مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠ .

أرمان :

لم تكتب إلي ولم تأتني ، كأنما ظننت أني أريد أن أستعيد معك عهد الماضي ، وأين أنا من ذلك العهد؟ فلو رأيتني لرأيت امرأة ذاهبة مدبرة لا تصلح لشأن من شؤون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك : أن أراك بجانب فراشي في ساعتي الأخيرة لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبري!

ما أنا بخائنة يا «أرمان» ولا خادعة ، فإن الرسالة التي رأيتها في يدي يوم عدت إلي من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننت ، بل رسالة أبيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة . وهذا نصها الذي لا يزال عالقًا بذهني حتى الساعة :

سيدتي :

أريد أن أقابلك غدًا في منزلك في الساعة العاشرة صباحًا في شأن خاص بي وبك ، وأريد ألا يكون أرمان حاضرًا تلك المقابلة ولا عالمًا بها ، ولا بأني أرسلت هذا الرسالة إليك ، ولي من حسن الرأي فيك ما يطمعني في أن يكون ما سألت إياه سرًا بيني وبينك حتى نلتقي .. والسلام .

دوفال

فلما قرتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشـــعرت بما وراءها بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنك امتنعت عليه حتى يئس منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابي ، فحدثتني نفسي ـــ أن أرفض مقابلته ، وأن أكاشـفك بكل شيء ، ثم اسـتحييت من نفسيـ وأكبرت أن يعتمد علي رجل شريف كأبيك في كتمان سر بســيط كهذا السر ـــ فلا يجدني عند ظنه ، وطمعت في أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله مني ، فكتمتك أمر الرسـالة ، وكتمتك ما في نفسيـ منها ، ولم أكن كاذبة في شـكاتي وألمي حينما قلت لك في تلك الليلة : إنني لا أســتطيع البقاء بجانبك، وســألتك أن تقودني إلى مخدعي ، فقد قضـــيت في فراشي بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها في جميع ما مر بي من ليالي الهموم والأحزان ، حتى أ صبح الـصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته ، ولكني خفت أن يزورني فيراك عندي فأصـغر في عينيه ، ولا أشـد علي من ذلك ، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصـل إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه ، فاسـتأذن علي فأذنت له فدخل فرأيت في عينيه جمرة من الغضـــب تلتهب التهابًا فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يحيني بيده ، ولا بلسـانه . وكان أول ما اسـتقبلني به قوله : «ماذا تريدين أن تصـنعي بولدي أيتها السـيدة؟» وظل ناظرًا إلي نظرًا جامدًا سـاكنًا لا يطرف ، ولا يختلج . فعجبت لمدخله الغريب ، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضت في نفسي امتعاضًا شديدًا حتى كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : تذكر يا سـيدي أنك في منزلي ، وأنني لم أدعك إلى زيارتي ، بل أنت الذي دعوت نفسـك بنفسـك . ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشي يضرب الأرض بعصاه وبقدمه حتى دنا مني وألقى علي تلك النظرة التي اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النســاء العاهرات وقال : لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان في يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرســلته إليه بعد ذلك ، وقد أرســلت إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في اســتطاعته أن يمدك بأكثر مما أمدك ، ولا في ا ستطاعتي أن أ ستنزل له منم الـسماء ذهبًا يمطره عليك ، فدعيه و شأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفســـهم ، أما أنا فإني في حاجة إلى ولدي ، لأني لم أرزق ولدًا ســـواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضـيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مآرب الحياة . فسرـت كلماته في نفسيـ سريان الحمى في عظام المحموم وخيل إلي أن هذا الماثل أمامي لا يحدثني ، وإنما يجرعني الســـم بيده تجريعًا ، وشعرت بذلة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجلدت واستمسكت ورددت

نفسي على مكروهها ، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازحه غضب ، ولا نزق : يا سيدي ، نعم إنني أحب ولدك ، ولكني لا أطمع فيه ، ولو كان الذي يعنيني منه الطمع في ماله لفارقته منذ ثلاثة شـــهور أي منذ خلت يده من المال وأصـــبح لا يجد الســـبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقته قبل ذلك لأن الذين لا يزالون يساومونني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغدًا ، على أن ولدك لم ينفق علي من هذا المال الذي تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفســه ؛ ولو اســتطعت أن أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكني كنت أضـن به أن يداخل نفســه ما يريبها أو يؤلمها فقبلت منه هداياه الصــغيرة الصــغيرة التي كان يقدمها إلي من حين إلى حين إرعاء عليه ، وإبقاء على عزة نفســه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي كما تقول لأصـبحت غنية موفورة ، لا أحمل همًا من هموم العيش ، ولا أعاني من بأســاء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم ؛ فإنني - لو تبينت أمري - امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلاي ومركبتي وأثاث بيتي ، وليتها كانت خالصة لي ، فقد امتدت ي الضرورة إليها منذ عهد قريب فأصبح الكثير منها سلعة في يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ، وإن أبيت إلا أن تعرف ذلك بنفســـك فســـأطلعك على ما كتمته عن الناس جميعًا حتى عن ودلك ، ثم قمت إلى خزانة أوراقي فجئته منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعت من جواهري وخيولي وأثاث بيتي ورهن ما رهنت منها ، فظل يقلبها بين يديه ســـاعة ويتأمل في تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إلي مطرقًا صامتًا لا يقول شيئًا ، ومد يده إلى كرسي بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمدًا برأسه على عصاه ، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله ، وطارت عن وجهه تلك الغيرة الســـوداء التي كانت تظلله من قبل فعدت إلى حديثي معه أقول : على أنني يا سـيدي غير شـاكية ولا ناقمة ، فقد مر بي من نوب الأيام وأرزائها ما محا من نفسي ـ كل شهوة من شهوات الحياة وأنساني جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام ، و سواء لدي الفقر والغنى ، والحلي والعطر ، و سكنى القصر و سكنى الكوخ ، وركوب المركبة ، وركوب النعل ، وكل ما أرجوه من حياتي وأضرع إلى الله ، وإليك فيه ، أن أرى أرمان يقاســـمني هم الحياة وبؤسها ، ويعينني على شدتها ولأوائها حتى يقضي الله في أمري بما هو قاض ، فإن كان في الأجل فسحة قضــيتها في شــكرك وحمدك ، والإخلاص لك في سري وعلني ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ســاعتي الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضـارعة مبتهلة أن يبارك لك في نفســك ، وفي أهلك ، وأن يســبل ستره الضافي عليك في حاضرك ومستقبلك .

ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت في تلك الســـاعة عن أن أملك مكن دموعي ما كنت مالكة من قبل ، فظللت أبكي وأقول :

رحماك يا مولاي ، إنني امرأة بائسة مسكينة قد قضت علي بعض ضرورات العيش في فاتحة حياتي أن أقف على حافة تلك الهوة التي يقف على رأســها النســاء الجائعات فســقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت نفسي على الرضا بتلك الحياة التي قدرها الله لي فلم أستطع ، فأصبحت في منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعم بعيش النســاء الشرـيفات ، ولا ميتة القلب أســعد ســعادة الفيتات الســاقطات ، وقد وجدت في ولدك الرجل الوحيد الذي أحبني لنفسيـ ، ومنحني من وده وإخلاصـه ما ضـن به علي الناس جميعًا ، فأنست به أنسًا أنساني سقوطي وعاري ، وحبب إلي الحياة بعد ما أبغضتها وبرمت بها ، وكدت أقضيـ على نفسيـ بالخلاص منها ، فلا تحرمني جواره ، ولا تفرق بيني وبينه ؛ فإنك إ، فعلت أشــقيتني وبرحت بي ، وملأت حياتي همدًا وكمدًا ، وأنت أجل من أن ترضى لنفســك بأن تبني ســعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلي .

ماذا يكون مصيري غدًا إذا أصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا صديق لي ، ولا معين؟ فأعود إلى حياتي التي أبغضها وأخشاها فأعود إلى جرائمي وآثامي؟ أم أقتل نفسي بيدي فرارًا من شقاء الدنيا وبلائها فختم حياتي بأقبح ما ختم امرؤ به حياته؟ لا أسـتطيع واحدة من هاتين ، فأمدد إلي يدك البيضــاء وأنقذني من هذه الهوة العميقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذني منها سواك .

أنا أعلم أنك في حاجة إلى ولدك ، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكني أعلم أنك شفوق رحيم لا تأبى أن تتصدق على امرأة مريضة بائسة مثلي بساعات من السعادة تتعلل بها في مرضها الذي تكابده حتى يوافيها أجلها ؛ لا أ سألك يا سيدي مالاً ، ولا ذ سبًا ، ولا عرضًا من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معي فإن بقائه بقاء حياتي وسعادتي . فتصدق بهما علي إنك من المحسنين .

وهنا شعرت كأنه يتحرك في كر سيه فخفق قلبي خفقانًا شديدًا ، ثم رفع رأ سه ونظر إلي نظرة أهدأ نارًا وأقصر شعاعًا من نظرته الأولى وقال : ومن أين تعيشان؟

قلت : عندي بقية من جواهري وحلاي ســأبيعها وأعيش بثمنها معه في زاوية من زوايا باريس عيش الفقراء المقلين ، لا يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نغني بها عن كل سعادة في هذا العالم وهناءه .

قال : ذلك هو الشـقاء بعينه ، فإن الحب نبات ظلي تقتله شـمس الشـقاء الحارة ، وكل سـعادة في العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى ظلاله فهي كاذبة لا وجود لها إلا في سوانح الخيال .

أنتما اليوم سـعيدان لأن في يدكما مالاً تعيشـان به ، ولأنكما تسـكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهضـبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فإذا خلت يدكما من المال ، وحرمتما هذا النعيم الذي تنعمان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب ولذائذه ، وسرى إلى نفسيكما الضجر والملل ، وربما امتدت تلك السآمة بينكما إلى أبعد غايتها .

إن للحب فنونًا من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تناله منه الصروف والغير ، ولو عقلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطائرة ،تأتي به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب به المثل مثل الفاقة إذا ا شتدت وا ستحكمت حلقاتها فإن النفس تطالب حياتها وبقاءها . قبل أن تطلب لذائذها وشهواتها !

أنا أعلم من شأن ولدي يا سيدتي ما لا تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التي تظنين ، وهو فتلا فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صـغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تغني عنه شيئًا ، وما أنا بذي ثروة طالة أستطيع أن أحفظ له بها زمنًا طويلاً هذا العيش السعيد الرغد الذي يعيشه اليوم في باريس ، فلم يبقر بين يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو مالا أرضاه لنفسه ، وا سمحي لي يا سيدتي أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون على وعليه أن يقول للناس إن خليلة أرمان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التي أهاها إليها عشاقها الماضون لتنفق ثمنها عليه .

سامحيني يا بنيتي ، واغتفري لي حدتي وخشونتي ، فإن شديد جدًا على والد شيخ مثلي أن يرى ولده الذي وضـع فيه كل آمال بيته يهوى أمام عينيه في هذه الهوة السـحيقة التي لا قارار لها دون أن يطير قلبه خوفًا وهلعًا .

أنه مذ عرفك نيسني ونسى أخته فلا يذكرني ولا يذكرها ، وقد مرضت منذ شهور مرضًا مشرفًا فكتبت إليه أن يأتي ليعودني فلم يفعل ، ولم يرد على كتابي ، أي أنني كنت على و شك أن أموت ولا أره ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبري بحسرة لم يحمل مثلها في صدره راحل عن الدنيا من قبلي .

أنت صادقة يا سيدتي في قولك إنه لم ينفق عليك جميع ما كان بيده من المال لأنني علمت بالمس أنه قامر منذ عهد قريب ، وخسر في مقامرته كثيراً ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئًا من ذلك فما يؤمنني إن أنا تركته في هذا البلد إلا يســتمر في هذه الغواية الجديدة التي خطا الخطوات الأولى في طريقها ولا يخسر في بعض مواقفه خسارة عظمى لا أجد لي بدًا من أن آخذ بيده فيها ، فأقدم إليه ذخر شيخوختي ، ومهر ابنتي فنهلك نحن الثلاثة في يوم واحد ؟

من أين لك يا بنيتي أنه إن أطال عهدي بك لا يملك ، ولا تمتد عينه إلى امرأة سواك ، فتكون فجيعتك فيه غدًا شرًا من فجيعتك فيه اليوم ؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعًا يومًا من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين على حياتك الأولى حياة الأنس والاجتماع والضوضاء واللجب ، وهو فتى غيور مستطار ! فربما أنفت نفســه أن يزاحمه فيك مزاحم وربما امتدت يده بشرــ إلى ذلك الذي يزاحمه ، فتنازلا ، فأصابته من يد منازله ضربة تقضي على حياته وتفجعني فيه ؟

كيف يكون موقفك يا سيدتي غدًا إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاكل المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلام نفسك ولواعجها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟

ثم ارتعش ارتعاشًا شديدًا ، وظل نظره حائرًا مضطربًا كأنما يخيل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذي يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ونظر إلى نظرة هادئة مملوءة عطفًا وحنانًا وأنشأ يقول :

مرغريت . أنت أعظم في عيني مما كنت أظن ، وأكرم نفسًــا من أولئك النســاء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ،ولو قسّم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاها .

لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حيًا كتمانك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك واحتفاظك بسره في ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكوتك وإغضاءك وأنت في منزلك ، وموضع أمرك ونهيك أمام حدتي وخشونتي وجنون غضبي ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدي - من حيث لا يعلم - وفاء له وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها .

لقد كانت ضــحيتك التي قدمتها لولدك بالأمس عظيمة جدًا ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحية أعظم منها لابنتي ولا معتمد لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

لقد تركت « سوسان » ورائي تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها النائس الغض لأن خطيبها الذي تحبه حبًا جمًا قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالاً عظيمًا ، ووصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات كثيرة ، وتبكي لما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلمت موضع دائها ، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لي سببًا غريبًا لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فإن أذنت لي حدثتك حديثه .

فخفق قلبي خفقانًا شديدًا ، وأحسست بالشر يدنو مني رويدًا رويدًا ، إلا أنني تماسكت وقلت له نعم : نعم آذن لك يا سيدي ؛ قال : لقد أجابني الرجل على سؤالي بقوله « إن أسرتي أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلها من جميع وجوهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك ، إنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومسًا معروفة هناك معاشرة تهتك ، وتبذل يشهدها الناس جميعًا ، ولا أسمح لنفسي أن يكون مثل ولدك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وفسولتها : صهرًا لولدي . ولا عارًا على ابنتي » فاستقبلت خشونته وجفاءه بصبر واحتمال ، لأن الخوف على ابنتي شغلني عن الغضب لنفسي ــ وقلت له : أواثق مما تقول ؟ فأدلى لي بما أقنعني ، فلم أر بدًا من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبت في أمر الخطبة شيئًا حتى أسافر إلى باريس وأعود منها .

ذلك ما حملني على المجيء إلى باريس . وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعًا حتى عن ولدي أرمان ؛ فانظري ماذا تأمرين ؟

وهنا طرق برأسه طويلاً ، ثم رفعها ، فإذا عبرة تترقرق في عينيه ، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسيت مصابي بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة لا يقول لي شيئًا ، ولا أدري ماذا أقول له ، حتى هدأ ثائره قليلاً فمد يده إلى يدي فأخذها بين ذراعيه ، وعاد إلى حديثه يقول :

مرغريت : إن حياة ابنتي بين يديك ، فامنحيني إياها تتخذي عندي يدًا لا أنساها لك حتى الموت .

إنني لا أستطيع أن أراها تموت بين يدي . ولم تم ذلك لمت على أثرها حزنًا وكمًا ، وضمنًا في يوم واحد قبر واحد ؛ ولقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقيًا في نفسي حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابنتها وصورتها الباقية عندي من بعدها .

إنني أحبها حبًا جمًا ، ولا أ ستطيع أن أراها في ساعة من ساعات حزينة أو مكتئبة ، فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت !

إنك لا تعرفينها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ولرحمتها كما أرحمها ، ولفديتها بما تستطيعين رأفة بها وإشفاقًا عليها .

إنها جميلة جدًا ، وبيضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طهارة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحي لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة فإنها لا تستحق الشقاء .

إنها اليوم تعيش بالأمل الذي أودعته قلبها يوم سفري ، فإن عدن إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل ، والقضاء النازل .

إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصة في حبه إخلاصًا عظيمًا ، فاصنعي ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحي حبك من أجله ، ومن أجل مستقبله ، فإلا تفعلي ذلك من أجله ، فافعليه من أجلي .

لقد قلت لي إنه الرجل الوحيد الذي أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبادليه هذا الحب ، بل كوني خيراً منه فيه ، وليكن عزاؤك عملاً تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيدًا من بعدك ، وأنك قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخًا حزينًا . وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط على كرسيه بين يدي ، وقال بنغمة المشرف المحتضر .

ارحميني يا مرغريت ، واشفقي على ضعفي وشيخوختي ، وتصدّقي عليّ بمستقبل ولدي ، وحياة ابنتي .

ثم لم يستطع أ، يقول بعد ذلك شيئًا ، فألقى رأسه على كرسيه الذي كان جالسًا عليه وانفجر باكيًا .

آه لو رأيتني يا أرمان في موقفي هذا ورأيت لوعتي وتفجعي ودموعي المنهمرة في خدّي انهمار الديمة الوطفاء رحمة بأبيك وإشفاقًا عليه!

لقد كان يتكلم فتسـيل مدامعي مع حروفه وكلماته ، كأنما هو ينشـد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها !

إن العظيم عظيم في كل شيء حتى في أحزانه وآمه ، فلقد كان يخيل إلي وأبوك يبكي بين يدي وينتحب أن كل دمعة من دموعه تستنزل غضب الله على الأرض ، وكل زفرة من زفراته تلتهب بها آفاق السماء .

لقد أكبرت في نفسي جدًا أن يجثو مثل هذا الشـيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة سـاقطة مثلي ، واستحييت من ذلك حياء تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمي فسخت فيها أبد الدهر .

وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفي مصابه ، وفي قصته التي قصها عليّ ، وفي الشأن الذي لي فيها ؛ فعلمت أني قد أصبحت شؤمًا على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أبيها وابنها وابنتها ، فثقلت نفسي عليّ ، وسـمج منظرها في عيني حتى خيل إلي أنها لو كانت حاضرة بين يدي لرميت بها من حالق إلى حيث لا يجمعني وإياها مكان بعد اليوم . ثم قلت في نفسي : إن حياتي الماضـية التي قضـيتها في الشرور والآثام قد قطعت عليّ طريق الشرف ، فلا حق لي في أن أطمع في حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذي اقترفته في ماضي قد أثمته وحدي لابد لي أن أستقل بعبئه دون أن ألقيه على عاتق أحد غيري ، فإن كان مقدرًا عليّ أن أموت موت النسـاء السـاقطات ، فذلك لأنني امرأة ساطقة ، أو ألاقي في مستقبل حياتي شقاء وآلامًا ، فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضي وثمرته الطبيعية .

هنا ذكرتك يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أنا التي سأتولى قتل نفسي بيدي ؛ لأن الطريق التي لا طريق غيرها إلى بلوغ رضـا أبيك وموافاة رغبته ، أن أقاطعك وأغاضـبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة ، وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرف عني انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسي بين فراقك وغضـبك في آن واحد ، وذكرت أن لابد لي متى فارقتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضـها وأمقتها ، لأن الدوق موهان لم يسـتطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتى اليوم ، ولأني في حاجة إلى بسـطة من العيش أسـتعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني ، فدارت هذه الخواطر في رأسي سـاعة ، وطالت دورتها حتى كادت تغلبني على أمري ، ثم وقع نظري على وجه أبيك المخضـل بدموعه فتجلدت وجمعت أمري ومضيت قدمًا لا ألوي على شيء مما ورائي .

لقد كان شــديدًا عليّ جدًا أن أفارقك يا أرمان! ولكن أشــد علي منه أن أرى أباك يبكي بين يدي ، وأن أكون سببًا في موت أختك أو شقائها .

إنني أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس ، ولقد كان يخيل إليّ وأبوك يحدثني عن أختك وشقائها أنني أراها من خلال دموعي طريحة فراشها ، وهي تمد يدها إلي ضارعة متوسلة وتقول : أنقذيني يا سيدتي وارحمي ضعفي و شبابي .. فأجد لكلماتها من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأني .

إنني حرمت في مبدأ حياتي سعادة الزوجية وهناءها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يهيج حزني ، ولا يســـتثير كامن لوعتي مثل أن أرى بين الناس فتاة محرومة الســـعادة مثلي .

إنني أحب وهي تحب ، ولابد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ؛ فلأمت أنا فداء عنها ، لأنها أختك ، ولأنها لم تقترف في حياتها ذنبًا تستحق بسببه الشقاء .

وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هانئة من بعدي وتراءى لي شبحها ، وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل . وســائرة إلى الكنيســة بجانب خطيبها . طار قلبي فرحًا وسرورًا وهان علي كل شيء في سبيل غبطتها وهنائها .

نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدًا جدًا ، لا يقوى عليها قلبي . ولكني سأحتملها بصبر وسكون ؛ لأن أباك سيصبح راضيًا عني . ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سر تضحيتي ، فتحبني فوق ما أحببتني! ولأن أختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبها ؛ وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان .

جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضي ذنوبي وآتيها ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدي .

قمت من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعًا ومشيت إلى أبيك كما يمشي الحائن إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت بيده ، فاســتفاق من غشــيته ونظر إلي ذاهلاً مشــدوهًا . فقلت له : أتعتقد يا سيدي أنني أحب ولدك؟ قال : نعم ، قلت : حبًا هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتمل؟ قال

: نعم . قلت : وأن هذا الحب هو كل آمالي وســعادتي ، وما أملك في الحياة؟ قال : نعم يا بنيتي ، قلت : قد ضحيته من أجل ابنتك فعد إليها وبشرها بسعادة المستقبل وهنائه وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم تترك في يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك .. تموت الآن من أجلك ، فاسألي الله لها الرحمة والغفران .

فتهلل وجهه بشرًا وسرورًا ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إلي فأنساني سروره واغتباطه ألم الضربة التي أصابت كبدي ، واستحال حزني واكتئابي إلى راحة وسكون فحمدت الله على أن لم ير في وجهي في تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واغتباطه .

وهنا شعرت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا «برودنس» تشير إلي بيدها . فذهبت إليها فأعطتني كتابًا جاء به البريد فقرأت عنوانه فإذا هو بخط المركيز «جان فيليب» فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، ووقع في نفسي أن الله قد أوحى إلي بما أفعل ، فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبي كأنني أخاف أن يعرض لي في طريقي ما يزعزع عزيمتي ، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه في بطاقة صغيرة هذه الكلمة «سأتعشى عندك الليلة» ، ثم أعطيتها برودنس لتلقيها في صندوق البريد ، وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته ، فقلت له : إن أرمان لا يعلم شيئًا من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين نلقاه ، و سأكتب إليه كتاب مقاطعة لا يشك في أني صاحبة الرأي فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غدًا أنني قد استبدلت برجل غيره فيرى أنني قد غدرت بعهده فلا يجد له بدًا من أن يسافر معك قاطعًا رجاءه مني ، وربما تألم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيبلى حبي في قلبه ، كما يبلى كل حب في كل قلب ، غير أن لي عندك طلبة واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لي بها؟ قال : نعم أسمح لك بكل شيء ، قلت : إني مريضة مشرفة ، وإن العلة التي أكابدها كثيرًا ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان في اليوم الذي تعلم فيه أنني قد أصبحت على حافة قبري أن يأتيني لأراه وأودعه الوداع الأخير وأعتذر له عن ذنبي الذي أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة .. فنظر إلي نظرة دامعة وقال : وارحمتاه لك يا بنيتي ، إنني أعدك بما أردت ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء .. ثم حاول أن يعرض عليّ شيئًا من المعونة فأبيت ذلك إباء شديدًا ، وقلت له : إنني لم أبع نفسي يا سيدي بيعًا ، بل وهبتها هبة ، فأخذ رأسي بين يديه وقبلني في جبيني قبلة كانت خير جزاء لي على تضحيتي التي ضحيت بها وودعني ومضى .

فما أبعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتي فجمعت ثيابي ، وما بقي لي من حلاي ووضـعتها في حقيبتي ، و سافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبت إلى منزلي هناك فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذي تعلمه ، والله يعلم كم سـكبت من الدموع ، وكم وقف قلبي بين كل كلمة ، وما يليها أثناء كتابته حتى أتممته ، فأعطيته حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم ذهبت للوفاء بعهد المركيز .

أما حياتي مع ذلك الرجل فلا أ ستطيع أن أقص عليك منها شيئًا عليك منها سوى أن أقول لك : إنه لم ير في المرأة التي كان يتخيلها ، ويمني نفسه بها ، ولم أر فيه الرجل الذي يؤنسني ويخلط نفسه بنفسي فافترقنا فأصبحت لا أعرف لي في العالم صديقًا صادقًا ، ولا كاذبًا .

قلبي يحدثني أنني سأموت قبل أن أراك ، وأملي يخيل إلي أن ما في نفسك من الموجدة علي لا يستمر إلا بعد الموت ، وأنك ســتعود إلى باريس في الســاعة التي ينعاني لك فيها الناعي ؛ لتزور قبر تلك المرأة المسـكينة التي تولت سـعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشـأنها أن تحاول معرفة ما تم لها منم بعدك إلى أن أذهب بها الموت إلى قبرها .

فهأنذا أكتب هذه المذكرات ، وأتركها لك عند برودنس لعلك تقرأها في مســتقبل الأيام فتنظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسـه الموت ثوب الطهارة والبراءة فتصدق ما فيها وتعفو عني ، فينير عفوك قبري ، ويؤنس وحشة نفسي .

***

٣ يناير ١٨٥١ :

أين أنت يا أرمان؟ أنت بعيد عني جدًا ، بعيد بجسـمك وبقلبك ، لأنك لم تهمل كتابي الذي كتبته لك ودعوتك فيه لزيارتي وسماع اعترافي الأخير إلا لأن ما كان في نفسك من العتب والموجدة علي قد استحال إلى نسـيان وإغفال ، فأصـبحت لا تذكرني كما يذكر المحب حبيبه ، ولا تعطف علي كما يعطف الصـديق على صــديقه ، فليكن ما أراد الله ولتدم لك تلك الســعادة التي تنعم بها بين أهلك وقومك ، فإني غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شـيئًا ، ولا حاملة لك في نفسيـ إلا الحب والإخلاص والرضـا بكل ما تأتي ، وما تدع .

لي عدة أيام لم أر فيها أحدًا من الناس ؛ لأن الطبيب منعني من الخروج ، ولأن أصدقائي الذين كانوا يعرفونني فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتي بإرسال بطاقاتهم إلي مع خادمتي ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحًا وسرورًا ، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين .

ولا أدري لم لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا زياراتهم؟ فقد كانوا يظنون أنهم سيرونني بينهم في مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلح للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدونني من قبل ، فهم في ظنهم مخطئون .

لقد أحسنوا فيما علموا ، فإنني أصبحت لا آنس بأحد في العالم سوى نفسي ، ولا آنس بنفسي إلا لأني أستطيع متى خلوت بها أن أسائلها عنك فتذكرني بك وبتلك الأيام السعيدة التي قضيتها معك في بوجيفال ، وذكرى تلك الأيام هي العزاء الباقي لي عن جميع ما خسرت يدي .

ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التي أكابدها ، فلقد تمر بي ساعات أعتقد فيها أن الألم الذي أكابده إنما هو ألم النزع ، وأنني في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، فإذا استفقت قلت في نفسي : هذا ألم المرض ، وقد عجزت عنه ، فمن لي باحتمال ألم الموت ؟

على أن نفسي تحدثني أحيانًا أنه إن قدر لي أن أراك بجانبي في يوم من الأيام برئت من مرضي ، وتراجعت نفسي وعدت إلى راحتي وسكوني ، فهل يقدر لي الله ذلك؟

لا أعلم ؛ فالمستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد .

٢٤ يناير ١٨٥١:

لم أفارق سريري منذ أيام طوال إلا صباح هذا اليوم ، فجلست قليلاً بجانب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة العامة فوقع نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين مغتبطين ، ولم أر بينهم من وقع نظره إلى نوافذ غرفتي مرة واحدة كأنما يمرون ببيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل .

ما أشد وحشتي! وما أضيق صدري! وما أثقل هذا الجدار الذي يدور حولي؟

لا أطيق النظر إلى سريري ؛ لأن نفسي تحدثني أنه سيكون عما قليل سلم قبري ، ولا الوقوف أمام مرآتي ؛ لأنها تحدثني عن نفسي أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشراف من نافذتي لأنها تذكرني بحياتي الماضية السعيدة التي حيل بيني وبينها ، فأين أذهب وكيف أعيش؟

لا آكل إلا طعامًا واحدًا ، ولا أرى إلا منظرًا متكررًا ، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخادمتي حينما يسألها عني صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسئمت وأصبحت أشعر أن نفسي سجينة في صدري ، سجن جسمي في غرفتي ، وربما مرت بي ساعات يقف فيها ذهني عن التفكير وخاطري عن الحركة ، وينقطع ما بيني وبين يومي وأمسي وغدي وكل شيء في الحياة حتى نفسي .

السعال يهدم أركان صدري هدمًا ، والنوم لا يلم بعيني إلا قليلاً ، والطبيب يعذبني بمشارطه وضماداته عذابًا أليمًا ، وكل يوم أشعر أن نفسي يزداد ضيقًا ، وبصري يزداد ظلمة ، وأن الحياة تبعد عن ناظري شيئًا فشيئًا ، حتى أكاد أحسبها شبحًا من الأشباح النائية فمتى ينقضي عذابي؟!

***

٣٠ يناير سنة ١٨٥١:

سمعت صباح اليوم لجبًا كثيرًا في فناء المنزل فسألت برودنس : ما الخبر؟ فذهبت وعادت إلي تبكي وتقول : إنهم يحجزون أثاث المنزل يا سيدتي ، فقلت : دعيهم يفعلوا ما يشاؤون ، وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مندفعين متصايحين ، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احترامًا لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوته إشفاقًا على المريضة المعذبة ، فمشوا يسجلون كل ما وقع نظرهم عليه ، وخفت أن يسجلوا دفتر مذكراتي فأشرت إلى برودنس أن تخفيه عنهم ففعلت ،فحمدت الله على ذلك ، ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد الدائنين حجزه ، وقال إنه ثمين ، سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه الحاجز أن القانون يستثني الأسرة وفرشها ، وألقى في أذنه كلمة أحسب أني سمعته يقول فيها : إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها ، ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتي حارسًا لا يفارقه ليله ونهاره ، فكتبت إلى «الدوق موهان» . وهي أول مرة - كتبت إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه . وأشكو له ما نالته يد الأيام مني وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عليه أن يأتي لزيارتي ، ففعل فبكى عندما رآني ، ولا أدري هل بكاني أو ذكر عند رؤية مصرعي ابنته الأخير فبكاها ، ثم قضى

بجانب فراشي ساعة مطرقًا صامتًا لا يحدثني إلا قليلاً ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك في يد برودنس ضمة أوراق استبقت بعضها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر .

لا اسـتطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن الطبيب ما زال يلح على جسـمي بالفصـد حتى أوهاه واستنزف دمه ، فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم .

***

٢ فبراير سنة ١٨٥١:

إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهنؤها ، فقد وصل إلي من أبيك كتاب هذا نصه :

سيدتي :

إني توجع لك توجعًا شـديدًا ، فقد علمت بالأمس من بعض الوافدين إلى «نيس» أنك مريضـة مرضًـا شديدًا منذ شهرين ، وأنك لا تخرجين من منزلك إلا قليلاً ، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيرًا بما قاسيت من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي ، وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يومًا وأصبحت هانئة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وأنها وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصـة التي نعلمها شـيئًا فقد قلت لها : إن بعض الناس - ولم أسمه لها - قد ضحى بنفسه وسعادته في سبيل سعادتك وهنائك ، فلا تتركي الدعاء له في جميع صـلواتك بجزيل الأجر وحسـن المثوبة ، فهي لا تزال تدعو لك صـباحها ومسـاءها أن يحسـن الله إليك كما أحسنت إليها .

أما الكتاب الذي أرسـلته إلى أرمان في أوائل الشـهر الماضي فلم يصـل إليه إلا اليوم لأنه منذ فارقك وسـافر إلى «نيس» لم يسـتطع البقاء فيها إلا بضـعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرـق حزينًا مهمومًا من أجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التي يقيم فيها فلم أسـتطع أن أرسـله إليه حتى عرفتها منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتابًا أطلعه فيه على قصتك وأقول له إنني لا أرى مانعًا يمنعني بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيها ما شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك في عهد قريب .

أرسلت إليك كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبليها مني ، وأن تنظري إليها بالعين التي تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذي يحبها ويجلها ، فإن فعلت أحسنت إلي بذلك إحسانًا عظيمًا .

لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك . وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .

«دوفال»

فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور في قلبي لم اشعر بمثلها مذ فارقتك حتى اليوم فقد علمت أن سو سان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنك لا تزال تحبني وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتبك ، وأنني سأراك عما قليل ، وتلك آمالي في الحياة .

أما الهدية التي أرسلها إلي أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أرادها فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إلي .

***

٣ فبراير سنة ١٨٥١:

استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ؛ لأن السرور الذي تركه كتاب أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبي إنك اليوم خير منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرجي في مركبتك إلى بعض المتنزهات ساعة ، ثم عودي ، فخرجت إلى غابات «الشانزليزيه» فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متهللين مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة مرحومة منها مثلي ، فلم أحسدهم على نعمتهم التي آتاهم الله ، بل دعوت لهم لبقائها ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزنًا شديدًا حينما رأيت أن كثيراً من معارفي الماضين قد مروا على مقربة مني ، ولم يعرفوني ، ورأيت أحدهم ينظر إليّ ، وقد مر بجانب مركبتي نظر المتخيل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عني ومضى لسبيله ، وقد استقر في نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التي يعرفها .

فعلمت أني قد تغيرت تغيراً عظيمًا ، وأن مرآتي ما كانت تكذبني حينما تحدثني عن نحولي وا صفراري ، واستحالة صورتي ، بل صدقتني كما صدقني الناس .

ثم رأيت الشـــمس قد توارت وراء حجابها فعدت إلى منزلي ، وقد زال من نفسيـ ذلك الخاطر الذي أحزنني ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أنني سأراك عما قليل .

وسينقضي بلقائك عهد بؤسي وشقائي ..

***

٧ فبراير سنة ١٨٥١:

ما أحســـب أنك مدركي يا ارمان ، فقد بلغت بي العلة منتهاها وأصـــبحت لا أجد الراحة في قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي ، وكأن حجرًا من الأحجار العاتية ممتد على صـــدري يمنعني التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أتنقل من سريري إلى مكتبي فأمرت برودنس أن تأتيني بمحبرتي ودفتري حيث أنا ، فجاءت بهما إلي ، فأنا الآن أكتب إليك وأنا في فراشي ؛ فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت؟

***

١٠ فبراير سنة ١٨٥١:

أملي في الحياة ضعيف جدًا ، ها هو الموت يدنو مني رويدًا رويدًا ، لم تأت إليّ حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أني ســأموت قبل أن أراك ، إن الموت مخيف جدًا يملأ قلبي رعبًا وهولاً ، لا أعلم كيف أســتطيع أن أسـكن وحدي تلك الحفرة الموحشـة المظلمة التي لا أنيس لي فيها ولا سـمير ، لم أتمتع بالحياة طويلاً وكانت كل ســـعادتي فيها آلامًا وأحلامًا ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شـــيئًا من آمالي وأحلامي ، ما أحلى الحياة وأمر فراقها ، لم أنل منها طائلاً ، ولكني لا أحب أن أتركها ، لقد ســـعد الذين يعمرون في الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صـــالحة أو عملاً طيبًا يعيشـــون به بعد موتهم زمنًا أطول مما عاشـوا ، أما أنا فإني سـأموت في ربيع حياتي ، وسـيموت ذكري في السـاعة التي أموت فيها ، وكأني لم أعش في الحياة يومًا واحدًا ، واأسـفاه على ما فرطت في حياتي الماضـية ، إنني أدفع اليوم ثمن ذنوبي وآثامي أضعافًا مضاعفة ، لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة ولا أمد عيني إلى ما تقصر عنه يدي فلم أفعل ، فهأنذا لا أسـيغ المضـغة ولا الجرعة ، ولا أجد السـبيل إلى العيش على أية صـورة كانت ؛ أهكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتي قريب .. ولا يبكي عليّ صديق؟ أهكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامي ، وآمالي؟ آه لو يمهلني الموت

قليلاً فربما كنت على مقربة مني فأنظر إليك نظرة واحدة .. ثم أموت .. لا أمل لي في ذلك . فقد رأيت طبيبي صباح اليوم يلقي في أذن خادمتي ، وهو خارج من عندي كلمة فسألتها عنها فدارت حولها .. ولم تقلها .. وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة : لا أكاد أبصر شيئًا مما حولي حتى بياض الصحيفة التي في يدي .. كنت قبل اليوم أنفث الدم وحده ، والآن أنفث أفلاذ رئتي مصبوغة بالدم ، من لي بكاس من السم أشربها جرعة واحدة فأستريح من هذا العذاب الذي يساورني ، ولكن أي فائدة لي من ذلك وها هو ذا الموت يمشي- إلي بأسرع مما أمشي- إليه؟ رحمتك اللهم وإحسانك فأنت وحدك العالم بمقدار ألمي وعذابي ، فارحمني وهون علي أمري ، وامنحني إحدى الراحتين .

لا أرى شيئًا ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدي!

***

١٤ فبراير سنة ١٨٥١:

لا تحزن عليّ كثيراً بعد موتي يا أرمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائي فألقى في نفسي منذ الأمس برد الراحة واليقين ، ومحا من قلبي جميع مخاوفه ووساوسه ، فعلمت أنه قد رضي عني ، وغفر لي ذنبي ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده ، ولا أجزع من الألم ، ولا أبكي أسفًا على الحياة ، فلا يحزنك أمري حين تعلمه ، وعش سعيدًا بين قومك ، وأهلك ، وأكرم أبيك فهو خير الآباء وأحبب أختك فهي أطهر الفتيات ، وأوصيك خيراً ببرودنس فهي فتاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لي ولك ، وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدي .

إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحًا أخرى تماثلها وتقابلها .. وتسعد بلقائها .. وتشقى بفراقها .. ولكنه قدر أن تضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى فذلك شقاء الدنيا .. وأن تهتدي إليها في الحياة الثانية .. وتلك سعادة الآخرة .

فإن فاتتني سعادتي بك في الأرض .. فسأنتظرها في علياء السماء .

وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة قد محا الدمع أكثرها فلم يبق منها واضحًا بعض الوضوح إلا كلمة «الوداع» .

■ ■ ■

## بقية المذكرات

## بقلم الخادمة برودنس

**١٣ فبراير سنة ١٨٥١:**

لم تستطع مرغريت يا سيدي أن تكتب لك أكثر مما كتبت .. لأن الطبيب منعها الحركة .. ولو أرادتها لعجزت عنها .

أتذكر يا سيدي ذلك الجسم الغض الناعم الذي كان يموج بالنور موجًا ويشرق وراء بشرته إشراق الخمر في كأسها؟ لقد أصبح اليوم عظمًا مجلدًا وهيكلاً قائمًا لا يساوي ثمن النظر إليه!

وارحمتاه لك .. لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشعورها وليتهما ماتا معها .. فإنها لا يعذبها شيء مثل خواطرها وأفكارها .

لا يدخل من باب غرفتها داخل حتى ترفع نظرها إليه تظن أنك قد جئتها .. فإذا دنا منها ورأته أطبقت جفنيها على دمعة تنحدر من بينهما بالرغم منها .

إنها لا تتكلم كثيرًا فإذا تكلمت كان أول حديثها «ألم يأت أرمان؟» فإذا أجبتها أن لا .. سألت عن أمر آخر تتلهى به .. أو عادت إلى صمتها مرة أخرى .

لقد رابها اليوم أن طبيبها لم يأتها ، فلما أردت أن أعتذر لها عنه لم تصدقني وقالت «الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك بالأمس ، فسكت .. ولم أعرف ماذا أقول» .

***

**١٤ فبراير سنة ١٨٥١:**

أصبح اليوم صوتها ضعيفًا جدًا لا أكاد أسمعه وأظلم بصرها فهي تنظر إلي ولا تراني ، وقد أشارت إلي في الصباح مرارًا أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجري منها الهواء متدفقًا ، ولكنه لا يصل إلى صدرها .

آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياتي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها ، أو بعض سنات من النوم تأوي إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلمني ويعذبني عذابًا شديدًا ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة .

***

١٥ فبراير :

بعد صـــمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها ونادتني بصـــوتها الخافت الضـــعيف ، فدنوت منها ، فقالت لي أريد الكاهن فأتيني به ؛ فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ، فغالبت عبراتي حتى خرجت من الغرفة فبكيت ما شـاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له ا سم المرأة التي يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه ، وقلت له : إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين ؛ فأذعن بعد لأي وجاء معي فخلا بها ساعة ثم خرج ، فسألته :

أيرحمها الله يا سيدي؟ قال : إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين ؛ فحمدت الله على ذلك .

ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى عضوًا من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان في صدرها يترجح بين الصعود والهبوط .

***

١٥ فبراير - ساعة الغروب :

إن مرغريت تتعذب كثيراً يا سيدي ، وأحسب أنها تعالج سكرات الموت .

لم يقاس إنسان في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها .

إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تذوب لها حبات القلوب .

ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تســقط عنه ، فأدركتها وأضــجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فســقطت منهما دمعتان كبيرتان ، وكأنما أحســت بي فاعتنقتني وضــمتني إليها ضــمًا شــديدًا ، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزاعها وجهادها .

***

١٥ فبراير - نصف الليل :

قضي الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جثتها التي ستذهب غدًا إلى قبرها ، تلك غايتها وغاية كل حي ؛ فصبراً على قضاء الله وبلائه .

لقد هتفت با سمك كثيراً يا سيدي في ساعتها الأخيرة .. وكان آخر عهدها بالحياة أن نظرت إليّ نظرة طويلة مملوءة حزنًا ودموعًا .. ثم حركت إصـــبعها حركة خفيفة وأشـــارت إلى دفتر مذكراتها الذي كان ملقى بجانبها وقالت : «أرمان» ففهمت أنها توصيني أن أبلغه إليك .. ثم أسلمت روحها .

عزيز علي يا ســـيدتي ما لقيت من العذاب قبل موتك وعزيز علي أن تموتي ، ولا تجدي بجانبك من يغمض عينيك ويلقي رداءك عليك سواي ، وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما حملت في حياتها شرًا لمحسن ، ولا لمسيء ، وذلك الصدر الرحب الذي كان يسمع الدنيا برضها وسمائها .. فلا يضيق عنها ، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما أضـمر في حياته غير الخير أو الإحسـان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان .

***

بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت ، ثم أنارت حولها الشموع وبعثت إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه ، ومشت هي إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها ، ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شـبحًا مائلاً على باب الغرفة . فمشـت إليه فإذا هو أرمان في لباس الســـفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبة هائلة كتلك النظرة التي تســـبق صرعات الجنون ، ثم اسـتردها وألقاها عليها وسـألها : من هذا المسـجى على هذا السرـير؟ فبكت برودنس ، ولم تقل شيئًا ، فسقطت حقيبته من يده ، وجمد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك .

ثم اندفع إلى سرير الميتة صـــارخًا يريد أن يلقي بنفســـه عليه ، فأدركته برودنس ووقف الكاهن في وجهه ، وقال له : احترم الموت أيها الفتى ، فاختنقت عبراته في صـــدره وارتعد ارتعادًا شـــديدًا وســـقط مغشيًا عليه ، فلم يستفق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير ، وقال : «رحمة بي أيها الناس ؛ فقد فاتني أن أودعها ، وهي حية ، فأذنوا لي أن أودعها ميتة فرحموه وأفرجوا له عنها حتى دناها ، ورفع الغطاء عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال : «الوداع يا أعز الناس عندي ، الوداع يا خير فتاة في الأرض وأشرف روح في السماء» ، ثم أعاد الغطاء على وجهها ، وتراجع عنهم وآذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب ، ولم يمش وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق موهان ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقول في ندبه وبكائه : هأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى ، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة بائسات من ضحايا تلك المقادير .

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت رهينة قبرها وأرمان طريح فراشه يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الثاكل المفجوع .

ثم اشتد به المرض بعد ذلك فلم تر بودنس بدًا من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ولبثوا بجانبه شهرًا يعللونه ويستشفون له حتى أبل ونجا من خطره . ثم ذهبوا جميعًا إلى قبر مرغريت ليودعوها قبل سفرهم فبكوا حوله بكاء شديد ، وكانت سوسان أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي المرأة التي ضحت بنفسها في سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوفال إلى ولده وقال له : أتغفر لي ذنبي يا بني؟ قال : نعم يا أبتاه لأنها غفرت لك ذنبك إليها ، ثم انصرفوا .

***

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات مسيو دوفال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ؛ ولكن بقيت بين جنبيه لوعة معتلجة لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها وزيارة قبرها من حين إلى حين .

فهرس الموضوعات

## فهرس العبرات



■ ■ ■